العسكرية المصرية

من طرد الهكسوس إلى طرد اليهود

محمد عبد الواحد حجازى



ت: ٠٣/٥٣٥٤٤٣٨ اسكندرية

العسكرية المصرية

من طرد الهكسوس إلى طرد اليهود

العسكرية المصرية

من طرد الهكسوس إلى طرد اليهود

أ. محمد عبد الواحد حجازى

كمبيوتر: دار الوفاء

الطباعة: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

شارع ملك حفنى، قبلى السكة الحديد

بجوار مساكن دربالة أمام بلوك ٣

الرقم البريدى: ٢١٤١١ فيكتوريا - اسكندرية

رقم الإيداع: ١٩٧٨ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولى: 7 - 032 - 327 - 977

العسكرية المصرية

من طرد الهكسوس إلى طرد اليهود

أ. محمد عبد الواحد حجازى

الناشــر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

ت: ٥٣٥٤٤٣٨ - اسكندرية

" ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين "

قرآن كريم

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم

"إذا فتح الله عليكم بعدى مصر فأتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك الجنـــد خيـــــر أجناد الأرضِ . قال أبو بكر رضى الله عنه.ولم ذلك يا رسول الله ؟ قـــــال : لأنهم فى رباط الى يوم القيامة."

قال عبد الله بن عمرو رضى الله عنه : قبط مصر أكـــرم الأعـــاجم كلـــها ، وأسمحهـــم يدا وأفضلهم عنصرا وأقربهم رحما بالعرب عامـــــة وبقريـــش خاصة. ومن أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى مثلها فى الدنيا فلينظر إلى مصر حين يخضر زرعها وتنَور ثمارها "

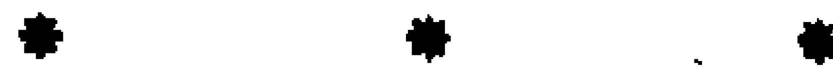
المقدمة

مصر هى حاضرة العالم وأم الدنيا كما اعتاد أبناء وطننا على هذه التسمية وما كانوا فيها مبالغين ولا واهمين.. ولكنه الواقع التاريخى الذى عرفه العالم كله منذ فجره الأول إلى اليوم.

وإذ تكون مصر هى حاضرة العالم، أو أم الدنيا فإنه لأمر منطقى أنها لم تحظ بتلك المكانة لصولة عسكرية أو دكتاتورية عسكرية غشوم فرضتها على نفسها ثم بسطتها على من حولها .. إنما حظيت بها لأنها أمة سلام، سعت إليه وحققته فى دائرتها الحضارية الكبيرة، وهى الأمة العربية بشعوبها وحضاراتها وعقائدها وتقاليدها.

هكذا كانت الرسالة العسكرية المصرية الفرعونية، فقد تقدمت جيوشها نحو الشمال والجنوب والشرق والغرب، تبسط سلطانها على من حولها من شعوب تلك المنطقة فكان أن ألفت منها إمبراطورية عظيمة سواء فى عصر تحوتمس الثالث وخلفائه، ورمسيس الثانى وخلفائه .. فكانت الإمبراطورية المصرية خيراً على من انضوى تحت لوائها فزاد التواصل الحضارى بينها: ثقافة وفنا واقتصاداً فضلاً عن التآخى الروحى فقد كان هناك شبه وحدة دينية فكان الوئام هو عماد العلاقات بين شعوب تلك المنطقة العربية حتى أن الكثيرين من أبنائها تسموا بأسماء مصرية وعبد والآلهة المصرية فى شكل من أشكالها ..

حتى إذا ما وقعت مصر والأمة العربية تحت طائلة الحكم البطلمى ثم الرومانى فقد توارت العسكرية المصرية وأرغمت على أن تتصرف الى شئون أخرى غير الحرب والقتال .. غير أن التوارى لم يدى طويلا إذ سرعان ما أصاب الضعف الدكتاتورية العسكرية الرومانية وجرى عليها ما جرى على غيرها إبان فترات الانحلال وغياب القيادة بل غياب الهدف الأسمى الذى تنشده القوة العسكرية وتقاتل فى سبيله ..



* * *

ثم فتح الله على مصر بنعمة الإسلام .. وهنا حدث انقلاب جذرى فى العسكرية المصرية، فقد أصبحت لا تقاتل إلا من أجل كلمة الله إحقاقا للحق وذوداً عن كرامة الأمة وحرية الإنسان .. وفى غفلة من القيادة الإسلامية سواء فى مصر أو فى العالم العربى فإن الصليبيين تسللوا إلى الشام وتمكنوا من تكوين إمارات مستقلة فيها فصار الخطر الصليبى على الأمة الإسلامية مؤكدا لا سبيل إلى التغافل عنه أو التهاون معه ولكن يجب مدافعته ودفعه بل قهره وإرغامه على الرحيل من أرض الإسلام .. فكانت الحروب الصليبية التى استمرت أمداً طويلا حتى تحقق النصر باندحار الصليبيين وجلائهم.

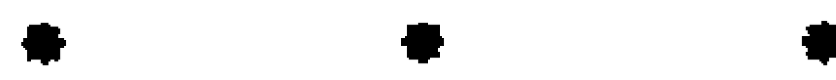
ونلاحظ هنا أن مصر وحدها هى التى تحملت عبء راية الجهاد فكان أمراؤها سواء أكانوا من المصريين أو الأكراد أو الأتراك أو العرب يؤمنون بأنهم يقاتلون لا ذوداً عن مصر وحدها بل الأمة العربية بأسرها .. بل كلمة الإسلام قبل كل شئ .

وهكذا قامت مصر بما فرض عليها أو فرضه قدرها عليها من لم شمل الأمة العربية وحمايتها من كل معتد ..

ثم وقعت كارثة الاستعمار العثمانى ففقدت مصر استقلالها ولكنها لـم تفقد وعيها التاريخى ولذلك فإنه بعد أن ضعفت القبضة التركية فإن العسكرية المصرية نهضت بتبعاتها فكان أن قيض الله لمصر "**محمد على باشا**" فأنشـأ جيشا مصريا حديثا تمكن به من أن يستعيد وحدة الأمة العربية من الخلافـة العثمانية وأن يثبت لأوربا أن الجيش المصرى يضارعها فـى العسكرية .. فكان أن خشى الاستعمار الغربى على مصالحه .. فماذا يصنع بعد أن احتـل مصر وتمكن من استعمار الوطن العربى ؟

لقد تواطأ مع الصهيونية العالمية على زرع إسرائيل فى قلب الأمـة العربية ليستديم بها احتلال الوطن العربى بأسره ولكن على نظـام جديـد .. ولهدف جديد ..

ونشبت الحروب بين إسرائيل والأمة العربية وتحملت مصر المسئولية وصبرت مصر على **هزيمة ١٩٦٧**، فقد أخذت تعد جيوشها إعـداداً كـاملاً شاملا ثم باغتت العدو الإسرائيلى بهجوم حققت به النصر فى **السادس مـن أكتوبر سنة ١٩٧٣** وذلك بفضل رجالها الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ..



تلك قصة العسكرية المصرية منذ فجر تاريخها .. لم تتـهاون، ولـم تتوان .. ولكنه الصمود والجسارة وكلمة الشهادة ..

وذلك ما نقدمه فى كتابنا:

" **العسكرية المصرية .. من طرد الهكسوس إلى طرد اليهود** "..

وإننى لأرجو أن أكون قد وفقت فى هذه الدراسة التاريخية .. وفقنـا الله جميعا إلى ما فيه خير مصر ، وخير أمتنا العربية ؟

محمد عبد الواحد حجازى

الفصل الأول

الشخصية المصرية

قيم حضارية

تختلف طبيعة الشخصية الإنسانية من موطن الى آخر من مواطن التواجد الإنساني الحضاري .. فهل الشخصية الإنسانية من صنع البيئة أم ان البيئة الحضارية من صنع الإنسان ؟

ومثل هذا التساؤل قد يبدو ساذجاً ، ولكن الواقع التاريخي الحضارى للإنسان يؤكد أن هناك اتصالا فعليا بين الطرفين . فالإنسان ابن بيئته ما فى ذلك شك والبيئة الحضارية من صنع الإنسان . وفضلاً على هذا فلكل منهما إمكاناته وحدوده وقيوده . ولئن كانت الإمكانات الإنسانية مما يصعب تحديدها ومعرفة نوعياتها وخصائصها وما يمكن ان تسفر عنه أو تؤدى إليه فإنها هى الأخرى محكومة تاريخياً بالفترة الحضارية التي توجد فيها ظاهرة من ظواهرها أو فكرة من أفكارها أو مصنوع من مصنوعاتها .. فالإنسان الفرد حين يقبل على بيئته فهو إنما يقبل عليها بميراث حضارى تجريبي بلغه بفكره أو أفكاره وبعمله أو أعماله . وبفضل هذا الميراث الحضارى الذى هو أبدا فى تطور متصل وإن كان ميراثا فإنه فى التطور المترقى يأخذ سبيله ومنهجه بإمكانية جديدة ونظرة جديدة وتجربة جديدة ، ونتيجة نافعة جديدة.

ومن ثم فلا يصح أن نرجع الحضارة إلى الفرد أو البيئة وحدها. وكذلك لا نستطيع أن نرجع الشخصية الإنسانية الحضارية إلى الإنسان وحده أو إلى البيئة وحدها .. ونود أن ننبه هنا إلي أن الكثيرين يعتبرون أو يعتقدون أن مفهوم البيئة يعنى المادة الغفل أو "**المادة الخام**" كيفما كانت



طبيعة هذه المادة حتى ولو كانت موجة كهرو مغناطيسية أو كانت موجة إلكترونية ..

والتنبية هنا يأتى من ان هذه المادة الغفل هى فى ذاتها ذات قوانين خاصة بها ، وحياة خاصة بها وتأثيرات وانطلاقات خاصة بها . ومن ثم فالانسان يصطنع هذه الخواص فيما يفتح له من أفاق الحياة فيزيد من الفوائد التى يجنيها ويرتقى بمعيشته كما يرتقى بأفكاره وتطلعاته .

والحق أن الشخصية الإنسانية الحضارية إذ هى ثمرة تلك الأعمال العضوية الإبداعية والتأصيلية فإنها تختلف بين الأمم والشعوب بحيث تكون لكل أمة شخصيتها الإنسانية الحضارية المتميزة. ولا ريب فى أن تتمايز الشخصيات وتختلف حتى ولو كانت تشترك مع جيرتها من أقاليم أخرى قريبة منها فى مقومات حضارية واحدة ، غير أن هناك أمة من بين أمم العالم قاطبة تختلف اختلافا بينا ، وإنها للأمم المصرية ومن ثم فإنها لحكمة فلسفية وشعبية أن توصف مصر بأنها : " أم الدنيا " وتلك حقيقة لا سبيل إلى إنكارها أو التقليل من شأنها أو التغاضى عنها .. فكيف تبوأت مصر تلك المكانة العالمية والكونية ؟ أو ما هى المقومات التى حققت ، ولا زالت تحقق لمصر هذه المكانة ؟ وما هى المفتريات التى افتريت عليها أو التى اتهمت بها من أوجه شتى حتى صارت وكأنها من التقاليد المتداولة بين عامة الناس ؟

وكمسلمة أولية وضرورية يمكن القول " إن الفردية[1] العارمة Rugged Individualism واستقلال الشخصية ونمو روح المقاومة والتمرد التى يمكن ان تشجع عليها السكنى المبعثرة فى البيئات الجبلية أو الوعرة فلم تعرفها مصر .. وحتى العزب التى ظهرت أخيراً جدا منذ قرن ونصف قرن لا تمثل سكنى مبعثرة بمعنى الكلمة" .. إذن فكأن الفردية التى على تلك الصفة

[1] كتاب : "شخصية مصر" ، تأليف د/ جمال حمدان، الناشر: دار الهلال سنة ١٩٩٣، صـ٧٠.

الحادة مما لم تعرفه مصر فى تاريخها كله . ولكن الإنسان المصرى خضع للطبيعة الفيضية التى تقوم عليها البيئة المصرية وتجسدت فيها تجسداً حضارياً . وهنا يتصور البعض ن تلك الخصائص النفسية والوجودية التى خلقتها البيئة المصرية فى الكيان المصرى قد جعلته على شاكله أخلاقية وسلوكية وفكرية مبرأة من خصائص الفردية العارمة ، فقد انعدمت لديه : "روح[1] المبادرة وزمام المبادأة فضلا عن روح المغامرة . وينتهى الفلاح فى النهاية إلى جهاز استقبال وخضوع " .

وكان على صاحب هذا الرأى أن يتريث قليلاً ويصطنع نظرة أكثر دقة وأكثر حصافة وأكثر إنصافا "**فالنظام والوداعة والاستقرار**" لم ينشأ من فراغ ذلك لأن روح المقاومة والتمرد مما يتطلبه النظام .فلا نظام بغير شخصية قادرة على إرسائه وإقراره ولا نظام بغير موجب للنظام . فإذا أكدنا نظاما فإنما عن شجاعة واقتدار وإنما ذلك عن تدبر وتفكر وكذلك عن اصطناع الوسائل لاقراره وتأكيده وصيانته

وليس من الازم أبدا أن يكون إقرار النظام واصطناع روح المغامرة قائما على البدن واصطناع فروسية السلاح بل إن هناك مغامرة فى الفكر ومغامرة فى إقرار النظام ومغامرة فى أن تسود الوداعة والاستقرار. وعلى هذا فلن يكون الفلاح : "**جهاز استقبال وخضوع**" لأنه إذا وصل إلى هذه الحالة فلن يزيد عن كونه آلة صماء خلت من الشعور . خلت من حيوية الحياة ، خلت من التفكير تؤدى أعمالها فى آلية خالصة . على أن تلك الصفات والمزايا الأخلاقية التى يجدر بالبيئة الفيضية أن تعلمها - وعلمتها بالفعل حينا - لم تلبث أن انحرفت تحت البطش والطغيان الإقطاعى ، وفى ظل انتخابه الاجتماعى المعوج إلى نقائضها . إذن فكيف ينقلب الأمر إلى

[1] نفس المرجع ونفس الصفحة.

النقيض؟ كيف يصير أصحاب الأخلاق الكريمة السامية الأصيلة إلى ما يناقض تلك الصفات المحمودة التى لا قيام لمجتمع بدونها ؟ كيف تنهار تلك القيم هكذا مرة واحدة ؟ كيف تصبح الأمة التى كان النظام عمادها والاستقرار صفتها والوداعة من خصائصها إلى " جبن واستكانة وسلبية وروح التعاون التى تربط السكان أصلا ضد العنصر، تحولت الى محسوبية ومحاباة كما انقلبت إلى الأخذ بالثأر .. وأما المزاج الإنطلاقى Extravert، الذى غذته بيئة القرية النووية فتدهور الى تزلف ورياء وسعى لدى السلطان وكذلك الى روح السخرية المريرة المشهورة ؟

وهكذا فى غمضة عين انهارت الأخلاق المصرية ولم يبق منها ما يمسك كيانها ويحفظ بنيانها .. ولو أن الأمر صار على ما زعم الزاعمون بهذا الرأى لانقلبت الأمة إلى دائرة من التناحر الأنانى الخبيث الذى لا يرجى له صلاح ولا يرجى منه فلاح . ولعل كاتب هذا التصور كان يردد عن اقتناع ما قاله المؤرخون العرب ..يتمثل ذلك فى قوله :" ولقد أسهب المؤرخون[1] العرب فى سرد هذه الخصائص بما لا يدع مجالاً للشك فى جديتها . فكانت العرب تقول بأسلوب العصر : قال العقل أنا لاحق بالشام فقالت الفتنة وأنا معك ، وقال الشقاء وأنا لاحق بالبادية فقالت الصحة وأنا معك ، وقال الخصب أنا لاحق بمصر فقال الذل وأنا معك" .

والمقريزى يذكر من بين الصفات التى تغلب على أخلاق المصريين: " الدعة والجبن وسرعة الخوف والنميمة واسعى[2] الى السلطان" .. ويقول ": ولهم خبرة[3] بالكيد والمكر وفيهم بالفطرة قدرة عليه، وتلطف فيه حتى صاروا مضرب المثل فيه بين الأمم" .. فهل ما ورد من أولئك

---

(1) كتاب المقريزى: "المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار"، القاهرة، حـ١، صـ ٧٩ – ٨٠.

(2) ، (3) المرجع السابق صـ ٧١ ، ٧٨ ، ٨٠ .

المؤرخين صحيح ؟ هل هو صحيح فعلا ؟ إننى حين أطلق حكما على أمـــر من الأمور فعلى أولا أن أعد حيثيات هذا الحكم ، وقبل أن أعد الحيثيات فعلى أن أختلط بملابسات القضية اختلاط معايشة فوق اختـــلاط التدبـــر والتفكـــر وإرجاع الظواهر الى بواعثها وأسبابها .. ثم بعد هذا استخلص النتـــائج ثـــم أصوغ الحيثيات . وبغير هذا المنهاج لا يمكن ان يوصف المؤرخ بأنه مؤرخ لأن التاريخ ليس مجرد سرد ظواهر أو وقائع، وليس ترديد الشائع المفترى أو الشائع المزعوم أو تحكيم ما يقابلنا فنجعل منه الحق الذى لا يداخلـــه بـــاطل. والحقيقـــة التى تدحصن كل تقول والحق التاريخى الذى لا شبهة فيه والذى لا يستطيـــع التاريخ أن ينكره ، بل إنه يستشهد به ويشهده أن ذلـــك لا يعطـــى حجة قويـــة على أن المصرى ما خلق إلا للعبودية عليه أن يعيشـــها وهـــو راض قرير العين . أما إن أراد لنفسه متنفساً فمتنفسه ذو جـــانبين : الجـــانب الأول هو إنجاب الأبناء ، والجانب الثانى أخروى أو دينى .. فلذة المصـــرى الوحيدة تتجسد فى إنجاب الأولاد . وهذا الجانب صحيح ولكنه ليس صحيحـــاً عند المصرى وحده . فكل إنسان فى الوجود يطمع فى أن يكون لـــه أبنـــاء ويحـــرص على تربيتهم ليكونوا عونا له وسندا ، وليكونـــوا عـــدة لـــه فـــى مواجهة أعباء الحياة حتى ولو كانوا من الأغنياء الموسرين الذين لا يشغلـــهم شاغـــل تدبير المعاش واكتساب المال . وفضلا على هذا فالفلاح المصـــرى فى حاجة فعلاً إلى كثرة الأبناءِ ذلك لأن صناعة الفلاحة شاقة وعنيفة تحتاج الى مجهود كبير وسواعد كثيرة لتذلل العمل وتنجزه .. ومع هذا كله فلعل من الأصوب أن نقول إن اللذة الجسدية كـــانت العمليـــة النفســـية والبيولوجيـــة والسلوكية الوحيدة التى يجد فيها المصرى السعادة والسرور والبهجة والهناء فكل إنسان يحب تلك اللذة ويشوقه أن يمارسها وأن يستغرق فيها ..إذن فليس المصرى أو الفلاح المصرى هو الوحيد الذى زينت فى فطرته حب النســـاء والبنين

أما الجانب الثاني فهو الدين وفيه يقول أحد الباحثين فى تمحيص دقيق أووعى محيط شامل وقادر على التعليل الصائب السليم " فمن ناحية[1] بحث الفلاح عن التعويض عن الحياة فى الحياة الأخرى فكان الدين ملجأه ومهربه ، ومن ناحية أخرى كانت الحياة الجديدة تعويضا عن الحياة الجيدة . وهذا فى حد ذاته كان من عوامل ارتقاء الخصوبة البيولوجية وضغط السكان المزمن فى مصر ".

أما أن يكون الدين هو الملجأ والمهرب فهذا يدل دلالة واسعة على أن الباحث " العبقري " لم يفهم الدين من لدن الفرعونية الأولى حتى الإسلام .. فقد كان للدين دور كبير إبان ازدهار الحضارة المصرية القديمة وفى مراحل سلطانها الأكبر إبان الازدهار الإمبراطوري .. كان له أثر فى حياة المصري القديم فى سلوكه وآدابه وأخلاقه وعلاقاته بزوجته وأسرته وتربيته لأولاده واحترامه لآلهته وأصحاب السلطة فى دولته بل كان له أثره فى تطلعه الفكري والعلمي والفني وإبداعه فى الفكر والعلم والفن . ولم يقل أحد أن هذه الاهتمامات تخلت عن المصري (الفلاح) حتى فى أحلك عصوره التي خضع فيها للقوى الأجنبية فإنما هو إنسان يأخذ بملامح الظواهر بغير أن يتفحصها ويمحصها ويرجعها إلى أسبابها وبواعثها . فإذا جئنا إلى الإسلام الحنيف فقد حفظ منه المصري (الفلاح) قوله سبحانه: " وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنين " وقوله تعالى : من كان يريد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ".. وسعى الآخرة هو أن يكون عمل الدنيا بشريعة الحق سبحانه وشريعة الحق بناء وإعمار ، وعدل وإنصاف وحرص على أن يتحقق العدل والإنصاف .. بهذا أمره ربه وأمره دينه وحث عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

---

[1] كتاب "شخصية مصر" ، تأليف د/ جمال حمدان ، صـ ٨٥

اما إن لجأ المصري (الفلاح) إلى المصانعة والمهادنة فانما هو من باب التقية والحذر ومن باب المطاولة والمخادعة .. وتقوم الآية الكريمة أمامه هداية وتبصيرا وإرشادا . فيقول سبحانه :" وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خيرا لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شرا لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون" .. فذلك هو المعيار الذي يحتكم إليه المصري (الفلاح) فيما يعمل ويصنع وفيما ينتظر ويستقبل، وإنه لزاد للإرادة يقويها ويدعمها ويرسخ أصولها .. وفي هذا يحتفظ الإسلام للإنسان بنبض الإرادة القوى الجسور والقادر على مباغتة الباطل فإذا هو زاهق . وفي هذا يعي المصري (الفلاح) قول الرسول صلى الله عليه وسلم ": من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان ".

فقلب المصري (الفلاح) لم يمت ولن يموت فالإسلام يحتفظ له بالحيوية وإرادة التغير الذاتي التي لا يستطيع الطغاة أن يقضوا عليها أبداً .. وهنا يأتي قوله تعالى: "**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**" ، فيؤمن بها المصري (الفلاح) إيماناً لا توهن منه الأحداث ولا تضعفه الأزمات ولا يوئسه امتداد عصور الظلام أحقابا بعد أحقاب .

ولقد نشأ عن ذلك الوهم ، وهم اصطناع الدين الملجأ والمهرب عدة مفتريات أطلقها المستعمرون وروجها دعاة الثقافة الغربية والسائرون في ركابهم من المخدوعين بها بغير أن يبذلوا أي جهد في التفكير القويم السليم .. أول هذه المفتريات أن الأمة المصرية قد كتب عليها أن تظل محكومة بغير أبنائها ومن ثم فهي لا تأبه بمن يحكمها من الغرباء ولا بمن يغير عليها من الأجانب المغامرين فإذا فحصنا هذه الفرية وجدنا أنها لا تثبت طويلاً أمام أبسط الحجج فضلا عن أقواها وأعمقها . ففي شتى أمم العصور القديمة شرقيها وغربيها لم يكن هناك كبير اهتمام بمن يحكمها ولم تكن تعبأ بمن يدهمها من الغرباء الذين يطرقونها بجحافلهم وأسرهم . فعاشت من ثم



عصورها وهى تتقلب بين غالب ومغلوب حتى لم يعد فى إمكانها أن تميز بين أبناء البلاد الأصلاء وبين الوافدين الغرباء. حتى إذا مرت على أجيال الوافدين بضع سنين لم يكن من الميسور إن لم يكن من المستحيل أن نفرق بين ابن البلد الأصيل والوافد الدخيل فكلهم وطني بل كلهم مصري. ولقد كان هذا هو المبدأ الأخلاقي الاجتماعي الذي يؤمن به أبناء الشعوب المقهورة أو من عاشروهم من أبناء البلاد الأخرى .. فلم يكن يبالون - هؤلاء و هؤلاء - بمن يحكمهم لأنهم مغلوبون على أمرهم أو مقهورون فى الحالين . ومن ثم فقد كان الشعب المصري يصابر الحاكم فى كلتا الحالتين . حتى إذا تجاوز الحد فى بغيه وظلمه بما لا طاقة له به انقلب عليه يناصر عدوه ويمكنه من الحكم سواء أكان من الغرباء الأجانب أم كان من المواطنين الأصلاء . وهذا يدعونا الى أن نقول إن فكرة الوطنية بمفهومها الحديث لم تنشأ إلا حين ظهرت فكرة الحكم بالحق الذى هو فى نفس الآن حكم لـ ـه خير المحكومين .. فاختلفت من ثم الفكرة الرائجة والتي فحواها أن الحكم لمن تمكن من الغلبة بفضل ما له وسلاحه والى هذا يرجع السبب فى تريث الإنسانية كثيرا قبل أن تبلغ الديموقراطية أو الوطنية غاية نضجها .

ومن هنا فقد أصاب الضر الأمم جميعا بسبب ذلك التريث الذى لم يكن لها يد فى صنعه.

ولو أننا تصفحنا تاريخ الدول الغربية والشرقية ولا سيما تلك التي قامت بها ممالك لها عروشها ولها سلطانها فإننا لا نقع على شعب واحد برء من سطوة الأجنبي أو لم تتغلب فيه أسرة بعد أسرة من الذين كانوا يفاجئونه بالضراوة مرة أو باصطناع التودد والرفق مرة أخرى .. ومما تميزت به الأمة المصرية على الكثير من الأمم فى هذه الخصلة أن الدخيل الأجنبى الذى كان يتغلب عليها ويحكمها كان يسارع باصطناع دينها ويتخلق بعاداتها وطباعها وما كانت تحتفل به من مراسم وطقوس .. وأكثر من هذا فقد كان

يحتفظ بما يحوزه من مال فى أرضها ولا يفكر فى أن ينأى به فى عاصمة أخرى يطمئن إليها ويثق بها . فإن اصطنع هذه السياسة عادة له ومنهاجا بغير أن يخامره توجس أو ارتياب مكن له فى أرضها وطالت ايامه فيه . ساست حكومته فى أرجائها وكل نواحيها . أما إن سلك فيها غير هذا المسلك وحكمها على غير ذلك المنهاج فإن هى إلا سنوات ثم تتقلب عليه انقلابا يزيحه من على صدرها وتقتلعه اقتلاعا" من أرضها وبذلك تقضى عليه وترجعه الى الأرض التى منها أغار واعتدى .

ورب سائل يقول : فلم إذن أشيع عن المصريين أنهم أمة سريعة الخضوع للسيطرة الأجنبية حتى قيل عنها إنها " لمن غلب " ؟

لقد شاع هذا الأفتراء وذاع لأن المصريين أمة لها تاريخ متصل بأرجاء العالم كله شرقية وغربية ، وبتاريخ الحضارة كلها قديمها وحديثها ولذلك فهى بأحداثها ووقائعها تشغف الناس أجمعين فشعوب العالم قاطبة تبحث عن أخبار مصر ، أو كما يقال : تتنسم أخبار مصر . فهى فى شغلان متصل بأخبارها فى الوقت الذى قد لا تهتم فيه بأخبار وطنها وما يجرى به بين الحكام والمحكومين من صراعات ونزاعات وكوارث تصيبهم على فترات تطول أو تقصر . لكن من أية مصدر تستقى تلك الشعوب أخبار مصر؟ من ذا الذى يتعهد بتوريدها لهم ، إن أجيز هذا التعبير؟

ما كان يتعهد بتلك المهمة سوى الأعداء الذين يبغضون مصر بغضا شديدا ويلصقون بأهلها افتراءات ليست من الصواب فى شىء .. والشعب المصري فى خلال ذلك كله لم يكن يعير تلك الافتراءات والأكاذيب أهمية تذكر . فحسبه مشاغله التى لا تترك له فرصة لتصحيح أخباره فى أسماع الغير وإثبات كذبها وإغراضها المقصود لأن ذلك لم يكن معروفا أنئذ ثم أصبح اتجاها سياسياً ، وقومياً جديداً فيه يتصدى أبناء الأمة فى تبديد ما ران على آذان الشعوب المحيطة بمصر من دعاوى كاذبة .

ومن الشعوب التى نقمت على مصر والمصريين ، الشعب اليوناني فى تاريخه القديم ..فاليونان كانوا يحسون مبلغ الترفع والكبرياء والشموخ الذى يعاملهم به المصريون الذين كانوا ينظرون إليهم على أنهم احط الشعوب فى مراتب الاستنارة والحضارة .. ولعل اليونان كانوا يدركون سر هذا الإحساس المصري ، فالمصريون كانوا ينقمون على اليونان مناصرتهم لبعض الفراعنة الذين استولوا على الملك عنوة بمناصرة من مرتزقة اليونان الذين يدعمون ويساندون عروش الفراعنة المغضوب عليهم من الشعب المصري .. وفى مقابل ذلك كان اليونانيون يروجون لأنفسهم بأن الفراعنة يستعينون بهم فى حروبهم ضد شعوبهم ، وضد من حولهم من الممالك الأخرى تحت ذريعة أن المصريين لا يصلحون للقتال وليست لديهم طاقة على احتماله واحتمال تبعاته ..

وهذا بهتان من اليونان شجعهم عليه الملوك الفراعنة الذين اغتصبوا العروش من أصحابها بالتآمر والغدر . ومن ثم كان إحساس أولئك الملوك بأن الشعب يمقتهم وينقم عليهم فهو متربص بهم متحفز للانقضاض فى أية لحظة . ولذلك كان الملوك المغتصبين للعرش يخشون أن يتمكن أبناء وطنهم من القوات المسلحة فينقلبوا عليهم . وهذا هو السبب فى أنهم استكثروا من مرتزقة اليونان حماية لعروشهم وذوداً عن وجودهم .. ثم ازدادت الاستعانة بجند اليونان عندما داهم الفارسيون أرض مصر بل ازداد تقرب الفراعنة من اليونان بالمداهنة والمجاملة فكانوا يغدقون عليهم بالكثير من المال لترميم معابدهم فى مصر ويقيمون الجديد منها إلى جوار المعابد المصرية .. وبذلك ازداد المصريون مقتاً لليونان ولفراعنتهم مما جعلهم يضعونهم تحت رقابتهم لعلهم يتمكنون من القضاء عليهم بغتة . ومن ثم صبوا لعنتهم على أولئك المرتزقة وعلى من اصطنعوهم من الفراعين الخائنين ،



ونعتوهم بأقذع النعوت وامتنعوا عن مساكنتهم والتعامل معهم ومؤاكلتهم وأكثر من هذا فإنهم عابوهم فى شجاعتهم وإخلاصهم الذى يزعمونه لأنفسهم.

الا أن استخدام الفراعين للمرتزقة لم يكن بدعة لصقت بمصر وحدها فالجيوش الفارسية وجيش ساموس كانوا يستخدمونهم فى هذه المرحلة عينها أى التى استعانت فيها مصر بالمرتزقة .. وعلى هذا فليس من الصواب ولا من العدالة فى شئ أن نجعل من وجود المرتزقة فى الجيش المصرى حجة على القدرة العسكرية المصرية ، أو حجة على الشجاعة المصرية والجسارة المصرية فى مواطن الابتلاء والقتال . ولكنه افتراء الحقد والنقمة زينه المؤرخون اليونانيون لأنفسهم للنيل من مصر شعبا وجيشا وقيادة بغية الإيقاع بالإدارة المصرية وبغية التشويش على جيش مصر فى العالمين .. ومن هنا فليس من البصيرة ولا من حسن الفهم والوعى أن نستند إلى شهادة المؤرخين اليونانيين فنتخذ منها حجة على خور الجندى المصرى ، وجبنه . فإذا حدث أن لم يجد المصرى من بصرائه فى ذلك الأوان من ينبهه إلى ما يشاع عنه ويذاع أو ما يروج وينتشر لكان له بعض العذر فى أن يصدق عن نفسه ما افتراه اليونانيون عليه حتى أصبحت من المسلمات الأولية عن الطبيعة المصرية وقد أخذت تنتقل من جيل إلى جيل أحقابا طويلة من الزمان.

ومن الشواهد التى يمكن أن نتمثل بها لتلك الروايات المشبوهة ، أنه لما تمكنت إحدى الكتائب المصرية من أن توقع الهزيمة بالمرتزقة من اليونان مرات متكررة فإن "**وهاب رع**" فرعون مصر آنئذ عزم على مساندة القائد الليبى "**ذكران**" فى قتاله للمستعمرة الإغريقية ببرقة ولكنه أدرك فى الحال أن من الصواب ألا يرسل جنودا مرتزقة خشية أن ينضموا إلى الجنود الإغريق وهم من جنسهم وبذلك تقوم حركة تمرد ضده فتكون نهايته . ولكنه وجد أنه من الأصوب أن يبعث الفرقة المصرية التى يضمها جيشه لأن



المصريين يكرهون الإغريق فيكونون من ثم أقدر على حربهم وإنزال الهزيمة بهم فتوجهت الفرقة الى الحدود متظاهرة بقتال الإغريق ولكنها استدارت إلى فرعونها الخائن بعد أن اجتمعت لها وحده الكلمة والقيادة فندم: "**وهاب رع**" على تصرفه وحاول أن يحبط هجوم الثائرين عليه من المصريين ولكنهم هزموه هزيمة نكراء ورفعوا بذلك قائدهم أحمس إلى مركز الزعامة والقيادة . ولكنه أيضاً خوفا من حسد الذين ناصروه وشدوا من أزره فإنه جنح إلى الاستعانة بالجند اليونان لردعهم عنه.

ورغم ما حدث فى هذه المعركة فإن المصريين عندما التقوا باليونان فإنهم تغلبوا عليهم ودحروهم ، فلم تقم لليونان بعد ذلك قائمة إلى أيام الإسكندر .

ولعل من أظهر الآيات التاريخية على بأس جيش مصر وأن جند العالمين يخشون صولته وهيبته أن الملك قورش مؤسس الدولة الفارسية والذى أقام لها إمبراطورية مترامية امتدت شرقا وغربا وشمالا وجنوبا لم يجسر على مهاجمة مصر وتوجس خيفة من غزوها مع علمه باشتراكها فى التحالف الذى قام ضده والذى ضم البابليين ، والليديين والإسبرطيين والمصريين ، فهاجم بابل وليديه أما مصر فأخذ يتذرع بأسباب واهية فى محاربتها حتى انتهت حياته.

ومن الحجج التى يمكن أن تدفع مهانة ضعف العسكرية المصرية أو الشعب المصرى واستباحة الدول الخارجة عنه لحماه أن الملك الفارسى قمبيز - وكانت له شهرة طبقت العالمين فى البأس وضراوة القتال - لم يجرؤ على الاقتراب من مصر إلا بعد أن أغرى القائد المرتزق (اليونانى) فى الجيش المصرى وكان يسمى "فانيس" بالانضمام إليه سرا ومخادعة الجيش المصرى فكان أن كشف له عن العورات التى يمكن أن يباغت منها الجيش المصرى ومهد لذلك برشوة القبائل البدوية التى كانت تقيم فى سيناء وأكثر من

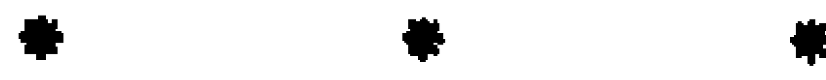
هذا فإن قمبيز أغرى الآسيويين بالتمرد على القيادة المصرية .. ومن هنا فإنه جهز قواته من الفرسان والمشاة وأسلحة لم تعرفها مصر من قبل كما ضم إليه أسطول "بولكرات" الساموسى الذى اتحد مع الفرس بعد أن كان حليفا للمصريين . ووقعت الهزيمة بالقوات المصرية أمام ذلك التدبير من القوات الضاربة وملك الفرس مصر ..

ومع ذلك فلم تمت لمصر إرادة ولا ذلت رقاب أبنائها لسطوة الفاتح المعتز بجبروته وهيمنته ولم يخلد المصريون إلى ذل الاستسلام ونكبة العبودية .. فصارت عيونهم على عدوهم يرصدون خطاه وتحركاته ويراقبون سياسته وتدبيراته ثائرين عليه مرة إثر أخرى حتى توجس الملك الفارسى "دارا" خيفة من ثورات المصرين المتلاحقة ولم يجد مناصاً من القدوم إلى مصر لتهدئة ثورة الشعب عليه .. وكان أول إجراء صنعه أن قتل واليه الفارسى "أرياند" لأنه كان يتعالى على المصريين مما أثار غضبهم على الحكم الفارسى. وحاول "دارا" أن يستل من صدور المصريين النقمة على الفرس فتودد إليهم إلى حد التملق واصطناع المؤاخاة فكان أن بنى للإله آمون معبدا احتفل له بكل زينة وإجلال وتوقير .. كما أنه شارك فى الموكب الجنائزى على العجل أبيس وكان قد مات ، وأكثر من هذا فإنه اكتتب بما يوازى نصف مليون جنيه بعملة أيامنا هذه مكافأة لمن يأتى بعجل جديد تتوافر فيه المزايا التى يجب أن تكون مطابقة لما جاء فى أسفار الكهان .. غير أن المصريين لم تجز عليهم أساليب التملق التى استعان بها "دارا" ليخمد الثورة عليه وأظهروا امتعاضهم منه واعتراضهم على بعض إجراءاته السياسية التى حاول بها استرضاء المصريين . من ذلك أنه عندما أشار عليهم أن يقيموا تمثاله إلى جوار تمثال رمسيس الثانى فى معبد فتاح فإنهم جاهروه برفضهم القاطع وكان أن قال له أحدهم فى مواجهته " : إنك لم تفتح فتوح ذلك



الفرعون العظيم ولم تبْل مثل بلائه" .. فما كان من "دارا" إلا أن طأطأ رأسه ثم أجاب فى حنكة سياسية ":سأفعل كما فعل إذا عشت كما عاش".

وامتنع عن إقامة تمثاله خضوعا لكبرياء الشعب المغلوب . ولم ترضخ مصر لحكم دارا إذ سرعان ما استردت حريتها وسيادتها واستقلالها . ومما يجب علينا أن نذكره فى هذا المقام أنه ولو أن مؤرخى اليونان قد افتروا على مصر الكذب إلا أنهم لم يستطيعوا إخفاء الحقيقة إخفاء تاما فقد كانت تتسلل من أقلامهم ما يعد اعترافا صريحا بالأخلاق المصرية النبيلة من حيث سجايا المصريين الطيبة الحميدة فى شئون حياتهم وعلاقاتهم وسلوكياتهم حتى مع الأجنبى الغريب ، حتى فى إرادتهم العسكرية لم يستطيعوا إخفاءها أو التقليل من شأنها.



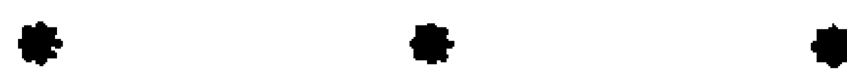
ولكن الخطر كل الخطر ، والحقد كل الحقد ، والنقمة كل النقمة ، انصبت على مصر من الإسرائيليين الذين جهدوا فى أن يلوثوا سمعة مصر ، ويشوهوا تاريخ مصر بين الشعوب القريبة والبعيدة ، حتى بينهم وبين أنفسهم. .. فقد توارث اليهود من كهانهم نبوءة تجسد النقمة اليهودية على مصر فى حاضرها ومستقبلها .. لقد كان اليهود فى مستهل تاريخهم فى مصر يكرهون المصريين لأن المصريين سخروهم فى العمل فى أرضهم عبيداً أذلاء . ومن ثم فلم يجد اليهود مفراً من الهجرة الى سيناء ثم الى مشارف فلسطين . وكانوا وهم فى هجرتهم تلك لا يتمنون لمصر سوى الهزيمة وكانوا فى تمنيهم هذا يتفاءلون ويفرحون إذا بشرهم كاهن بقرب زوال ملك مصر واندحارها .. ومما أجج نار النقمة فى نفوسهم أكثر وأكثر أنهم عندما طلبوا من ملك مصر أن ينقذهم من البابليين فإنه أبى أن يدفع عنهم سطوة بابل وتركهم لمصيرهم ورفض أن يدخل فى حرب لا مصلحة له فيها.

ومن يومها واليهود لم يغفروا لمصر ذلك الموقف فكـــان أن صبــوا عليهم كل ألوان الحقد والكره التي يمكن أن تخطر على قلب حقود وحسود .. وذلــك فيما اختلقوه من آيات مزعومة نطق بها الرب وأوصى بـــها وشـــدد عليها وذلك في كتابهم المقدس (العهد القديم):

فهم لم ينسوا للمصريين أنهم سخروهم في أرضهم على حيـــن أنـــهم أكرم من المصريين وأعظم باعتبار ملك مصر نفسه .. جاء فـــي الإصحـــاح الأول من سفر الخروج :

"ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف فقال لشعبه هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا" .. فلماذا استعبدهم المصريون ؟ هذا مـــا ذكروه في الإصحاح الأول من سفر الخروج : فقد جاء":فاستعبد المصريـــون بني إسرائيل بعنف . مرروا حياتهم بعبودية قاسية في الطين واللبن . وفـــي كل عمل في الحقل كل عملهم الذي عملوه بواسطتهم عنف "..

- فالرب في عونهم لأنهم أعظم من المصريين ، فليهربوا من تحت أيديهـــم الجبارة ولا ينسوا أن يسرقوهم ما وجدوا إلى السرقة سبيلا .. جـــاء فـــي الإصحـــاح الثالث من سفر الخروج:" ولكني أعلم أن ملك مصر لا يدعكم تمضـــون ولا بيد قوية . فأمد يدي وأضرب مصر بكل عجـــائبي التـــي أصنع فيهـــا. وبعد ذلك يطلقكم وأعطي نعمة لهذا الشعـــب فـــي عيـــون المصريين فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين بل تطلـــب كـــل امرأة من جارتها ومـــن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعـــة ذهـــب وثيابـــا وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين ".



ثـــم يبدأ كتاب اليهود المقدس (العهد القديم) في إعطاء صور مختلفة لما يتمناه اليهود للمصريين وكأنها قضاء محتوم من الرب إلههم .

فالرب إلههم يفسد أرض مصر ، يفسد نيلها وما يضمه من حيوانات ، جاء فى الإصحاح السابع من سفر الخروج ": ثم قال الرب لموسى قل لهرون خذ عصاك ومد يدك على مياه المصريين ، على أنهارهم وعلى سواقيهم وعلى آجامهم وعلى كل مجتمعات مياهم لتصير دما فيكون دم فى كل أرض مصر من الأخشاب وفى الأحجار. ففعل هكذا موسى وهرون كما أمر الرب . رفع العصا وضرب الماء الذى فى النهر أمام عينى فرعون وأمام عيون عبيده . فتحول كل الماء الذى فى النهر دما . ومات السمك الذى فى النهر وأنتن النهر فلم يقدر المصريون أن يشربوا ماء من النهر . وكان الدم فى كل أرض مصر . وفعل عرافو مصر كذلك بسحرهم فاشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلم الرب . ثم انصرف فرعون ودخل بيته ولم يوجه قلبه إلى هذا أيضاً وحفر جميع المصريين حوالى النهر لأجل ماء ليشربوا لأنهم لم يقدروا أن يشربوا من ماء النهر "..

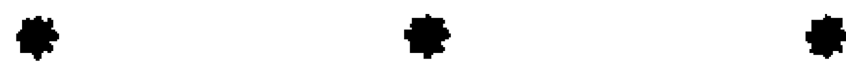
* * *

• وصورة أخرى من صور الحقد اليهودى المقدس على مصر ، فهم يفسدون أرضها بتسليط الضفادع عليها ، جاء فى الإصحاح الثامن من سفر الخروج : " قال الرب لموسى قال لهرون مد يدك بعصاك على الأنهار والسواقى والآجام وأصعد الضفادع على أرض مصر . فمد هرون يده على مياه مصر فصعدت الضفادع وغطت أرض مصر . وفعل كذلك العرافون بسحرهم وأصعدوا الضفادع على أرض مصر ".

* * *

• وصورة أخرى من صور الحقد اليهودى المقدس على مصر ، فهم يفسدون أرضها بتسليط البعوض عليها ، جاء فى الإصحاح الثامن من سفر الخروج : "ثم قال الرب لموسى قل لهرون مد عصاك واضرب تراب

الأرض ليصير بعوضا فى جميع أرض مصر ففعلا كذلك . مد هرون يده بعصاه وضرب تراب الأرض فصار البعوض على الناس وعلى البهائم كل تراب الأرض صار بعوضاً فى جميع أرض مصر . وفعل كذلك العرافون بسحرهم ليخرجوا البعوض فلم يستطيعوا . وكان البعوض على الناس وعلى البهائم فقال العرافون لفرعون هذا أصبع الله ولكن اشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلم الرب".



• وصورة أخرى من صور الحقد المقدس على مصر ، يتمثل فى قضاء الرب بأن تنزل بها الأمراض التى لانجاة منها ، جاء فى الإصحاح التاسع "ثم قال الرب لموسى وهرون خذا ملء أيديكما من رماد الأتون وليذره موسى نحو السماء أمام عيني فرعون ليصير غبارا على كل أرض مصر. فأخذا رماد الأتون ووقفا أمام فرعون وذراه موسى نحو السماء فصار دمامل بثور طالعة فى الناس وفى البهائم ولم يستطع العرافون أن يقفوا أمام موسى من أجل الدمامل لأن الدمامل كانت فى العرافين وفى كل المصريين ولكن شدد الرب قلب فرعون فلم يسمع لهما كما كلم الرب موسى".



• وصورة أخرى من صور الحقد اليهودي المقدس على مصر ، يفسدون به الإنسان والحيوان والزروع والثمار ، جاء فى الإصحاح التاسع ": ثم قال الرب لموسى مد يدك نحو السماء ليكون برد فى كل أرض مصر ، على الناس وعلى البهائم وعلى كل عشب الحقل فى أرض مصر . فمد موسى عصاه نحو السماء فأعطى الرب رعودا وبردا وجرت نار على الأرض وأمطر الرب بردا على أرض مصر فكان برد ونار متواصلة



فى وسط البرد بشيء عظيم جدا لم يكن مثله فى كل أرض مصر منذ صارت أمة. فضرب البرد فى كل أرض مصر جميع ما فى الحقل من الناس والبهائم. وضرب البرد جميع عشب الحقل وكسر جميع شجر الحقل إلا أرض جاسان حيث كان بنو إسرائيل فلم يكن برد".

* * *

• وصورة أخرى من صور الحقد اليهودي المقدس على مصر ، وهى أن يضرب الرب الظلام الحالك على أرض مصر ، جاء فى الإصحاح العاشر من سفر الخروج ": ثم قال الرب لموسى مد يدك نحو السماء ليكون ظلام على أرض مصر حتى يُلْمَس الظلام . فمد موسى يده نحو السماء فكان ظلام دامس فى كل أرض مصر ثلاثة أيام . لم يبصر أحد أخاه ولا قام أحد من مكانه ثلاثة أيام . ولكن جميع بنى إسرائيل كان لهم نور فى مساكنهم".

* * *

• وصورة أخرى يبلغ فيها الحقد اليهودي المقدس ذروته ، فيدمر رب اليهود مدن مصر تدميرا ويخربها تخريبا ، ويشتت أهلها فى كل أنحاء العالم عبيداً أذلاء ، جاء فى الإصحاح التاسع والعشرين ": قال السيد الرب : هأنذا أجلب عليك سيفا وأستأصل منك الإنسان والحيوان . وتكون أرض مصر قفرة وخربة فيعلمون أنى أنا الرب ، لأنه قال : النهر لى وأنا عملته. لذلك هأنذا عليك وعلى أنهارك . وأجعل أرض مصر خرباً خربة مقفرة من مجدل إلى أسوان إلى تُخُم كوش لا تمر بها رجل إنسان ولا تمر بها رجل بهيمة .. وأجعل أرض مصر مقفرة فى وسط الأراضى المقفرة ومدنها فى وسط المدن الخربة تكون مقفرة فى أربعين سنه وأشتت المصريين بين الأمم وأبددهما فى الأراضي لأن هكذا قال



السيد الرب عند نهاية أربعين سنة أجمع المصريين من الشعوب الذين تشتتوا بينهم وأرد سبى مصر وأرجعهم إلى أرض فتْروس ، الى أرض ميلادهم ويكونون هناك مملكة حقيرة تكون أحقر الممالك فلا ترفع بعد على الأمم وأقللهم لكيلا يتسلطوا على الأمم فلا تكون بعد مُعتمدا لبيت إسرائيل مذكرة الأمم بانصرافهم وراءهم ويعلمون أنى أنا السيد الرب".

وهكذا صدر أمر الرب بدمير مصر تدميرا كاملاً شاملا وتخريبها فى كل ظواهرها الحضارية والإنسانية والطبيعية تدميراً كاملا شاملا وتشتيتها بين العالمين تشتيتا كاملاً شاملا ..

ولما كانت مصر واقعا حضاريا وجغرافيا وإنسانيا فإنه صار من الصعب على الرب أن يزيل مصر من الوجود تماما ..

فأى رب هو ذاك سوى أنه رب الحقد الذى أنطق اليهود بما يشتهون؟ أجل ، لم يهمد اليهود من صب الحقد على مصر تاريخا وحضارة فاصطنعوا أقلامهم وسائل لتزيف التاريخ المصري القديم الذى يعتز به المصريون والعالم ، وذلك فى ثلاث قواعد هى قوام الحضارة المصرية والوجود المصري .. وهى :

أولا : تزييف الشخصية المصرية .

ثانيا : تزييف الديانة المصرية .

ثالثا : تزييف الفن المصري .

فمن الذين زيفوا **الشخصية المصرية** وقلبوا الحقائق الكاتب الروسي اليهودي الصهيوني "إيمانويل فلايكوفسكى ". وقد أخذ على عاتقه تزييف شخصيتين ، **هما : حتشبسوت كملكة مصرية** ، وتحتمس الثالث كعبقرية عسكرية مصرية فقد ادعى أن حتشبسوت هى ملكة سبأ .. ولو كان الأمر على ما وهم حقيقة لأفاض فى ذلك كتاب "العهد القديم" وأشاد ولكن ما ورد به عن ملكة سبأ ولم يشر من قريب أو بعيد الى حتشبسوت وكل ما جاء فيه



هو ما ورد في الإصحاح العشرين من سفر الملوك الأول : "وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه بمسائل فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم بجمال حاملة أطياب وذهب كثيرا جدا وحجارة كريمة . وأتت سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبها ".

وقد تناسى فلايكوفسكى ان اسم "موسى" ليس يهوديا ولكنه مصري ، فهو اختصار للفظ "حموس" ولكنه وقد استكثر أن يسمى موسى باسمه المصري فإنه عمد إلى تزييف شخصية حتشبسوت بطمس وجودها التاريخي وذلك لأنها صاحبة فضل كبير على موسى. فهي التي آوته وأطعمته وربته .. يقول الأثرى الكبير جارستانج إنه ": كشف فى مقابر أريحا الملكية أدلة تثبت أن موسى قد أنجته فى عام ١٥٢٧ ق.م بالتحقيق الأميرة حتشبسوت (الملكة حتشبسوت فيما بعد) وإنه تربى فى بلاطها بين حاشيتها وإنه فرمن مصر حين جلس على العرش عدوها تحتمس الثالث".

وتمادى فلايكوفسكى فى تزييف الشخصيات المصرية كما تمادى كتاب "المعبد القديم" في صب البلايا على مصر ، ومن تلك الشخصيات الملك تحتمس الثالث . فقد حاول النيل من عبقريته العسكريا مدعيا بأنه لم يكن أكثر من زعيم عصابة تخصصت فى النهب والسلب والقتل . وكان مما سلبه ونهبه كنوز معبد الملك سليمان فى أورشليم متغافلا عما ورد فى الإصحاح الثاني عشر من سفر الملوك الأوّل ، فقد جاء ": وفى السنة الخامسة للملك رحبعام صَعد شيشنق ملك مصر إلى أورشليم وأخذ خرائن بيت الرب وخزائن من بيت الملك وأخذ كل شي وأخذ جميع أتراس الذهب التي عملها سليمان .. ولا يعلم فلايكوفسكى أن شيشنق ملك ليبي استولى على الحكم فى مصر فترة من الزمن ولم يذكر فى سجلات التاريخ المصري إلا بعد وفاة تحتمس الثالث بخمسمائة سنة .



ولإحكام التزييف وإعطائه طابع التواتر التاريخي ليتحقق له الـهدف الرئيسي الذي يسعى إلى تثبيته فى وعى الناس وتأكيده فى صحف التاريخ فإنه لم يتورع عن اختلاق أحداث تاريخية لم تقع فى التاريخ اليهودي مستغلا عدم معرفة القارئين بتاريخ اليهود من كتابهم المقدس ومستغلا تصديق الباحثين لما يدعيه بوصفه كاتب يهودي هو أعرف الناس بكتابه وتاريخ قومه .. فهو يؤكد أن الملك تحتمس الثالث كان صاحب سياسة خبيثة بالنسبة لدولة الملك سليمان . فقد بعث جواسيسه وعملاءه من الخونة لإثارة الشقاق والفتن حتى تتصدع وحدة الدولة وتزول . فقد اصطنع تحتمس الثالث من الملك يربعام عميلا له. ومن ثم فإنه عندما شق عصا الطاعة على سليمان فإنه اضطر إلى الفرار إلى مصر ليكون فى حماية ملكها .. غير أن الواقع التاريخي ينكر ذلك فقد ورد فى سفر الملوك الأول أن الملك يربعام كان من القبائل الشمالية ": وطلب سليمان قتل يربعام فقام يربعام وهرب إلى ملك مصر وكان فى مصر إلى وفاة سليمان".

وقد خلا السفر تماما من أية إشارة تثبت أن فرعون مصر كانت له يد فى إشعال نار الفتنة فى مملكة سليمان فى عهده أو عهد ابنه رحبعام .. ولكن فلايكوفسكى يستمر فى أباطيله فيقرر أن يربعام قد عاد إلى فلسطين بعد موت الملك سليمان وتقلد مقاليد الحكم فى دولة إسرائيل الشمالية وذلك فى حماية تحتمس الثالث فكان من ثم عميله المفضل يؤدى إليه الجزية عن رضى، كما حفظ له فضله عليه.

وقد حرص فلايكوفسكى على ذلك التزييف لتحقيق هدفين :

أولا : التقليل من قيمة الانتصارات التي حققها الملك تحتمس الثالث فى الشام. وهذا واضح فى قوله ": إن الفتنة التي أثارها تحتمس الثالث فى دولة يربعام لا يجعل من انتصاره فى حربه فى الشام انتصارا كبيرا.

ثانيا : تبرير ادعائه بأن ": رسوم الهدايا وأدوات العبادة التي قدمها الملك تحتمس الثالث للإله آمون وسجل رسومها على جدران معبد الكرنك هي كنوز الملك سليمان التي نهبها الملك تحتمس الثالث من معبده فى أورشليم ".

وهنا يتباكى فلايكوفسكى على هذه الكنوز فيقول ": إن كنوز مئات السنين من العمل الشاق والغنائم التي جمعها الملكان شاء ول وداود ، وهدايا ملكة سبأ (حتشبسوت فى زعمه) تحولت إلى غنائم لتحتمس الثالث".

ولم يقتصر الأمر على ذلك ولكن هناك طعنة أخرى لعلها أنكاً وأحد ، وأدل على مدى الحقد الذي يحتفظ به اليهود لمصر وذلك أنهم زعموا أنه لولا الإدارة الإسرائيلية والعسكرية الإسرائيلية لما استطاعت مصر أن تتحرر من الهكسوس الذين استعمروها وأذلوا أهلها زمنا طويلاً فقد زعم فلايكوفسكي أن": الملك الإسرائيلي شاء ول هو الذي حرر مصر من الهكسوس غير أن المصريين تنكرو لليد التي حررتهم فأخذوا يضطهدون اليهود ثم اندحر الهكسوس بصورة نهائية فى فلسطين ، وأن الذى قام بذلك العمل الخطير هو مؤاب القائد الإسرائيلي فى جيش داود . ويكشف الدكتور عبد المنعم عبد العليم عن مدى التزييف الذى ارتكبه ذلك الكاتب اليهودى ، فهو يقول عن أكذوبة شاء ول وتحريره لمصر": إنها فرية كبرى وأكذوبة صارخة من الكاتب اليهودى الذى تخطى نحو ٦٠٠ عام من التاريخ لكى يقول إن شاء ول هو محرر مصر من الهكسوس .. بل إنه جعل عصر خروج بنى إسرائيل من مصر بصحبة سيدنا موسى أسبق فى الزمن من عصر إخناتون بنحو ألف عام كما يدعى .. رغم أننا كلنا نعلم وكل المؤرخين ومن الآثار والتاريخ أن إخناتون يسبق عصر سيدنا موسى .. ولقد طرد الهكسوس من مصر فى أواخر القرن السادس عشر قبل الميلاد حوالي ١٥٨٠ ق.م فكيف يقوم ملك إسرائيلي بطردهم وباق على توليه العرش نحو ٦٠٠ عام فقد عاش فى أواخر القرن العاشر قبل الميلاد" ؟..

وهكذا يحاول اليهود أن يجعلوا من أنفسهم شيئا مذكورا في تاريخ الحضارة الإنسانية وحتى فى عصر ما سمى دولة داود ومن بعده سليمان فلم تكن إسرائيل آنئذ أكثر من ولاية صغيرة ليس لها أى وزن في تاريخ العلاقات الدولية أو العلاقات الحضارية لا فى زمانها ولا بعد زمانها . وهذا ما يؤكده علماؤنا ، فالباحثة فاطمة عبد الله محمود تقول " إنه من خلال الأبحاث والدراسات التي أصدرها معظم علماء الآثار المصريين والفرنسيين يتبين بوضوح أن اليهود أو بالأحرى " بنى إسرائيل " لم يكن لهم سوى وجود هامشى ضئيل وباهت للغاية فى إطار حضارتنا المصرية العريقة "..

وتقول عالمة المصريات الفرنسية كريستيان دى روش نوبلكور ، فى كتابها : "رمسيس الثاني": إن اليهود لم يكن لهم شأن يذكر في نطاق الحضارة المصرية القديمة وأنهم كانوا قلة ضئيلة عديمة الشأن والنفوذ ولا يعملون إلا كخدم فى بعض معابد مصر ويشتغلون ببعض الحرف اليدوية البسيطة مثل أعمال الفخار وما شابه ذلك".

وتؤكد سوزان رايتم عالمة المصريات فى كتابها ": حتشبسوت الملكة الفرعون": إن اليهود كانوا قلة ضئيلة للغاية يدرجون عند أدنى التدرجات الاجتماعية فى مصر القديمة ولكنهم بالرغم من ذلك كانوا يلقون المعاملة الطيبة خلال عصر الفرعون حتشبسوت خاصة "..

ومن علماء المصريات الكبار الذين كان لهم فضل فى ردع الافتراء اليهودي الصهيوني على العسكرية المصرية "بييرجرانديية " فقد ذكر فى كتابه "رمسيس الثالث قاهر الجيوش الأوربيةّ" :" إن من كانوا يسمون "بنى إسرائيل" لم يكن لهم وجود يذكر فى إطار الحضارة الفرعونية العظيمة بل إن الملوك الفراعنة أنفسهم لم يكونوا ليعلموا أبدا بأن بالعالم مخلوقات تسمى بني إسرائيل".. وقد أوضح بييرجرانديه نظرته هذه على هذا السياق التاريخى :



أولا ، فى الفترة الواقعة ما بين حكم رمسيس الثاني ومجئ الأسرة العشرين كان الهدوء النسبي يخيم على منطقة آسيا ولا شك فى أن الفرعون مير نبتاح كان قد اضطر إلى أن يفتتح أولى سنوات حكمه بحملة تأديبية فى فلسطين التي كانت قد تحررت عند سماعها نبأ وفاة أبيه **رمسيس الثاني** ولذلك فقد اضطر إلى أن يحاصرهم ويستولى على التوالي على "عسقلون" الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط ثم مدينة "**حزر**" الواقعة على الطريق المؤدى من السهل الساحلي إلى هضاب الأردن جنوب غرب نهر "طبرية" .

ثانيا : كانت هناك بعض حركات التمرد والرغبة في الاستقلال . مهددة بذلك أمن وأمان قلعة "بيت شان" المصرية وبعد أن حجمت هذه الحركات الثورية فسرعان ما خمدت تماماً من تلقاء نفسها.

ثالثا : خلال تلك المعارك وعلى طريق العودة بعد انتهائها يبدو أن جيش ميرنبتاح قد أراد أن يزيد من انتصاراته فقد قابل فى طريقه عند جبل "إبراهيم" (إفرايم) بعض العشائر المسماة "بنى إسرائيل" وقاتلها قتالا خاطفا وأسر أفرادها . ولقد تنازل الفرعون ، وكما تبين الوثائق ، وأمر بعد ذلك بأن تمثل هذه الواقعة العابرة على جدران الكرنك.

رابعا : خلال حكم سيتي الثاني كانت حصون وقلاع "طريق حورس" (الطريق الساحلي الشمالي بسيناء) لا يزال يعسكر بها الجنود المصريون ومنها "حصن الخروبة " الذى تم اكتشافه أخيراً. وبذ. كان الملك يستطيع بكل سهولة بعد أن أباد تلك العشائر المسماة "بني إسرائيل" أن يرسل بحملاته لجلب النحاس من منطقة "**تيمنة شمال إيلات**" . وربما نهجت الملكة "تاوسرت" نفس نهجه. ولقد حدث لتلك العشائر أنهم بعد رجوع الفرعون منتصرا من معاركة كانوا يساقون إلي بعض معابد "طيبة" من أجل أن يعملوا فى سراديبهم بصفتهم عبيدا وخدما .. ولكن ليس قبل أن يوسموا على



أجسادهم (بواسطة الحديد المحمى) بخاتم الفرعون باعتبارهم عبيداً وجزءا من ممتلكاته".. وفضلا على هذا دلالة على أن اليهود بمصر لم يكن لهم شأن يذكر أو أدنى اعتبار أن مصر فى فترة ضعفها واستعمارها من الفرس أن "دارا" الثانى أمر بهدم معبد يهودي وإحراقه من أساسه تماماً عندما طلب ذلك منه كهنة الإله "خنوم" وذلك بغية التحبب إلى المصريين والتقرب إليهم . فلو كان لليهود شأن لما أقدم "دارا" على ذلك العمل.

ويبلغ المقت اليهودي لمصر والمصريين على نحو يجسد الإسقاف أقبح تجسيد وأشنعه أنه فضلا على أن عالمهم النفسي فرويد قد شكك فى وحدانية إخناتون وأنه استعارها من موسى عليه السلام ، فقد أتى كرستيان جاك فى كتابه : "نفرتيتي وإخناتون" بفرية لم يسبقه إليها سابق فقد ادعى أن إخناتون كان شخصا مجذوبا يعانى من لوثة عقلية وأكثر من هذا فإنه شخص هيئته الجسمية بأنها لا تعطى شكل الرجولة الكاملة فهو ": مخلوق خنثى تميل تقاطيع جسده الى الأنوثة أكثر من الرجولة ". وبالطبع لم تصبر زوجة إخناتون الملكة نفرتيتى على هذا الوضع الذى يهدد كيانها كأنثى فحاولت أن ترجعه عن هوسه الدينى وأن تخفف من غلوه فيه ولما أن فشلت هجرته وغادرت مدينته الجديدة فى تلك العمارنة . وظلت بقية حياتها فى عزلتها بعيدة عنه وعن أى رجل ..

ومما زاد من حسرتها وحزنها أنها وجدته على علاقة خاصة بأحد رجال حاشيته . وغنى عن البيان أن نقول إن ذلك هو السلوك الذى يعرفه اليهود ، واليهود وحدهم .. والذى مارسه اليهود وحدهم ، وكتابهم المقدس المسمى بالعهد القديم طافح بمثل تلك الخزايا .. ولكنه الخبث اليهودى ، والحقد اليهودى أراد أن يشوه أسمى نزعة توحيدية ظهرت فى الإنسانية قبل الإسلام .



وهكذا اليهود فى تاريخهم كله :

حقد على مصر ورغبة محمومة فى أن تنزل بها الكوارث فتدمرها إلى الأبد وحقد على مصر زين لهم تزييف تاريخها كله : فهم أصحاب الفضل الأول فى تحريرها من الهكسوس .. وهم أصحاب الفضل الأول فى تعليم المصرين فن هندسة الأهرامات .. وأصحاب الفضل الأول فى بعث الوحدانية فى دينها وفكرها، وأصحاب الفضل الأول فى كنوزها من ذهب وفضة وأحجار كريمة .. وأصحاب الفضل الأول فى تعليم المصريين فن زخرفة المعابد ..

وأيا كانت وسائل إذاعة ونشر تلك المفتريات فإنها لن تقضى على الضمير الإنساني بكامله فتجعله يخضع لزيف اليهود وبهتانهم..

ولسوف تظل مصر عزيزة كريمة منيعة لن تنال منها أراجيف المرجفين لأنها صاحبة رسالة السلام فى العالمين ..



(٢) سلوكيات مصرية :

لكل شعب من الشعوب سلوكياته العامة التي تميزه وتفرده عن غيره من الشعوب فهي تخصه وحده ويعرف بها ولو كان بين مائه شعب وشعب. فهو يقتفيها ويتبعها سلوكاً عمليا فى مجالات العمل ومناسبات الاجتماع مع الذين يلتقى بهم ..

وقد يتمثلها - أي تلك السلوكيات - كلمة أشبه بالحكمة أو المثل السائر الذى يذكره فى مواقيته ومناسباته كلما حان موقف التمثل ووجب الذكر ..

ولقد ذكرنا من قبل أن المفتريات اليهودية على مصر وهى التي روجها اليهود على ألسنتهم بين الشعوب والتي سجلوها فى عهدهم القديم وكأنها من المقدسات التي لا يجوز الريب فيها أو التشكك فى صدقها .

ولعل من المفتريات التي تعد أشد فتكا من الدعاوى اليهودية تلك التي نروجها نحن عن أنفسنا مما يكون له أثر على سلوكنا وسبل تفاهمنا ... ومن تلك المفتريات التى افتريناها على أنفسنا حتى صدقناها وسلمنا بها تسليما تلقائيا فهى لا تقبل المراجعة أو إعادة النظر" أننا شعب فرعونى" .. والفرعون المقصود هنا هو فرعون موسى عليه السلام .. فهو الفرعون الذى عرف بكفره وتجبره فى الأرض ومن ثم فقد ضرب صفحاً عن تعبير": قدماء المصريين" .. إذن فنحن شعب فرعوني ، أى شعب جبار متكبر كافر . فإذا أردنا أن ننعت شخصا بالتجبر نعتناه بأنه فرعون فهو لا يردعه رادع ولا يزجره زاجر ومن هنا جرى ذلك المثل الشعبي:

"يا فرعون ، من فرعنك ؟ قال : لم أجد من يردنى".



فكأننا من سلالة قوم غضب الله عليهم ودمغهم بالكفر والضـــــلال .. ألسنا من جنس فرعون الذى عاند موسى الكليم ؟ .. وتلك مسبة لها جنايتـــها على أنفسنا وعلى وعينا بتاريخ حضارتنا .

* * *

ولا زال الكثيرون من المثقفين يميلون إلى تصديق المتنبي فيما نعـت به مصر والمصريين وكأن تاريخ مصر فى ماضيها وواقع حاضرهـــا ومــا واكب ذلك من نبوءات وأراجيف قد تكاملت كلها لتعطى كلام المتنبى مســـحة من منطـــق الصدق لا يشك فيها إنسان . ومن المعلوم أن المتنبى كان شاعراً صاحب أطماع كبيرة تطلع إليها فى اشتهاء ضار . فلما ورد على مصـــــــر أيام حكم كافور أو أبو المسك كافور طمع فى أن يبوئه مكانـــة كبـــيرة أو أن يكـــون هو وحده صاحب الحظوة عنده .. وتقدم إليـــه بشعـــر يســـمو فيـــه بشخصية كافور مكرماً ومبجلاً ، فكان مما قاله فيه مادحاً وإن كان يذمه من طرف خفى :

قضى الله يا كافور أنك أول ... وليس بقاض أن يُرى لك ثانى

فمالك تختار القسىَّ و إنما ... عن السعد يرمى دونَك الثقلان

وما لك تعنى بالأسنة والقنا ... وجَدُّكَ طعَّان بغير سنـــــان ؟

ولم تحمل السيف الطويل نجادُه ... وأنت غنى عنه بالحَدَثـــــان ؟

فلما خاب ظنه وفشل فى مسعاه إذا هو لا ينقلب على كافور وحده بل انقلب على المصريين ونعتهم بأقبح النعوت حتى صارت أبياتـــه فيـــهم ممـــا يذكره كل مغبون أو مظلوم وكأنها من الحكمة التى يسلم بها الزمان ؛ فقال :

إنـــــــى نزلت بكذابين ضيفهم ... عن القرى وعن الترحال محدود

جود الرجال من الأيدى وجودهم ... من اللسان فلا كانوا ولا الجـــود

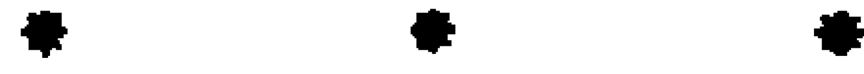
أكلما اغتال عبد السوء سيــــده ... أو خانه فله فى مصر تمهيـــــد؟

صار الخصى إمام الآبقين بهـــا ... الحر مستعبد والعبد معبـــــود



نامت نواطير مصر عن ثعالبها | فقد بشمن وما تفنى العناقيد
العبد ليس لحر صالح بأخ | لو أنه فى ثياب الحر مولود
لا تشترى العبد إلا والعصا معه | إن العبيد لأنجاس مناكيد

ولم يكن المتنبي ليعلم أن لم تكن مصر وحدها هى التى أصيبت بأن يكون حاكمها الخصى كافور ففى روما حدث ما هو أفدح فقد تمكنت بغى من أن تكون إمبراطورة على روما .. وأصيبت دولة الفرس بما أصيبت به مصر فقد امتطى عرشها أحد الخصيان وذلك بعد المتنبى بزمن طويل .. وهنا يمكننا أن نقول إنه ليس الخصيان وذلك بعد المتنبى بزمن طويل .. وهنا يمكننا أن نقول إنه ليس الخصيان ولا البغايا هم أكبر الناس شرا لأنه يوجد ما هو أشنع وأفظع فى تاريخ الدول والحكومات ..



ومن السلوكيات الاجتماعية أن المصرى محافظ شديد المحافظة على تقاليده وأعرافه وسلوكياته مع أهله وذويه ومع جيرته وبنى وطنه . ويرجع ذلك فى المقام الأول إلى أن المصرى يقدس الأسرة حق التقديس ، ويحبها حق الحب ، ويفتديها بما يملك . ومن ثم فليس هناك ما يثير ثائرته قدر الاعتداء على تقاليده العريقة التى يحترمها ويقدسها ولهذا فإنه لا يهيجه شئ قدر الاعتداء على حرمة بيته وأسرته وحرمة تقاليده وموروثاته ومن هنا فقد تميزت العقلية المصرية بالهدوء والرصانة مما يمكن المصرى من أن يدبر أمره تدبيرا محكما مضمون النتائج فهو صاحب ذهن متريث لا يجمح به النزق الى التهور الذى لا يقدر عاقبة الى الهلاك .. ومن هذه الطبيعة السلوكية الأخلاقية صدر ذلك الشعار العتيق العريق ": خطىً سنة ، ولا تعدى قناة "..



وأشيع ما يقال عن هذا المثل الشعبى أنه دعوة صريحة الى الجمود والإحجام عن الحركة الثورية فهو يعلم البلادة والهمود . ولا يبعث على الجسارة والمخاطرة وهو ما يفرضه عصرنا ، عصر الفضاء وعصر المجهولات .. ومثل هذا الاحتجاج وكثيرا ما يقال كرد عصرى على مثلنا العتيق العريق – إنما هو احتجاج جماهيرى أجوف فإن العلوم العصرية فى ذاتها لم تبلغ ما بلغته إلا بعد دراسات وتجارب ، والتجارب تفترض التريث والابتعاد عن العجلة والتسرع .

ولعل ذلك هو سر من أسرار العبقرية العسكرية المصرية التى يحار الكثيرون فى تعليلها وتشخيص حقيقتها .. إنها عبقرية ثلاث آلاف عام من العسكرية فهى من ثم تعرف معنى التريث ، وتعرف معنى الإعداد ، وتعرف معنى تقويم الموقف ، وتعرف معنى تقدير النتائج على أسوئها .. فإذا تم لها ذلك عرفت متى تضرب الضربة المصمية فى المقتل الأمين ، فإذا الضربة جسارة ومخاطرة وإقدام واقتحام .. نعم ، وإذا النصر محقق لا ريب فيه .

ولهذا كانت المسالمة من الطبع المصرى الأصيل . وفرق بين المسالمة والاستسلام الخانع الذليل اللذى لا يفكر فى الثورة على العبودية بالثورة على الظالمين المغتصبين .. ومن ثم كان المصرى صبورا فى خصومته فكان شعاره الذى يحتكم إليه ": اصبر على جار السوء يرحل أو تجئ له داهية تأخذه"..

وليس معنى الصبر هنا أنه الصبر الذى لا أمل فى انفراج غاشيته ولكنه الصبر المتحين المرتقب وإلا لم يكن صبرا وإنما كان عبوديه لا زبة . فالصبر على هذا هو المسالمة التى لا تعنى الاستسلام ولكنه كما قلت الارتقاب الى ريث تتبدل الأحوال أو تنزل بالعدو نكبة تقضى عليه فيكون خلاص المصرى منه ولو على يد غيره..

* * *



ولقد اشتهرت السليقة المصرية "بالنكتة" حتى أصبحت من أخص خصائصها السلوكية وألزم لوازمها الاجتماعية . ويذكر التاريخ ": أن الرومان حرموا على المصريين المحاماة فى محاكم الاسكندرية لأنهم كانو يغضون من هيبة القضاء الرومانى بالمزاح والدعابة فى أثناء الدفاع وشرح القضايا ".

ويتفق مع حب "النكتة" فى الطبيعة المصرية : حب المؤانسة والتواد فى الحديث واللباقة فى الطلب بغير حاجة إلى إلحاح أو تأنيب . هذه الخصائص السلوكية جعلت المصريين يألفون ويؤلفون وتلك مزية خاصة بهم ..

والنكتة المصرية إذا تكون بطبيعتها نكتة محسوسات يضحك بها المصرى ويضحك منها فإنه لا يأنس إلا إلى السرور المعبر عنه بالجوارح والصوت ولا يأنس بالسرور الصامت القرير. ولذلك يعجب الكثيرون منا من هذا السلوك ويعدونه عيبا من عيوب السلوك المصرى وفاتهم أن الفطرة الإيمانية إذ تغلب على المصرى فإنها تجعله فى مقام النسك الذاتى فإذا هو فى مقام الزهد الذى لا تشغله شواغل الدنيا فإذا سنحت له فرصة السرور وهو بطبيعته يعالج أموره من واقع الإحساس بها إحساسا عمليا كان سروره آنئذ سرورا يغمر وجهه ولسانه وجوا رحه فاذا هو فى صخب من الابتهاج الصدوح ولكن سرعان ما يقول أحد الحاضرين ": خير .. اللهم اجعله خيرا".. فلا تعارض إذن بين السرور العارم ، والقنوت الشديد ..



قدر ... ومصيــر

للموقع الجغرافى خطره على حضارة الأمة فهو الذى يهيئ لها أسباب الوجود .. وأسباب البقاء .. وأسباب القوة والصمود . وعلـــى إنســانها ، أى إنسان تلك الحضارة أن يصطنع من تلك الأسباب مادته فى تحقيق إمكانـــات وجوده فى الحياة وإمكانات بنائه لمظاهر هذا الوجود متمثلـــة فـــى العمـــران الحضـــارى الذى يقوم علىالعلم والتجربة واختيار أصلح المواد التى يجـــود بها الموقع فى تحقيق مظاهر ذلك العمران والذى يمنحه فيما يمنح القدرة على حياته والمحافظة عليها وصيانتها . وهذا يعنى فيما يعنى الدفاع عـــن ذلـــك الوجود ضد الطامعين والمتربصين وضد من من جعلوا صناعتـــهم الســلب والنهب والتخريب .

وعماد الأمر فى تلك النشأة الحضارية ثلاثة : الإنسان بإمكاناتـــه .. والدين بتصوراته .. والتجربة العلمية التى تفتح من الآفاق الجديدة ما يؤكد ما قام ونشأ تأكيد القوة المغالبة .

وأمم الحضارة الإنسانية – منذ فجر الوجود البشرى الى اليوم – لـــم تخرج عن هذه الخطة ولم تشذ عنها .. وليس معنى هذا أن المواقع الحضارية على درجة سواء وعلى نوعية متشابهة من حيث أسباب الوجود الحضـــارى ومن حيث الاستراتيجية الحضارية التى تكون للموقع الجغرافى . ومن هنـــا اختلفت المواقع وتمايزت . وإذا وجد شئ من التشابه بين بعضها فإنمـــا هـــو تشابـــه ظاهرى فحسب . وقد ينشأ هذا التشابه من عمليات التأثير والتأثر التى تحدث بين المواقع الحضارية بسبب التبادل التجارى والثقافى أو الحروب التى تفرض الاختلاط.

وتؤدى الحركة الحضارية فى جملة اتجاهاتها وتياراتها ومـــا يكـــون لتلك الاتجاهات من بواعث وأسباب الى ان يختفى بعض من تلك المواقع من الـــوجود أو أن تضعف استراتيجيتها فتفقد ، من ثم أهميتها الحضارية ويصبح الموقع وكأنه تابع لمواقع أهم منه وأخطر . وربما فقد أهميته تماما فيصبـــح وكأن لم يكن له وجود ولوجوده تأثيره وفاعليته فى الإطار العام للحضارة .

ومـــن الظواهر الحضارية أن لكل موقع حضارى محيطـــه الخـــاص الـــذى يتكون من مواقع حضارية أخرى يرتبط بها ارتباط التبعيـــة والخضـــوع أو

ارتباط التحالف والاتحاد لمواجهة عدو مشترك أو ارتباط الندية فى القوة والسطوة والنفوذ .. إلا أن الندية قليلا ما كانت تثبت طويلا ، إذ سرعان ما تنتهز كل دولة فرصة اضطراب أو ضعف أو انشغال الأخرى بأمر من أمورها فتشن عليها حربا مباغته . وفى هذه الحالة إما أن تنتصر فيها وتفرض سيطرتها على الدولة المهزومة وإما أن تبوء بالخسران فتهزم أو تتراجع مهزومة الى ديارها.

فإذا جئنا إلى مصر وجدناها تقع فى وسط منطقة العالم العربى بخاصة وفى وسط العالم بعامة .. وجغرافية مصر بصفة خاصة جاءت مناخيا فى منطقة معتدلة ، وسطحياً فى منطقة منبسطة لا تفصل مناطقها جبال أو هضاب أو صحارى شاسعة تباعد بين سكانها وتعوق الاتصال بينهم أو تعطله وتجعل من شعبها شعوبا وقبائل لكل قبيلة استقلالها وسيادتها ومناطق نفوذها بحيث يصير التناحر والاقتتال هو السياسة التى تفرضها القبيلة على أهلها .. وحتى لو تمكن أحد الزعماء من أن يفرض سلطان قبيلته على القبائل كلها فإن النزعة القبيلية تظل بمبادئها الأخلاقية وتقاليدها الاجتماعية لها فاعليتها ولها تأثيرها .. ولعلنا لا نفتقد القيم القبيلية فى المجتمعات العربية الحديثة فهى ما زالت غائرة فى وعيها يحسب لها حساب كبير فى تخطيط سياسة الدولة الداخلية والخارجية .

لكن مصر برئت من تلك الصعوبات فأرضها منبسطة سهلة فى تواصل أقاليمها ويشقها نيل يجلب لها الخير كل عام ويسكنه شعب هو نسيج وحده فى مقوماته الجنسية حتى وإن اختلطت به أجناس أخرى من الأقاليم التى تحيط بمصر فإنها فى جملتها تؤلف عنصراً واحداً.

وإذ أدرك الوعى الحضارى الأولى عند المصريين أن حياتهم ومصير وجودهم يقوم على النيل الذى يفرض التعاون بينهم فإنه لأمر محتوم أن يتوحد الوجه القبلى تحت تاج ملك واحد وأن يتوحد الوجه



البحرى تحت تاج ملك واحد .. لكن هذا الوضع لم يستمر طويلا ، إذ أن مصر من جنوبها الى شمالها تؤلف وحدة واحدة يعتمد فيها الشمال على الجنوب والجنوب على الشمال فكان أن اندمج الوجهان فى وحدة تجمعهما روح واحدة وإحساس واحد بوحدة القرابة ووحدة العقيدة وإن تعددت أشكالها ومسمياتها ووحدة اللغة ووحدة الآداب الإجتماعية والأخلاقية التى تؤلف بين أفراد الأسرة والأمة والتى يتأدب بها الجميع ويستنيرون ويهتدون ويبتهلون إلى الإله المعبود..

وتوحدت المملكتان الشمالية والجنوبية قبل سنة ٤٠٠٠ ق.م. فى مملكة واحدة بلغت من القوة العسكرية والاقتصادية والسمو فى الآداب الأخلاقية والدينية إلى الحد الذى جعلها تتطلع الى ما حولها من مدن وممالك فى شرقها وغربها فقامت بينها علاقات تجارية متشعبة الى جانب العلاقات الدينية والثقافية . فكان التأثير والتأثر متبادلا . ولقد كانت القوة العسكرية المصرية حافزا رئيسيا لبسط سيطرة مصر على الأقاليم المجاورة ، فكان أن نشبت معارك طاحنة كانت تنتهى دوما بانتصار مصر وضم هذه المملكة أو تلك الى الأمبراطورية المصرية التى صارت تتوسع وتتوسع حتى ضمت فى ذروة التوسع العالم العربى كله من أقصاه الى اقصاه . ورغم الحروب الكثيرة والمعارك الضارية التى نشبت بين مصر وبين ما حولها من أقاليم إلا أن تلك الحروب لم تكن انتقامية غايتها التدمير والتخريب والإبادة ثم العودة بالمغانم والأسلاب وأسراب الأسرى .. وكذلك لم تكن حروباً غايتها فرض الدكتاتورية الاستعمارية بجبروتها وبغيها الذى تستنزف به خيرات الشعوب وتستعبدها لخدمتها وتحقيق مصالحها بغير تردد أو تخاذل أو اعتراض .

لم تكن تلك الحروب انتقامية أو تسلطية ولكنها كانت تنتهى دائما بإيجاد وشائج من التعاون الأخوى على أن تكون لمصر الكلمة المسموعة



والاقتباس الدينى والعقائدى والفنى والثقافى . فكان هناك تأثر ظاهر بالديانـــة المصرية والمعبودات المصرية والأناشيد المصرية التى كـــانت ترتـــل فـــى حضـــرة الآلهة .. ولئن حدث فى بعض الأوقـــات حركـــات مـــن التمـــرد والخروج عن طاعة فرعون مصر ، إلا أن ذلك كان من طبيعـــة الإحســـاس بالـــوطنية إذ أن أهل الإقليم الذى تمرد كان لديهم إحساس بقوميتهم الإقليمية، كما كان لديهم طموح إلى الاستقلال لايلامون عليه حيث لا يشعرون بأنـــــهم خاضعون للغيـــــر.

ولئن كان ذلك التوسع المصرى الإمبراطورى قد امتـــد شرقـــا إلـــى العراق ومشارف فارس وشمالا إلى شمال سوريا برا والى بعض جزر البحر الأبيض المتوسط وغربا الى ليبيا وما فوقها وجنوبا الى الحبشة والصومـــال والسودان والنوبة - لئن تم ذلك التوسع فلم يكن واقعا غريبا أو شـــاذا ولكنـــه كـــان أمراً طبيعياً فرضه منطق التواجد الإنسانى الحضارى لتلـــك المنطقـــة التى عرفت بعد ذلك بالمنطقة العربية .. فرضه المنطـــق الحضـــارى علـــى مصر لتحقيق غايات ثلاث : الأولى ، التوسع الحضارى الذى يدعم الوجـــود المصرى ويحميه ويثريه فى نفس الآن.. الأمر الثانى ، إثراء وتنمية أقـــاليم تلك المنطقة .. الأمر الثالث ، حماية الأقاليم كوحدة متـــآصرة مـــن أطمـــاع الطـــامعيـــن الذين تدفعهم الى الإغـــارة عليـــها نزعـــات الســـلب والنـــهب والتخريب ولعل إغـــارة الهكسوس على مصر واستعمارهم لها فترة ليســـت بالقليلة لم تؤد إلى تدهور مصر وتمزقها فحسب بل أدت أيضا إلـــى تدهـــور المنطقة بأسرها حضاريا وسياسيا حيث صارت الى دويلات متعادية متناحرة. حتى إذا تمكنت مصر من طـــرد الهكســـوس واســـتعادت وحدتـــها وقوتـــها واستعادت إيمانها بقدرتها ورسالتها فإن المنطقة بأسرها عادت الـــى ســـابق عهدها من التواصل والتوحد وتبادل الخبرات والخيرات ..

* * *

حتى إذا فتح الله على مصر بنعمة الاسلام على يد عمرو بن العاص وفـي عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضوان الله عليـه فقـد اصبـح لمصر شأن له خصوصيته ومكانته الإسلامية والحضارية والإنسانيه فى نسق المنظومة الاسلامية التى ضمت دول العالم وممالكه فى الشرق والغرب والتى منها تكونت الأمبراطورية الإسلامية الكبرى .. تلك الإمبراطورية التى سارت على منهاج حضارى له خطاه المحسومة والتى ما كان يمكـن اسـتبدالها أو الخـروج عليها وكأنها مرسومة بوعى تاريخى له بصـيرة نـافذة مقـدرة للحاضر والمستقبل ..

بدأت من المدينة المنورة ، مدينة رسول الله صلى الله عليـه وسـلم وظلت مركز العالم الإسلامى الذى امتدت آفاقه إلى العراق والشام ومصر فى عهد الخليفتين : أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضوان الله عليـهما .. ثم انتقلت العاصمة شمالا إلى دمشق حيث أصبح الأمر الى الأمويين وكـان لمصر فى إبانها شأن من التكريـم إذ يعرف الأمويون قدرهـا ويخصونـها بأجل الولاة وأعدلهم وأحصفهم .. حتى اذا ما انتقلت السلطة الى العباسـيين كان لمصـر نفس المنزلة ونفس المكانة وكان لها نفس التكريـم والحـرص على النهوض ، بل سماع كلمتها فى شئون الفكر والدين والعلم .. فلـم تكـن مجرد مزرعة تورد القمح وتقدم الضريبة الى بيت المال .

وإذا كانت بغداد قد صارت العاصمة الكبرى للإمبراطورية الإسلامية بعد زوال الأمويين فى دمشق فإن هذا يرجع فى بعض أسبابه إلى أن الذيـن ناصروا العباسيين كانو من الفرس فلا بد من أن يستندوا فـي أول مراحـل حكمهم الى أقرب المواقع .. الى المناصرين والأمر الثانى أن الموقع فى ذاته كـان يتوسط الإمبراطورية الواسعة الممتدة التى ضمت شعوبا وأجناساً لـم تكن عربية فى أصولها .. وقد هيأ ذلك الموقع الاستراتيجى للعاصمة أن تدافع عن حدودها المترامية فى سهولة ويسر .. وكان الدفاع مريراً وقاسـياً فـى

بعض مراحل الحكم العباسى حيث تناوشتها القبائل الطامعة على حدودها ولا سيما قبائل التتار التى اجتاحتها وأتت عليها من قواعدها فكان التدمير شاملاً والتخريب شاملاً .

ولئن كانت الدولة العباسية قد ضعفت وأصبح خلفاؤها ألعوبة فى أيدى قادة الجند الذين اعتمد عليهم العباسيون إلا أن أولئك القادة وإن جعلوا الخلافة مجرد اسم يصطنعونه لتأييد مركزهم وليسبغوا عليه صبغة شرعية إلا أن هذا الإجراء كان يؤكد أن الإسلام هو الكلمة العليا التى يجب عليهم أن يحموها ويدافعوا عنها .. فكان كل قائد أو زعيم يشعر بقوته يعلن بجيشه نبأ انسلاخه عن السلطة العليا فى بغداد مستقلا بإمارته أو مملكته .. وفى غفلة من المشغولين بطموحاتهم وصراعاتهم هاجم الصليبيون العالم الإسلامي وكانت جبهتهم الأولى هى الشام وذلك لتخليص بيت المقدس من أيدى المسلمين ولكن الواقع الرئيسى والخطة الرئيسية هى استعمار العالم الإسلامي وبسط الهيمنة عليه .. ووجد العالم العربى نفسه فى موقف المدافع عن كيانه ووجوده . ولما انتهى الأمر الى صلاح الدين الأيوبى أدرك بفطنته أنه لابد من المواجهة والمطاولة . فاتخذ من مصر القاعدة الرئيسية لطرد الصليبيين وإنقاذ أرض الإسلام والأمة العربية بأسرها من ضغط الصليبيين وتهديداتهم .. حتى إذا ما أتم أبناؤه من بعده ما استطاعوا إتمامه من عمليات طرد الصليبيين فقد آلت راية القيادة إلى المماليك .. وقد برز من بين المماليك قادة أبطال نذكر منهم قطز والظاهر بيبرس .. واستطاعوا دحر المغول (التتار) والصليبيين .

ولم تكد الأمة العربية تفيق بعض الإفاقة من الأخطار التى أحدقت بها من كل صوب وكلفتها الكثير حتى ظهر خطر جديد ، ذلك هو الخطر التركى أو العثماني الذى اجتحاح المنطقة العربية وأنزل بمصر قاصمة ظلت تعانى منها أحقابا بعد أحقاب "وتتركت" المنطقة بأسرها تحت إمرة ما أطلق عليه "سلطان المسلمين" .. واستنزفت تلك "الخلافة" كل مقومات الحضارة



الإسلامية فصدرتها الى العاصمة التركية لتضفى على الخلافة العثمانية كل مظاهر الأبهة والعظمة والفخامة أما شعوب المنطقة العربية نفسها فلم تفد شيئا من المظاهر التى خلعها الخلفاء العثمانيون على أنفسهم وعلى إمبراطوريتهم .

وكقضاء محتوم كان لابد أن تصيب آفة الانحلال الحضارى ذلك البناء الشامخ الذى أقامه العثمانيون .. ثم ظهر محمد على الكبير فى مصر وقد عمل بكل ما يستطيع من حنكة عسكرية وسياسية واقتصادية وعلمية على تحقيق الوحدة العربية وفعلاً تم له ما أراد . غير أن تدخل الدول أرغمه على أن يحتفظ بمصر - قاعدة الأمة العربية - له ولأولاده من بعده ..

وتفرق شمل الأمة العربية حيث تحكمت فيها الدول الاستعمارية : انجلترا ، وفرنسا ، وإيطاليا.. وأصبحت هى التى تقرر سياستها وتوجهها حيثما تشتهى . ومع ذلك فلم تخلد الأمة العربية إلى الوصاية الاستعمارية فقامت ثورات متعددة فى أنحائها وكانت كلها تتطلع الى مصر تطلب منها العون والسند بل القيادة لأنها تدرك بوعيها التاريخى العميق أن وجودها فى وجود مصر ، وأن حياتها فى حياة مصر .. حتى إذا ما قيض الله لمصر نفر من أبنائه قاموا بثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وفنادت بالقومية العربية وبضرورة أن يعود العرب الى وحدتهم أو إلى حياتهم من المحيط إلى الخليج ..

غير أن مصر خاصة والأمة العربية بعامة كانت تواجه محنة لم يحدث لها مثيل فى تاريخها كله وذلك هو الوجود الإسرائيلى الاصطناعى الذى زرعه الاستعمار فى قلب الأمة العربية فكان عاملاً من عوامل تمزقها وهو ما يحرص الاستعمار على استدامته .. وقامت الحروب المتصلة بين مصر وإسرائيل ثم تمكنت مصر بقيادتها وقواتها وشعبها أن تحقق المعجزة العسكرية الكبرى فى تاريخها الحديث فأنزلت الهزيمة بإسرائيل .. والحق أن لم تكن مصر وحدها فى الميدان فكان معها الأمة العربية تدعمها وتساندها .



ولقد أظهر هذا النصر بما لا يدع مجالا لشاك أو مرتاب أنه لا بقاء للعرب كوجود حضارى ورسالة إنسانية إلا فى وحدتهم .. وأنه لا بقاء للعرب كوجود حضارى ورسالة إنسانية إلا بقيادة مصر لا ازدهاء وتعاليا ولكنه واجب على العرب بفضل وعيهم التاريخى أن يطالبوا به مصر وأن يلزموها به ..

ولقد يقال إن الوحدة العربية سراب خادع يُخدع به السذج والبسطاء الذين لا يعرفون العرب على حقيقتهم ، فهم لم يتحدوا ولن يتحدوا فى يوم من الأيام ..

ومثل هذا الرأى يدل على غفلة وسوء تقدير وخبث طوية فى آن واحد فالخلافات لا تمتنع أبداً بين الأشقاء ذلك لأنها أى الخلافات سبيل من سبل التقويم والاختيار عن وعى وتقدير ، فهى ضرورة من ضرورات الاجتماع الإنسانى . ومن هنا فإنه سيحدث تطور حثيث فى تحقيق الوحدة العربية التى يكون فيها قوتها وازدهارها ..

وقد يقول البعض : وماذا عن إسرائيل ؟

وأقول عن يقين : إن إسرائيل إلى زوال حضارياً أو عسكرياً أو بهما معا ..

والزوال الحضارى قد يأتى مما يصيب جماعاتها وعناصرها وقيادتها من فساد يدمرها تدميراً .. وقد يأتى من الانحلال الحضارى الذى سوف تمر به الولايات المتحدة الأمريكية لا محالة وآنئذ تفقد إسرائيل السند الغربى الذى تعتمد عليه أعتماداً تاماً فى ضمان بقائها ..

أما الزوال العسكرى فهو أن تباغت إسرائيل العرب بحرب وقائية تكون فيها كارثتها ونهايتها .. وأياً كانت الخاتمة التى سوف يصوره المشهد الأخير للوجود الإسرائيلى .. فإنها إلى زوال .. وسبحان مغير الأحوال ...

الفصل الثانى

العسكرية المصرية

الفرعونية

صورة تاريخية عامة

في صورة تاريخية عامة للعسكرية المصرية الفرعونية نجد أن العسكرية المصرية تعرضت لمفتريات شتى لعل أبرزها وأظهرها أن الأمة المصرية أمة "غير حربية" تتجنب الحرب والقتال ما وجدت الى التجنب سبيلا، وما وجدت إلى السلامة طريقا آمنا. ومن ثم فهى أمة تكره الحرب وتكره القتال وتتوقاه بكل سبب . فهى مستغرقة فى عملها الزراعي لا ترفع رأسها منه إلا ريث تستريح سواد الليل . وقد كثَّف المؤرخ الإنجليزي جيمس هنري برستد هذه المفتريات فى جمل تثبت فقدان الوعى البصير بحقيقة شخصية الإنسان المصرى، وبحقيقة الحضارة المصرية بل بطبيعة مصر الجغرافية وما هو من ضروراتها الطبيعية والاجتماعية والإنسانية . ويعجب الفكر القويم والعادل غاية العجب حين يجد أحد أعمدة التاريخ الحضارى لمصر القديمة يقول بنوع من التسليم وكأنها مسلمة لا سبيل إلى دحضها أو تفنيدها ،: " معلوم أن[1] مصر ليست بلاداً حربية بطبيعة حالها . وقلما يوجد بين أهلها من يحب الكفاح والنضال ، فلما حكم القطر فراعنة أقوياء مدفعون بعامل الفتح والاستعمار أثر الضغط الأجنبى اضطرت الرعية أن تنفذ إرادة حكامها . لكنه لما انقضى جيل هؤلاء الفاتحين خمدت الروح العسكرية بالبلاد ورجعت المياه إلى مجاريها وأصبح القوم يفتخرون بأعمال أجدادهم بشكل يبعث فى النفوس الشفقة والرأفة لما أصاب وطنهم من المحن".

[1] كتاب ":تاريخ مصر" تأليف: جيمس هنرى برستد ، ترجمة : د / حسن كمال ، ص ٣٤٨

ونجد أن من الواجب علينا أن نفند ما ذهب اليه برستد من مفتريات ، فحين يقول : "إن مصر ليست بلادا حربية بطبيعتها". فإن كلمة": بطبيعتها" هذه تشي بمعان كثيرة : فهل المقصود إذن الطبيعة الجغرافية ؟ أم أن المقصود هو الطبيعة النفسية ؟ فإذا قصد الأولى فالحقيقة أن أرض مصر وتضاريسا ليست على مظاهر تكفل الحماية الطبيعية من اعتداءات المعتدين وتمكنهم من الدفاع عن أنفسهم إذا ما باغتتهم غارات العدو . ولكن يبدو أن المؤرخ برستد يقصد المعنى الثانى لأن العبارة التالية تكشف عنه ، فهو يقول ": وقلما يوجد بين أهلها من يحب الكفاح والنضال". وهكذا جرد برستد المصريين من صفات الحرية وخصائصها ومن أقرب خصائصها :" حب الكفاح والنضال".

وسواء "حب الكفاح" أو "النضال" فهو من أجل الحق وفى سبيل الخير والسلام وتأميناً للخير والسلام . ولم تحارب مصر فى عهودها إلا من أجل هذه الغايات الوجودية العليا .. ثم تأتى الجملة التالية لتقدح قدحا حاداً فى طبيعة الحروب المصرية التى نهضت مصر بتكاليفها وتحملت تبعاتها وسعت بكل ما تستطيع من أجل النصر ، فيقول المؤرخ برستد :" فلما حكم القطر فراعنة أقوياء مدفعون بعامل الفتح والاستعمار أثر الضغط الأجنبى اضطرت الرعية أن تنفذ إرادة حكامها". فكأن الفتح والاستعمار كان غاية فى ذاته ، ولو كان الأمر كذلك لكانت الفتوح المصرية الفرعونية مجرد حملات للسلب والنهب والحصول على الغنائم ، وعلى هذا لم تكن فتوحا حضارية غايتها التنوير من ناحية وضمان سلام مصر وسلامتها فى نفس الآن وهذا يؤدى إلى التأثر بالحضارات التى فتحت مصر مواطنها والتأثير فيها فى نفس الوقت .. وفى التأثير ارتقاء بالحضارة وتأصيل لها واندفاع بها . هذا فضلاً على أن عبارة :" اضطرت الرعية أن تنفذ إرادة حاكميها"، تعنى أن الرعية أرغمت إرغاماً على الفتح والاستعمار كأن لم يكن هناك تواصل دينى إنسانى بين

الحكام والمحكومين . وكأن الحكام كانوا من طينة غير طينة المحكومين ، وكأن المحكومين كانوا فَعله" لا تعاطف إنسانى يربطهم ببعضهم ويربطهم بأرضهم ومصيرهم .

ثم يصعد المؤرخ إلى قمة الإنكار والجحود وذلك بأن يسلب من الروح المصرية كل نزعة حيوية إنسانية وكأن اللامبالاه من طبيعة المصريين فحسبهم التحسر على ما كانوا يرددونه بغير وعى أو فَهْم ، وفى هذا يقول المؤرخ :" لكنه لما انقضى جيل هؤلاء الفاتحين خمدت الروح العسكرية بالبلاد ورجعت المياه إلى مجاريها وأصبح القوم يفتخرون بأعمال أجدادهم بشكل يبعث فى النفوس الشفقة والرأفة لما أصاب وطنهم من المحن".

ثم يوصل المؤرخ برستد تلك المعانى بتصوير المصير المحتوم الذى انتهى اليه المصريون .. ولماذا لا ينتهون إليه وهو من طبيعة كيانهم ؟ فهو يقول :" وقد أتمت مصر مأموريتها الكبيرة بنجاح لكنها عجزت عن الاحتجاب عن العالم ، كنينوى ، وبابل فبقيت عائشة فى حياتها الاصطناعية تحت حكم الفرس والبطالسة ثم أخذت تضمحل حتى صارت فيما بعد مزرعة للمملكة الرومانية يؤمها سياح اليونان والرومان لمشاهدة آثارها الضخمة .. ومع ذلك فإن أهلها المسالمين بطبيعتهم ما زالوا عاكفين على الفلاحة جاعلين وطنهم حديقة العالم دون أن تبدو عليهم علامات اليقظة والانتباه فتحققت بذلك نبوءة حزقيال الرئيس الإسرائيلى حيث قال :" ولا يكون بعد رئيس من أرض مصر".

وهكذا اعتبر هنرى برستد بدون تفكر أو تدبر كلام ذلك اليهودى نبوءة الأزل والأبد متجاهلاً عن عمد الحقد التاريخى العميق الذى يكنه اليهود لمصر والمصريين .

* * *

كانت مصر فى فجر تاريخها الحضارى مكونة من مجموعة من الإمارات لكل منها استقلالها الخاص المتميز . ورغم استقلال كل امارة إلا أنها كانت تشعر بنوع من التعاطف الإنسانى مما مكنها من التقارب والإندماج إذ تكون منها مملكتان لكل مملكة شأنها الكبير .. الأولى تكونت من تآلف إمارات الوجه القبلى ، والثانية تكونت من تآلف إمارات الوجه البحرى ، وقد تفردت بنوع من الارتقاء الحضارى . وبناء على هذا فقد عُرِفت مصر بأرض القطرين ".

والمقصود هنا الوجه القبلى والوجة البحرى .

غير أن هذه الثنائية الحضارية ، إن أجيز هذا التعبير ، لم تدم طويلا فقد اتحد القطران حوالى عام ٣٤٠٠ ق.م . وذلك تحت سلطان الملك مينا وقد عُرِفَ هذا الملك فى التاريخ بأنه موحد القطرين . فكان أول حاكم حكم مصر من شمالها إلى جنوبها ، كما أنه اعتبر تاريخياً أول ملوك الأسرة الأولى المصرية .

وفى تقدير المؤرخين أن ولاية الملك مينا تُعَدُّ فيصلاً بين عصرين : العصر الأول ، ويستهل من زمن ما قبل تكون الأسر ، والعصر الثانى هو عصر حكم الأسر . وهو فى حقيقته يدل على ارتقاء تطورى . ومن هنا جاء حكم الأسرة الأولى الذى ظل ما يقرب من أربعة قرون دليلاً بينا على أن مصر بلغت درجة لها وزنها وتأثيرها فى الرقى الحضارى . وهذا يرجع بغير شك إلى ما أشرنا اليه ومن قبل إلى توحد الامارات المصرية تحت حكم الملك مينا وخلفائه الذين جعلوا عاصمتهم فى بداية شأنهم مدينة طينة بالقرب من العرابة المدفونة . غير أنهم لم يستقروا بها طويلا لأنهم ارتحلوا إلى مدينة منف فى الشمال .

وقد تميزت هذه المملكة بالازدهار والارتقاء الذى عم سائر البلاد حتى أن الكثيرين من المشتغلين بالآثار قد أسموها :" المملكة القديمة".

وبقيت منف عاصمة لمصر فى عهد ملوك الأسرة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة . وقد ظلوا قائمين على شأن مصر من حيث الحكم والرعاية من سنة ٢٩٨٠ الى سنة ٢٤٧٥ ق.م .. فى عصر هذه المملكة ارتقت الحضارة فى شتى مظاهرها العلمية والعملية والفنية والاجتماعية . فقد ارتقت الآداب والعلوم العملية بدرجة كبيرة. وليس هذا فحسب بل إن نظام الحكم فى ذاته من حيث تصريف الشئون الادارية والاجتماعية بلغت درجة كبيرة من حسن التنظيم وإحكامه لم يبلغها المجتمع المصرى من قبل . ثم صار ملوك الأسرة الأولى يتطلعون إلى بسط نفوذهم على الأقاليم الخارجة عن حدود المملكة فقد سيطروا على جزء كبير من شبه جزيرة سيناء كما أنهم روجوا لتجارتهم حتى وصلوا الى شواطئ فينيقيا وجزر البحر الأبيض المتوسط شمالا.

ثم انطلقت الأساطيل الفرعونية تجوب البحر الأحمر وتتوغل فيه حتى بلغت شواطئ الصومال . وأكثر من هذا فقد مد فرعون مصر سلطانه إلى جنوب بلاد النوبة وذلك بعد سلسلة متصلة من الغارات . حتى إذا كانت الأسرة السادسة وقد تولت الحكم سنة ٢٤٧٥ ق.م . فقد أخذ الضعف يدب فى بنائها السياسى والاجتماعى . وذلك لأن حكام الأقاليم قد أيقنوا من ضعف الملك ومن حوله من رجاله فشعر كل حاكم بقيمته ومكانته ومركزه الإدارى . وقد تهيأ لهم ذلك منذ الأسرة الخامسة التى آل اليها حكم مصر من سنة ٢٧٥٠ الى سنة ٢٦٢٥ .. فكأن هؤلاء الحكام قد مهدوا لأنفسهم سبيل الاستقلال عن السلطة العليا للبلاد . ومن ثم فإنهم استطاعوا القضاء على البيت المالك فى نهاية حكم الأسرة السادسة أى حوالى سنة ٢٤٠٠ ق.م.

وإذ تم القضاء على البيت الفرعونى بأسرته السادسة فقد صار مركز العاصمة منف يتضاءل تدريجيا حتى ذهب شأنها تماماً . وإن كان التاريخ لا يبوح بسر الانهيار الكامل . ولئن تمكن ملوك الأسرتين السابعة والثامنة



من السيطرة على الحكم إلا أنهم كانوا قليلى الشأن ولم يزد حكمهم عن ثلاثين سنة . ولكن حدثت مفاجأة جديدة . إذا لما كان عهد الأسرتين التاسعة والعاشرة فإن حكام الفيوم وقد قويت شوكتهم واطمأنوا إلى قدرتهم فإنهم وثبوا على العرش واستولوا عليه وأخضعوا البلاد لحكمهم مصطنعين من مدينة أهناس وهى التى أسماها اليونانيون هيرا كليو بوليس (Heracleopolis) عاصمة لهم وقد أربى ملوك هاتين الأسرتين على ما يقرب من ثمانية عشر ملكا.

ثم ظهرت مدينة طيبة فى سماء مصر وصارت تعمل على تحقيق وجودها خطوة إثر أخرى وذلك فى صدام مع ملوك أهناس. ولئن طال الصدام بينهما إلا أنه تكلل بانتصار طيبة فصارت إليها مقاليد الحكم .. وكذلك انتقلت السلطة الى صعيد مصر وإن كان التاريخ لا يفصح عن طول الفترة التى استغرقها الانتقال من المملكة القديمة الى بداية حكم طيبة .

فلما أن سيطر ملوك طيبة على الحكم وكان ذلك فى سنة ٢١٦٠ ق.م. فقد واجهتهم مهمة شاقة اقتضتهم بذل مجهود كبير فقد كان عليهم أن يطفئوا نار الشقاق التى كانت مستعرة بين أمراء القطر . وقد وفق ملوك طيبة فى إخماد تلك الفتن وجردوا الأمراء من سلطانهم وسلطاتهم . حتى إذا ما تولت الأسرة الثانية عشرة الحكم وهى الأسرة التى أسسها امنمحعت الأول وإن كان يقال إنه أخذ الحكم عنوة من منافسيه ، فإنه اتبع سياسة اللين والمطاولة والصبر والمصابرة حتى أنست له لكل إمارات مصر ووثقت فى سياسته واطمأنت الى نيته . وكانت تلك السياسة من أهم العوامل التى أدت الى أن ترتقى مصر فى كافة مجالاتها الحضارية وميادينها الإنسانية فعم الرخاء والخير والرقى .. وقد ظلت مصر تنعم بذلك السلام الراقى مدة تزيد على مائتى سنه يحسبها المؤرخون من سنة ٢٠٠٠ الى سنة ١٧٨٨ ق.م وقد كان النشاط الحضارى فى كافة المجالات مزدهرا وسابغا حتى أن المؤرخين نعتوه بأنه ": عصر الآداب" فقد بلغ فيه الشعر والنثر غاية الجودة



من حيث السبك وقوة المعانى . كذلك ارتقى الحفر والعمارة كما أن المصنوعات الفنية تفوقت على سابقتها فى العصور الخالية .وهكذا زاد الخير وفاض وذلك لما بذلته الحكومة من عناية بشأن النيل وفيضانه فقد أنشأت مشروعات كبيرة للرى بمنطقة الفيوم وتمكنت بذلك من ضم مساحات شاسعة من الأراضى الخصبة لاسيما فى المنطقة الملكية الخاصة بالملكين أمنمحعت . وسيزوستريس ، وهما من ملوك الأسرة الثانية عشرة. كما أن ملوك هذه الأسرة وجهوا همتهم وعنايتهم الى استغلال خيرات شبه جزيرة سيناء فكثرت فيها أعمال الكشف والحفر . كما أن الفراعنة أنشأوا القلاع التى تكفل حماية حدود البلاد . وفضلا " على هذا فقد ارتفعت المعابد على أرضها كما أنشئ الكثير من خزانات المياه التى تكفل سهولة الرى وتضمنه.

ولقد نشأت فى عهد هذه الأسرة صلات تجارية متشعبة بين مصر وجيرانها من الممالك السامية المختلفة فتوثقت المعاملات التجارية لاسيما مع شعوب جزر البحر الأبيض المتوسط الذى كان لهم فضل تأسيس المدن اليونانية فيما بعد . أما التجارة مع الصومال فكانت جيدة ومتنوعة إلى حد كبير . هذا فى الوقت الذى كانت فيه العلاقة بين النوبة ومصر ذات طبيعة خاصة، فقد ضم ملوك الأسرة الثانية عشرة جزءاً من بلاد النوبة هو الواقع بين الشلال الأول والثانى، وقد أرغم على أن يدفع جزية سنوية لملك مصر. وقد استغل المصريون الجزء الذى أخضعوه لاستخراج الذهب من مناجمه التى كانت موجوده شرقى ذلك الإقليم وكان ذلك منبعاً فاضت منه ثروة عظيمة فى الخزانة الفرعونية .

ثم انهارت الأسرة الثانية عشرة فى سنة ١٧٨٨ ق.م . فقد دب الشقاق من جديد بين أمراء البلاد كل منهم يريد أن يقتنص العرش . ولئن تمكن بعضهم من السيطرة على الحكم وبسط نفوذه على البلاد حتى أن أحدهم مد

سلطانه الى الشلال الثالث من النوبة . غير أن هذا الاستقرار المزعزع لم يلبث طويلا ، فقد تدهورت حالة البلاد الأمنية والحضارية ووقعت فى محنة ظلت تعانيها قرابة مائة عام .

وفى أغباش تلك المحنة تسللت جماعة آسيوية عرفت باسم الهيكسوس، انطلقت من موطنها مستغلة ضعف مصر وعدم وجود قوة لها وزنها تقف أمامها فكان أن سيطرت عليها وظلت تحكمها ما يزيد على قرن، متخذه من مدينة هوارة التى تقع شرق الدلتا عاصمة لها. على أن ذلك الحال لم يدم طويلا فقد نهض أمراء الوجه القبلى بأمانة تحرير مصر من حكم ملوك الهكسوس فظلوا يحاربونهم ويغالبونهم حتى تمكنوا من الإستقلال بحكم الوجه القبلى . آنئذ تمكن الأمير الذى تزعم حركة مقاومة الهكسوس من أن ينصب نفسه ملكا على الوجه القبلى . ثم نهض من جاءوا بعده بمقاومة الهكسوس حتى تمكنوا من تحرير مصر من وصمة احتلالهم لها وطرودهم الى داخل سوريا .

ولعل حكم الهكسوس لمصر ثم تحريرها منهم كان خير بلاغ للمصريين ، فأدركوا معنى الاستعمار فى شدة وطأته وإذلاله للنفوس ، كما أنهم قدروا الحرية خير تقدير . ومن ثم فإنه لدرء أى خطر يهاجم مصر ولتكون مصر مرهوبة الجانب فقد تمكن المصريون من تكوين جيش عظيم أدخلوا فيه العجلات الحربية التى تجرها الخيول التى عرفها المصريون من الهيكسوس الذين جلبوها معهم . وبهذا الجيش أصبحت مصر إمبراطورية حربية لها شأنها وصيتها المرهوب . فلقد كانت هذه الإمبراطورية التى أنشأتها الأسرة الطيبية من أكبر الإمبراطوريات التى عرفها العالم آنئذ فقد ضمت إليها سوريا وأعالى نهر الفرات شمالا، الى شلال النيل الرابع جنوبا.

هذه الإمبراطورية التى لم يعرف لها مثيل من قبل كانت عظيمة فى كل مظاهرها فتضاعفت ثرواتها وزادت خيراتها زيادة لم تشهدها إمبراطورية

مثلهـا أو تقاربها . وارتقت مظاهرها الحضاريـة حتى صارت قطب الحضارة العالمية وقبلة أنظار جميع الأمم الحضارية . ولا نستطيع أن نغفل فى مجال هذا الأرتقاء الحضارى رواج التجارة المصرية مع الأمم التى تحيط بمصر كسوريا وفينقيا والأمم القائمة على سواحل البحر الأبيض المتوسط . وبسبب هذا الرواج التجارى كانت المصنوعات اليونانية رائجة فى مصر وذلك بعد أن اتخذت صبغة تتفق والذوق المصرى والطبيعة المصرية . وقد امتد حكم هذه الإمبراطورية العالمية ما يقرب من مائتين وثلاثين سنه (من سنة ١٥٨٠ الى سنة ١٣٥٠ ق.م).

أما الأنهيار الذى انتهت اليه تلك الإمبراطورية فمرده الى سببين رئيسيين :

منازعات داخلية وأخرى خارجية ويرجع هذا الى الثورة الدينية التى أحدثها الملك إخناتون حيث نادى بالتوحيد على سنته وشرعته ومفاهيمه الفلسفية العميقة . ولقد كانت هذه الثورة عاملاً من عوامل اضطراب المجتمع المصرى فى إحداث تمزق بمقوماته الدينيه والحضارية . فكان ذلك سببا فى أن طمعت فى مصر القبائل البدوية الشمالية والشرقية . وفى خضم ذلك الانهيار قامت ثورة داخلية هزت البلاد ووضعت نهاية للأسرة الثامنة عشرة وكان ذلك حوالى سنة ١٣٥٠ ق.م . وهكذا أسدل الستار على الدور الأول من تاريخ الإمبراطورية المصرية .

ثم تهيأت الظروف لموظف فى الجيش فى عهد الأسرة الثامنة عشرة يسمى حَرْمَحبْ من أن يتمكن بالبأس والشدة فى إقرار النظام من أن يشيع الأمن فى البلاد وأن يعلن قيام الأسرة التاسعة عشرة التى آلت اليها سلطات الحكم وذلك من سنه ١٣٥٠ الى سنه ١٢٠٥ ق.م. وقد تمكنت هذه الاسرة من أن تعيد الى دائرة الإمبراطورية المصرية ما كان لها من ممتلكات فى آسيا غير أنها عجزت عن أن تستعيد ما كان لها من ممتلكات فى سورية لأن

الحيثيين تمكنوا منها جيداً حتى أن الجيوش المصرية لم تنجح فى طردهم منها.

ولئن كان هجوم سيتى الأول وحروب رمسيس الثانى استغرقت عشر سنوات متصلة إلا إنها لم تمتد الى ما وراء ممتلكات مصر الشمالية . وهنا توقف المصريون عن الطمع فى أن يحكموا سورية كرة ثانية وفى هذه الفترة ازداد النفوذ السامى . ثم حدث أن أغار الأوربيون الأول على الساحل الغربى للوجه البحرى متحالفين مع الليبيين لكن ملك مصر منفتاح استطاع أن ينزل بهم هزيمة أرجعتهم عن هدفهم .. ثم وقعت مصر بعد ذلك فى محنة الفوضى حيث تنازع الأمراء والقواد ، وفى النهاية سقطت الأسرة التاسعة عشرة حوالى سنة ١٢٠٥ ق.م. وفى محنة ذلك السقوط ظهر ستنخت ، الذى أعلن نفسه ملكاً وابنه رمسيس الثالث وأسسا الأسرة العشرين التى تولت أمر مصر من سنة ١٢٠٠ الى سنة ١٠٩٠ ق.م. وكانت حريصة ومحافظة على شكل الإمبراطورية المصرية رغم ما تعرضت له من غارات القبائل الشمالية ورغم تدفق الليبيين وتسربهم إلى داخل الوجه البحرى .. ثم جاءت وفاة **رمسيس الثالث** سنة ١١٦٧ ق.م مرحلة من مراحل تقلص مصر بعد أن انسلخت منها ممتلكاتها الخارجية ولم يبق لها سوى النوبة .. وهكذا انتهى الفصل الثانى من مسرحية الإمبراطورية المصرية .

بعد هذا ظلت مصر تحت سلطان ملوك من آل رمسيس كانوا فى غاية الضعف حتى اجترأ عليهم كهنة آمون فاغتصبوا منهم العرش غير أن أولئك الكهنة الملوك لم ينعموا كثيراً بالسلطة فقد تغلب عليهم أحد خصومهم بمدينة تنيس الموجودة فى شرق الدلتا وأسس الأسرة الحادية والعشرين التى ظلت فى الحكم من سنة ١٠٩٠ الى سنة ٩٤٥ ق.م .. ثم حدث أن تمكن القائد الليبى شيشنق من الجلوس على عرش مصر مؤسسا الأسرة الثانية والعشرين . وقد بذل هذا الملك جهداً كبيراً للأرتقاء بمصر كما أنه بذل



محاولات كثيرة لاسترجاع فلسطين. ورغم هذا فإن القواد المرتزقة كانوا يتطلعون هم أيضا للإستيلاء على السلطة . فكان أن توزعت البلاد بين عدة إمارات متناحرة مما كان سببا فيما أصاب البلاد من اضمحلال وضعف

وتخاذل فى فترة العصر الليبى ، أى فى عصر الأسرة الثانية والعشرين (أى فى الفترة من سنة ٩٤٥ الى سنة ٧١٢ ق.م) .. فى هذه الفترة بدأت بلاد النوبة فى التمكين لنفسها لحكم مصر ولم يكن ملوكها غرباء عن الأسرة المصرية التى كانت تقطن مدينة طيبة .. هؤلاء الملوك الطيبيون أسسوا مملكة مستقلة استطاعت أن تغزو مصر وأن تحكمها من سنة ٧٢٢ الى سنة ٦٦٣ ق.م . وقد ظل أولئك الأمراء مقيمين بمدينة نَبَّتَهْ وقد جعلوها عاصمة لهم . غير أنهم لم يفلحوا فى إخضاع أمراء الأقاليم الكثيرين . ومن ثم فقد ظل التناحر قائماً بين الجانبين وأثناء انشغال الجانبين بفتنة التنازع والشقاق هذه ابتليت مصر بدولة آشور فقد أغارت عليها بجيوشها وأخضعتها لسلطانها. وأكثر من هذا فإنها ألزمتها بدفع الجزية وكان ذلك فى سنة ٦٦٣ ق.م.

ثم تمكن بسماتيك الأول من طرد الجيوش الآشورية وخَلُصَ له السلطان وحده .. وقد بذل مجهوداً كبيراً فى إصلاح شئون مصر والأرتقاء بمصالحها ولعل عدم وجود النوبيين المشاكسين بمصر مكن الأسرة الحاكمة المصرية من الإنفراد بالحكم بغير مناوئ.

ومن المعلوم بين المشتغلين بتاريخ مصر القديمة أن الفترة بين سنة ١١٥٠ وسنة ٦٦٣ ق.م. تعرف عندهم بتاريخ "الإنحلال" وقد امتدت تلك الفترة الحالكة الى ما يقرب من خمسمائة سنة . " وينقسم دور الإنحلال هذا فيما بعد سنة ١١٠٠ ق.م. الى العهد التنيسى الآمونى (المبتدئ سنة ١٠٩٠ ق.م، والمنتهى سنة ٩٤٥ ق.م) والعهد الليبى (المبتدى سنة ٩٤٥ ق.م ،

والمنتهى سنة ٧٦٢ ق.م) ، والعهد الأثيوبى (المبتدئ سنة ٧٢٢ ق.م والمنتهى ٦٦٣ ق.م). ثم العهد الآشورى الذى بدأ فى أواخر العهد الأثيوبى.
ومن المؤسف حقاً أنه لم تصلنا معلومات وافية عن الحقبة التى عرفت : بعهد الإصلاح"، والذى كانت فيه مدينة صا الحجر بالوجه البحرى بؤرته وموطن إشعاعه الحضارى . ولعل قلة المعلومات هذه ترجع الى اختفاء معظم آثار تلك المنطقة بسبب مياه الفيضان . هذا فضلاً على أن هيرودوت وغيره من المؤرخين لم يمدونا بمعلومات وفيرة عن تاريخ مصر فى هذه الفترة كما أنهم لم يمدونا بمعلومات شافية عن العهد الصاوي الذى كان زاهيا ثريا بمظاهر الارتقاء الحضارى ورسوخ قوته يحدوه أمل أن يسترجع "عهد الآداب" الذى سبق أن حققته مصر.

ومن الجدير بالتنويه هنا أن الملوك الصاويين اصطنعوا سياسة استئجار الجنود اليونانيين. وكان لمصر فى هذه الفترة دور سياسى ظاهر التأثير لقد كان الملوك يحاولون استرجاع بعض مظاهر العظمة القديمة التى عرفها العالم عن مصر ..

ولعل الكارثة الكبرى التى أصابت مصر نشأت من الفساد الداخلي والتناحر الداخلي والتآمر الداخلى .. وكل هذه الآفات الحضارية هى التى جعلت من مصر لقمة سائغة لأطماع الفارسيين فقد استعمر مصر قمبيز سنة ٥٢٥ ق.م. وبذلك انتهت العسكرية المصرية الفرعونية كمأساة لم تعرفها مصر من قبل ولم تشهد فصولها من قبل .

محنـــــة الهكسوس



ليس هناك ما هو أشد خطراً على تاريخ الأمة من الاستهانة بفترة من فترات تاريخها كأن يشاع مثلا أنه لم يكن لهذه الفترة من أثر قوى فى تاريخها أو أن هذه الفترة كانت هامشية مما لا يجعلها غير جديرة بالذكر والتدوين ، أو تستحق الإشادة ورفع الشأن .. لأنها مما يستحق إغفاله أو يجب التغاضى عنه. أو تصور تلك الفترة كأنها غاشية هينة سرعان ما انكشفت وزالت . ذلك كله مما يجب الترفع عنه والاحتياط له لأن التاريخ حلقات متصلة متقاطعة ومتداخلة فلكل حلقة فاعليتها وخطورتها وإن لم نستبن فى السياق التاريخى أنها ذات شأن .

فكل ما يمر بالأمة من أحداث هى ذات شأن وإن وهمنا غير ذلك..
ومن هذا القبيل استعمار الهكسوس لمصر أو ما أسميناه نحن محنة الهكسوس"..

فالمؤرخون وعلماء الآثار على اختلاف مناهجهم ومشاربهم لم يقوموا التقويم الصائب السليم والمحدد مسألة الهكسوس فلم يوفوها قدرها ، ولم يعطوها حجمها بما يظهر حقيقة خطورة الهكسوس . فهى لم تزد عندهم عن كونها قبائل رعوية أغارت على أرض مصر فى فترة ضعفها وعاثت بأرضها فسادا..

ومثل هذا التصور يهون من شأن الهكسوس ولا يجسد خطورتهم التى نزلت بالشعب المصرى . فهناك اختلاف بين المؤرخين من حيث الاسم نفسه:

فما معنى كلمة " هكسوس " ؟وما دلالتها ؟ لقد ذكر جوسفس عن المؤرخ المصرى "مانيتو" أنه كان يقال لهؤلاء الغاصبين هيكسوس – ومعناها ملوك الرعاة – لأن الجزء الأول من هذه الكلمة وهو :" هيك " معناها بالقلم البربائى : "ملك " أما "سوس" فلفظ فى اللغة الدارجة معناه " الراعى " ..



ويقول برستد معقبا على ما ذهب إليه "مانيتو " : ويتضح أن [1] مانيتو قصد بالهكسوس الفينيقيين لكنا إذا رجعنا الى اسم الهكسوس أيام المملكة الوسطى وفى عهد الهكسوس لا نجد ما يشير الى معنى ملوك الرعاة . زد على ذلك أن مانيتو قال إن كلمة "سوس" محرفة عن الكلمة البر بائية التى معناها : الأراضي" وحينئذ يكون "هكسوس" تعبير مصري قديم حرفة اليونانيون ومعناه الأصلي :" حاكم الأراضي". أما عن أصل الهيكسوس فبعض المؤرخين ، ومنهم مانيتو ، يرون أنهم من الفينيقين ، وغيرهم ومنهم جوسفوس يرون أنهم إسرائيليون . ولو كان هذا صحيحا تاريخيا لهلل له اليهود وكبروا واتخذوها من مفاخرهم أنهم احتلوا مصر فى يوم من الأيام .. ولكن ذلك كان من شطح خيال جوسفس اليهودى. ولكن المنقبين والأثريين قد استخلصوا من "خط سير" الذى اتبعه الهكسوس بعد خروجهم من مصر منهزمين أنهم عادوا الى وطنهم فى شمال سوريا وأنهم على الأرجح مزيج قديم من الآراميين والحيثيين. ويظهر من المقابلة بين الترجيحات التاريخية لعلماء الآثار والمؤرخين أن الهكسوس قوم جاءوا من مشارف بلاد الحيثيين حيث كانوا منتشرين فى بعض أصقاع نهر الفرات .. ويبدوا أنهم كانوا أصحاب بأس وقوة على الإغارة ، فكان أن انطلقوا من موقعهم هذا الى الجنوب حيث استولوا على منطقة الشام بأسرها متخذين من مدينة "**كدش**" السورية على نهر "**الأورونط**" مركزا لتكوين إمبراطوريتهم ثم تقدموا وسيطرو على فلسطين سيطرة شبه تامة ، وذلك فى عام ١٧٥٠ ق.م.. ومما له دلالته أن أمير "**أريحا**" تواطأ مع الهكسوس على غزو مصر ، وهو لا يتواطأ معهم إلا إذا كانوا أصحاب يد قوية عليه .. إلا أن أهم ما يجب أن نضعه

---

[1] كتاب تاريخ مصر .. من أقدم العصور الى العصر الفارسى تأليف : جيمس هنرى برستد ، ترجمة : د / حسن كمال ، الناشر : وزارة المعارف العمومية (التربية والتعليم) سنة ١٩٢٩ ، ص ١٤١

في اعتبارنا أن قوم الهكسوس كانوا أصحاب إمبراطورية كبيرة امتدت من شمال سوريا وأرض الفرات الى الشلال الأول بمصر .. وإذن فليس من المعقول أن يكون الهيكسوس جماعات من الرعاة حسبهم الإغارة للسلب والنهب ثم الهرب بالمغانم. بل كانت غايتهم ومهمتهم تكوين دولة لها كيانها ولها رهبتها. ولو لم يكن الأمر كذلك لما استطاعوا أن يرغموا أمير "أريحا" على معاونتهم فى غزوهم لمصر .

ولما كانت مصر دولة لها سيادتها ولها هيبتها فى نفوس من حولها وأنهم يقدرونها ويخشونها فى نفس الوقت فإن قبائل الهكسوس تلك لم تشأ أن تهاجم مصر غازية مجاهرة بالغزو ، ولكنها دخلتها فى جماعات رعوية تسعى الى الرعى وحسن الضيافة من أهل البلاد. ومن ثم كان مثل الهكسوس كمثل أى قبائل رعوية أخرى لا يُخْشى منها بأس ولا يتوجس منها خيفة . فكانت سانحة كبيرة لأن تدرس أحوال البلاد متجولة في منطقتها الشرقية **(محافظة الشرقية)** ، حتى إذا ما تم لها معرفة أسباب ضعف مصر وكيف يمكن اجتياحها بأسرع ما يمكن فإنها شنت غاراتها على مصر من أرض مصر نفسها معتمدة على عمقها الاستراتيجى فى فلسطين والشام فكان أن تمكنت من السيطرة عليها متخذه من مدينة هواره **(أواريس)** - وكانت قريبة من تل بسطه بمحافظة الشرقية - عاصمة لها .. يقول المؤرخ المصرى القديم "مانيتو" فى رواية أوردها جوسفوس عن الهكسوس :"كان [1] القطر المصرى محكوما فى وقت من الأوقات بملك يُدعى تيمايوس (Timaios) فى عهده غضب الآلهة على مصر لسبب أجهله فلم يمنحه رضاه فأتى الى القطر على غير انتظار قوم شرقيون وضيعون فاجأوا أهله بالإغارة عليهم واستولوا على الوجه البحرى بلا معارضة كبيرة لأن أهل مصر كانوا وقتئذ فى ثورة

[1] المرجع السابق ص ١٤٠ .

وهيجان . ولما أخضع هؤلاء الغزاة حكامنا العظام عبثوا وبغـوا وطغـوا ، فأحرقوا المدن وهدموا المعابد واستعملوا أفظع طرق الشدة مـع الوطنييـن. فقتلوا منهم البعض وأسروا الأطفال والنساء ، وبعد انقضاء الحـرب ملكـوا عليهم رئيسا منهم يدعى سلاطيس اتخذ مدينة منف مقراً له ونظم الحكومـة وحَسن الإدارة ومهد الأحكام وضرب الجزية على من بقى مـن المصريين تحت حكمه فى الوجه القبلي والبحري ووزع القوات الحربية على البلاد حتى لا تثور عليه .

وكان هذا الملك يخشى على حكمه من الآشوريين الذين كانوا أقـوى الأمم وقتئذ فخاف أن يتطلع هؤلاء القوم الى مصر ويضموها الى أملاكـهم . ولذلك شيد القلاع وأقام الحصون فى الجهات المنتظر الإغارة منها .. ثم فكر فى أمره فوجد مدينة فى شرق النيل بجوارتـل بسـطة سـماها :"هـوارة " **(أواريس)** لأسبـاب دينية فجدد بناءها وحصنها بأسوار قويـة منيعـة مـن جهاتها وجعل فيها حاميه مؤلفة من مأتين وأربعيـن ألـف جنـدى . وكـان سلاطيس هذا يذهب الى المدينة المذكورة فى صيف كل سنة ليجمع الحبـوب ويدفع مرتبات جنده ويمرن قواته على الحركـات الحربيـة حتـى يرهـب الأجانب".

وتذكر رواية تاريخية عن الهكسوس أن "":القطر [١] المصرى أصبح فى أيدى قوم قذرين غاصبين وتعذر على المصريين أن يملكوا أنفسهم أحـداً منهم . وكان فى ذلك الوقت الملك سكننرع يحكم قسم طيبة الجنوبى والملـك أبو فيس الهيكسوسـى يحكم جميع القطر من أواريس ويجمع الجزيـة مـن سائر الأقسام ومن الحاصلات والخيرات التى أنتجتها أراضى الوجهين القبلى

[١] **المرجع السابق ص ١٤٠.**



والبحرى . واتخذ الملك أبو فيس المعبود شوتخ إلها دون معبودات القطر كلها وشيدوا له معبداً جميلاً ثابتاً"..

ويؤخذ من تاريخ الهيكسوس أن ملكهم ويدعى حنزر قدعين نائبا لـــه يسمى :" إتحو" ليدير كافة شئون مصر.

ولقد كان حكم الهيكسوس شديد الوطأة على جميع الشعوب فى العراق والشام وفلسطين ومصر فعاملوا المصريين بالبطش والقســـوة رغـــم أنـــهم اصطنعوا الطابع المصرى بعاداته وتقاليده فى تعاملهم مع المصرييـــن ظنـــا منهم أن ذلك مما قد يقربهم منهم . وأكثر من هذا فإنهم خلعوا على أنفســـهم ألقاب التعظيم الفرعونية وأقاموا لهم تماثيل تشبه ما كان يقيمـــه المصريـــون لفـــراعنتهم . وحاولو أن يتقربوا من أمراء الصعيد فكـــانوا يبعثـــون اليـــهم بالهدايا علهم يتغاضون عن وجودهم وبغيهم . ولكن الأمراء لم ينســـوا لـــهم قسوتهم وإنزالهم أبشع العذاب بالمصريين على اختلاف مراكزهم ومنازلـــهم وأعمالهم..

والحق أنه فى فترة حكم الهكسوس وقد استمر مائة وخمســـين عامـــا ظل خلالها أمراء الأقاليم منقسمين على أنفسهم كل منهم يحـــاول أن يكـــون مستقلا بإمارته طامعا فى أن تتهيأ له الفرصة ليفرض نفسه حاكما على مصر كلها . لكن أنى له ذلك والعدو جاثم على صدره بل على صدر البـــلاد مـــن أقصاها الى أقصاها . وقد أدى هذا التمزق الا أن تزداد وطأة الهكسوس على مصر فى حاضرها ومستقبلها . وهذا يذكرنا بما كانت عليه الأحوال السياسية فى مصر وهى التى أغرت الهيكسوس بأنه من السهل الأستيلاء على مصـــر وضمها الى إمبراطوريتهم ففى أواخر أيام الأسرة الثالثـــة عشـــر ضربـــت الفوضى أقاليم البلاد . ودبت الشحناء والبغضاء بين حكام الأقاليم كل يســـعى بغاية الجهد الى الاستئثار بالسلطة العامة فيصبح ملكاً على البـــلاد . فكـــان التوفيق يحالف بعضهم فيصير ملكاً واصفا نفسه بأكبر الألقـــاب الفرعونيـــة.

ولكن سرعان ما يطاح به ليخلفه آخر متبعاً نفس السياسة وتحركه نفس الأطماع . ومن صور ذلك الصراع أن أحد الطامعين من الأسرة الثالثة عشرة - وكانت "طيبة" وقتها عاصمة الملك - وكان اسمه نفر حوتب أطاح بأحد الملوك المغتصبين ثم جاء من أطاح به وكان اسمه "سبك حوتب" ، وحل محله . واكثر من هذا فإنه أذاع في الملأ أنه هو الملك ثم إنه سجل ذلك الإعلان على بعض الآثار بالعرابة ممجداً لأعماله وقد بذل عناية كبيرة بمعبد أزوريس . كما أنه اهتم بالمدينة وأصلح عمائرها وزينها بما تحتاج اليه ، غير أنه لم يمتد به العمر فلم يمكث فى الحكم سوى إحدى عشرة سنة وخلفه ابنه سى حاتحور . ثم تنازل عن العرش لعمه نِفِرْ خَارَعْ سبك حوتب ، وكان من أكبر ملوك هذه الأسرة وقد امتد نفوذه حتى جزيرة أرْجو وهى تقع على مشارف الشلال الثالث .

ولعل مدة حكم هذا الملك كانت أحسن عهود الاضمحلال حيث زاد رخاء البلاد وارتقت فى شتى مرافقها ونعم الناس بشئ من الأمن والطمأنينة . ثم جاءت بعد ذلك فترة ازدادت فيها الاضطرابات والفوضى حتى تضاربت الأخبار فاختفت الحقائق فى عماية الصراعات .. وقد بلغت البلاد حالة من التدهور والهوان حتى أن أحد النوبيين سولت له نفسه باعتلاء عرش المملكة المصرية وتم له ما أراد ولكن سرعان ما أزاحه أحد المغامرين المصطرعين حول العرش الفرعونى .. ويذكر لنا التاريخ من الملوك المغامرين فى هذه العماية شخص كان لقبة :" مِرْمِشو" ، أى أمير الجيش استطاع أن يستولى على السلطة بفضل القوات العسكرية التى كانت تحت إمرته .. وهنا زادت الفوضى زيادة عاتية تمزقت فيها البلاد الى مزق متناثرة كان أكبرها إقليم طيبة فى الجنوب ولقد خلف على عرش مصر فى مدة الانهيار التى بلغت مائة وخمسين عاما ما يقرب من مائة وثمانية عشرة

ملكا . ولذلك فلا نستغرب إذا "تدهورت الحالة [1] الإقتصادية فى البلاد فبعد أن كان نظام الرى ينفذ فى أنحاء البلاد تحت إشراف ديوان الملك انعدم نظامه واضطربت أموره فقلت الحاصلات والمصنوعات . ثم عمد حكام الأقسام الى استعمال الشدة والظلم مع قومهم ففرضوا عليهم الضرائب والرسوم الباهظة وجمعوها بقسوة وأثقلوا كاهلهم بها فجاءت هذه الاجراءات هادمة لنهضة البلاد ورخائها اللذين كانا مبعث عناية بيت أمنمحت فى مدى مائتى سنة"..

ولكن فى غاشية الهيكسوس بدأت الإرادة المصرية تستعيد قوتها فأبت أن تخضع خضوع الذلة والمهانة لأولئك الغرباء المتجبرين ونهضت إمارة مدينة طيبة بواجب تحرير البلاد منهم فتتابع أربعة ملوك تصادف أن كان اسم كل واحد من الثلاثة الأول هو :" سكننرع" ، أما الرابع فكان اسمه: "**كاموس**".. وقد قاموا جميعا بشن الغارات فى تتابع هجومى شرس على قوات الهيكسوس لإرغامهم على الجلاء عن البلاد ..

وبعد وفاة "كاموس" ملك طيبة – وكانت مدة حكمه قصيرة – تولى ابنه أحمس الأول .. وقد اعتبره المؤرخ المصرى :"مانيتو" أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة وكان ذلك عام ١٥٨٠ قبل الميلاد . وقد واصل النضال من مركزه فى طيبة لتحرير البلاد تحريرا نهائيا من العدو الدخيل. ويصح لنا أن نقول إن التاريخ قد تضافر مع الجغرافيا فى إلقاء الغموض الكثيف على أحداث الهيكسوس وما وقع منهم أثناء تواجدهم فى مصر، وما وقع لهم من صور النضال الذى نهض به المصريون حتى تم طردهم من البلاد جميعها . وذلك لأن عاصمتهم فى الوجه البحرى - وكانت مدينة أواريس - وما كان فيها من آثار قد دمرت واختفت نتيجة لمياه الفيضان التى أتت عليها ، وكذلك

[1] المرجع السابق ص ١٣٩

لما تعرضت له من تدمير شديد على أيدى المقاتلين المصريين الذين صبوا غضبهم ونقمتهم على الهيكسوس فدمروا آثارهم ولم يبقوا على شئ يذكر بهم.

والسر فى اختيار الهيكسوس مدينة أواريس عاصمة لهم فى مصر أنها كانت قريبة من آسيا التى كانت تحت حكمهم .

أما عن صور الكفاح المرير والمتشعب الذى خاضه المصريون ضد الهيكسوس فصفحات التاريخ الفرعونى لم تسجل :"معلومات رسمية" بشأنها وكذلك لم يترك لنا الملك أحمس الأول مذكرات خاصة بذلك النضال وغاية ما وصل اليه الحفريون وعلماء الآثار ، نقوشا مدونة على واجهة مقبرة لأحد كبار الضباط المصريين من ناحية طيبة (الكاب).

وكان مناصرا لملوك طيبة وتعاون معهم فى إخلاص وإيمان فى قتالهم ضد الهيكسوس وكان اسم هذا الضابط :"أحمس" ، أما أمه فكان اسمها إبانا" وكان والده يدعى "بابا" وكان من ضباط سكننرع الثالث.. ومن النصوص التى سجلها أحمس بن أبانا على مقبرته يمكننا أن نستكشف طبيعة القتال الذى دار بين الهيكسوس والمناضلين المصريين ، كما يمكننا أن نتعرف على خطة سير المعارك التى دارت رحاها مما يجسد لنا شراستها وكيف أنها أظهرت صلابة الإرادة المصرية فى إصرارها على تحرير أرض وطنها وإن تكلفت ما تكلفت من جند وسلاح ومشاق الجهاد وكذلك مهما طالت المعارك وتنوعت مواقعها بين الشرق .. يقول الضابط أحمس ابن أبانا عن حياته فى عهد الملك أحمس الأول :"مضيت[1] أيام شبوبيتى فى مدينة الكاب وكان أبى ضابطا فى جيش جلالة ملك القطرين البحرى والقبلى سكننرع المرحوم ، وكان يسمى بابا وهو ابن رينيت . ولما توفى وظفت مكانه فى سفينة تسمى "القربان" وذلك أيام المرحوم الملك أحمس

[1] المرجع السابق ص ١٤٦ .

الأول. وكنت إذ ذاك شاباً لم أتزوج - فلما تزوجت وصارت لى أسرة نُقلْتُ الى الأسطول الشمالى لما شوهد فى من الشجاعة والإقدام". ومما يستخلص من ذلك أن الضابط أحمس نقل إلى الشمال لمواجهة الهيكسوس غير أنه تغيرت طبيعة عملة فبعد أن كان ضابطا بحريا أصبح ضابطاً فى القوات البرية فى مجموعة الحرس الخاص بالملك ويتضح هذا من قوله: "وكنت أتبع الملك فى [1] سيره حيثما أقلته عجلته . ولما حاصر الملك مدينة أواريس أظهرت له بسالة عظيمة وأنا أحارب على قدمى فعيننى جلالته بالسفينة المسماة :"ضوء منف" .. ثم حارب جلالة الملك فى مياه ترعة "بزدكو PAZEDKU" جهة أواريس . وقد حاربت وقتئذ بيدى فأحضرت يدا مقطوعة من رجال العدو برهانا على شجاعتى وإقدامى . فبلغ ذلك الخبر رسول الملك فأنعم على جلالة الملك بعد ذلك :"بنشان الشجاعة الذهبى".. ولما قامت الحرب مرة ثانية فى هذا المكان دخلت النزاع وحاربت بيدى وأحضرت يدا أخرى (من أسير) فأنعم على جلالة الملك مرة ثانية ":بالنشان الذهبى"لشجاعتى".

لكن ثورة عنيفة نشبت فى أقاليم مصر جنوبى مدينة الكاب مما أوجب على أحمس الأول أن يتوجه إليها بنفسه لإخمادها قبل أن يستفحل شأنها .. وفى هذا يقول أحمس بن أبانا :".. فحضر [2] الملك وحاربت قسم مصر جنوبى هذه المدينة (الكاب) وأسرت حينئذ رجلا حيا نزلت به الى البحر قابضا عليه كأننى سائر فى طريق المدينة وعبرت به النيل فعلم بذلك رسول الملك فأنعم على جلالته بمكافأة ذهبية مضاعفة". ثم قال أحمس بن أبانا :"فسقطت أواريس [3] فى قبضة جلالة الملك وهناك أسرت رجلا وثلاثة نسوة

---

(1) المرجع السابق ص ١٤٦ .

(2) المرجع السابق ص ١٤٦.

(3) المرجع السابق ص ١٤٦ .

فكان المجموع أربعة وهبهم لى جلالته عبيدا".. ودلالة تلك المعارك أن الملك أحمس الأول استولى على أواريس بعد مواقع متلاحقة لم يعرف عددها وإن كان بعض المؤرخين يرجحون أنها أربع .. وعلى أية حال فقد كان أحمس الأول يحارب فى جبهتين : جبهة الهيكسوس ، وجبهة حكام الأقاليم الذين كانوا يخرجون عليه بقصد الاستقلال بإماراتهم ..

وبعد سقوط أواريس - يقول أحمس بن أبان - :"حاصر[1] جلالة ملك مصر "شاروهن - شرحان - (تقع جنوبى يهوذا بفلسطين) ، لمدة ثلاث سنوات واستولى عليها . وقد أسرت وقتئذ امرأتين ويد أسير فكافأنى جلالته بالذهب على شجاعتى وملكنى رقاب الأسيرتين".

وبعدها صار أحمس الأول يطارد الهيكسوس حتى أقصى شمال الشام، وكان القائد أحمس بن نِخْبِتْ خير عون للملك فى تلك الحرب .

وبعد أن طهر أحمس الأول البلاد من الهيكسوس قصد جنوب الوادى حيث أخضع الأقاليم التى خرجت عليه وقد توغل فى الجنوب حتى السودان فأخضعه للسيادة المصرية .. وقد صحبه فى حرب الجنوب القائد أحمس بن أبان الذى ذكرناه من قبل وكان مما كافأه به خمسة عبيد وثلاثة أفدنة ونصف من أرض إقليم الكاب ، هذا فضلا عن المنح الجزيلة التى أفاء بها الملك على ضباطه الذين جاهدوا معه .. ومما يرويه أحمس ابن أبان أن قد وقعت مؤامرة للقضاء على الملك ، فقال ": جمع الخائن المغلوب على أمره "تتى إن TETI – EN رجاله ليحارب[2] جلالة الملك فقتله جلالته هو وخدمه وأعطانى ثلاثة عبيد وثلاثة أفدنة ونصف بجهة بلدى الكاب "..

ومما دعم من قوة الملك وبسط نفوذه فى الجنوب أنه استطاع بسياسة المكافآت المادية والمعنوية أن يؤلف بين أمراء البلاد تحت قيادته .. ثم تمكن

(1) المرجع السابق ص ١٤٦ .
(2) المرجع السابق ص ١٤٦ .



بعد ذلك من أن يطويهم تحت لوائه وأن تكون الكلمة كلمته فى طول البـــلاد وعرضها ..

* * *

وإذ كانت حرب التحرير التى شنها أحمس الأول على الهكسوس حتى تم طردهم من مصر .. وإذ كان قد واصل فتوحاته متعقبا لفلول الهكســوس حتــى مشارف بلاد الحيثيين وتم له ضم الشام وفلسطين وأراضى الفرات إلى مصر ، فقد أدت تلك الخبرة العسكرية المتنوعة والشاملة الى إدخــال عــدة تحسينات جذرية على الجيوش المصرية من حيث القيادة والتنظيم والأسلحة.. فمن حيث القيادة أصبح أبناء الفراعنة يختارون قواداً لفرق الجيــوش .. أمــا الجانب التنظيمى للجيوش فإنها قسمت الى جناحين ، جنــاح خــاص للوجــه البحــرى وآخر خاص للوجه القبلى ، كما قسم الجيش الى فرق لكــل فرقــة عدد خاص من الجند .. ومن حيث التنظيم القتالى للجيــوش فإنــها اتخــذت صورة قلب وجناحين . وقد أعان ذلك المصريين على حسن إدارتهم للمعارك فى الهجوم والمباغتة والالتفاف والتمويه .

ومن حيث الأسلحة فإنها تطورت بحكم الاحتكاك بالجيوش الأجنبية ، تطــوراً أعان على كسب المعارك وإنزال الخسائر الفادحــة بــالعدو . فقــد شملــت الأسلحة : القوس والنشاب والبلط ، كما أجاد جند المشــــاة إطــلاق النبال وتصويبها فى دفعات متجمعة فكانت أشبة بالمدافع الكثيفــــة النــيران. وكــانت لفرقة النبالة المصرية مكانة عظيمة بل إن شهرتــــها ذاعــت بيــن جيوش العالم حتى الاستعمار الرومانى ..

ومن الأسلحة التى أحدثت انقلابا خطيراً فى أساليب الهجوم العجلات الحربية وهو ما استفاده المصريون من الهيكسوس فقد جلبوهــا معــهم فــى

حربهم مع المصريين ، كما عرف المصريون عنهم الخيول فاستخدموها في جر العجلات التي أتقنوا صنعها..

وفرض التنظيم العسكرى على الملك أن يكون له حرس خاص بشعار خاص . وكان هذا الحرس يرافقه في جميع أوقاته وفي الأماكن التي يقصدها كما أصبح للملك هيئة أركان حرب من الضابط يجتمع بها وقتما يشاء ، ليشاورها ولتستنير برأيه .

ولما توفى أحمس الأول كانت النزعة العسكرية قد طغت على الزعامة المصرية بل على كل أبناء الشعب ومن ثم أصبح الفكر العسكرى هو المسيطر على العقلية المصرية لعدة قرون فكان من الطبيعي أن تتطلع طبقات الشعب ولا سيما الطبقة الوسطى إلى تحقيق الثراء والمكانة الاجتماعية بالانخراط في سلك القوات المسلحة ...



٣- توطيد أركان الإمبراطورية

تحتمس الثالث

الصراع المقدس .. حتشبسوت

فـــى أواخر أيام تحتمس الأول وبعد أن عزز مكانة مصر وهيبتـــها ومد نفوذها فتوحدت شعوب المنطقة العربية من أقصى شمال ســوريا قــرب أراضى الحيثيين ، إلى غــرب آسيا أراضى نهر الفرات كمـــا دخلــت فــى الإطار الإمبراطورى البلاد الواقعة على ساحل البحــــر الأبيــض المتوســط وقرقميــش فى الداخل .. وكذلك البلاد الموجودة غرب مصر حيـــث ليبيـــا وفى أقصى الجنوب حيث النوبة والسودان والصومال ..

كذا امتدت الإمبراطورية المصرية على العالم القائم آنذاك .. حتى إذا كـــان الملك تحوتمس الأول المؤسس للإمبراطورية المصرية - فإنـــــه فــى أواخر العام الثلاثين من حكمه ولرؤيته الخاصة من أجـــل اســتتباب الأمــن والرخاء فى مصر فإنه آثر أن يبوئ ابنه تحوتمس الثالث عرش مصر وكانت آخر وصية له .. ولكن نشب صراع بين حتشبسوت وأخيها وزوجها تحوتمس الثالث مما اضطره إلى أن "يعترف [١] رسمياً بحق زوجته حتشبســـوت فــى الملك . ومن ثم أخذت سلطته تضعف وتختفى فى حين أن نفوذ هذه الملكــــة أخذى يقوى ويشتد تدريجياً حتى أضحت فرعونا جامعة كل الحقوق الفرعونية ولقبت بحوريس المؤنث وأنث لأجلها لقب الجلالة ثم انصبــغ نظـــام القطـــر والأعمال الملكية بالذوق النسوى تمشيا مع إدارة حتشبسوت ".

---

[١] المرجع السابق ص ١٧٧ ،

بحنكة سياسية وفى إطار من دهاء المرأة فقد أدركت حتشبسوت أنه إذا كانت التقاليد المقدسة تفرض ضرورة أن يكون ملك مصر ابنا للإله الأعظم آمون فإنها سبكت رواية فحواها أن ":آمون [1] نزل على أحمسى أم حتشبسوت فى فيض من العطر والنور فأحسنت هذه استقباله وعندما خرج من عندها أعلن أن أحمسى ستلد ابنة تشع على الأرض كل ما يتصف به الإله من قوة وبسالة ".

وحتى يتقبلها الشعب تقبلا طيبا فإنها شاءت أن تتصرف كما يتصرف الرجال فأعلنت أنها لا تقل عنهم فى المقدرة بل إنها تبزهم فى أخص أعمالهم وهى الحرب والقتال فهى من ثم الرجل المقدس الذى باركه آمون ولذلك فإنها أصدرت أمرها بأن تصور على الآثار فى صورة محارب ملتح من غير ثديين . ولئن سجلتها النقوش الباقية منذ أيامها على أنها أنثى فتحدثت عنها بضمير المؤنث إلا أنها كانت تطلق عليها :"ابن الشمس" ، "وسيد القطرين" . ويصور لنا المهندس "أنينى" وكان كبير المهندسين عند الملك تحوتمس الأول، والد حتشبسوت العلاقة بين حتشبسوت وزوجها وأخيها تحوتمس الثالث بقوله: "كان تحوتمس [2] الثالث حاكما جالسا على عرش أبيه الذى خلفه أما أخته الزوجة المقدسة حتشبسوت فكانت تحكم البلاد بإرادتها فطأطأت لها مصر رأسها مطيعة لأوامرها . ولا غرابة فى ذلك فجلالتها من النسل المقدس العظيم ... الخارج من صلب الآلهة ... فكانت بمثابة حبل مقدم السفينة فى البلاد الجنوبية .. ووتد مرسى السفينة عند أهالى الجنوب ...

---

(١) كتاب "قصة الحضارة " (عصر الإيمان)

(٢) كتاب تاريخ مصر ، تأليف : جيمس هنرى برستد ، ترجمة : د / حسن كمال ، ص ١٧٧

وحبل مؤخر السفينة العظيم فى البلاد الشمالية لقد كانت جلالتها صاحبة الأمر والنهى والمشروعات السديدة والقول المليح . الذى ملأ أهالى القطر فرحا وسرورا".

ولدعم مكانة حتشبسوت فى الحكم فقد سُجل على جدران معبد الدير البحرى نداء ملكيا من تحوتمس الأول الى أهالى البلاد .. جاء فيه :" عليكم[٣] أن تطيعوا جلالتها ... وأن تتحدوا طوعاً لإرادتها ... فالذى يخضع لها منكم يعيش ... أما الذى يغتاب جلالتها فلن يترك حيا"..

ولعل ذلك النداء كن من تدبير حزب الكهنة الموالى للملكة لكى تتقبل البلاد حكم امرأة وهو الأمر الذى لم يتعوده الشعب من قبل ..

وإذا كان التاريخ لا شأن له بتلك البواعث النفسية إلا أنها - أى حتشبسوت - صارت كما يقول ول ديورنت :" من خير الحكام الذين جلسوا على عرش مصر - وهم كثيرون - ومن أعظمهم نجاحاً" .

لقد بنت حتشبسوت سياستها على إفراغ الاستقرار والرخاء والأمن والعدل والنظام على جميع ربوع الإمبراطورية . فاتصف حكمها بالتعاطف على الناس والرحمة بهم . كما أنها لم تحاول أن تقوم بأعمال عسكرية خارج حدود الإمبراطورية المصرية .. أو تشتبك مع أية قوة خارجية. ولكنها بدلاً من بعثات القتال أرسلت بعثاتها لجلب الخير والثراء لوطنها . فأرسلت بعثة كبيرة إلى بلاد "يونت" ، الصومال . كما أنشأت أسواقاً للتجارة الخارجية مع دول الإمبراطورية .. وكذلك وجهت جهودها نحو آثار من سبقوها من ملوك مصر .. كما أنها أقامت مسلتين ضخمتين امتازتا بالجمال وحسن الصنع ووضعتهما بمعبد الكرنك .. وكذلك قامت بإنشاء الهيكل الجميل العظيم فى الدير البحرى وهو الهيكل الذى وضع أبوها خطته قبل أن يموت .. كما

[٣] "كتاب تاريخ مصر " ، تأليف : جيمس هنرى برستد ، ترجمة : د/ حسن كمال ، ص ١٧٧



أنها أمرت بترميم المعابد والهياكل التى كان الهكسوس قد خربوها قبل رحيلهم ..

وقد كان الزهو يملأها إذ وجدت أنها قد نهضت بكل تلك الأعمال العظيمة . فقالت فى أحد نقوشها معتزة مفتخرة :" لقد أصلحت ما كان من قبل محربا وأكملت ما لم يكن قد تم تشييده .. وحين كان الآسيويون فى وسط الأرض الشمالية يهدمون فيها ما كان قائما قبلهم "

الحق أن الملكة حتشبسوت - أو الملك حتشبسوت - قد حكمت بلادها والإمبراطورية بأسرها حكما اتصف بالحكمة والرحمة والرغبة الصادقة فى إشاعة الرخاء .. فلم يكن غريبا حين قالت :" لقد بلغت حدود مملكتى الجنوبية أرض الصومال (بونت) وحدودها الشرقية مستنقعات آسيا فصار الآسيويون فى قبضتى .. أما حدودى الغربية فوصلت الى جبال مانو Manu أى مغرب الشمس ... وذاع صيتى بين البدو ..

قد أحضر مر بلاد الصومال وخيرات تلك البلاد العجيبة ، أحضرت إلى قصرى كتلة واحدة حقيقة لقد أحضرت الى أجود الخيرات من أرز وعرعر وخشب "مرو" Meru

وأخشاب الأرض المقدسة الجميلة جميعها ، لقد أحضرت لى جزيرة يحنسو (الليبيين) من عاج علاوة على سبعمائه ناب من أنياب الغيلة وعدد من جلود الكثاعم البالغ طول كل منها خمسة أقدام وعرضه أربعة أقدام (من الظهر)".



تحوتمس الثالث ...

يدو أنه من طبيعة الناس أنهم حين يأنسون من حاكم لينا فى المعاملة وإغضاء عن الخارجين عليه وعفوا وتسامحاً عن اللكثيرين فإنهم يخرجـــون عليه فينزعون إلى التمرد والمجاهرة بالعصيان إلى أن يأتيهم من يردهم إلـــى صوابهم فيردعهم عن غيهم .. وهذا ما حـــدث فـــى أعقـــاب وفـــاة الملكـــة حتشبسوت واعتلاء تحوتمس الثالث عرش الإمبراطورية . فقد استهانت البلاد بالملك الشاب الذى لم يتجاوز الثانية والعشرين فقد شكت فى قدرته على إدارة الحكم والاحتفاظ بالوحدة القائمة بين شعوبها من أيام والده تحوتمس الأول فماذا يصنع الشاب وقد شاهد بعينه تمزق الإمبراطوريية ؟ كـــان لابـــد مـــن المواجهة السريعة الحاسمة التى تفرض الإحكام فى التدبير والجســـارة فـــى التنفيذ .. ذلك أنه بعد وفاة تحوتمس الأول وحتشبسوت وآلت الإمبراطوريـــة إلى تحوتمس الثالث وتسامعت الدول التى تألفت منها بصغر سن الملك الجديد وحداثته وعدم حنكته فى خوص الحروب وإدارتها ، فإنه سيكون بلا شك غير قادر علـــى النهوض بأعباء الأمبراطورية وغير قادر على تصريف شئونها ، ولا سيما وأن بعض هذه الدول قد شقت عصـــا الطاعـــة عليـــه وصرحـــت باستقلالها وعدم خضوعها لفرعون مصر إذ أحســـت بـــأن قبضـــة الحكـــم المصرى قد تراخت كثيراً فى أيام حكم حتشبسوت لهذا فإن تحالفات الخروج على مصر سرعان ما جرت بين تلك الدول .. فالبلاد الآسيوية أنشأت فيمـــا بينها تحالفا تحت قيادة ملك "كدش" ، وكذلـــك البـــلاد الواقعـــة بيـــن مدينـــة يرازا "yeraza" الواقعة إلى الشمال من "يوديا Judea K" وبين إقليم المســـتنقعات إلى الجنوب وعلى مقربة من نهر الفرات شمالا .



كل تلك المنطقة جاهرت بالعصيان إن لم يكن بـــالعداء .. ووجدهـــا بعـــض الفلسطينيين فرصتهم فانضموا إلى الخارجين على ملك مصر ، وكانت النتيجة أن نشبت ما يمكن تسميته بحرب أهلية بين الأهـــالي الفلســـطينيين والقـــوات المصرية وكان مركز تلك الحرب مدينة "شاروهن" (شرهان) الواقعة جنـــوب فلسطين .

ثم امتدت عدوى التمرد والمجاهرة بالخروج على الحكم المصري إلى المنطقة الغربية من سوريا والتى عرفها المصريون باسم "زاهى" ، ومنها إلى مملكة "متانى" الواقعة شرق نهر الفرات وقد عرفـــت تلـــك المملكـــة بـــالقوة والعناد.

كل هؤلاء تكتلوا فيما بينهم فى حلف أعلن استقلاله عن مصر كمـــا أنهم وقفوا مع الخارجين لمساعدتهم .. وفضلا عن هذا فإنهم زينوا للخـــائفين والمتقاعسين التألب على الحكم المصرى والتخلص منه .

ولم يجد تحو تمس الثالث أمام ثورات العصيان التى اندلعت على هذا النحو الخطير إلا أن يخرج لإعادة الإمبراطورية إلى وحدتها وليعيد لمصـــر هيبتها ..

فبدأ أولا بإنزال العقاب الصارم بملك "متانى" الذى ناصر المتمرديـــن .. ثم انطلـــق نحو بلاد النهرين وأخمد تحركات العصاة بها وبعدهـــا توجـــه نحو البلاد الآسيوية ليعيد السيطرة المصرية عليها . ولما كانت مملكة "متانى" علـــى خلاف مع دولة آشور الصاعدة والتي اصطنعـــت أســـلوب البطـــش الدموى مع جيرانها سياسة لها فإن "متانى" لم تجد مناصا من أن تحصن نفسها من العدوين اللدودين مصر وآشور . فكان أن جعلت مـــن مدينـــة "كـــدش" عاصمة لها فكانت من ثم حاجزا قويا يصد القوة المصرية عنها.

وفضلا عن هذا فإن تحوتمس الثالث لم يكتف بإرسال حملات تأديبية إلى الجهات المتمردة لتكون مجرد عملية إسكات فحسب ، ولكنه بنظرة واعية

إلى المستقبل جعل من حملاته فتحاً جديداً .. فحدث أنه في نهاية السنة الثانية والعشرين من حكمه خرج بجيش كبير معلنـــا النضـــال مـــن أجـــل الفتـــح والإخضاع الدائم للعاصين حتى لا تحدثهم أنفسهم بـــالاجتراء علـــى مصـــر بالتمرد والمخالفة . فاتخذ وجهته البلاد الآسيوية منطلقاً مـــن مدينـــة "ثـــارو" Tharu قرب مدينة القنطرة التى تقع على حدود مصر الشماليـــة الشرقيـــة .. وكان انطلاق تحوتمس الثالث فى حملته فى يوم ١٩ إبريل سنة ١٤٧٩ ق.م. ثم وصل مدينة غزة فى ٢٨ إبريل . وقد صادف يوم وصوله إلى غزة اليوم الرابع من شهر بشنس وبذلك يكون قد مر اثنان وعشرون عاما على اختيـــار الإله آمـــون لتحوتمس الثالث ليكون ملكا على مصر وذلك بمعبد الكرنك وفى منطقة الأعمدة التى أقامها والده تكريما للإله العظيم .. ورغـــم أن خـــروج تحوتمس الثالث للقتال صادف تلك المناسبة المقدسة إلا أنـــه تقديـــراً للوقـــت وللمهمة الخطيرة التى اعتزم تنفيذها لم يعبأ كثيرا بالاحتفـــال بعيـــد تتويجـــه وفضل أن يسارع بالزحف،ففى صباح يوم ٢٩ إبريل سنة ١٤٧٩ ق.م . اتخذ سبيله بجوار ساحل البحر محاذيا لمدينة "شبهلا" (shephelah) ، ثـــم اخـــترق سهل شارون (sgaron)، ثم اتجه صوب مدينة "يوهم" (yehem) فبلغها فى اليوم العاشر من شهر مايو سنة ١٤٨٩ ق.م. وهناك أقام معسكره بالقرب منها .. وفى الوقت الذى وصل فيه تحوتمس الثالث الى مدينة "يوهم" (yehem) كـــانت القـــوات المناوئة لمصر قد تحالفت تحت قيادة ملـــك كـــدش فاتجـــهت الـــى الجنـــوب حتى نهاية حدود حلفائها . وهناك احتلت حصـــن مجـــدو ، وهـــو حصن قوى يقع فى جزرل jezreel ، على السطح الشمالى لجبال كرمل . ومن المعروف أن جبل كرمـــل يمثل عارضة كبيرة حاجزة من شأنها أن تعطـــل القوات المصرية وهى فى سيرها نحو آسيا .. ولقد كان ملك كدش على خبرة جيـــدة بالفنون الحربية وإدارة المعارك ولهذا فإنه اتخذ من موقعه الحصيـــن فى مواجهة القوات المصرية خط دفاعه الأول .

ومن المعروف تاريخيا وعسكريا أن حصن "مجدو" يتميز بموقعه المنيع الذى يتعذر الوصول إليه ، إذ أنه يقع بين سلسلتى جبال لبنان ويشرف على الطريق الذى يربط بين مصر والعراق . وكان ذلك من الأسباب القوية التى جعلت لمدينة "مجدو" أهمية خاصة فى تاريخ الشرق العربى وقد ازدادت هذه الأهمية بتوالى العصور والمعارك ...

ومما له دلالته أن تحوتمس الثالث كان على يقين من أن البلاد الخارجة عليه هى قطعة من بلاده أو من أملاكه ، وقد عبر عن هذا اليقين بقوله :" لقد شرعت بلاد الفنكو" (Fenkhu)الآسيوية تغزو بلادى" .. وهذا معناه أن الملك كان يخترق فى زحفه بلادا صديقة له حتى يصل الى جبل كرمل وبعدها صار حريصا فى زحفه وتحركه .. وأخيراً وصل الى مدينة "يوهم" (yehem)، وهناك جاءته الأخبار بأن أعداءه مجتمعون فى مدينة "مجدو" ليتدبروا أمرهم بينهم .. ومن جانبه عقد تحو تمس الثالث اجتماعاً مع هيئة أركان حربه ليتشاوروا فى أقوم السبل التى يستطيعون بها أن يعبروا جبل الكرمل ليصلوا إلى سهول "أزدرليون" .. وقد كانت أمامهم ثلاثة اقتراحات لتحقيق هدفهم :

الاقتراح الأول وفيه يبدأ خط السير من "يوهم" ويتجه إلى مدينة "أرونا" (Arena)مخترقا جبل الكرم حتى يصل الى أبواب "مجدو".

الاقتراح الثاني وفيه يتجه خط السير جنوبا ماراً ببلدة "طناح " (Taanach)، على بعد خمسة أميال من الجنوب الشرقي "لمجدو".

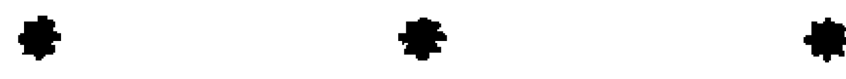
الاقتراح الثالث وفيه يتجه خط السير الى الشمال ويمر مخترقا بلدة "زفتى" (Zefti)، وينتهى بالشمال الغربى "لمجدو".

وبعد مناقشة هذه الاقتراحات وقع اختيار تحو تمس الثالث على الاقتراح الأول لأنه يتميز بتوفير الوقت ، هذا بينما فضل كبار ضباطه الاقتراحين الأخرين لأن الطريقين المفضلين عندهم أوسع وأنسب للتحرك وقد



احتجوا لرأيهم بقولهم :" إذا اتبعنا الطريق الأول فى زحفنا أفلا تضطر خيولنا أن تسيــر فرادى وكذا جنودنا فتكون مقدمتنا مشتبكة مع الأعداء ومؤخرتنـــا لا تزال فى "أرونا" ؟

ومعنى هذا أن المصريين كانوا على دراية تامة بطبيعة الأرض التى سوف يحاربون عليها وأنهم كانوا على علم تام بالمشاق التـــى تكلفـــهم بـــها طبيعة تلك الأرض . غير أن تحو تمس الثالث وإن أظهر الإحترام والتقديـــر لآرائهم إلا أنه أصر على رأيه مقسما لهم بعزة "آمون" بأنــــه ســـوف يتبـــع الطـــريق الأول ..." وأننى مصمم على خطتى وأنتم أحرار فى أن توافقونـــى أو تخالفونى"..



* * *

اتخذت قوات تحو تمس الثالث أهبتها للزحف علـــى حـــذر فبـــدأت تحركها نحو "أرونا" فى يوم ١٣ مايو . واحتراساً مما قد يقع من مفاجأة ليست فى الحسبان وحتى يقوى من حمية رجاله من القادة والجند فإنه رفع صوتـــه ليسمع الجميع قائلاً :" سأسير أمامكم كى أظهر لكم الطريق فتقتفوا أثر قدمى". ولما كانت أرونا تقع على سفح جبل كرمل والطريق إليها صعـــب الاجتيـــاز لاختناقة فإن تحو تمس الثالث تمكن من المرور بصعوبة شديـــد .. وأخـــيرا وصـــل الى المدينة سالما وبغير أن تفطن إليه عيون أعدائه ، وقضى ليلتـــه بها وكان ذلك فى ليلة ١٤ مايو .. فلما أشرقت شمس "رع" يوم ١٤ مايو فإنه أسرع فى زحفه وفى أثنائه التقى بمجموعة صغيرة من جنود العدو ســـرعان ما ناوشها وأبادها . ولو لم تكن صغَيرة لجاز أن تنزل هزيمة بقواته لأنه كان مـــرهقا من طول السير فى أخاديد الجبال ، كما أن جنوده كـــانوا متفرقيـــن بحكـــم الطريق الجبلى الضيق الذى فضله .. وبعد أن خلـــص تحـــو تمـــس الثالث من ذلك الضيق صار الطريق رحبا مما أراح مقدمة الجيش من حيـــث



حرية التحرك .. وهنا أصر ضباطه أن يتريث فلا يواصل السير حتى يلتئـــم شمل القوات المبعثرة وذلك لأنه كانت هناك بعض الوحدات التى لم تخرج من أرونا بعد فاستمع لنصيحتهم وفى نفس الوقت صار ينـــاجز قـــوات الأعـــداء ليشغلهم حتى تكتمل قوته ومن حسن حظ الملك أن قوات العدو لم تكن بالكثافة التى يُخشى منها ولذلك فإن قواته قضت عليها وأزاحتها من طريقـــها .. ثـــم انطلق الملك فى زحفه حتى إذا ما حان وقت الغروب كانت طليعة قواته قـــد وصلت إلى سهل "يزدر يلون" .. ويعد الجيش المصري هو من أقدم الجيوش التي دخلت تلك الساحة القتالية التاريخية ...

ثم انتهت القوات المصرية الى جنوب مدينة "مجدو" بغـــير أن تلتقـــي بالعدو ومن ثم تمكنت من الإقامة المؤقتة على شاطئ غدير "كينـــا" (Kina) . وكانت النتيجة أن الآسيويين أضاعوا فرصة لا تعوض إذ كان يمكنهم القضاء على القوات المصرية بحكم تسللها وهى تهبط من قمة الجبل لولا أنها كـــانت محجـــوبة عن أعين عدوها الذى كان موجودا فى الجنـــوب الشرقـــي مـــن المـــدينة .. ثم تصادمت طلائع الجيشين ، وقد ذهل الآسيويون المتواجـــدون فى مدينة "طناخ" (Taanack) مـــن ظـــهور المصريـــن أمامـــهم ظـــانين أن المصريين اقتفوا الطريق المعهود إلى مدينة "مجدو" .

ولما ارتكزت قوات تحو تمس الثالث فى مواقعها ، فإنه قـــام بجولـــة تفقدية حول معسكره فى سهل "مجدو" ، بعدها أصدر أوامره إلى جميع فـــرق الجيش بأن تنتظم فى تشكيلاتها القتالية فى سرعة ونظام وكانت مشاعر الجند وقتئذ فى غاية الحماسة تتأجج صدورهم شوقاً للقتال ... وفى مساء يـــوم ١٤ مايو ، بادر تحو تمس الثالث إذ وجد الأعداء فى ناحية الجنوب الشرقي مـــن قواته وتقدم هو بجناحه الأيسر ناحية الشمال الغربي "لمجـــدو" وذلـــك لكـــى يضمن لنفسه خط رجعة يمر ببلدة "زفتى" إذا قُدرت له الهزيمة . أما إذا حقق النصر فإن الطريق الذى اتخذه يمكنه من قطع خط الرجعة علـــى عـــدوه إذا



حاول الفرار شمالا .. وفى فجر يوم ١٥ مايو أصدر تحو تمس الثالث أوامره بأن يبدأ الجيش الهجوم على عدوه . وفى هذه اللحظة ركب عجلته تزدهي ببريقها الذي يخطف الأبصار لأنها صُنِعت من الذهب والفضة ، وكان مكانه فى قلب الجيش ، فى الوقت الذى كان فيه الجناح الأيمن قائماً على تل جنوبى غدير "كينا" (Kina) .. أما الجناح الأيسر فكان كما أشرنا متخذا موقعه فى الشمال الغربى "لمجدو" ..

وحتى يصد الآسيويون الهجوم المصرى ويصونوا مدينتهم من الدمار الذى قد ينزل بها فإنهم وضعوا قواتهم بين جيش تحو تمس الثالث "ومجدو"، وقد أمدوها بقوات إضافية لضمان التغلب على المصريين .. وفى مباغتته محسوبة اندفع تحو تمس الثالث . بمقدمة جيشه ملوحاً بسيفه فى غمرة من الحماسة الجياشة ، يفتك بأعدائه . وأمام هذه المباغتة لم يجد العدو مفراً من التراجع السريع متجها نحو المدينة مخلفا وراءه سلاحه وعجلاته المفضضة والمذهبة . وقد تملك الذعر سكان لمدينة لمشاهدة الفارين والقتلى فكانوا ينقذون الفارين بأن يخلعوا ملابسهم ويربطوهم بها لرفعهم إلى أسوار المدينة التى أغلقت أبوابها وقتذاك .

وقد كان من الممكن لتحو تمس الثالث أن يستولى على مدينة "مجدو" غير أن جنوده انشغلوا بجمع الغنائم التى خلفها الجنود الآسيويون وراءهم حتى تمكن ملك "كدش" ، وملك "مجدو" من دخول المدينة والتحصن بها .. ومما غنمه جنود تحو تمس الثالث خيمة ملك "كدش" فقدموا ما بها من أثاث الى الملك . غير أن الملك وقد صار أكثر حرصا وحذرا ، أدرك أن قد ضاعت منه فرصة هامة إذ كان من الممكن أن يقضى على أعدائه قضاء تاماً. ولذلك فإنه لم يغتبط كثيرا بمظاهر النصر التى فرح بها جنوده ، ولكنه عاتبهم قائلا :"لو استمررتم فى الهجوم واستوليتم على هذه المدينة لقد متم اليوم قربانا عظيما لأجل المعبود رع . فرؤساء البلاد العاصية موجودون

الآن داخل هذه المدينة مجدو ، ولذا فالإستيلاء عليها بمثابة الاستيلاء على ألف مدينة ".

ولم يتوان تحو تمس الثالث عن تطويق مجدو بسور من الأشجار وكان يقوم هو بنفسه بالإشراف على هذا العمل الفريد فى الحصار والذى كان من دواعى افتخاره فقد قال :" إن آمون أعطاني جميع أعدائي الآسيويين محاصرين فى مدينة واحدة ".. وكانت أوامر تحو تمس الثالث فى محاصرة المدينة شديدة وصارمة فراقبها الجنود مراقبة كبيرة ولم يأذنوا لأى من أهلها بالدنو من الجيوش المصرية إلا بقصد تسليم نفسه أسيرا .. وخلال ذلك الحصار المحكم استطاع ملك "كدش" أن يهرب من المدينة . وكانت شدة الحصار وطول مدته سببا فى أن يطلب الأمراء الآسيويون الذين لم يكونوا داخل "مجدو" بتسليم أنفسهم للملك إبقاء على حياتهم فتم لهم ما أرادوا وقد غمرت الملك سعادة كبيرة ..

وعلى غير ذلك كان موقف المحاصرين داخل "مجدو" فلما كانت المباغتة قد شلت المدينة بغير أن تأخذ أهبتها للحصار فإن أهلها سرعان ما هزمهم الجوع فلم يعد فى مستطاعهم أن يصمدوا سوى أسابيع قليلة وانتهى حصارهم بأن سلموا أنفسهم لملك مصر وكانت المفاجأة أن لم يكن ملك "كدش" بين الأسرى . وقد قال المؤرخ المصرى "مانيتو" عن تلك النهاية :"إن الآسيويين الذين كانوا فى مدينة "مجدو" التعسة قدموا أنفسهم لعظمة تحو تمس الثالث معطى الحياة قائلين : اسمح لنا ياذا الجلالة أن نقدم لك الجزية اللازمة .. ثم أحضروا لجلالته ما يملكونه مظهرين له الولاء راجين منه أن يسمح لهم بالبقاء أحياء لأن فضله عميم " فرد عليهم جلالته بقوله :" لقد سمحت لكم عظمتى بأن تبقوا أحياء ..

ومما يحسب للمصريين فى ميزان حروبهم ونشوة انتصارهم أنهم لم يقترفوا ما كان يقترفه ملوك آشور مع أعدائهم من إحراق وذبح وسلخ وتدمير

من القواعد .. وعلى العكس من ذلك فقد كان أسرى المصرين مجرد رهائن لضمان الخضوع لحكمه ، قال تحو تمس الثالث :" لقد أخذت نساء وأطفال اللعين ملك كدش رهائن وكذا نساء الرؤساء وأطفالهم".

وبعد "مجدو" واصل تحو تمس الثالث زحفه الى الشمال لإخضاع البلاد الخارجة عليه . فسلمت له الإمارات الثلاث الواقعة على منحدرات لبنان الجنوبية وهى :" يانوام "yenoam" ونوج "Nuges" وحرنكرو "Herenkery". وكانت تلك البلاد خاضعة لملك كدش .. ولكى يعطل ملك كدش فلا يتقدم من الجنوب ، وحتى يطهر الطريق بين سلسلتى جبال لبنان من أعداء مصر فإن تحو تمس الثالث أنشأ قلعة بمنطقة الإمارات وقد أطلق عليها اسم " تحو تمس جامع الوحشيين" .. وبعد أن استقر الأمر لتحو تمس الثالث فى تلك المنطقة فإنه صار ينظم أمورها المدنية بما يؤكد خضوعها ، ويؤكد أيضا حسن انتظامها وتقدم أحوالها المعيشية . فاستغنى عن حكامها الذين حاربوه وناصبوه العداء وعين مكانهم آخرين من الموالين له .. ولقد أذن لأولئك الحكام بالحرية فى إدارة شئون بلادهم طالما تقدموا بالجزية التي فرضها عليهم . وحتى لا ينزع أولئك الحكام إلى التمرد والعصيان فإنه ارتهن لديه أبناءهم الكبار وأسكنهم قصرا خاصا بهم أسماه :"حصن طيبة" .. وفى هذا الحصن أو القصر كانوا يربون على حب مصر والتغنى بفضلها . كما كانو يتلقون الكثير من العلوم والآداب التى كانت مزدهرة بها . فإذا مات أحد آباء أولئك الأبناء فإنه كان يأخذ مكان والده فى حكم بلده .

حتى إذا رجع تحو تمس الثالث إلى طيبة فإنه أقام ثلاثة أنواع من "أفراح النصر". يستمر كل فرح منها خمسة أيام ابتهاجاً بانتصارات الحملة الأولى . وصارت من الأعياد الرسمية فى الأمة ورصدت لها الإعانات وما تتطلبه من مصروفات . وتكريما لعيد ميلاد الإله آمون وهو عيد :"أبت"



فإنه خصص له ما يحصل عليه من إيراد المدن الثلاث التى آلت إليــــه فـــى جنوب لبنان .

ولما كان ملك كدش عنيداً وقوى الشكيمة ، وكان عقبة يحسب حسابها فـــإن تحو تمس الثالث بعد أن وطد النظام فى البلاد الآسيوية التى خضعت له وبسط عليها حمايته من أي اعتداء ، أخذ يجهز الحملة الثانية ليخضع بها باقي الأعداء . ففي السنة الرابعة والعشرين من حكمة سير جيوشه الكثيفـــة نحـــو آسيا متبعاً الطريق المنحنى ، ثم سار شمال فلسطين وجنوب سوريا . وما كاد حكام تلك البلاد يتسامعون بقدومه حتى هرعوا إليه مقدمين فرائض الـــولاء والتسليم "حيث طاف أو ضرب قبابه".

وما كادت أخبار انتصاراته المتواليه قد تسامع بها ملك آشور حتى أنه خف الى سوريا حيث استقبل تحو تمس الثـــالث بالـــهدايا الثمينـــة والخيـــل المسومة. وقد اعتبر تحتمس الثالث تلك الهدايا جزية على ملك آشور يلـــتزم بها كل عام . ثم رجع تحو تمس الثالث الى طيبة وكان وصوله فى أكتوبـــر وهو نفس موعد العودة من الحملة الأولي .. وفى هذه المرة شرع فى توسيع معبد الكرنك تكريماً لآمون العظيم الذى مكنه من النصر .

وفى السنة الخامسة والعشرين من حكمه عاد الى البلاد الآسيوية التى أعـــاد خضوعها لمصر وأدخل على إدارتها الكثير من التنظيمات التى تضمن تقدمهـــا . وقد اعتبر البلاد التى فتحها حتى ذلـــك الوقـــت تكـــون النصـــف الجنوبي لإمبراطوريته . أما الجزء الشمالي فكان لا يزال خارجاً عن سلطانه .. ثم نهض تحو تمس الثالث بحملته الثالثة ثـــم الرابعـــة ، وكانتـــا حملتيـــن تنظيميتين . وكأنه كان يدعم جبهته الجنوبية ويحصنها لكى ينطلق منها الـــى الشمال لإخضاع مملكة كدش القوية .. وقد وجد أنه يكون معرضا لـــهجمات أعـــدائه فتؤثر على تقدمه مالم يخضع فينيقيا وغيرها من البلاد الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط . ولما كان يطمع فى أن يبسط سلطانه علـــى

بلاد النهرين فإنه تقديرا لذلك العمل العسكري وجد أنه لابد أن يخضع كدش أولا لأنها كانت تسيطر على وادي نهر "الأورنط" (العاصي) لهذا فإنه شن عدة هجمات ناجحة على المدن الشمالية الواقعة على البحر وذلك بهدف أن تكون قاعدته فى قتاله مع كدش . مما يمكنه بعد ذلك من أن يتجه من الشاطئ الى بلاد متانى وإقليم النهرين بأسره ..

وحين ننظر الى تلك الإستراتيجية العسكرية فى ضوء الفن العسكري الحديث فإنه لم يكن هناك ما هو أقوم من هذه الخطة التى تتفق والإمكانات العسكرية المتاحة والظروف البيئية القائمة .. وقد اقتضاه تنفيذ هذه الخطة ضرورة إعداد أسطول قوى . وقد أوكل هذه المهمة الكبيرة الى القائد البحرى . "نيبامون" الذى عمل إلى جوارتحو تمس الأول بأمانة وإخلاص ... ولما أن تم تجهيز الأسطول الضخم وكان ذلك فى السنة التاسعة والعشرين من حكم تحو تمس الثالث انطلق لإخضاع المدن الشمالية الواقعة على شاطئ فينيقيا الذى يتميز بثراء مدنه .. ولقد كان الأسطول هو العون الوحيد لتحو تمس الثالث لنقل أسلحته ومعداته وجنوده وذلك لأن هجماته على فينيقيا وقعت قبل إخضاع كدش وجنوبها .

ولقد يسر لتحو تمس الثالث النزول على الشاطى الشمالى لفينيقيا ، تلك الصداقة التى كانت بينه وبين مدينة صور TYRE، وكانت تحظى بمعاملة خاصة . فقد اعتبرت مدينة حرة وقد أدى ذلك الى أن تروج تجارتها ولا تخضع لشروط الجزية .. ويذكر التاريخ أن أول مدينة استولى عليها تحوتمس الثالث كانت – بغير أن يذكر اسمها - تقع على الشاطئ فى مواجهة مدينة "تونب" (بعلبك) . ومن الغنائم التى غنمها تحو تمس الثالث من تلك لمدينة يتضح أنها كانت تتمتع بثراء عريض وأكثر من هذا فقد أقام بها أحد أجداد تحو تمس الثالث معبداً للأله "آمون"

وما أن علمت المدن الداخلية بما نزل بمدينة الشاطئ من دمار حتى أسرعت بإرسال المزيد من قواتها لإيقاف زحف المصريين . وكانت مدينة "تونب" (بعلبك) فى مقدمة المدن التي أرسلت قوتها لأنه تأكد لحاكمها أن سقوط تلك المدينة (المجهولة) معناه سقوط مدينة بعلبك أيضا .. ومن أعظم ما غنمه تحو تمس الثالث من تلك المدينة المجهولة والمقهورة أسطولها ، فقد ضمه الى أسطوله .. وبعدها اتجه بجيشه إلى الجنوب قاصداً مدينة "أرواد" (أرمادا) الحصينة ، وضرب حولها طوقا من الجنود .. ثم ضيق عليها الخناق فقطع الأشجار التى كانت تحيط بها ، وهكذا جردها من كل ما يمكن أن تفيد منه . وإن هى الا بضعة أيام وأذعنت المدينة للتسليم وقد غنم منها تحو تمس الثالث فيضا من الخيرات الفينيقية .

ولما أدرك حكام مدن الساحل الفينيقي أن مصيرهم لن يخرج عن مصير "تونب" حتى أسرعوا مقدمين فرائض الطاعة والولاء لملك مصر واضعين الجزية بين يديه .

ثم رجع الملك الى مصر حيث كانت تنتظره مظاهر الابتهاج والفرح...

وبعد أن استتب الأمر لتحو تمس الثالث وأصبح موقفه قويا راسخاً والطريق ممهدا لكدش فإنه لم يتوان عن القيام بغزوته السادسة لتدميرها .. ففى السنة الثلاثين من حكمه ذهب إلى فينيقيا وكان ذلك فى أواخر الربيع فى أعقاب موسم المطر .

وتوجه بجيشه الى "صميره" (Simyra)على فم النهر الكبير Eleutheros، ومنه توجه الى كدش مباشةً ، وقد اختار تحو تمس ذلك الطريق عن حنكة عسكرية مقدرة للموقع ولمقتضيات التحركات العسكرية . فقد كان هذا الطريق أنسب الطرق وأيسرها وأقصرها إلى كدش كما أنه يتيح لقواته حرية الحركة والقدرة على المحاصرة . والميزة الاستراتيجية لذلك المكان أن

عنده :"تنتهى [1]سلسلة جبال لبنان الشرقية Anrl-lebanon معرجه فى السهل الذى هو بالجنوب الشرقى للمدينة . ويتفرع من نهر الاوروبص (العاصى) غربا فرع صغير شمالي كدش وملاصق لها تماما ، ولذلك كانت هذه المدينة بين ملتقى هذين النهرين .

وكانت هناك قناة أيام تحو تمس الثالث لا تزال آثارها باقية للآن تصل هذين النهرين بعضهما ببعض وتكمل الحلقة المائية حول خش .. زد على ذلك أنه كان هناك خندق داخل هذه الحلقة المائية يحيط بالمدينة أيضا ويجعلها حصنا منيعا لا نظير له في سوريا رغم وقوعه فى سهل مسطح .

ويلاحظ أن موقع كدش الجغرافي: "ذو أهمية عسكرية كبيرة لأنه مشرف على نهر الأورونط على الطريق الموصل من الشاطئ الى داخلية البلاد مسافة طويلة شمالا وجنوبا محاذيا للنهر الكبير ".. وقد تأكد لتحوتمس الثالث عند معاينته لموقع المدينة وهى على هذا التحصن الطبيعي أنه يصعب الزحف داخل البلاد وتطويق كدش مالم تتم السيطرة على ذلك الطريق.

أماما تم بشأن هذه الحرب وكيف سارت معاركها فكل ما سجله الكاتب الكاهن بشأنها هو قوله:" إن جلالة الملك لما وصل الى كدش تغلب عليها ومنع عنها الغذاء ثم قطع أشجار غاباتها وحصد حاصلاتها".. وتلك كانت إحدى خطط تحو تمس الثالث فى الحصار وهى أن يقطع الأشجار المحيطة ثم يقيم منها سورا يحاصر به المدينة بما يتيح أن يشهد تحركاتها وهو خارجها هذا فى الوقت الذى كان تموين جيشه يأتيه من محاصيل الحقول القريبة .. ومما تذكره أخبار الحرب أن المدينة تعرضت لهجوم الجيش المصري مرات كثيرة ، ومما يروى أن القائد المصري :"أمنمحب ذكر أنه

[1] المرجع السابق ص ١٩٥



استطاع أن يأسر أميرين من مدينة كدش . فما كان من الملك إلا أن منحة هديتين عظيمتين واحدة منهما كانت : سبعا مصنوعاً من الذهب الخالص، وكانت الثانية :"ذباوبتان"

ومما زاد من صعوبة الهجوم على كدش أن مدينة "أرواد" (أرمادا) أعلنت خروجها على الملك تحو تمس الثالث . وكان ذلك مما جعل الملك يكون أكثر حذرا فلا يبعد كثيراً عن نهر الأورونط مشرقا نحو بلاد النهرين إلا بعد أن يبسط السيطرة التامة على الشاطى الفينيقي .. وهذا ما كلفه سنة كاملة وهى الحادية والثلاثين من حكمه فى ردع الانفصاليين الذى خرجوا عليه . ومما يدل على شدة الحركات الانفصالية أنه رغم احتلال الجيوش المصرية "صميره" فإن ميناء "أولازا wllazal ، أعلن هو الاخر تمرده على الملك .. ويرجع السبب فى تمرد ذلك الميناء وخروجه على طاعة فرعون أن ملك "تونب" (بعلبك) بعث بولديه ليقوما ببث الفتنة ضد الحكم المصري ، فما كان من تحو تمس الثالث إلا أن أسرع بإخضاع ذلك :" الميناء الحقير" .. على حد تعبير المؤرخ المصرى . وفضلا عن هذا فإنه عاقب ملك "تونب" بأن أسراً واحداً من أولاده.

وعندما رأت المدن المجاورة ما حل بتونب فإن حكامها أسرعوا يعلنون خضوعهم وولاءهم .

وبعد ذلك الجهاد المتصل منح تحو تمس الثالث نفسه هدنة .. وكانت الهدنة عبارة عن رحلة تنظيمية تفقدية ليطمئن على حسن انتظام الأعمال في الموانى الفينيقية وقد حرص على أن تقوم الموانى بتوفير جميع أنواع المؤن التى تحتاجها جيوشه فى العام القادم لأنه اعتزم غزو بلاد النهرين ... ومن المصادفات الجميلة أنه عندما عاد الى مصر وجد أن ملك النوبة قد بعث برسله ليقدموا الجزية التى فرضها عليه .



ولما كانت الحملة التى ينوى تحو تمس الثالث أن يغزو بها بلاد النهرين تتطلب إعدادا خاصاً من حيث الخطط القتالية ومن حيث توافر الأسلحة والرجال والعتاد فإن هذه الأعمال الكبيرة قد استغرقت عاماً كاملاً لتنفيذها . وبعد أن تم للملك ما أراد فإنه اتخذ مع جنده طريق البحر قاصداً ميناء (صميره) حيث أنزل بها قواته ثم أخترق البلاد مره ثانيا مقتفيا طريق كدش .. ثم اتجه شمالا وقد قابلته مدينة : كنتا (حمص) فاستولى عليها ثم رافق نهر الأرونط إلى مدينة "زنزار " فهزم قواتها وسيطر على المدينة .. وقد أظهر قائده : "أمنحب" من ضروب الشجاعة فى تلك المعركة ما جعل تحو تمس الثالث ينعم عليه بمكافأة الشرف للمرة الثانية ..

ثم خلف تحو تمس الثالث نهر الأورونط وراءه متجها صوب بلاد النهرين فصادفته قوة صغيرة فبددها ، وأسر "أمنحب" ثلاثة من العدو ، بعدها استمر الملك فى طريقه حتى "تل وان" Wan، – موقعه الى الغرب من حلب– وفى هذه المعركة سقطت مدينة حلب فى يد تحو تمس الثالث ... ثم اتجه الملك شمالا إلى مدينة "كارشمش" حيث التقى بجنود ملك "متانى" فأنزل بهم هزيمة نكراء على إثرها ولى جنودها الأدبار .. وأخيراً وصل تحو تمس الثالث بعد حرب استمرت عشر سنين الى نهر الفرات فعبره واقتحم مدينة "متانى". وتخليداً لبلوغه هذا المكان فإنه أقام نصباً تذكاريا ليحدد به آخر مملكته .. وقبل أن يعود الى مصر فإنه صوب الى مدينة "تى" Niy وكانت مصدر قلق له فى جبهة الفرات ثم استولى عليها بمجهود يسير .. ثم عاد الى مصر ليتفقد أحوالها ويقيم ما تحتاجة من مشروعات ، وخلال إقامته زاره أمراء بلاد النهرين معلنين طاعتهم وولاءهم لملك مصر وهم يقدمون إليه الجزية المقررة عليهم .. وأكثر من هذا وأشد إثارة للاستغراب أن ملك "خيتا" (الحيثيين) التى كانت تبسط كلمتها على الأقاليم الآسيوية التى لم يكن يعرفها



المصريون بعثوا إلى تحو تمس الثالث بالهدايا الثمينة احتراما له وتقديرا لمكانته ..

وعندما وصل الملك وهو فى طريق عودته الى شاطى البحر فإنه أصدر أوامره الى حكام الموانى بضرورة توفير المؤن والأسلحة التى تلزم الجيش فى السنة المقبلة وبهذه الخطة تمكن من أن يوفر ما قد يحتاجه أى ميناء فينيقي للقضاء على أية ثورة قد تندلع.

ومما تجدر الإشارة اليه أن الأسطول المصري قد ازدادت قوته فى هذه الفترة بما مكنه من إخضاع ملك قبرص كما تمكن أيضا من السيطرة على الجزر الشمالية بالبحر الأبيض المتوسط وعلى الإقليم الشرقي للبحر كما سيطر أيضا على مجموعة من البلاد اليونانية ..

ثم عاد تحو تمس الثالث الى طيبة وهناك وجد البعثة العسكرية التى كان قد بعث بها الى الصومال قد رجعت وهي محملة بخيرات الصومال من عاج وأبنوس ، وجلد نمر ، وذهب ، ومر ، وعبيد ، وقطعان كثيره من الغنم..

وفضلاً عن ذلك فإن تحو تمس الثالث مد نفوذه الى الواحات غرب وادى النيل وقد جعل يرسل إليها الحملة بعد الحملة حتى سيطر عليها تماماً ثم عين لإدارتها المشير الخاص لجلالته وكان اسمه "إنتف INTEF وهو سليل أمراء قسم العرابة المجاور للواحة الكبرى ..

ثم أصدر تحو تمس الثالث أمره الى كبير مهندسي العمارة :"بوم رع" بأن يقيم له مسلات بطيبة وذلك فى السنة الثلاثين من حكمة .. وفى معبد الكرنك أقام مسلتين ضخمتين نقش على إحداها :" تحو تمس عابر منحنى النهرين العظيم مصحوبا بجيشه وكان النصر حليفة " ثم سجل على جدران معبد آمون أسماء مائة وتسع عشره مدينة أخضعها لسلطانه فى غزواته الأولى .. أما عن غزواته الحديثة فإنه سجل ما يزيد على مائتين وثمانية



وأربعين اسما لمدن آسيوية .. وفى الأوقات التي كان تحـــو تمـــس الثـــالث يقضيها بمصر كانت لا تفتر له همة فقد كان يقوم بحمـــلات تفتيشيـــة علـــى أعمال الحكام فى أقسامها فيضرب بيد من حديد على المرتشين والذين يبتزون المواطنين وقت جمع الضرائب . كما أولى المعابد اهتماماً خاصا فكان يتفقدها ويأمر بترميم ما يراه بحاجة إلى الترميم .

وفى صورة عامة لحروبه فقد كان يسير فيها على نظام دقيق وفـــى أوقات معينة فبمجرد أن ينتهي فصل المطر فى فلسطين والشام فإنه كان يقود جيشه فى أسطول كبير يمر به على المواني السورية والفلسطينية فكان ولاتها يهرعون إليه بما يلزمه من مؤن وسلاح وعتاد ، يـــأتون بـــها مـــن البـــلاد المجاورة .. وقد كان من بروتوكولات الملك أنه كان يصحب كبير مستشاريه "إنتف" الذى كان يلقب بُحاكم طيبة وقسم الواحات ".. وكان من التقاليد الملكية أن يكون "إنتف" فى مقدمة الحملة ليتعرف على نية العدو فـــى المقاومـــة .. وكان كلما ألجأت الملك الظروف الى أن يبيت بإحدى المدن فقد كانت مهمـــة "إنتف "آنئذ أن يعد قصر حاكم المدينة لتحو تمس الثالث ، ومما قاله "إنتـــف" عن هذا التقليد " إذا وصل سيدي مصحوبا بالسلامة الى المكان الذي أنا فيـــه كان يجدنى قد نظمته وجهزته بكل ما يحتاج إليه فى البلاد الأجنبيـــة وربمـــا فاقت وسائل راحته ونعيمه ما هو بالقطر المصري .. كيـــف لا وقـــد كنـــت أنظف الحجرات وأعطرها وأرتب أثاث كل حجرة على حسب ما يليق بـــها وكنت أرى السرور على وجهه "..

وكان "ثانينى" أحد كتاب الملك الذين صاحبوه فى غزواته ، وكـــانت مهمته أن يسجل المعارك وما يجرى بها باستفاضة ، وممـــا قالـــه بـــاعتزاز وافتخار :" لقد تتبعت الملك تحو تمس الثـــالث وشـــاهدت انتصاراتـــه التـــى أحرزها في البلاد كللها . لقد أسر جلالته أمراء "زاهـــي" (ســـوريا) أحيـــاء

وأرسلهم الى مصر واستولى على بلادهم كافة وقطع أشجار غاباتهم .. لقد سجلت على وجه الحقيقة جميع انتصارات جلالته في كل بلد "..

* * *

إلا أن البلاد التى أخضعها تحو تمس الثالث لسلطانه كانت تتمرد عليه بين حين وآخر ففي السنة الرابعة والثلاثين من حكمه توجه ناحية الفرات ليخمد ثورة بها وهناك استولى على ثلاث مدن من قسم "نوج" Nuges، كما أنه توجه الى الجنوب حيث قسم "إيرمى" Irem المجاور للصومال فأخضعه وأخذ ابن حاكمها رهينة كى لا يتمرد عليه مرة ثانية ، وبعد مضى سنتين عاودت بلاد النهرين ثوراتها على تحو تمس الثالث وتألفت من الثائرين جبهة حاكم حلب أو "قائد النهرين النجس". ثم اتسعت دائرة التمرد والعصيان حتى آخر البلاد الشمالية التى كانت تعرف أنذاك بآخر حدود الأرض"، وهو أقصى ما يعرفه المصريون من أقطار العالم. ثم عاد تحوتمس الثالث الى بلاد النهرين فى السنه الخامسة والثلاثين من حكمه حيث واجه قوات العدو فى ناحية "أرينا Araina، وموقعها إلى الجنوب من نهر الأورونط :" حينئذ هجم الملك على هؤلاء الوحشيين .. ففروا مذعورين ثم سقط الواحد بعد الآخر أمام جلالته ".. ثم توجه تحو تمس الثالث الى جنوب لبنان لينزل عقابه الصارم بإقليم "نوج" .. وكان أن خشى ملك قبرص على نفسه فأرسل هداياه الى الملك كما جاءته هدية أخرى من إقليم بعيد جداً صار فيما بعد أحد أقسام مملكة آشور ، وكان اسم هذا الإقليم "أراياخيتيس Arrapakhitis.

ولمراقبة البلاد الخاضعة وحتى لا تعود الى التمرد والثورة فإن تحوتمس الثالث ظل بسوريا سنتين وكانت الموانى قد جمعت ما تحتاجه الجيوش المصرية من مؤن ومعدات .. ورغم ذلك فقد أقام أمراء سوريا وفلسطين وبلاد النهرين ، وبلاد الشواطئ الشمالية تحالفا بينهم وذلك

بتحريض من ملك كدش أعدي أعداء تحو تمس الثالث وكان الحلف بزعامة أمير "تونب" (بعلبك) .. ورغم أن تحو تمس الثالث كان قد بلغ في هذه الفترة الثانية و السبعين من عمره فإنه انطلق فى سرعة نحو الموانئ السورية وهو مدرك تماماً أنه لا بد من المواجهة الفاصلة مع ملك كدش .. وفى هذه المره لم يتخذ طريق الجنوب كما سبق له ولكنه فرض على كدش الحصار من الشمال حتى يمنعها من الاتصال بالبلاد الشمالية التى تؤازرها وتساندها .. ومن ثم وجد أنه لابد له استراتيجيا من الاستيلاء على مدينة "تونب" ، أولا . فتم له ما أراد .. وبعدها تحرك بجيوشه نحو كدش ، محتذيا نهر الأورونط . . وعند ذلك تأكد ملك كدش أن المقاومة والصمود إلى النهاية هو أهم ما يفعله وإلا أباده ملك مصر .

وتفتق ذهن ملك كدش عن خدعة أراد بها إرباك صفوف ملك مصر فأطلق فرسا أمام عجلات المصريين لإثارة خيولها وبذلك تدب الفوضى في صفوف القوات المصرية وفيستطيع ملك كدش أن يخترقها .. ولكن "أمنمحب" القائد المصرى أدرك الخدعة بسرعة مقفز من عجلته ورفع سيفه ملوحا": وهجم على الفرس راكضا على قدميه فقتلها وقطع ذيلها وأهداه الى فرعون ".. آنئذ أخذت خطوط دفاع تحو تمس الثالث تتقارب محكمة الحصار على المدينة خطوة خطوة بعدها أصدر الملك أمره باقتحام المدينة فأسرع رجاله المدربون فهدموا أجزاء من سورها اندفعت منها القوات المصرية وسيطرت على المدينة .. وهكذا :" خضعت أقوى مدن سوريا لطاعة فرعون وسقطت تحت مواطئ قدميه وحينئذ سلم لتحو تمس الثالث جنود النهرين الذين أتو لمساعدة كدش"

ورغم ذلك النصر الكبير إلا أن تحو تمس الثالث لم يأمن جانب الفتن والمشاغبات فكان أن أصدر أوامره للموانئ السورية بضرورة إعداد ما يلزم الجيش والأسطول من مؤن وعتاد ترقبا لما قد يقع من أحداث مفاجئة ..

ثم قام تحوتمس الثالث بحملته الأخيرة فقد استعاد بلاد النوبة (كوش) وعين عليها حاكما من قبله هو "نحى" (Nehi)..

ولما أدرك تحو تمس الثالث أن نهايته أصبحت وشيكة فإنه أشرك معه ابنه أمنحتب الثانى رزق به من الملكة حتشبسوت ، مرت رع ليكون خليفته من بعده . . ثم توفى الملك العظيم فى ١٧ مارس سنة ١٤٤٧ ق.م واحتفالا به وتكريما له وتعظيما لمآثره وجليل أعماله ، فإن كهنة آمون وضعوا أنشوده على لسان الإله ... ومما جاء فيها :

"هأنذا قد جئت وأبحت لك أن تضرب أمراء زاهي .. لقد أوقعتهم تحت أقدامك ودفعتهم (أمامك) حتى اخترقت أقطارهم وأريتهم جمال حضرتك وأطلعتهم على جلالتك فصاروا ينظرون الى سعادتك كملك مصور من نور فأصبحت تشرق عليهم كصورتي البهية وتبدو عليهم كذاتي العلية ...

هأنذا قد جئت وأبحت لك أن تطعن بسيفك سكان آسيا وتقبض فى أسرك الرتنو (أى الآسيويين) . لقد أريتهم جلالتك متهيئة للحرب قابضة أسلحتها ومقاتلة على عجلاتها ...

هأنذا قد جئت وأبحت لك ان تضرب بلاد الشرق وتجوس خلاله الى مدائن الأرض المقدسة وقد أريتهم جلالتك كوكب سهيل الذى ينشر النور مع الإيضاح وينثر الندى فى الصباح ...

هأنذا قد جئت وأبحت لك أن تضرب بلاد الغرب فكل بلاد الخفيتو وقبرص فى ربقة الفزع منك حيث أريتهم جلالتك كثور هو من نوع البقر فى الفتوة والجراءة بمكان يزينه قرنان فلا يقاومه معارض أيا كان ...

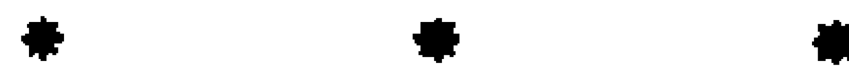
هأنذا قد جئت وأبحت لك ان تضرب سائر سكان الخطط الأرضية فبلاد متانى تنتفض فرقا من هيبتك حيث أريتهم جلالتك كالتمساح وهو الملك القهار فى مملكة البحار منيع الجوار لا ينجو منه ديار .

هأنذا قد جئت وأبحت لك أن تضرب سكان الجزائر فكان أهل البحار فى فزع من صياح قومك بنداء الحرب حيث أريتهم جلالتك كمنتقم جبار يعلو ظهر فريسته..

هأنذا قد جئت وأبحت لك أن تضرب الليبيين ولكن سكان الأوتنيتو UTENTYEW فى قبضتك مأسورة حيث أريتهم جلالتك كأسد يفزع كل من ينظر اليه ويرقد على رمم موتاهم فى خلال أوديتهم بحيث لا يتيسر لأحد أن يقدم عليه ...

هأنذا قد جئت وأبحت لك أن تضرب سكان أقاصى البلاد وأن تقبض على دائرة المياه (الأقيانوس) حيث أريتهم جلالتك كباشق يحوم فى الجو بطيره ويخطف كل ما أعجبه بمخلبه .

هأنذا قد جئت وأبحت لك أن تضرب الأقوام القاطنين على حدودك وليكن القوم المسمون سكان الأراضى الرملية،فى أسرك أحياء حيث أريتهم جلالتك كثعلب بلاد الجنوب الذى يختفى فى سيره فيقطع البلاد ويخترق الأراضى البعاد.." .



ولقد وصف تحوتمس الثالث وزيره المحنك الأريب : رخما رع بقوله " كان يعلم كل شئ فلم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحاط بها فكان فى ذلك كالإله تحوت (إله المعارف) فى معرفته وما تناول أمراً إلا أنهاه بنفسه".
أما الملك فإنه قال عن نفسه :" أنا لا أبالغ فى ذكر أعمالى لأننى لا أدعى شيئا لم آته .. ولذلك لا يمكن أحد أن ينكر علىَّ فعل شئ ادعيته لنفسى .. لقد قمت بأعمالى كلها لأجل آمون فهو يعلم ما فى السموات وما فى الأرض .. وهو الرقيب على البلاد والعباد فى وقت واحد" .

والحق أن تحو تمس الثالث كما وصفه جيمس هنرى برستد كــان ": أقدم بطل معروف على الأرض خضعت لقوته آســيا الصغــرى ، وأعــالى الفرات ، وجزر البحر المتوسط ، ومستنقعات بابل ، وشواطئ ليبيا السحيقة، وواحات الصحراء ، وهضاب الصومال ، وشلالات النيل العليا"..



٤- العبقرية العسكرية والعبقرية السياسية

فى توطيد الإمبراطورية

* رمسيس الثانى ..(١٢٩٢ -١٢٢٥ ق.م)

ثم توالى ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، وكل منهم يبذل جهدا ليثبت به أنه خليفة تحو تمس الثالث يحافظ على أملاك مصر فى الشرق والغــــرب .. وكان بعضهم يوفق فى فرض كلمة مصر على الشعــــوب والــــدول والمــــدن الخارجة ، وكان بعضهم يكتفى بما فعله من سبقه .. وظل نفوذ الحيثيين يزداد فى الشرق ونفوذ مصر يتقلص حتى انتهت الأسرة الثامنة عشرة ، وجــــاءت بعدها الأسرة التاسعة عشرة ... فكان من ملوكها رمسيس الأول ، ومن بعــــده سيتى الأول ولــــم يستطيعا أن يكبحا قوة الحيثيين فى الشرق حتى استتب لهم الأمر بصورة تكاد تكون تامة .

وبعدها جاء رمسيس الثانى . وهنا بدأ التوسع المصرى الإمبراطوري لخلق الوحدة الحضارية التى كانت مصر تسعى الى تحقيقها دائما . وفى هذه المرة وجد أنه لاستعادة تلك الوحدة لابد من دحر الحيثيين وإرجاعــــهم الــــى مواطنهم فى آسيا الصغرى .

لقد سار رمسيس الثانى على نهج تحو تمس الثالث فى غزو الحيثيين. فكانت أولى خطاه أن سيطر على الشاطئ الفينيقى حتى يضمن قاعدة عسكرية تعينه على تحركاته القادمة وذلك إدراكا منه بأن الطريــــق البحــــرى يــــهيئ التحرك السريع والسهل أفضل من الطريق البرى.



ولما أحس "مِتَّلاِ" ملك الحيثيين بالنوايا التى يحيكها رمسيس الثانى نحوه، ولما أحس أيضا أنه يستحيل أن يقبل رمسيس الثانى قوة مضارعة له ، وأنه تبعا لذلك فإن الأحلام الإمبراطورية التى تراود عقل رمسيس الثانى يخشى من أن تتحقق فى يوم من الأيام ... لكل هذه الأسباب مؤتلفة فإن "متلا" عمل بجهد محموم على أن يؤلف أكبر حلف عسكرى ضد مصر .. فكان أن أرغم الولاة الخاضعين له على أن يكونوا إلى جواره فى الذود عن وجودهم أمام مصر فيرفعول عن أنفسهم وصمة الخضوع لها والخوف منها .. وفضلا عن أولئك الولاة الخاضعين له فإنه أغرى ملوكا كثيرة بالانضمام الى حلفه الجديد فكان أن انضم إليه ملوك النهرين ، وأرواد ، وكاركاميش ، وكود (كنعان) وكدش ، ونوج، وأوجاريت ، وحلب ، وملوك آسيا الصغرى ، مثل كرودن ، ويدس .. وأكثر من هذا فإنه أنفق أموالا طائلة فى الحصول على جنود مرتزقة من جزر البحر الأبيض المتوسط وشواطئه كالليسيين الذين هاجروا الى الدلتا فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، وكذا الميسيين والكليسيين ، والدروانيين ، وبلاد إرونت التي لم تكن معروفة . وقد تألف من هؤلاء جميعا جيش الحيثيين . فلا غرابة إذن حين يكون أقوى جيش فى المنطقة . ويرجح المؤرخون أن عدد الجيش الحيثى بلغ عشرين ألف جندى..

وعلى الجانب الآخر كان رمسيس الثانى يبذل قصارى جهده ، إن لم يفق الحيثيين فى تكوين قوة ضاربة هائلة .. فأنفق أموالاً طائلة فى استئجار جنود مرتزقة ليعملوا فى فرق الجيش المصري . ومن الجدير بالذكر أن بلاد النوبة كانت تعتبر جزءاً من أرض مصر منذ المملكة المصرية القديمة . فقد جند رمسيس الثاني من النوبيين أعداداً هائلة كانت تعد قسما له وزنه فى القوة المصرية ولقد كان الجيش المصري فى هذا الوقت ذا ثلاثة أقسام : قسم المشاة ، وقسم العجلات الحربية ، وقسم الشردينيين (شردن) .. وقد أظهر رمسيس ارتياحه وسروره لتواجد الشر دينيين بين قواته . ولقد كانوا فى

أصلهم عصابات غايتها السطو والنهب والسرقة ووقعت منهم عـدة حـوادث على ساحل الدلتا الغربى غير أن رمسيس أسر منهم أعدادا هائلـة وأحسن تربيتهم وتدريبهم حتى أنه اعتمد عليهم اعتمادا كبيرا وصارت مصر بالنسبة لهم وطنهم الذي يعتزون به .

وبدأ الزحف المصري الكبير بتدمير القوى المعادية وكان ذلـك فـى أواخر إبريل أى فى السنة الخامسة من حكم رمسيس الثـاني (حوالـي عـام ١٢٨٨ ق.م) لقد بدأ الزحف المصري الكبير من مدينة "ثارو" (Tharo) الواقعة على حدود مصر الشمالية الشرقية .. ثم اتجه الى نهر الأورونـط واحتـذاه وصادف ذلك أواخر شهر مايو وكان وقتها قد قضى تسعة وعشرين يوما منذ أن غادر الملك حصن ثاروا . وهناك أقام جلالته معسكره فوق أبعد قمة شمال الوادي المرتفع بين سلسلتي جبال لبنان .. وعند مشرق الشمس صباح اليـوم التالي رحل رمسيس الثاني بجنده حسب الترتيب السابق لفيالق الجيش . ثـم نزل بقواته على فرع نهر الأورونط الذى كان قريبا من مدينة شابتونا ، وكان اليهود يعرفونها باسم "ربله (Ribleh) وكان هناك نظام يعمل به رمسيس الثانى فى معرفة أخبار تحركات العدو وأماكن تجمعه . فكان بعض الضباط يقدمون لجـلالته تقارير يومية عن العدو . وأجمعت تقاريرهم على عدم وجـود مـا يـدل على جيش العدو كما رجحت التقارير وجود قوات العدو إلى الشمـال من المكان الذى يحتلونه.

وفى هذه اللحظة جاء بدويان زعما أنهما هربا من الجيوش الحيثية ، وباستجوابهما قالا إن ملك الحيثيين انسحب بقواته الى إقليم حلب شمالي تونب (بعلبك) . فانطلت الخدعة على رمسيس الثاني وصدقهما .. وممـا أكـد لـه صدق البدويين أن جنود الاستطلاع لم يعثروا فعلا على أى موقـع لجيـش الحيثيين .. وفى الحال أمر جلالته فيالقه بأن تعبر النهر فسارت فـى تـؤدة واطمئنان وكانت خطة جلالته أن يقوم بحصار كدش فى ذلك اليوم . فكان أن



غذ سيره فى كوكبة من حرسه متقدما بعربته على سائر العجلات وقد تبعه فيلق "آمون" فوصل مدينة كدش عند الظهر . وفى هذا الوقت كان الملك "متلا" قد أعد مواقع جيشه الذي تركز فى المنطقة الشمالية الغربية لكدش .

ويمكن القول أن الوضع العسكري لرمسيس الثاني أصبح سيئا ، ذلك لأن الفيالق المصرية الأخرى لم تكن على مقربة من الفيلق الأول فيلق رمسيس فكانت متناثرة على مسافات كبيرة .. وهذا فضلاً عن أن ضباط فيلقى رع وبتاح منحوا أنفسهم راحتها في ظلال الغابات المجاورة وذلك بعد المشقة الكبيرة التي تكلفوها أثناء زحفهم .. ثم اتضح لمتلا أن رمسيس خُدِع بما أوهمه به البدويان . ومن ثم فإنه أسرع باغتنام الفرصة . فأجل الهجوم على رمسيس ولذلك فإنه سحب قواته الى الجانب الشرقي من الأورونط (نهر العاصي) فى الوقت الذي استمر فيه رمسيس فى زحفه نحو الشمال الغربي من كدش . وفى الوقت نفسه انسحب متلا الى الجنوب نحو شرق المدينة بدون أن يتنبه رمسيس . وبذلك صارت المدينة حجازا بينه وبين رمسيس حتى لا يحس به . وبذلك استطاع متلا أن يفوز بموقع عسكري هام، يتيح له لو أحسن اصطناعه أن يدمر به قوات رمسيس بجهد يسير .

فى هذا الموقف الحرج كانت القوات المصرية مقسمة الى قسمين متباعدين الجزء الأول وكان قريبا من كدش . وكان يتكون من فيلقى آمون ورع.. والجزء الثاني وكان يتكون من فيلقى بتاح وسوتخ جنوبى كدش .. وهذا القسم لم يكن قد عبر فرع شابتونا (ربله) عند مصبه فى نهر الأورونط. ولقد بلغ ابتعاد فيلق سوتخ عن أرض المعركة حدا كبير الى درجة ان قد اختفت اخبار تحركه . ولذا فإنه لم يشترك فى القتال فى ذلك اليوم ..ثم وجد رمسيس أن يريح قواته فى الشمال الغربى لكدش وكان هو المكان الذى تجمعت فيه قوات الحيثيين فى صبيحة ذلك اليوم .



فى هذا الموقع نشر رمسيس خيامه لتستجم قواته وقت الظهيرة .. وبعد فترة يسيرة وصل فيلق آمون الذى قام بنشر خيامه حول الخيام الملكية وقام فى نفس الوقت بتحصين الموقع العام حول المعسكر .. ثم صارت العجلات الحربية التى تحمل المؤن تتوالى ثم أخرجت منها الثيران ثم جمعت الناقلات ذات العجلتين إلى مكان منعزل داخل التحصينات التى أشرنا اليها .. واسترخت الجنود فكان يسقون خيولهم ويعدون طعامهم بغير أن يُعْجلهم شئ وفى هذا الوقت وبينا الجنود فى استرخاء ظهر جاسوسان آسيويان جاءت بهما العيون المصرية إلى مقر رمسيس غير أنهما لم يعترفا إلا بعد أن ضربا ضربا مبرحا فذكرا أن الملك متلا قد أخفى قواته وراء المدينة , عند ذلك غضب رمسيس غضبا شديدا وطلب أن يأتى قواده وموظفوه فورا .. فلما أن مثلو بين يديه صب عليهم غضبه لتراخيهم وعدم اكتراثهم بتحديد موقع العدو الذى أصبح قريبا منهم .

ثم أصدر أمره الى وزيره باستدعاء فيلق بتاح على الفور :" ويرجح جداً أن الوزير نفسه هو الذى قام بهذه المأمورية شخصياً تخلصا من إهماله وصونا لشرفه".. ويشير استدعاء رمسيس لفيلق بتاح وحده بأن فيلق سوتخ كان على مسافة لا تمكن من استدعائه ليشارك فى القتال ، ذلك لأنه حتى ذلك الوقت لم يكن قد عبر غدير شابتونا (ربله) .. ومما يؤخذ من رسالة الملك أنه كان على علم بأن فيلق رع هو الذى كان قريبا منه وأنه هو الذى يستطيع أن ينهض بمهمة القتال . غير أن رمسيس لم يكن وقتها منتبها لحرج موقفه ولا للصعوبات التى يمكن أن تحيق بفيلق رع المنكود الطالع .. وهنا يصف المراسل الحربى لجيش رمسيس ذلك الموقف بقوله :" وبينما كان جلالته يوبخ أمراءه على إهمالهم إذ بملك الحيثيين يعبر نهر الأورونط جنوبى كدش قائداً جيشه العرمرم المستجمع من ممالك عديدة وكان ظهور هؤلاء



الأعداء من جنوبى كدش فشطروا فيلق رع شطرين وهو سائر على غرة غير مستعد للقتال ؟

ويرجع السبب في ذلك إلى أن قوات الحيثيين كانت تمتطى عجلاتها أما قوات فيلق رع فكانت مؤلفة من المشاة فقط ..ويبدو أن الجزء الجنوبى من هذا الفيلق قد قضى عليه تماما بينا هرب الباقون الى معسكر رمسيس فزعين مخلفين وراءهم عدتهم وآلاتهم وقتلاهم وقد أسر الحيثيون منهم عدداً كبيراً ، وعندئذ بعث ضباط فيلق رع الى رمسيس من ينبئه بهذه الكارثة. ويبدو أن أول شارة على الهزيمة كانت دخول فلول من فيلق رع ناجين بأرواحهم غير أن الخطر كان داهما فقد زادت عجلات الحيثيين عن ألفين وخمسمائه عجلة مما مكنهم من الاقتراب من المصريين أكثر فأكثر حتى استطاعوا محاصرة المعسكر المصرى تماما . وقد أصيب فيلق رع بصدمة شديدة إذ وجد نفسه يستقبل جنود رع الوجلين ذلك لأنه لم يكن متوقعا لتلك المباغتة فقد كان يعطى نفسه قسطا من الراحة بعد بأساء الرحلة التى قطعها فقد كان سلاحه بعيداً عنه كما أن ضباطه قد ذهبوا هم أيضا لبعض شأنهم ... بهذا التسيب انتشر الوجل بين الوحدات ، فلم تجد أمامها سوى الهرب شمالا نحو مقر رمسيس حتى قوات الملك أصابها الخوف . أما القوات الجنوبية فكانت بعيدة كما كانت قوات الحيثيين تعترضها . ولذلك فلم يكن من المستطاع أن تمد يد المساعدة للملك ..

فى ذلك الموقف العصيب توثبت إرادة رمسيس نحو الخروج منه بأسرع ما يمكن .. وهنا جرب أن يخترق صفوف أعدائه الذين يطوقونه لينضم الى قواته الجنوبية فأخذ عربته واقتاد بنفسه حرسه الخاص وثلة من الضباط والجنود الذين كانوا تحت إمرته آنذاك ، وشن هجوما عنيفا على جند الحيثيين الذين كانوا يصلون فى موجات . وهنا استبان الموقف العسكرى على جليته فقوات العدو فى الغرب والجنوب من حيث الكثافة



والاستحكامات لا يمكن المجازفة باقتحامها .. وهنا رجع رمسيس الى معسكره ليتدبر الموقف مع هيئة أركان حربه . وبعد دراسة وتقويم اتضح لهم أن العجلات الحيثية الموجودة في الشرق ضعيفة بحيث أنها لا تستطيع أن تقوى صفوفها وتأخذ أهبتها للقتال ... واستقر الرأى على مهاجمة قوات العدو الشرقية .. فكان أن انقضت القوات المصرية فى استماته شديدة على العجلات الحيثية فأصابتها بالشلل حتى أنها أغرقتها فى النهر.

وكان الملك متلا يشاهد مصير قواته وهو عاجز عن أن يصنع لها شيئا رغم أنه كان تحت يده ما يقرب من ثمانية آلاف من المشاة .. وبلغت مأساة ملك الحيثيين ذروتها حين شاهد بعينيه أن الكثيرين من ضباطه وكاتبه الخاص وقائد عربته الشخصية وقائد حرسه الخاص وأخاه يقذفون أنفسهم فى النهر تحت وطأة ضربات رمسيس .. عند ذلك بذل جنود متلا الذين كانوا يقفون على الشاطئ جهوداً كبيرة فى إنقاذ زملائهم وكان بينهم ملك حلب الذى أسعف من الغرق بصعوبة .. ثم شدد رمسيس من عنف هجماته حتى استطاع أن يمزق عدوه كل ممزق ..

ومن العوامل التى ساعدت على تخليص رمسيس من هزيمة كانت مؤكدة أن الحيثيين عندما زحفوا وراء المصريين من الجنوب والغرب وجدوا أن المصريين قد خلفوا وراءهم الكثير من أمتعتهم وأدواتهم فانشغلوا بجمعها متوقفين عن المطاردة .. ولو أنهم لم ينشغلوا بذلك لتمكنوا من القضاء على المصريين ، بل لتمكنوا من أسر رمسيس نفسه .. وشاءت الأقدار أن تصل إمدادات حربية إلى رمسيس فضلا عن قوات الفيالق الأربعة . وقامت تلك القوات بمباغته الحيثيين فسحقتهم سحقا.

وقد أدى الهجوم الذى شنه رمسيس والمذبحة الرهيبة التى قامت بها الإمدادات على غير توقع إلى أن وهنت إرادة الحيثيين وخفت رغبتهم فى الحصول على النصر مما هيأ لرمسيس الفرصة الكافية لتنظيم صفوفه .

كما أن وحدات آمون التى كانت قد هربت عـادت الـى معسـكرها وانضمت إلى الإمدادات .. وبذلك تحسن الموقف العسكرى لرمسيس إلى حد ما . على أمل أن يصل فيلق بتاح .. وكانت المعركة من الشراسـة والعنـف إلى الحد الذى اضطر متلا الى أن يزج بالألف المتبقية لديه مـن العجـلات الحربية .

ومع أن رمسيس هاجم قوات الحيثيين ست مرات متتابعة إلا أن متلا لم يشأ أن يجازف بجنده المشاة الثمانية آلاف الذين كانوا معه على الشـاطئ الشـرقي للنهر .. فكأن الحيثيين لم يحاربوا إلا بفريق العجـلات الحربيـة . ومما يسجل هنا أن رمسيس ظل يقاوم الحيثيين ما يقرب من ثلاث سـاعات كان فى أثنائها يتطلع إلى أن تصله القوات الجنوبية مـن شابتونـا (ربلـه).. وعندما حانت الشمس إلـى الأفول ظهرت فى أفق السـماء رؤوس حـراب فيلق بتاح وهى تشرئب غاضبة .. وهنا أدرك رمسيس أن قد تحققت له النجاة .. فالحيثيـون أصبحوا محاصرين بين قوتين مصريتين ومـن ثـم وجـدوا أنفسهم مرغمين على الانسحاب إلى كدش بعد خسائرهم الفادحـة . والحـق يقال. كما ذكر برستد :" أننا لا نزال نجهل كثيرا عن هذه الحوادث إنما الثابت أن الليـل لم يجئ حتى نجا رمسيس من ورطته واحتمي عدوه داخل كـدش بعد ذلك أحضر الأسرى أمام جلالته فذكر تابعه أن الفضل فى أسـر هـؤلاء يرجع إليه وحده دون سواه"..وقد سجلت الآثار المصرية مشاهدة عودة جنـد رمسيس كما سجلت ما أنزله رمسيس بالحيثيين من فتـك ذريـع ولا سـيما الحامية الخاصة التى كانت تحيط بملكهم متلا .. ومما تسجله الروايات عـن تلك المعركة أن رمسيس أعاد الهجوم على الحيثيين فى عنف وضراوة ممـا أرغم متلا على أن يطلب الصلح الذى صادف من رمسيس هوى وقبولا .

وهكذا انتهت المعارك بانتصار رمسيس ، وإن كانت بعض الروايات ترجع موافقة رمسيس على الصلح إلى أن الحروب كانت تشكل بالنسـبه لـه

عبئا ثقيلا أراد التخلص منه ليلم شعث جنوده الذين تشتتوا .. وقد افتتن رمسيس فى تسجيل وقائع هذه الحرب على جدران المعابد الضخمة تباهيا بما لم يحققه أحد قبله من ملوك مصر . والحق أن النصوص التى سجلت على المعابد عن تلك الحروب تعد من أقدم النصوص وأصحها على الإطلاق .. وفضلا عن ذلك فإننا نتعرف منها على فلسفة العسكرية المصرية من حيث التقسيم القتالي للقوات ومن حيث الدراسة العسكرية للمواقع ذاتها . فالعسكريون المصريون كانوا يقدرون فى حروبهم المميزات الحربية للمواقع التى يختارونها كما أنهم كانوا يقسمون القوات فى القتال إلى قلب وجناحين .. وعلى هذا فإن سهول سوريا :" شاهدت أقدم أنواع الحركات الحربية التى اتقنها نابليون وفاق فيها سواه والتى تعرف الآن :" بفن الانتصار قبل المعارك".

ومن الطبيعى أن تقام الاحتفالات تعظيما وتكريما لعودة رمسيس الى أرض الوطن منتصراً فأقيمت مظاهر الفرح والابتهاج بطيبة .. ثم دخل رمسيس معبد آمون الكبير ومعه أبناؤه الأربعة حيث قدم جلالته للمعبودات :" أسراه الشماليين الذين أرادوا هزيمة جلالته ففتك بهم وأحضر أسرهم ليخدموا فى مخازن أبيه آمون ".. ثم خلع رمسيس على نفسه أسمى الألقاب فهو :" مذل الأراضى والبلدان وحيداً دون سواه".

ورغم أن رمسيس أظهر الكثير من التفاخر والإعجاب بهذا النصر إلا أنه كان فى قرارة نفسه غير مطمئن له لأنه ترك الجبهة الآسيوية فى وضع خطير بالنسبة للجيوش المصرية . يُضاف إلى هذا أن الانتصار المصري لم يكن فى نظر ملوك سوريا وفلسطين حاسما رغم ما شاهدوه من آيات الشجاعة الخارقة التى حارب بها رمسيس خصومه . كما أنه فى نفس الوقت رحل إلى مصر بغير أن يحاصر كدش .. ومما زاد من إحساس رمسيس بالقلق تلك الخسارة الفادحة التى لحقت بفيلق من جيشه .. كل هذا قد

أوجد نوعاً من الاستهانة بالهيبة المصرية فى عيون الآسيويين مما عـــرض جيوش مصر لمخاطر غير محسوبة . وقد أعطى ذلك الوضع الذى لم يتم فيه الحسم فى معركة كدش للحيثيين فرصة للمناوأة والتحرش . فكان أن دعمـوا سلطانهـم ومواقعهم فى آسيا ، ثـم عملـوا علـى إشعـال الثـورات فـى المستعمـرات الآسيوية ضد الحكم المصري ونجحوا فى تأليب الآســيويين.. وقد امتدت الثورة آنذاك حتى بلغت الشمال الشرقي للدلتا .

وهنا أيقن رمسيس أن الخطر محقـــق وأنـــه لابـد أن يعيـد بنـاء الإمبراطورية المصرية وأن يستعيد الأقاليم التى كان والده قد فتحها . فقـــام بعـدة حملات متتابعة ، منسقة السياسة موحـــدة الـهدف . فـأبتدأ بمدينـة عسقلون ودمر قواتها واستولى عليها .. وفى السنة التالية اتجه نحـــو شمـال فلسطين مخترقا مدينة "جليله" Galilee الغربية حيث التقـى بحـرس الحـدود الحيثيين الذين كانوا قد زحفوا الى الجنوب بعد معركة كدش غير الحاسمة. وكان ذلك الالتقاء على مقربة من مدينة "دبرا" Deper، وهى التي يطلق عليها العبرانيون اسم "طابور Taborفانتزع رمسيس المدينة عنوة وقد ساعده فى تلك المعركـة أولاده الأربعة وطرد منها الحيثيين الذين أقاموا بها بعض الوقـت .. وتقـول الروايات إن رمسيس أغار على إقليم " حـوران" وإقليـم جليلـه شرقي البحر حيث ترك حجرا يشهد بغزوه لتلك المنطقة . وإن هي إلا سنوات ثلاث حتى كان رمسيس قد وصل إلي حدود مستعمراته الآسيوية التي كان قد غادرها منذ أربع سنوات .

ويشهد الخبراء العسكريون والمؤرخون أن أعمال رمسـيس الثـاني بآسيا تدل على أنه كان عظيما فى قدرته العسكرية وذلك لأنه قد أعاد الهجوم على وادي الأورونط وتمكن من طرد الحيثيين ثـم إن قواتـه قـد حـاربت الحيثيين شمال كدش وهذا معناه أن قد تم له الاستيلاء على تلك المدينة العنيدة

ثم واصل رمسيس الزحف إلى تونب فى بلاده النهرين فتم لـــه إخضاعـــها . وليُذكر التاريخ بعظمته فإنه أقام لنفسه تمثالا بها .

وإذا كانت هذه النواحي القصية قد ظلت مدة ليســت بالقليلــة وهــى خارجـــة على الحكم المصري فإن معنى هذا أن إخضاعها لم يكن يســيرا .. ثم تمكــن رمسيس بعد حملات متتابعة من الاستيلاء علـــى بـــلاد النـــهرين وشمال سوريا (الرتفو السفلي) ، وسكان أرخبيل اليونان (خفتيـــو) ، وقطنــه (حمص) التى بوادى الأورونط . ولقد انتهت تلك الخطة المحكمـــة عســكريا وسياسيا بتقويض مملكة الحيثيين فى سوريا تماما.

ولقد تواصلت حروب رمسيس الثانى بآسيا ما يقرب من خمس عشرة سنة . ثم وقع مالم يقع فى الحسبان فقد قتل متلا ملك الحيثيين فجأة وقيـــل ان ذلك قد تم بمؤامرة من أخيه خيتاسار Khetasar الذى تبوأ الحكم بعده. وكـــان يرجو إنهاء الحرب مع مصر ، تلك الحرب التى طال أمدها بغـــير نتيجـــة . ويظهر أنه كان متعاطفا فى هذا المطلب مع المعارضة ..ولهذا فإن خيتاســـار عـــرض على رمسيس الثانى الاتفاق على معاهدة دائمـــة تنـــهى الحـــروب وتدعم السلام بينهما . ففى السنه الحادية والعشرين من حكم رمسيس الثـــانى (حوالي سنة ١٢٧٢ ق.م) جاء وفد من قبل خيتا سار الى القصر الفرعونـــي الذى كان موجودا بالدلتا. ويظهر أن معاهدة السلام كان متفقا على بنودها من قبل وأن الوفد ما جاء إلى مصر إلا للتوقيع النهائي عليها .. واحتفـــاء بتلـــك المعاهدة الهامة فإنها نقشت على لوح فضي وقد تضمنت ثماني عشرة مادة :" رســم أعلاها المعبودة سوتخ محتضنة ملك الحيثيين وبجوارهــــا المعبـــودة عينها محتضنة ملكة الحيثيين المدعوة بوتو خيبا Putukhipe زوج خيتا سار . وبجوار هذه الرسوم وضعت أختام سوتخ معبودة الحيثيين ورع معبود إرنين Ernen ورمسيس وخيتا سار.

ولعل هذه المعاهدة الدولية تعتبر أقدم معاهدة سلام عرفها التاريخ ، وقد جاء استهلالها كما يلي :"... معاهدة منقوشة على لوح فضي من ملك الحيثيين خيتاسار الشجاع ابن ميراسار ملك الحيثيين الشجاع ابن ابن ملك الحيثيين الشجاع (طرف أول) ، ورمسيس الثاني الملقب أسر معا رع استين رع Usermaresetepnen حاكم مصر الأعظم الشجاع ابن ابن رمسيس الأول حاكم مصر الأعظم الشجاع (طرف ثان) .. هذه المعاهدة الطيبة عملت لحفظ السلام والإخاء واستتاب السكينة بين الطرفين إلى الأزل".

وبعد هذا جاءت نصوص المعاهدة التى مُهد لها بإعطاء صورة عما كانت عليه العلاقات القديمة بين مصر ومملكة الحيثيين ، ثم العلاقات الحديثة. وتبع ذلك الشروط الواجب اتباعها ، ومن أهم بنود هذه الشروط أن توقف الغزوات بين الفريقين وإعادة صلات الود والصداقة بينهما إلى ما يجب أن تكون عليه . وأن يقوم كل طرف بمناصرة الآخر إذا وقع عليه هجوم من طرف خارجى . وأن يقوم الطرفان بالتعاون فى تعقب المجرمين والضرب على أيديهم ولا سيما أولئك المتواجدين فى سوريا . وكذلك أن يقوم الطرفان بطرد الهاربين السياسيين والمهاجرين التابعين لكل طرف إلى بلاده ثم جاء بعد ذلك ملحق نصح فيه الطرفان بأن يعامل أولئك الأشخاص بالشفقة والرحمة . وقد استشهد كل طرف بألف معبود ومعبودة من مملكة مصر .. ومما أطلعتنا عليه هذه المعاهدة أسماء بعض الآلهة الحيثية التي لم نكن نعرف عنها شيئا . ثم خُتمت المعاهدة بصب اللعنات على كل من يخرج على شروطها . وفى نفس الوقت طلبت الرحمة والسلام لكل من ينفذها ويبجلها.

على أنه لم يرد فى هذه المعاهدة شئ عن حدود كل مملكة من المملكتين الحيثية والمصرية . ولكن يبدو أن الحدود قد عُينت فى معاهدة سابقة . ولذا فإنه :" من الصعب وصف الحدود بالضبط ، ولكن يستدل من



النقوش المسمارية التي عثر عليها وينكلر فى بوغاز كوى منذ عام ١٩٠٦ ، أن الحيثيين استمروا حاكمين "أمور" بأعالي الأورونط ، لذلك لم يثبت تماما إذا كان رمسيس الثاني وسع حدود مستعمراته كثيرا عن حدود والده . ولكن الظاهر أنه أبعدها جهة الشاطئ قرب بيروت لآنه أقام حجرين أثريين فى السنه الرابعة من حكمه .

ومما تسفر عنه نصوص المعاهدة أن رمسيس الثاني أظهر شيئا من التواضع حين قرن نفسه بملك الحيثيين ورغم هذا فإنه أعلن أنه هو المنتصر ومن ثم فإنه أطلق على نفسه لقب :" قاهر الحيثيين ".

وهكذا حل السلام فى ربوع آسيا محل الحروب التى ظلت أمداً طويلا.. ولقد كانت معاهدة السلام التى أبرمت بين الطرفين فى صالح كل طرف لآنه بعد مضى ثلاثة عشر سنة من توقيعها (حوالي سنة ١٢٥٩ ق.م) قام ملك الحيثيين بزيارة مصر وذلك بمناسبة زواج رمسيس الثاني من ابنة ملك الحيثيين . وقد كانت هذه المصاهرة سانحة كبرى لإظهار الاحتفاء العظيم بملك الحيثيين فقد تقدمت ابنة ملك الحيثيين الحفل العظيم وقد سار خلفها حرسها الخاص وهم يحملون أفخر الهدايا وأجزل العطايا .. وسار خلفهم الملك خيتا سار ثم ملك كود Kode. ومن الجميل فى هذه المظاهرة الملكية أن اختلط الحرس الحيثى بالجنود المصريين . وهكذا انقلبت العداوة الشديدة إلى صداقة حميمة .وابتهاجا بهذه المصاهرة العظيمة سميت الأميرة الحيثية باسم مصري هو " معات نفرو رع (Matnefrure)، ومعناها :" الناظر محاسن رع ".. وكانت لها منزلة التكريم والتعظيم فى القصر الملكي .. ولقد ابتهج الشعراء بهذه المناسبة السعيدة فتغنوا بقصائدهم الطنانة الرنانة حيث وصفوا كيف تم ذلك الفرح البهيج ، كيف بعث ملك الحيثيين الى ملك كود يرجوه أن يكون فى معيته إلى ملك مصر حتى يناصره ويعز مكانته .. ومما ورد فى تلك القصائد أن الإله بتاح هو الذي أفرغ الفرح على المبتهجين



وزاده سرورا .. قال أحد الشعراء على لسان المعبود بتاح :" لقد جعلت مملكة خيتا خاضعة لقصرك وألقيت الرعب فى قلوب أهلها ، فحضروا إليك وجلين حاملين هداياهم التى غنمها سراتهم وما يمتلكونه جزية لصيتك الذائع . لقد أحضرت كريمة ملك خيتا الكبيرة فى مقدمتهم لأطيب بها قلب سيد القطرين".

وهكذا خمدت الحرب بين خيتا سا ورميس الثانى ...

ومع هذا فقد قامت فى بلاد النوبة بعض المناورات والمشاغبات إلا أن رمسيس أخمدها ثم عادت واشتعلت مرة ثانية بعد الصلح مع الحيثيين إلا أنه لم تكن لها خطورة تذكر ولذا فإن رمسيس أو كل من ينوب عنه بإخمادها ... على أنه يمكن القول إن حروب رمسيس الثاني بآسيا كانت بالنسبة له آخر الحروب الكبيرة التى استهلها أحمس الأول عندما قام بطرد الهكسوس .. بعدها قام المصريون بعدة حملات متفرقة استرجعوا بها بعض المستعمرات الفلسطينية والسورية التى كانت قد فقدتها مصر .. ثم اقتصر عمل الجيش المصرى على الدفاع وحتى الدفاع تخاذل الفراعنة فى النهوض به ، وقد بلغ التخاذل أقصاه فى أواخر أيام الملوك المنتسبين إلى الإله رع.

ولقد كانت المعاهدة التى وقعت بين ملك الحيثيين وملك مصر من البواعث التى ألهمت الشعراء القصائد الجميلة التى تغنى بها أفراد الشعب فكانت المعارك التى انتصر فيها المصريون على الحيثيين من أسباب ارتقاء الشعر فقد شبه الشعراء المصريون جنود العدو التى كانت موجودة على التلال بالصراصير . وقد استهان الشعراء بملك الحيثيين وصغروا من قيمته فوصفوا قائد عجلته بالجبن والفزع . أما رمسيس فكان يقود رجاله بمهارة كبيرة كما أنه كان يشجعهم إذا أقدموا ويوبخهم إذا تراجعوا أو تخاذلوا .. وتروى إحدى القصائد أنه بعد انتهاء المعركة :" أقسم جلالته يمينا بأنه سيتولى بنفسه إطعام خيله التى حملته ظافراً على أعدائه ". ومن القصائد



أيضا ما أشادت برمسيس فهو :" المثل الأعلى للمصريين جميعاً عليهم أن يقتدوا به فى أعماله"..

ثم انتهت تلك الأعمال العظيمة بخاتمة الضعف الذى لابد أن يصيب كل كيان حضاري .. فقد أكثر الفراعنة من استخدام الجنود المرتزقة فى قوات الجيش المصري ، فإذا أضيف الى هذا استنامة المصريين إلى العنصر الأجنبي وإعتمادهم عليه فإن هذا يفسر لنا السر فى طمع بعض الدول المحيطة بمصر فى الاستيلاء عليها وتنصيب أنفسهم ملوكا لها .

وكان الليبيون هم من أقرب الجيران إلى مصر يطمعون فى الاستيلاء عليها ، فجهزوا أنفسهم عسكريا لمهاجمتها .. ولما بلغت تلك الأنباء المزعجة الملك منفتاح وأدرك أن الخطر محيق به بل بمصر فإنه أسرع فحصن قلاع عين شمس ومنف . وفى آخر مارس من السنة الخامسة من حكمه جاءته الأنباء بتقدم الليبيين نحو مصر . وهنا أصدر أوامره إلى رجاله بأن يعدوا الجيش إعداداً جيدا بأسرع ما يمكن وأعطاهم مهلة لذلك مدتها أربعة عشر يوما . وتذكر الروايات الأسطورية أن الملك منفتاح :" رأى فى المنام المعبود بتاح فى هيئة شيخ عظيم أهدى إليه سيفا وطلب منه أن يبطل الخوف والوجل".

وفى حوالى منتصف شهر إبريل كانت الجيوش المصرية قد أتمت تجهيزاتها العسكرية غربى الدلتا وقد اقتربت من صفوف الأعداء الى درجة كبيرة . وكان ذلك فى ساعة الأصيل والشمس تؤذن بالذهاب . وكانت الجيوش المصرية قد بلغت مدينة بر-يرع Perire ، وهى مدينة غير معروف مكانها بالضبط وعلى أية حال كانت على مقربة من الحصون المقامة على رأس الطريق الذى يربط الدلتا بصحراء ليبيا .. وعلى مقربة من بر يرع كان يوجد قصر منفتاح وكان محاطا بحدائق من الكروم .. والى الشرق منه تمتد حقول الدلتا الثرية بخيراتها المتنوعة حيث كان الفلاحون المصريون

يحصدونها فى مثابرة وإصرار . وهنا وقعت عيون الليبيين علـــى خـــيرات مصر فلعبت الأطماع بنفوسهم فاندفعوا مخترقين الحصون الغربية فى جسارة فحدث الالتحام بينهم وبين جيوش منفتاح وكان ذلك غير بعيد من قصره ودام القتـــال الشرس ما يقرب من ست ساعات وقد حاقت بالليبيين هزيمة قاســـية فقد أصيبوا بخسائر جمة ولم يتركهم منفتاح فقد اقتفاهم بعجلاته الحربية وظل وراءهم يمزقهم ويبددهم فى كل اتجاه حتى وصل :" جبل قـــرون الأرض :" وهو يوجد فى نهاية الحدود الغربية للدلتا ، ووجد الليبيون الباقون فرصتـــهم للنجاة فهربوا فى شعابه .. أما الملك الليبي ، مريى meryey " فإنه لجأ إلى بلده فاقد الأمل فى إحراز أي نصر على منفتاح وقد وقع جميع أفراد أسرته وأثاث بيته غنيمـــة للمصريين . وقد أسر المصريون أعدادا" كبـــيره مـــن شـــراذم القـــوات الليبية هذا فضلا" عن أنهم قتلوا منهم ما يقـــرب مـــن تســـعه آلاف جندي كانت منهم نسبة كبيرة من سكان البحر الأبيض المتوسط ، أما الأسرى فكان عددهم مماثل لعدد القتلى .. ومما يدل على عظمة النصر المصرى أن الأنجال الستة لملك الليبيين خروا صرعى فى المعركة .

وقد فاز المصريون فى هذه المعركة بمغانم كثيرة منها تســـعة آلاف سيف من النحاس. كما غنمو الكثير من آلات الحرب بلغت مائـــة وعشريـــن ألف آلة والكثير من الأسلحة الجميلة .. وغنموا كذلك أثاثا بديع الصنع وجـــد فى خيمة الملك وكبار رجال حاشيته يقدر عددها بثلاثة آلاف قطعة أثـــاث .. ولما تم للمصريين سلب كل ما فى خيام عدوهم فإنهم أضرموا فيها النار فأتت عليها جميعها .

ثم رجعت القوات المصرية الى قصر الملك منفتاح وقد وقـــف فـــى شرفة القصر يستعرض الأسرى الذين ربطتا أيديهم بالحمير وأمتعتهم معـــهم. ثم جئ بالغنـــائم التى كانت علامات على النصر .. وبعدهـــا جمـــع الملـــك أمراءه .. وهناك فى القاعة الكبرى بالقصر وجه اليهم كلمة رائعـــة تناســـب



النصر الرائع الذى أحرزه . وفى أثناء إلقائه لخطابه حملت الأخبار من قائد حصون غرب الدلتا أن ملك الليبيين تمكن من الهرب ليلا بعد أن تسلل من خط الدفاع المصرى غير أن زعماء بلاده خلعوه واختاروا أحد خصومه ملكا عليهم . وهكذا انتهت سطوة الحزب الحربى الذى حكم ليبيا زمنا فتوقف الهجوم الليبى على مصر لفترة من الوقت ..

ويظهر أن نتائج النصر كانت عظيمة فرح بها المصريون كلهم وصاروا يتغنون بتلك الأنشودة:"... شمل مصر فرح عظيم وصعدت من بلاد الدميرة (مصر) أصوات السرور فأصبح الكل يتحدثون بنصر منفتاح على التحنو قائلين : ما أحب هذا الملك المنتصر وما أعظمه بين المعبودات وما أسعد هذا القائد الحاكم ! إجلس سرورا وتكلم أو أمش بعيدا حيثما أردت فلا خوف الآن فى قلوب الخلق .. القلاع تركت وشأنها والآبار فتحت من جديد .. وأصبحت الرسل تنتظر حول القلاع مستريحين فى ظل جدرها من حرارة الشمس حتى يتنبه الحراس من الداخل .. أما الجنود فصارت تنام مستريحة البال وأضحى حرس الحدود يشتغل فى حقوله كالعادة .. وأصبحت قطعان الأغنام ترعى بدون راع ، وتعبر نهر النيل فى منتهى فيضانه وقتما تريد .. لا أثر الآن لأصوات مثل "قف ! ها قد أتى أحد ! ها قد أتى شخص يتكلم بلهجة أجنبية .. بل صار الإنسان يروح ويغدو مغنيا وانعدم الترح بين الأهالى ، وأخذت المدن تشيد العمارات من جديد وكل إنسان جنى ثمار أتعابه. حقيقة لقد رجع رع إلى مصر ! كيف لا فقد ولد ليدافع عنها ويحميها فى شخص الملك منفتاح. لقد خضع الملوك صائحين : سلام! فلم يرفع رأسه فرد من القبائل التسع ذات الأقواس . لقد أتلفت أرض تحنو وأرض الحيثيين ، اسكتت كذلك. أما أرض كنعان فسلبت بأشد قسوة ، وأما عسقلون فأخذت ، وكذا جازر استولى عليها جلالته . وقد انعدم أثر مدينة ينوام .. لقد أبيدت إسرائيل واستؤصلت وأصبحت فلسطين أرملة (ضعيفة) لمصر .

واتحدت البلاد وخيم السلام على الجميع وأصبح الملك منفتاح يوثق بحباله كل من يثور على النظام".

وكذلك استطاع منفتاح رغم كبره فى السن من أن يبعد أول هجمة من سلسلة الهجمات التى كان هدفها تقويض الإمبراطورية المصرية .. ثم توفى منفتاح فى عام ١٢١٥ ق.م .. ثم جاء من بعده ملكان خائران هما : سبتاح وسيتى الثاني .

وظلت مصر فترة من الزمان فى وضعها الضعيف المطمع حتى ظهر من بين شعبها شخصية جسدت قوة الإرادة المصرية والإباء المصري .. وكان اسم تلك الشخصية التى لم يعرف إلى من ترجع "ستنخت" Sernakht وكان ذلك فى عام ١٢٠٠ ق.م. وإن كان بعض المؤرخين يرجعونه إلى سلالة سيتى الأول ورمسيس الثاني . استطاع أن ينتزع عرش مصر وأن يؤكد حقه فيه رغم كثرة المدعين والأعداء له ولمصر فى الداخل والخارج. وقد أظهر فى ذلك مناورة سياسية أخفقت أمامها كل محاولات الطامعين فى العرش .. بعدها كان من الضروري أن ينشر ستنخت الأمن ويفرض النظام ويشيع الاطمئنان بين الخائفين والمتوجسين من أبناء الشعب .

ولكي يؤكد تلك الأسس التى يقوم عليها البناء الاجتماعي فإنه أعاد العمل بالقوانين التى كان الفراعنة العظام قد سنوها لحكم الشعب المصري . وقبل أن يودع ستنخت الدنيا (عام ١١٩٨ق.م.) فانه جعل ابنه رمسيس الثالث ساعده الأيمن فى الحكم كما جعله فى نفس الآن ولى عهده .. وقد حسب المؤرخ المصري القديم مانيتو ، رمسيس الثالث مؤسساً للأسرة العشرين ومن ثم فاتحا لعهد جديد من عهود العظمة المصرية رغم أن الصلة الدموية تكاد تكون مقطوعة بين الحكام المصريين بعد وفاة منفتاح وعهد ستنخت.

ولعل الأحوال التى تبوأ فيها رمسيس الثالث مقعد الحكم تشبه إلى حد كبير تلك التى أحاطت بمنفتاح عندما تولى الملك.. ولما كان رمسيس الثالث



أصغر سنا وأعنف جسارة فإنه سيطر على ما صادفه من مشكلات وعالجها بحنكة واقتدار . فقد كان عليه أولا أن يعيد تشكيل قوته العسكرية بأسرع ما يمكن نظرا للأخطار المحيطة به . وقد صنفها إلى فئات لكل فئه مواصفاتها الجسمية والصحية ولياقتها للخدمة العسكرية الشاقة .. وفضلا عن ذلك فانه لم يجد حرجا فى أن يطعم جيشه بجنود مرتزقة مثل فرقة السردينيين المأجورين، وفرقة كحك Kehek وهى قبيلة ليبية . أما العنصر المصري بالجيش فكان عرضة للتغير والتبدل من آن لآخر ولذلك جاء اعتماد رمسيس الثالث على الجنود المأجورين .

ويظهر أن المشكلات الاجتماعية التي كان يعانى منها الشعب المصري كانت كثيرة ومتشابكة وتهدد وحدته حتى أنها أخذت من رمسيس الثالث وقتا طويلا وجهودا كبيرة لعلاجها فشغلته الى حد كبير عن مواجهة الأخطار الخارجية التي كانت تهدد مصر ، ولعل أفدحها كان الخطر الليبي. ومما زاد من تلك الخطورة أن شعوب شواطئ البحر الأبيض المتوسط التي اتخذت سبيل الهجرة إلى مصر كان من بينها من عرف بالضراوة مثل التكاليين Thekel ، والبلست Pelest، وهم الذين عرفوا بعد ذلك بالفلسطينيين، ويرجع الفلسطينيون الى جزيرة كريت ، أما التكاليون فيرجح أنهم من أصل يوناني قطن جزيرة صقلية .

وقد ألف العداء لمصر والرغبة فى اغتنامها بين أولئك المغامرين الشذاذ الذين اتخذوا الهجرة إلى مصر من ناحيتين ، الناحية الأولى : " طريق سوريا وأعالى الأورونط (العاصي) ، ومملكة أمور ، والناحية الثانية هي الناحية البحرية التي قام بها مغامرون اتبعو طريق الدلتا.. وقد كانت مهمة المغامرين البحريين النهب والسلب وكل أعمال القرصنة . أما الفريق الثاني فإنهم عندما بلغوا الشاطئ الأفريقي صادفو الليبيين الذين اتحدوا معهم واتفقوا على القيام بغارات لنهب الدلتا واحتلالها إن سنحت لهم الفرصة ..

فكان أن تعرض غرب الدلتا إلى هجومين متلازمين هجوم بـــرى ، وهجـــوم بحري . ووقعت الواقعة والتقى رمسيس الثالث بقوات أولئك القراصنة بجوار مدينة :" رمسيس الثالث معاقب أهل التمحو (أى ليبيا)". وتمكن رمسيس الثالث من أن ينزل ضربة قاصمة بأولئك القراصنة شذاذ الآفاق وأن يحطـــم قســـما كبيراً من أسطولهم وأن يأسر الباقين .. ثم رجع العدو الى مصـــادره التـــي انطلق منها بعد خسارة فادحة فى رجاله ولا سيما القراصنة .

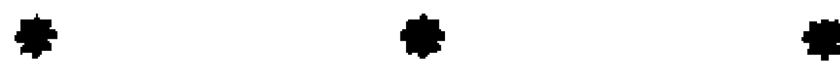
ولم يكد رمسيس الثالث يفيق من تلك الغاشية حتى صـــار الأعـــداء الشماليين يوحدون بين فصائلهم للهجوم على مصر . فكان أن أبحر أســـطول سكان البحر الأبيض المتوسط نحو جزيرة قبرص التي كانت تعـــرف آنـــذاك باسم: "ألاسا Alasa" فاحتلها بغير مجهود كبير . وبعد ذلك :" أقبـــل هـــؤلاء الأقوام والنار تتأجج أمامهم مولين وجوههم نحو مصر ، وكانوا وقتئذ مكونين من أهالي بلست (كريت) ، وثيكل (صقلية) ، وشكلن ، ودنان، ووشواش.

كل هؤلاء اتحدوا معا وأخذوا يستولون على الأراضي حتى بلغـــوا :" أفق الأرض" .. وأمام ذلك الخطر الداهم كان رمسيس الثالث يبذل قصـــارى جهده فى تنظيم تشكيلات قواته وتزويدها بالأســـلحة وبنـــاء التحصينـــات اللازمة فكـــان أن دعم حدوده السورية بالحصون وتمكن فى ســـرعة مـــن إعداد سفن أسطوله إعداداً قويا ثم قام بإرساله الى الموانئ الشمالية كل حسب احتياجات المعركة .. كما كان فى نفس الوقت يقف بنفسه على تجهيز قوات المشاة بكل ما يلزمها وتقسيمها تقسيما حربيا بما يلائـــم تحركـــات المعركـــة القادمة . ولما أن تم له التنظيم القتالى كما أراد ، انطلق بقواته نحـــو ســـوريا ليوقف قواتها الزاحفة فكانت الهزيمة لأعدائه.

ثم تمكن رمسيس الثالث من الوصول الى أحد الموانئ على الشـــاطئ الفينيقى فاتخذه مركزا يراقب منه المعركة البحرية التى نشبت بين أســـطوله وأسطـــول العدو . وكان عمله يتركز فى إدارة عمليات الدفاع عن الشاطئ ..



ولقد كان الأسطول المصرى مسلحا تسليحا جيدا ويقوم عليه نخبة من أكفأ البحارة المصريين . وبفضل هذين العنصرين أنزل الأسطول المصرى الهزيمة بأسطول العدو قبل أن يبلغ الشاطئ .. وأكثر من هذا فتكا بالعدو فإن رمسيس الثالث وزع قواته البرية على الشاطى المواجه لميدان القتال ووجهت سهامها وكأنها العاصفة إلى قوات أسطول العدو فأصابتها إصابات شديدة .. وبعد ذلك التمهيد القتالي توجه الأسطول المصري نحو أسطول العدو ليسيطر على سفنه . فنزل الجنود المصريون بسفن العدو وفتكوا برجالها بما أثار الهلع والفزع والفوضى بين قوات العدو التى ذهلت مما وقع لها . فألقت بأسلحتها فى البحر وبأنفسها بين الرماة المصريين الذين أسروهم:" وكانت سهام جلالته تصيب جسم كل من يصوبها نحوه فترديه فى الماء قتيلا .. ثم غنم رمسيس الثالث أسطول العدو حيث سحبت سفنه مقلوبة .. "وكان القتلى كومات مكدسة على ظهر السفن". وبهاتين المعركتين اللتين انتصر فيهما رمسيس الثالث تمكن من دحر أعدائه وبذلك أعاد بلاد آسيا الى دائرة الإمبراطورية المصرية حتى "أمور" .. وهكذا تخلصت الإمبراطورية المصرية فى آسيا للمرة الثانية من أعدائها المتربصين بها وبعدها رجع رمسيس الثالث إلى قصره بالدلتا ليشارك شعبه فى الاحتفالات التى أقيمت ابتهاجا بالانتصار ين العظيمين.



ولقد كان الليبيون يحرصون دائما على الهجرة إلى مصر وكان يتطرف بهم ذلك الحرص أحيانا فيتصورون أنهم أصبحوا حكاما لمصر .. وحدث مرة أن جماعات منهم صاحوا بصوت واحد :" لنستوطن مصر".. وعبروا الحدود المصرية ليحققوا ما يشتهون ولكنهم أبيدوا كما أبيد غيرهم من قبل . غير أن رمسيس الثالث لم يصبر على عبثهم طويلا فشن عليهم



حربا خاطفة أوقعت الرعب فى قلوبهم فأسلموا أنفسهم لريح الفرار فلاحقهم رمسيس الثالث بقواته حتى حدود الدلتا بعد أن تأكد من اختفائهم من الأراضي المصرية. وكانت نتيجة تلك المعركة أن قتل قائد المشواشيين وأسر والده الملك ، وكان اسمه "كير" وقد وصل عدد القتلى حداً مزعجا فقد بلغ الفان ومائه وخمس وسبعون قتيلا . أما الأسرى فكانوا ألفين واثنين وخمسين أسيرا. وكان من بينهم عدد كبير من النساء .. وقد قال رمسيس عن معاملته لأسراه: "لقد اعتقلت رؤساءهم فى قلاعى باسمي ووسمت قوادهم ورؤساءهم الذين وهبتهم لتلك القلاع كعبيد باسمي وعاملت نساءهم وعيالهم المعاملة نفسها".

ثم وجه جهوده العسكرية ناحية الشام حيث اندلعت بها عدة ثورات فأخمدها جميعها. وقد تمكن فى حملته تلك من أن يبسط سيطرته على خمس مدن هى : أمور ، وكدش ، وإرث .. واثنتان مجهولتان . وحتى يضمن ألا تقوم ثورات ضد مصر فإنه أقام الكثير من الحصون القوية بتلك الجهات ليضمن عدم تمردها وخروجها عليه .. وفى نفس الوقت شيد بعض المعابد للإله آمون وقد أرغم ملوك الجهات الآسيوية على أن يعلنوا خضوعهم وولاءهم له ولمصر . ولو أننا نظرنا فى حروب رمسيس الثالث لوجدنا أنها فرضت عليه فرضا بسبب الثورات المتعددة التى نشبت ضد الحكم المصرى وبسبب الأطماع الخارجية التى أظهرها الحكام الأجانب فى إخضاع مصر والسيطرة عليها .. وفى مقابل هذا لم يكن رمسيس الثالث بالرجل القادر على حل مشكلاته الداخلية . ولعل موقفه من القضايا الدينية التى ورثها عن الأسرة التاسعة عشرة خير دليل على ذلك .

وفى أواخر أيامه واجه مؤامرة لاغتياله كان الهدف منها إحلال ملك آخر مكانه ولكن كُشِف المتآمرون وقدموا للمحاكمة فطلب رمسيس الثالث من القضاة أن يتوخوا العدل فى محاكمة المتهمين وقد وجه الى القضاة ذلك الأمر



الملكى ولعله آخر ما أصدره من قرارات :" أنا آمر القضاة (وهنا ترد أسماء حضر اتهم ووظائفهم) قائلا أما من خصوص الكلام الذى يدور على ألسنة الناس فلا علم لى به فاذهبوا وافحصوا الأمر فإذا حققتم وتبينتهم المتهمين فأمروهم أن ينتحروا بأيديهم بدون إخطارى ووقعوا العقاب على كل من يستحقه بدون استشارتى أيضا .. احترسوا من عقاب البرئ .. هأنذا أكرر لكم أن كل شخص ارتكب أو اشترك فى هذه الجناية يجب أن ينال نصيبه من العقاب .. أنا أمين ومحروس إلى الأبد لأننى ضمن الملوك العادلين أمام آمون رع ملك المعبودات وأمام أزوريس حاكم الأزلية".

وبعدها توفى رمسيس الثالث عام ١١٦٧ ق.م. وذلك قبل أن ينال المتهمون جزاءهم.

ثم خلف رمسيس الثالث ما يقرب من تسعة ملوك تسموا جميعا باسم رمسيس .. والحق أنهم لم يكونوا جديرين بهذا الاسم فقد كانوا فى غاية الضعف. ومن بعدها انهارت الإمبراطورية المصرية واتصف كل مظهر فيها بالضعف والفساد حتى أنه أصبح من اليسير على رئيس كهنة آمون أن يغتصب الملك وينفرد بالحكم إذا ما واتته الفرصة .

ولقد تجلى الانهيار الحضاري لمصر فى صور شتى من الفوضى ، من هذه الصور : قبل أن يتم رمسيس الثاني عشر خمس سنوات على عرش مصر ، استقل الوجه البحرى بأكمله تقريبا تحت سلطة أحد أعيان تنيس المدعو "نسوبا نبدد" المعروف عند اليونان بسمنديس.

- حدثت انقلابات كثيرة داخل مصر .
- طمع فى مصر سيشنق الليبي فاستولى عليها وحاول أن ينهض بها ، ثم تمكن من مد نفوذه الى فلسطين والشام .
- توفى شيشنق سنة ٩٢٠ ق.م . وخلفه ابنه أو سركن الأول الذي توفى بتل بسطة.

• ثـــم حكم بيعنخى مصر حوالي ســنة ٧٤١ ق.م . وأخضـــع لسـلطته أمراء الدلتا.

* * *

ثم حدثت صحوة لم تستغرق وقتا طويلا ، فقد تمكن الملك المصـــري بسماتيك من التخلص من الحكم الآشوري ، ولكي يضمن وحدة البلاد ويحقق قوتها فإنه منح أمراء الأقاليم سلطات كبيرة كانت تشبة الاستقلال الذاتـــى .. وقد تطلع بسماتيك إلى أن يستعيد مجد أجداده فكون جيشا كبير من المرتزقة : من يونانيين ، وكاريين ، وسوريين ، وليبين . وفى ســنة ٦٤٠ .ق.م . قـام بسماتيك بعدة هجمات ليستعيد أملاك مصر فى الشام وفلسطين وأن ينتزع من أشور ما استولت عليه من أقاليم .. ثم توفى سنه ٦٠٩ ق.م. بعـــد أن حقـق أعمالا مجيده وأعاد لمصر الأمن والقوه التى لم تشهدها منذ خمسمائة سنه أى منذ وفاة رمسيس الثالث..

وبعد بسماتيك جاء ابنه نيخاو الذي بذل جهودا كبيرة فـــى اســتعادة السيطرة على الأقاليم الخارجية وبعدها فقدت مصـــر أملاكــها بـل فقــدت استقلالها فقد دخلت فى حوزة السيطرة البابليه .. ثم الفارسية .. ثم اليونانية ثم البطلمية .. فكانت خاتمة العسكرية المصرية الفرعونية .

الفصل الثالث

العسكرية المصرية

الإسلامية



تمهيد

الاحتلال البطلمى - الرومانى

فى أعقاب وفاة الإسكندر (١٣ يونيو سنة ٣٢٣ ق.م) عقد كبار قادة جيشه فى بابل مؤتمرا موسعا بحثوا فيه الكيفية التى يمكن بها التحكم فى الإمبراطورية المقدونية التى خلفها الإسكندر بغير أن يعين لها وريثا ، وبغير أن يعين للحكم دستورا ومنهاجا.. وكأمر طبيعي نشب صراع بين أولئك القواد ، وقد انتهى الصراع إلى تجزئة الإمبراطورية إلى ثلاثة أجزاء ، أى ثلاث دول هى : دولة البطالمة فى مصر ، ودولة السليوكيين فى سوريا وبابل ، ودولة مقدونيا . وفاز بمصر القائد بطليموس الذى أسس أسرة البطالمة التي تولت أمر مصر فى المدة من سنة ٣٢٣ الى سنة ٣٠ ق.م.. ورغم ذلك التقسيم فقد كان كل من القادة الثلاثة يكن شيئا من النفاسة أو الحقد بالنسبة للآخر ..

وقد وجد بطليموس أنه لابد له من جيش قوى وأسطول قوى حتى يحقق استقلاله ويضمن استمرار هذا الاستقلال لتكون كلمته مسموعة فى الشئون الدولية .

ولتأكيد هذا الاستقلال ودعمه وصيانته فإن بطليموس رأى ضرورة الاستيلاء على الأقطار المحيطة بمصر والتي تؤلف معها وحدة حضارية طبيعية فكان أن استولى على برقة لدرء الأخطار عن الحدود الغربية لمصر . كما استولى على فلسطين وفينيقيا وجزء كبير من سوريا ، واستولى على قبرص وبعض البلاد الواقعة على شواطئ آسيا الصغرى الجنوبية ، كما

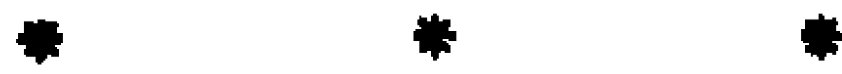
استولى أيضا على بعض الطرق التجارية الموصلة الى الشرق الأقصى كما تحقق لمصر سيطرتها فى بحر إيجه .

وبتولى بطليموس الثاني عرش مصر كانت دولته قد صارت أقوى دولة فى العالم الإغريقي ، وقد نهض بطليموس الثاني بعمليات ردع متعددة فأعاد إخضاع قبائل النبط فى البتراء وإخضاع الأدوميين والبحر الميت وشرق الأردن .. ففتح بذلك منافذ للتجارة الشرقية القادمة من بلاد العرب وغيرها وفى نفس الوقت أظهر عناية بالطرق التى تربط وادى النيل بالبحر الأحمر . كما بسط الأمن على حدود مصر الجنوبية وكذلك الطرق القائمة فى منطقة أعالى النيل . هذا فضلا عن أنه لم يغفل عن تأكيد السيطرة البلطمية على سوريا وعلى شاطئ آسيا الصغرى الجنوبي وهى تلك التى كان أبوه قد فقدها فى عام ٣٠٦ ق.م .. كما أنه تمكن من أن يضم إلى مصر أقاليم أخرى واقعة على شاطئ آسيا الصغرى الغربى وكذلك جزيرة كريت وغيرها من الجزر فى بحر إيجه ..

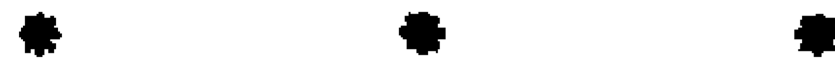
وخلال تلك الحملات التأديبية والتوسعية وما كان لها من أهداف كثيرة لم يشترك المصريون مع القوات البلطمية فى الحرب فقد عمد البطالمة الثلاثة الى استبعاد المصريين فلم يكلفوهم بأية مهام قتالية وكل ما كلفوهم به بعض الأعمال الثانوية كالنقل وأعمال الشرطة ولذلك فإنهم سلحوهم بأسلحة قديمة ولكن عندما وجد بطليموس الرابع أن قد قل عدد الجنود المقدونيين والإغريق القادمين من بلاد اليونان فإنه لجأ إلى المصريين وكون منهم قلب الجيش بعد أن دربهم تدريبا عاليا وسلحهم بأحدث الأسلحة .. وبهم وحدهم أحدث النصر الحاسم على عدوه أنطيوخس الثالث وذلك فى موقعة رفح (عام ٢١٧ق.م)

وهنا أدرك المصريون قيمتهم ومكانتهم وبأنهم أنداد للمقدونيين وكان ذلك سببا فى أن يخشاهم البطالمة ويتوخوا الحذر منهم .

* * *



فإذا انتقلت مصر إلى الرومان فقد أصبح لها شأن مخالف تماما فقد صارت مزرعة خاصة لروما ميزها الأباطرة الرومان بعناية خاصة جداً " ولذلك فإنهم فرضوا عليها سيطرة عسكرية محكمة فأقاموا حامياتهم في المواقع التي لا تتيح للمصريين فرصة لأن يحدثوا أنفسهم بالخروج الثوري على حكامهم .. فحسبهم أن يزرعوا وأن يقدموا محاصيلهم إلى صاحب الأمر في مصر .. ولذلك كانت مصر دون غيرها من أقطار الإمبراطورية الرومانية التي لا يؤذن لأحد بزيارتها إلا بإذن شخصي من الإمبراطور .. وهكذا أخمدت جذوة العسكرية .. وظلت في خمودها حتى فتح الله على مصر بالإسلام ودخلها عمرو بن العاص فاتحاً باسم الله وكان أن هدى الله أهل مصر إلى الإسلام ومن بقي منهم على مسيحيته فهو في حريته يعبد ربه كيف يشاء وله ما للمسلمين من حقوق وعليه ما عليهم من واجبات لا يظلم فيها ولا يعضل دونها ..



بعد هذا التمهيد التاريخي الموجز فإننا نمهد للعسكرية المصرية الإسلامية بتقويمين موضوعيين ضروريين هما :

١- بطولة القتال في القرآن الكريم .

٢- المقومات الإنسانية للدولة المصرية الإسلامية .



بطولة القتال فى القرآن الكريم

السبيل الى جعل الإمكانات والتطلعات الإنسانية سبيلا إلى التقرب إلى الله ودليلا على الإيمان به ليس يسيرا ولا دانيا ، يقول له الإنسان : "كن" فإذا هـو كائن .. إنه طريق الاجتمـاع الإنسـاني بميراثـه الفكـري والعلمـي والأخلاقي والعقائدي.

إنه طريق الاجتماع الإنساني بتقاليده وصراعاته الطبقية وتناحراتـه الطائفية .

إنه طريق الاجتماع الإنساني بنفسياته وما يحيك بهذه النفسيات مـن أحقاد وعدا وات ، أو ما يتنزى بها من شهوات وأطماع ، أو ما يؤرقها مـن وساوس ويوجلها من مخاوف ..

السبيل كما قلنا ليس يسيرا ولا آمنا لهذا كان الجهاد أو القتال فـى سـبيل الله لتحقيق إمكانات الوجود الانسانى على شريعة من أمره سـبحانه إيمانـا بـه وتقربا إليه هو الآية التى يتحقق بها تمام الايمان ، بقول سبحانه :

"وجاهدوا في سبيل الله لعلكم تفلحون". (٣٥ سورة المائدة)

وتأتى آية الجهاد كصفة من صفات المؤمنين بالله لتتـوج خصـائص جديدة للإيمان ، فيقول سبحانه :" إنما المؤمنون الذين آمنو بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصـادقون " (١٥ سورة الحجرات) فالمؤمن هو من آمن بالله ورسوله ثم لم يشك فـى إيمانـه بوحدانية الله وبرسالة رسوله صلى الله عليه وسلم .. وبذلك يصبح الإيمـان خالصا لله وحده فيكون الجهاد فى سبيله جهادا بصيرا بـالحق قـادرا علـى تمييزه وإدراكه ثم تحقيقه .. فليس بعجيب إذن أن يكون الجهاد فـى سـبيل تحقيق إمكانات الفطرة الإنسانية التي بها يتحقق الوجـود الحضـاري علـى الصـورة التى تتحقق بها رسالة استخلاف الإنسان فى الأرض كما شـاء الله

.. ليس بعجيب أن يكون الجهاد بهذه الغاية هو ذروة عمليات الجهاد وقمتها بل هو جوهر الحركة الحضارية بأسرها فى كافة أطوار مراحلها .. ففى الجهاد قدر الإنسان ومصيره .. وفى الجهاد بقائه وارتقائه أو اندحاره وفنائه. فهو من ثم البطولة بأعلى معانيها وأجل غاياتها . ومن هنا جاء بيان القرآن للجهاد كحقيقة من حقائق الوجود الإنساني فيها حياة الإنسان وكفريضة واجبة محتومة وإن كلفته حياته ، يقول سبحانه :" كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنت لا تعلمون " (٢١٦ سورة البقرة)..

وتعطى عبارة :": كتب عليكم القتال وهو كره لكم" كل فرائض الالتزام المصيري حيث لا مهرب ولا مجال للتأويل أو التمحل .. بل إن العبارة بصيغتها المجردة لتواجه الإنسان بالفريضة سافرة عاتية لا يملك المرء إزاءها سوى الرضى والتسليم : الرضي بقضاء الله والتسليم لإرادته .. رضى يحمل كل معانى الثقة فى الله وتسليما يحمل كل معانى الاستبشار بالغد قرب أم بعد ، وفى هذا يقول سبحانه :" وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم". إلا أن مشاعر الثقة والاستبشار لا تفقد الضابط الذى يكبحها ويطامن من جموحها . ولكن التعقل والتدبر يفتحان عين البصيرة والوعى حتى لا يندفع الانسان مع التفاؤل أو يندفع مع اليأس والقنوط فتلحقه الهزيمة فى الجانبين، وفى ذلك يقول سبحانه :" وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ".. ثم تأتى عبارة الفاصلة :" والله يعلم وأنتم لا تعلمون " لتؤكد أن ما فرضه الله هو الحق، وأن فى هذا الحق خيراً المسلمين لو أنعموا التفكير وأحسنوا التدبير . هكذا صدرت فريضة القتال على المؤمنين ، أو هكذا صدرت فريضة البطولة على المؤمنين.

وإذا كان القتال فريضة فلا فريضة بغير القواعد والأسس ، وكذلك لا قتال بغير العدة النفسية مندمجين ، متآصرين ، ومتناصرين. فالقتال أو لا



ليس لذات القتال ولا لفرض مذهب اجتماعى أو عقيدة دينية بقوة السلاح . إنما هو للذود عن كلمة التوحيد وشريعة التوحيد وأمة التوحيد ، وفى ذلك يقول سبحانه :" الذين أمنو يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا " (٧٦ سورة النساء)...

فمن هم أولياء الشيطان الذين فرض على المؤمنين قتالهم ؟ إنهم أولياء المتآمرين أو بلغة العصر ، عملاء المتآمرين على المسلمين فى أقطارهم وأوطانهم .. فى عقيدتهم وشريعتهم .. فى فكرهم وثقافتهم وعلمهم .. في رجالهم وتراثهم.. ورغم نوعيةهذاالتآمرواتجاهاته أو مجالاته فإن الآية الكريمة لا تترك إرادة الإيمان أو إرادة البطولة في وجدان المؤمنين لكيد الطاغوت وأوليائه ولعبث ضغوطه وقهره . .ولكنها تهوّن من هذا الكيد فتصفه بالضعف، ولم لا يكون ضعيفا وأصحابه ضعاف لأنهم تحت ضعيف مثلهم قد باعد بينهم وبين الله ؟ ولم لا يكون المؤمنون أقوياء وهم يعتمدون على الله خالقهم وخالق عدوهم وخالق كل شئ .." إن كيد الشيطان كان ضعيفاً. فالذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله وسبيل الله هو سبيل الحياة كأنضر ما تكون الحياة وأكرم وآصل ما تكون الحياة .. ولن تكون الحياة أصيلة إلا بشريعة الله . هكذا ينبغى أن تكون الحياة ، وهكذا ينبغى أن يكون القتال . وهنا تكون غاية البطولة لا القتال من أجل الحياة الدنيا أو الوجود المادى ولكن احياء للحياة وإزكاء لها وإن غفل عن ذلك الكثيرون وهم في غمرة الأطماع وما لها من أصداء وضوضاء ، يقول سبحانه :" فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً(٧٤ سورة النساء)..

وصوانا لإرادةالقتال في الإنسان أو إرادة البطولة فى الإنسان فقد صدر أعنف نكير وأقساه للمؤمنين الذين أظهروا إخلادا للحياة ، سواء

طمعا فى مناعمها أم إجفالامن القتال ، فقال سبحانه :" يا أيها الذين آمنوا مـــا لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتـــم بالحيـــاة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل .إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شئ قديـــر " (٣٨، ٣٩ سورة التوبة) ..

هاهنا عتب عنيف يصل فى تصاعده الى درجـــة الســخرية المــرة القاسية: فالآية الأولى تبدأ بقوله تعالى" يا أيها الذين آمنوا" ، فكأنـــه سـبحانه يذكر المسلمين بإيمانهم ، ويعتب عليهم بإيمانهم.. ، ثم بعد هذا يصـــور مـــا أصاب نفوسهم من خور ووهن بتجسيد انفعالاتهم النفسية وما طرأ عليها مـــن تحول حين نزعت بها نوازع الفطرة إلى التعلق بشـــهوات الحيـــاة ، فيقـــول سبحانه للمـــؤمنين ": مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة".. ثم توزن قيمة الدنيا بميزانــــها الصحيـــح الذى يقدرها فى ذاتها فيقول سبحانه :" فما متاع الحياة الدنيا فى الآخـــرة إلا قليل ".

ثم تأتى الآية الثانية نذير رعيب .. نذير يستنقذ إرادة الإيمـــان فـــى الإنسان، وهى رادة البطولة التي تصنع الحياة .. يأتى النذير رعيبا ليتكافأ مع ما تنتهى إليه قضية المصير الحضاري لو أعرض المؤمنون عـــن فريضـــة القتال، فيقول سبحانه :" إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما".

ولكن الأمر لا ينتهى عند مجرد العذاب إذ لابـــد مـــن وجـــود أمـــة تجاهد فى سبيل الله .. أمة تدعو إلى الخير وتأمر بـــالمعروف وتنـــهى عـــن المنكـــر .. أمة تقيم الحياة وتصلح وترفع أركان عمرانـــها وتحقـــق للنـــاس العيش الرغيد . وذلك فى حد ذاته هو منتهى التنكيل بمـــن يقعـــدون عـــن النضال ومجابهة العدو خوفا من القتال وفزعا من القتل .. نعم ، ذلـــك هـــو

الجزاء الرعيب ، فقال سبحانه ": ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شئ قدير ".

وليست هناك لحظة أحرج وأقسى وأشد زلزلة للنفس والإرادة من لحظة الصدام والمواجهة بين الجيوش المتحاربة ..إنها لحظة تتوقف عليها نتيجة المعركة إن لم تتوقف عليها مسيرة القتال بأسرها .. ولذلك فإن أقل بادرة من بوادر النكوص أو أية ظاهرة من ظواهر الارتداد كيفما كانت تبريرات المنحرفين وذرائع المرتدين ، كفيلة بأن تقضى على الجيش .ومن ثم فقد حذر القرآن الكريم فى عنف رعيب من المصير الرهيب الذى ينتظر أولئك الذين تصيبهم رعدة الجبن لحظة الصدام مع العدو أو مواجهة قواته المتقدمة..وفى نفس الآن أعطى القرآن الكريم إرادة الإيمان أو إرادة البطولة الحرية فى تقدير موقفها من مواجهة العدو و إذا وجدت أن الخطة التى أعدت تحتاج إلى تعديل .. فليست المواجهة البطولية فى القتال اندفاعاً حيوانيا يفقد فيه المقاتل القدرة على الإدراك والتقدير .

فالقرآن الكريم إذن يعطى لإرادة القتال حريتها فى الحركة والمناورة ولكنه لا يتسامح على الإطلاق فى أن تتجه الحركة إلى الإجفال والهروب ، ولذلك فقد قال سبحانه :" يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير" (١٦ سورة الأنفال)..

ومما يدعم إرادة القتال في موقف التصادم والمواجهة هو الثقة الراسخة في الله بالنصر .. والقرآن الكريم يحرص غاية الحرص على تأكيد الثقة في الله وتثبيت الإيمان بعونه ،فى نفوس المؤمنين المجاهدين، فقال سبحانه مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم :" يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون " (٦٥ سورة الأنفال)..

والقرآن الكريم يعالج الانفعالات النفسية التى تزدحم بها القلوب فتسيطر على الفكر والشعور سيطرة لها أثرها البالغ فى قوة الصفوف المقاتلة ومسيرة القتال .. والعلاج القرآنى يحسب حساب ما يصيب الإرادة من وهن وتحول عن القتال لا سيما إذا استهولت النفوس قوة العدو ورهبت جحافله وأسلحته أو خدعت بما يروج عن قوته وقدرته ، يقول سبحانه " ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ويرجون من الله مالا ترجون وكان الله عليما حكيما " (١٠٤ سورة النساء)..

فحين تقول الآية الكريمة " ولا تهنوا فى ابتغاء القوم" ، فإنها تصف الحالة النفسية التى تصيب المقاتل عند خوفه من الحرب أو عند اجفاله مما يتوقعه من أهوال . ذلك لأن الوهن ضعف نفسى ترتخى فيه الأعصاب وإن ظهرت على المقاتل أعراض التوتر والضيق والعنف .. وهنا تأتى كلمة : "فى ابتغاء القوم " لتعطى إرادة الايمان أو لتبعث فيها النفحة البطولية الكاملة للإقدام و المخاطرة .. ثم تقدم الآية الكريمة مقارنة تتميز بالحيوية والعمق ، كما تتميزبالقدرة على تحريك الوجدان المؤمن فى سرعة عنيفة نحو الميدان بإرادة جسورة لا تلحقها هزة النكوص أو التردد، يقول سبحانه: "إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ويرجون من لله ما لا ترجون وكان الله عليما حكيماً".

ثم لتأكيد ضرر هذا النازع النفسى وخطورته فإن القرآن الكريم يربط مشاعر الوهن أو الوهن فى ذاته وما يمتزج به من مشاعر الأسى والحزن، بالإيمان فى ذاته .. فمن وهن وحزن فقد يقينه فى الإيمان أو فقد الثقة فيما يؤمن به، يقول سبحانه" ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين" (١٣٩ سورة آل عمران)..

ولتبديد هذه المخاطر والأضرار فإن القرآن الكريم يعرض على المؤمنين لباب الحركة التاريخية فى أطوارها المتعاقبة ، وذلك فى انطلاق



سريع وكأن الزمان بآناته حاضر أمامهم يشهدون أحداثه ، يقول سبحانه :" إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنو ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين "(١٤٠ سورة آل عمران).

وتأتى عبارة "إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله" لتخفف مما أصاب المسلمين من أعدائهم ولتخفف مما قد يصيبهم فى غدهم .. ثم تأتى العبارة التالية : "وتلك الأيام نداولها بين الناس". لتبعث الأمل فى النفوس والرجاء فى القلوب والثقة فى المستقبل . وهذا من شأنه أن يشد من أزر الصفوف ويقوى من انطلاقات السواعد ويثبت من خطا الأقدام .. وإن فى قوله تعالى : "وليعلم الله الذين آمنوا" ليوجد محك الإيمان ومعياره وهو القتال في سبيل الله والثقة فى قدرته والرجاء فى قضائه . بهذا يتميز المؤمنون الصادقون ممن فى قلوبهم مرض أو زيغ .

ثم تأتى عبارة :" ويتخذ منكم شهداء" لترتفع بالإيمان إلى ذروته..

فالاستشهاد يمثل أسمى اللحظات الوجودية التى تقوم عليها حياة الوجود ..فهو روح الحضارة التى تكتب لها البقاء وتفتح لها آفاق العمل والارتقاء.

فلا قتال بغير إيمان ولا إيمان بغير استشهاد ، استشهاد فى سبيل الله لا فى سبيل مذهب اجتماعى أو عقيدة سياسية تتآمر على الحياة بشتى سبل التمويه والإضلال والغدر .. ولذلك فقد جاء قوله تعالى :" والله لا يحب الظالمين "، ليصون الاستشهاد فى سبيل الله من نزغات البغى واستمراء التقتيل والتخريب.

إذن فالاستشهاد بهذه الشرعة البطولية المتميزة بقداسة الإيمان هو أعلى مقومات البطولة وأكرمها عند الله سبحانه ، وأعزها منزلة وأوفاها جزاء . لأن الشهيد وفًى باستشهاده خير فريضة واجبة للإنسان والحضارة

والحياة ، وهذا هو الجزاء ، يقول سبحانه :" ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون " (١٦٩ سورة آل عمران)..

ثم انظر فى نوعية حياة الشهداء وهم فى رحاب الله ، وكيف أنهم وهم فى رضوانهم على صلة حية واقعية بالأحياء الذين يقاتلون ، يقول سبحانه: "فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون"(١٧٠ سورة آل عمران) .. فللشهداء - وهم على صلة واعية بحقيقة الحياة وان فقدوا مظاهر الاتصال بها - بشرى النعيم المقيم الذى يجدونه حقا لم يضيعه عليهم الذى أنعم عليهم بنعمة الاستشهاد ، يقول سبحانه "يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين"(١٧١ سورة آل عمران)..

فإرادة الإيمان بالله إرادة استجابة بطولية لنداء الحياة لا يفزعها أو يقنطها ما قد تصاب به وهى فى مشتجر المعارك، ولا يخيفها أو يوجسها ما قد يذيعه العدو على لسان أوليائه وعملائه عن قوته وجبروته .. إنها - أي إرادة الإيمان - تزداد إيمانا بربها وإيمانا بقضيتها ، ولا تكون زيادة إيمانها سوى التسليم ثقة بنصر الله وتأييده ، يقول سبحانه:" الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقو أجر عظيم . الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم . فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعمة الوكيل". (١٧٢ ، ١٧٣ سورة آل عمران)..

وفضلا عن هذا فإن القرآن الكريم يحصن المؤمنين من تأثيرات الدعوات الانهزامية التى قد تتسرب إلى نفوسهم وذلك بعاملين أساسين لهما القدرة على تثبيت أقدامهم وترسيخ صمودهم أمام عدوهم .. وهذان العاملان هما : الصبر والصلاة .. وحتى يكونا شموليين فإن القرآن الكريم شمل بهما كافة أنواع الأخطار والآفات التى قد يصاب بها الإنسان وتكون مجال ابتلائه وفتنته.

وليس الصبر هنا هو صبر العاجز ولكنه صبر المؤمن بالله الواثق من عـونه، وصبر المتدبر الذى يعد عدته للرد على ما أصابه .. أمـا الصـلاة فإنها الصلة الروحية بالله سبحانه، الصلة التى يستمد المؤمن منـها لإرادتـه وفكره ووجدانه اليقين والإقدام والاطمئنان ، يقول سبحانه: "يا أيها الذين آمنو استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين . ولا تقولوا لمن يقتـل فـى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون. ولنبلونكم بشيء مـن الخـوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصـابرين الذيـن إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون" (١٥٣:١٥٦ سورة البقرة)..

وعدة القتال رجال وسلاح ومال ، ولإعداد الرجال لابد من تعبئتهم وإزكـاء الإيمـان في صدورهم ، يقول سبحانه :" فقاتل فى سـبيل الله لا تكلـف إلا نفسـك وحرض المؤمنين على القتال عسى الله أن يكف بأس الذيـن كفـروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً (٨٤ سورة النساء).

ولابد للحرب من مدد مالي يوفر للرجال ما يحتاجونـه أو يحتاجـه جهادهم من سلاح وعتاد ومؤونة .. ولذلك فإن القرآن الكريـم قـد أوجـب الإنفاق في سبيل الله على أن يكون إنفاقا صادراً عن صفاء إيماني لا تشوبـه أثارة من حرص أو شح يسبب لصاحبه لذعة من ألم الحسرة والنـدم، يقـول سبحانه :" الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منـا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنـون" (٢٦٥ سـورة البقرة)..

وحتى يكون الانفاق صادراً عن إيثار وتضحية فإن القـرآن الكريـم يحذر من آفة البخـل فى موقف من أخطر المواقف أثراً فى حياة المسـلمين ومصيرهم

.. يحذر وفى نفس الوقت ينذر بالجزاء الرادع : فيقول سبحانه :" ها أنتـم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخـل فإنمـا



يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم (٣٨ سورة محمد)..

أما عدة القتال فإن الإعجاز الفكرى لا يأتى بها منفصلة عن المقومات الأساسية للحرب والجهاد ولكنه يضعها فى مكانها الصحيح بمكوناتها الشاملة ، فيقول سبحانه :" وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شئ فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون " (٦٠ سورة الأنفال)..

فالآية الكريمة تبدأ بالأمر الحتمى الواضح الصريح :" وأعدوا لهم " ، أى لعدوكم يا معشر السلمين .. فهنا من ثم واجب والتزام ، فلا وقت للتهاون أو الإرجاء . وإذا كان الأمر بهذه الدرجة من الخطورة فإنه لمن البدهى ألا يتقيد الإعداد للقتال بأية شروط مقيدة ، وهذا ما تشي به كلمة : "ما استطعتم" .. فكل ما يمكن الحصول عليه من عدة للقتال أو يمكن أن تصلُ إليه اليد من سلاح أيا كان نوعه فلا ينبغى إهماله أو الاقلال من شأنه .. وتشي الكلمة أيضا بأنه لا ينبغي الاقتصار على مصدر واحد للسلاح بل إنه ليجدر البحث عنه وكذلك صنعه بكل وسيلة مستطاعة ولهذا فقد جاءت كلمتا"من قوة" ومن رباط الخيل" هكذا على التنكير لتشملا أو لتضما كل ما يمكن أن يستحدثه العلم من أسلحة ، تقول الآية الكريمة :" ترهبون به عدو الله وعدوكم"..

وليس المقصود بالإرهاب هنا مجرد إخافة العدو فحسب . ولكن الإرهاب يشمل التدمير العام لقواته وتحطيم فاعليتها بكل سبيل .. وهذا ما يؤكده قوله تعالى : "واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم" (١٩١ سورة البقرة).. ويؤكده أيضا قوله تعالى : فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإمامنا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها" (٤ سورة محمد)..



ولا يقتصر القتال على إرهاب العدو الظاهر بجيوشه وأسلحته ولكن من الضروري أن يمتد إلى الذين يعاونونه من عملاء وجواسيس لا يراهم المقاتلون ولكن لعملهم خطورة محسوبة فى مراحل القتال وأطواره ، وفى ذلك يقول سبحانه ": وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم"..

ومع هذا التكامل بين مقوات القتال فإن القرآن الكريم يحسب لكل عنصر دوره فى الحرب فيعطيه حقه من التقدير والجزاء .. فليس من يقعد عن القتال كمن يجاهد بسلاحه .. وليس من يجاهد بسلاحه على درجة سواء مع من ينفق من ماله فى سبيل الله .. ولا يستوى هؤلاء جميعا مع من يجاهد بماله وحياته وذلك هو غاية العدل وغاية التدبير لمقومات النصر ، يقول سبحانه :" لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً (٩٥ سورة النساء)..

وإرادة الإيمان لا تعرف فى جهادها البطولى نزعة التشفى والانتقام الشامل الذى يدمر ويشيع الخراب ولا يبقى على شئ .. وإنما تدافع عن ذاتها وكيانها ضد المعتدى الذى يريد أن يفرض عليها سطوته وإرادته وعقيدته كبناء اجتماعى يرغمها على الايمان به والاستسلام له . ولذلك كان قتال المؤمنين لعدوهم دفعا لطغيانه وبهتانه ، هو العدل أو حق الحياة لا يمارى فيه عاقل منصف ، يقول سبحانه:" وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين" (١٩٠ سورة البقرة) .. ويقول سبحانه : "ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم " (٤١، ٤٢ سورة الشورى)..

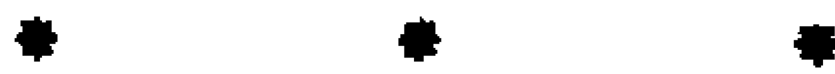
وبهذه الشرعة الأخلاقية أو السياسية الاخلاقية للجهاد أو القتال في سبيل الله ، سار الخلفاء الراشدون مسيرتهم في جهادهم وفتوحهم .. فهذا أبو بكر الصديق رضوان الله عليه يقول في جيش أسامة بن زيد وهو يشيعه للقتال :" لا تخونوا ، ولا تغوروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ؛ ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة .. وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له .. وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئا بعد شئ فاذكروا اسم الله عليها .. وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها العصائب فاخفقوهم خفقا .. اندفعوا باسم الله ".

وبطولة القتال في القرآن الكريم لا تعرف استعلاء التجبر القتالي الذى يغرى صاحبه بمواصلة القتال مهما أبدى العدو المهزوم من استسلام أو أظهر من بينات الرجوع عن مواصلة القتال ..

بطولة القتال في القرآن الكريم لا تقر أسلوب الشراسة الحيوانية في الحرب ، فهو يقيد القتال بمبدأين :

الأول : أن تظل الحرب دائرة إلى أن تنتهى أسبابها وتخمد في إرادة العدو القدرة على استئناف القتال وذلك بغير بغى أو عدوان ، يقول سبحانه: "وقاتلوهم حتى لا تكون فتنه ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين" (٩٣ سورة البقرة)..

والمبدأ الثاني: أن يكون لنداء السلام الاستجابة التلقائية إذا ما رفع العدو رايتها ، يقول سبحانه :" وإن جنحوا للسلم فأجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم" (٦١ سورة الأنفال)..





هكذا جاءت بطولة القتال فى ضوء القرآن الكريم ، فى غايتها ومنهاجها ... إنها بطولة تحمل فى ذاتها ويحركها الإيمان بالله .. ويحفظها من شطط التهور والانتقام أنها تعمن على إقامة الحياة وإصلاح شئونها على شريعة الحق والعدل كما أمر الله..



المقومات الإنسانية للدوله المصرية الإسلامية

على مدار التاريخ الحضارى لمصر كانت دولتها دولة سلام وتآخ وتوحد .. وشعبها شعب سلام وتآخ وتوحد ..

وعندما ابتليت مصر بمستعمرين من دول الشرق والغرب ، كان المستعمرون فى جملتهم ينظرون إلى مصر نظرة التعالى والتميز . وبلغت تلك النظرة ذروتها عندما احتلها الغرب بعنصرية البطلمى والرومانى ، وإن كان الرومانى أعتى وأشد بأسا . فقد نظر إلى مصر على انها لا تزيد عن كونها ولاية من ولايات الإمبراطورية الرومانية الواسعة الأرجاء فى الشرق والغرب .. ولكن الولاية المصرية لم تكن كسائر الولايات ، فقد كانت ولاية خاصة جداً ، كانت تعد مركز غلال للإمبراطورية الرومانية ومن ثم فلم يكن يؤذن لأحد من كبار القادة بأن تطأ قدمه أرض مصر بغير إذن خاص وشخصي من الإمبراطور نفسه . أما القيمة الإنسانية للشعب المصري فى عيون الأباطرة الرومان فهم عمال زراعيون حسبهم أن يشقوا ويكدحوا فى الزراعة وجنى المحاصيل وتوريدها لمخازن الإمبراطور.

وبذلك لم تكن هناك أية منزلة تكريمية للشعب المصري أو لمصر بأسرها .. فقد كان الأمر المقرر أنها ولاية من الولايات حسب شعبها أن يعيش تحت رحمة سادته من الرومان الذين يسيرون بلاده حسبما يشتهون. فكأن الشعب المصري تابع من تابعي الرئاسة المركزية في روما فلا حول له ولا قوة ، ولا صوت له ولا نداء يسمع أو حتى يؤبه له ..

أما حين فتح الله على مصر بنعمة الإسلام وزالت الغشاوة الرومانية عن البلاد فإن مصر لم تصبح مجرد ولاية – وكذلك جميع الأقطار التى انضوت تحت لواء الإسلام – تخضع خضوعاً كاملا لشعب ممتاز .. ولكن الأمر الجديد فى الإسلام أن دولته كانت دولة عامة يتولى أمرها المسلمون



عامة . ليس بينهم جنس ممتاز له الغلبة وله الكلمة بحكم جنسه وطبقته وأصله .. بل الكل سواء ، على حد سواء. لكل إنسان مسلم الحق في أن يظهر رأيه ويدافع عنه ويشارك به في تسيير شئون الأمه . ويعطيه هذا الحق الفرصة كاملة لا في إبداء الرأى فحسب بل في المشاركة الفعلية في تسيير شئون المجتمع والأمة ، لأن المجتمع مجتمعه والأمة أمته .

وهذه المساواة الكاملة تقوم على مبدأ أولى جاء به الإسلام ، فالناس سواء أو شعوب العالم كلها سواء ، فقد قال سبحانه": يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أرتقاكم" (١٣ سورة الحجرات)..

ومن هذا المنطلق كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم للناس كافة، فقال سبحانه :" وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا" (٢٨ سورة سبأ) .. وعماد رسالته صلى الله عليه وسلم الرحمة والتراحم ، فقال سبحانه :" وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" (١٠٧ سورة الأنبياء) .. إذن فلا طبقية ولا عنصرية ، فقال علية السلام ": لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ".. وقال عليه السلام : "اسمعوا وأطيعوا ولو كان عبداً حبشياً كأن رأسه زبيبة" ..

وعماد الحكم في الإسلام كما هو عماده في الشئون الأخرى للمجتمع هو مبدأ الشورى فالله سبحانه أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالشورى فخاطبه جل شأنه قائلا :" وشاورهم في الأمر (١٥٦ سورة آل عمران) .. فكان مبدأ الشورى ركنا أساسياً من أركان الحكم الإسلامي ومعالجة قضايا المسلمين فقال سبحانه : "وأمرهم شورى بينهم" (٣٨ سورة الشورى)..

فكان أن اشترك المسلمون على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ومراتبهم وأقطارهم في تسيير دفة شئون المسلمين .. حدث هذا منذ أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكان أن تولى من ليسوا من قريش أو القبائل الكبيرة ،

أو من ليسوا من العرب فكانوا من الأعاجم ، ما يهم المسلمين في شئونهم العامة .. ومنذ عهد الخلفاء الراشدين كان لهم دورهم في أن يفتوا ويشرعوا ما هو صالح للمجتمع الإسلامي في طبقاته وفئاته ، وفى مشكلاته التى لم يعهدها من قبل . وذلك على ضوء من شريعة القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم .. حتى إذا كان العصر الأموي فإنهم شاركوا مشاركة لها دورها الظاهر في قيادة الجيوش الإسلامية في غزواتها وفتوحاتها . كما أن منهم من كانوا ولاة على بعض الأقاليم . أما فى العصر العباسى فقد زالت العنصرية تماما وأصبحت الدولة تولى عنايتها بالمسلمين كافة .. يضاف إلى هذا أن قاعدة الدولة لم تظل فى مكان واحد لا تفارقه كسائر الإمبراطوريات السالفة .. فقد انتقلت قاعدة الحكم من الجزيرة العربية ، أى من المدينة المنورة إلى الشام فى دمشق أيام الأمويين .. ثم رحلت عنها الى العراق حيث بغداد .

ومع اعتبارهما ولايتين إلا أن الانتقال لم يؤخذ فى الحسبان فقد ظهر وكأنه أمر عادى تماما لا يثير الدهشة ولا يثير تساؤلا لأنه يتفق مع مفهوم الوحده الإسلامية بين الشعوب الإسلامية كلها .. وقد خرجت جيوش الإسلام من مصر لفتح المغرب الذى أصبح بعد ذلك قسما من أقسام الدولة الإسلامية .. ثم قام أهل المغرب بالاشتراك مع العرب فى فتح الأندلس.. وكذلك كان الشأن فى الشرق فقد قام العرب بفتح العراقيون ثم اشترك العراقيون مع العرب فى ضم إيران إلى المحيط الإسلامى ثم تعاون العرب والعراقيون والإيرانيون فى فَتح بلاد ما وراء النهر ، وبذلك كان لهم فضل إدخال الأتراك فى الإسلام . بعد هذا نهض الأتراك بفتوحات أخرى فى الشرق حتى انتهى الفتح إلى الهند .

وقد تولت الأجناس التى دخلت الإسلام أمر الحكم الاسلامى فتولوا قيادة المسلمون جنسا بعد آخر .. كلما ضعف جنس حل آخر محله يكون أكثر



فتوه وأكثر جسارة وأكثر احتمالاً لأعباء الحكم ، وكأنه أمر طبيعي يوجبه مصير الكيان الإسلامى ومستقبله . وإلى هذا السبب ترجع الفتوة المتصلة والتجدد المتصل الذى فرضه ضرورة الاحتفاظ بالاسلام قويا عزيزا منيع الجانب .. وإذا كانت الدولة الاسلامية المترامية الأطراف ، الشاسعة الاقطار تقطنها شعوب لها أجناسها وألوانها ولغاتها وتقاليدها وثقافتها ، فقد كان من نتيجة ذلك أن تدافعت شعوبها بين غالب مرة ومغلوب آخرى ، قوى مرة وضعيف منهوك أخرى . وبناء على ذلك التواتر الذى يبدو طبيعيا لم يكن الغالب يوقن بأن صارت له الصولة التى تخرجه عن الوحدة الإسلامية على غرار ما كان يصنعه أباطرة الرومان .

فإذا كان قد مرت بالمصريين فترات من الضعف والهوان فذلك راجع فى أصله إلى أنهم لم يستطيعوا أن يصونوا حقوقهم ويدافعوا عنها وأن ينتزعوها ممن غلبهم عليها .. ولكن عندما يشتد ساعدهم وتهيئ لهم الأحداث فرصة الغلب والتفوق فإنهم كانوا يحتفظون باستقلالهم بل يضمون إلى وطنهم اقطاراً أخرى .. وأمامنا الحجاز الذى لو سارت به الأحوال على غرار ما كان فى الإمبراطورية الرومانية لبقيت له الرئاسة والزعامة . وفضلا عن ذلك فلا يمكن أن ننكر أن قد مرت الدولة الإسلامية بفترات من الفساد تكبد الناس بسببها ظلما شديدا وتضحيات شديدة .. ويرجع ذلك ، فيما يرجع ، إلى أن الحكم يتطلب قوة إدارية وحصافة سياسية ولين جانب مع جسارة قادرة على إخماد التألب والانتقاض . يضاف إلى هذا أن مشكلات المسلمين الاجتماعية والحضارية كانت كثيرة ومعقدة ومن الصعيب أن تحقق لها الحلول الموفقة .. وإلى جانب هذا العجز المخزى الذى ظهر عليه الكثيرون من الحكام فلم يقدّروا المسئولية ولم يقدروا على تحمل أمانتها.

وكل هذا مما لا شأن له بالدولة الاسلامية فى ذاتها ولا بالاسلام فى ذاته ولكنه شأن الطبيعة البشرية فى كل أطوارها وعصورها .



إن مصر لم تكن فى يوم من الأيام مجرد ولاية خاضعة مسلوبة الإرادة ، مسلوبة الكلمة لكنها كانت جزءاً من الأمة الشاملة ،جزءاً له أهميته وله مكانته ..

ومما له دلالته أن العرب وكانوا هم أصحاب الرسالة وأصل الدولة وأصحابها أصبحوا فى عهد الدولة الأموية وما جاء بعدها أضعف مكانة وأسوأ من جانب الرفاهية الاجتماعية . ولم يرجع ذلك لأنه – أى شعب الجزيرة العربية – كان شعبا مقهوراً ولكن حالة الحجاز فى ذاتها لم تُعِن أهله على التحدى الذى صار هو الطبيعة السياسية لذلك العصر .. ومن هنا لم يخامر الشعب المصري بعد دخوله في الإسلام أدنى شك في أنه ليس مغلوباً على أمره ..

لقد كان لمصر دور رئيسى له وزنه وقيمته فى كل الأزمات التى واجهتها الأمة الإسلامية .. ففى قضية الصحابى الجليل عثمان بن عفان وما جرى فيها من صراعات كان لمصر دورها ، كما كان لها دور ظاهر فيما نشب بين الأمويين والزبيريين ، حتى ذلك الصراع الختامى الذى نشب بين الأمويين والعباسيين كان لمصر فيه دور مشهود ..

لكل هذه المشاركات المصيرية الإيجابية فإنه يصعب أن نفرد لمصر تاريخا إسلاميا خاصا بها وحدها .. ومما له مغزاه من جانب السياسة الحضارية للأمة الإسلامية أن توحد أممها وشعوبها كان شأنا طبيعياً . فلم يشعر حاكم من حكام الأمة العربية الإسلامية بشعور الغربة بين أية أمه نزل بها . فقد كان أمراء مصر بعد الفتح فى العهد الطولونى ثم الفاطمى ثم المملوكى يقيمون فى مصر كما يقيمون فى القطر الشامى ويبذلون من الجهد فى سبيل القطر الشامى قدر ما يبذلون فى سبيل مصر وربما أكثر ... كما أنهم جاهدوا وضحوا فى سبيل استقلال الشام كما جاهدوا وضحوا فى سبيل مصر . وكان ذلك عن إدراك ووعى تاريخى والتزام إيمانى بأن سلامة

الأمــة الإسلامية من سلامة مصر ، وسلامة مصـــر مــن ســلامة الأمــة الإسلامية .. ومن هنا نشأ بالضرورة تكامل استراتيجي بين مصـــر والعـــالم العربى . وإلى هذه الحقيقة التاريخية والحضارية يرجع السبب وراء حرص " الغرب " على تمزيق العالم العربى والإسلامى بل على تمزيق كل دولة عربية إلى إمارات عرقية – أو دينية – مستقلة وعلى عداء مع الدولة الأم ، بل على عــداء مع حولها من إمارات أو دويلات .. وهذا هو ما ينفـــذ الآن بخطـــا" حثيثة وحريصة فى العالم العربى : فى العراق وسوريا والمغـــرب العربـــى والسودان وغيرها . ومصداقا" لذلك فإننا نقدم صورة لما تنبه إليه أحمد بـــن طولون ووعاه وأدراك أبعاد مخاطره.. لم يكن أحمد بن طولـــون مصــــريا ولكنه كان مسلما وتولى أمر مصر وقد أدرك أنه مسئول عن سلامة العـــالم العربى . فهو مصرى فى مصر ، وشامى فى الشام وعراقى فى العــــراق.

إنه – والحق يقال – منشئ مصر بعد عمرو بن العاص رضى الله عنه . لقد كانت تجربته لإنشاء الدولة المصرية المستقلة والقوية فى الإطار الإســـلامى العام تجربة رائدة تمثلها من بعده الإخشيديون ثم الفاطميون ثم الأيوبيون وهذا ما جعل لمصر الإسلامية فى وحدتها العربية استمرارية حضارية خاصــــة . فكان من المنطقى أن يقع عليها عبء التصدى للعدوان الصليبى الذى تمكـــن من احتلال بعض أجزاء من العالم العربى الاسلامى .



فى تاريخ العسكرية المصرية الإسلامية أربعة مواجهات كـــان لـــها شأن مصيرى فى تاريخ الإسلام والوجود الحضارى العربى ؛ وهى :

١ ــ الحرب الصليبية .

٢ ــ الحرب العثمانية .

٣ ــ الحرب الإنجليزية .

٤ ــ الحرب اليهودية .

ولكل منها بواعثها وأسبابها واستراتيجيتها ونتائجها الخاصة بها هذا مـــع وجود تكامل بينها يهدف نحو غاية واحدة .. ونبدأ أولا بالحرب الصليبية ..



(١)
الحرب الصليبية

وحتى تتبلور لدينا أسباب تلك الحرب فإن علينا أن نعطى صورة عامة للأسباب وذلك فى إطار البواعث التى هيأت لها وأعطت لها طابعها واتجاهها ...

لقد تحركت البواعث وتكاثفت دلالاتها من يوم أن تحرك المسلمون السلاجقة نحو بيت المقدس .. ومن المفاجاءت الغريبة أن الأتراك تمكنوا من إرغام الفاطميين على تسليم بيت المقدس فى عام ١٠٧٠ .. وقد كان من أثر ذلك أن الحجاج المسيحيين الذين كانوا يزورون بيت المقدس فى هذا الوقت ورجعوا إلى ديارهم افتروا على المسلمين كثيرا واختلقوا حوادث وقعت لهم من المسلمين . عانوا ظلما" شديدا" وإهانات لا توصف .. ويكمن السبب الثانى فيما أصاب الإمبراطورية البيزنطية من تدهور قاصم ، ذلك أن الأتراك كانوا يهاجمونها من كل صوب فمزقوها شر ممزق حيث استولوا على أجزاء من ولاياتها الآسيوية يضاف إلى هذا أن الجيش البيزنطي نزلت به كارثة فى حربه مع الأتراك كادت تدمره تدميرا ، وكان ذلك فى عام ١٠٧١ هذا فضلا" عن استيلاء السلاجقة على حمص وأنطاكية فى عام ١٠٨٥ ، ثم طرسوس ونيقية صاحبة الماضى التاريخى الدينى .. ثم أطلقوا أبصارهم نحو مضيق البسفور واستقرت على القسطنطينية بغيتهم التى تراودهم بها نفوسهم .

وهنا وجد الإمبراطور الكسيوس الأول ، إمبراطور بيزنطة (١٠٨١ ـ ١١١٨) نفسه مضطرا" إلى أن يبقى فى يده أقل ما يستطيع من آسيا



الصغرى، فاضطر إلى إبرام صلح مهين... هذا فضلا" عن أنه لم تكن لديه من القوة العسكرية ما يمكنه من التصدى لما صار بشن غارات متوالية بعد ذلك . فماذا يصنع الإمبراطور سوى أن يتوجه إلى أوربا ؟ لقد أرسل بعثة خاصة إلى البابا إربان الثانى وإلى مجلس بياسنزا piacenza ، يستغيث بأوربا اللاتينية أو روما الغربية كى تنهض مسرعه لتعينه على الوقوف فى وجه الاعتداءات التركية .. وكان مما قاله فى هذا الصدد ": إن من الحكمة أن يحارب الأتراك فى أرض آسية بدل أن ننتظرهم حتى يقتحموا بجحافلهم بلاد البلقان إلى عواصم أوربا الغربية ".. وإلى جانب هذين السببين كان هناك سبب آخر مباشر وهو سبب اقتصادى كان هو محرك التجارة فى العالم آنذاك ذلك أن المدن الإيطالية الكبرى مثل : بيزا ، وجنوى ، والبندقية ، وأملفى ، كانت تستحثها آمال محمومة فى أن تبسط سيطرتها التجارية التى كانت تبشر بالرواج الكبير .

وهكذا تآلفت هذه الأسباب الثلاثة لتجعل منها قضية العالم الغربى بأسره .. ثم أصدر البابا إربان قراره الملزم وقد مالأه فى هذا كثير من البابوات بضرورة إنقاذ المقدسات المسيحية من أيدى المسلمين فى الشرق . ولذلك نادى جربرت Gerbert ، عندما صار فى منصب البابا باسم سلفستر الثانى بضرورة أن ينهض العالم المسيحى ليستخلص بيت المقدس من أيدى المسلمين ، وجاء صدى لندائه حملة فاشلة على بلاد الشام حوالى سنة ١٠٠١ .. ولئن كان العداء محتدما بين جريجورى السابع وهنرى الرابع إلا أن هذا العداء لم يحجم البابا من أن يقول بأعلى صوته مستحثا ومحذرا" فى نفس الوقت ": إن تعريض حياتى للخطر فى سبيل تخليص الأماكن المقدسة لأفضل عندى من حكم العالم كله ".. ولعله كان بهذا الإعلان يخفى نية مبيتة هى أن يدفع أمراء الإقطاع والقراصنة النورمان ــ الذين اصطنعوا القتال صناعة لهم ــ نحو بلاد المسلمين فى حرب مقدسة لعلها تنجح فى



إيقاف جيوشهم الزاحفة نحو أوربا وبيزنطة . ولقــد راودتــه بــهذه الهيئــة طمــوحات شاذة تتركز حول إرجاع الكنيسة الشرقية تحت السطوة البابويــة فى روما . وبذلك يمكن تحقيق عالم مسيحى قوى ومتحد تحت ظــل الحكــم البابوي الديني وأن ترجع روما كما كانت عاصمة للعالم كله . وهكذا كان حلم السيطرة على العالم والتحكم فيه هو ما يراوده ولا يغادر خياله . ثم انطلــق البابا فى رحلة استغرقت شهرين من عام ١٠٩٥ ، زار خلالهما شمال إيطاليا وجنــوب فرنسا يأخذ رأى الزعماء فى تلك القضية حتى يضمن مناصرتــهم له فيمــا اعتزم تحقيقه وتنفيــذه فكان أن اجتمع المجلس التــاريخي بمدينــة كلير مونت Glermont، فى مقاطعة أوفرنى. ولما أن تسامع به النــاس خفــوا سراعا" إليه للاحتفاء به إجلالا" وتكريما ليسمعوا كلمته التى جاء من أجلها .. وقد ألقى فيهم كلمة كانت : "أقوى الخطب وأعظمها أثراً فى تاريخ العصــور الوسطى".. ومما جاء فيها :" يا شعب الفرنجة .. يــا شعــب الله المحبــوب المختار .. لقد جاءت من تخوم فلسطين، ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة تعلن أن جنسا لعينا أبعد ما يكون عن الله قد طغى وبغى فى تلك البلاد ، بلاد المسيحييــن ، وخربها بما نشره فيها من أعمال السلب والحرائق . ولقد ساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذبوهم أشنع التعذيب وهم يهدمون المذابح فى الكنائس بعد أن يدنسوها برجسهم ولقد قطعوا أوصال مملكــة اليونان وانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها فى شهرين كاملين .. على من إذن تقع تبعة الانتقام لــهذه المظــالم واستعــادة تلك الأصقاع إذا لم تقع عليكم أنتم .. أنتم يا من حباكم الله أكــثر من أى قوم آخرين بالمجد فى القتال وبالبسالة العظيمة وبالقدرة علــى إذلال رؤوس من يقفون فى وجوهكم؟ ألا فليكن لكم من أعمال أسلافكم مــا يقــوى قلوبكم – أمجاد شارلمان وعظمة وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم – فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا .. الضريح الذى تمتلكه الآن أمــم

نجســة وغيره من الأماكن المقدسة التى لوثت ودنست.. لا تدعوا شيئا يقعـد بكـم من أملاككم أو شئون أسركم . ذلك بأن هذه الأرض التى تسكنونها الآن والتـى تحيط بها من جميع جوانبها البحار وقلل الجبـال ضيقـة لا تتسـع لسكانها الكثيرين ، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيهم من الطعام . ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضا ، ويلتهم بعضكم بعضا وتتحاربون ويهلك الكثير منكم فـى الحروب الداخلية .. طهروا قلوبكم إذن من أدران الحقد واقضوا على ما بينكم من نزاع واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس وانتزعوا هـذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث وتملكوها أنتم .. إن أورشليم أرض لا نظير لها فـى ثمارها وهى فردوس المباهج .. إن المدينة العظيمة القائمة فى وسط العـالم تستغيث بكم ، أن هبوا لإنقاذها فقوموا بـهذه الرحلـة راغبيـن متحمسـين تتخلصوا من ذنوبكم وثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك مجـداً لا يفنـى فـى ملكوت السموات".

وهنا انطلقت حناجر الجماهير الغفيرة بعبارة :" تلك إرادة الله DIEU " LI VALT وردد إربان هذا الهتاف ناصحا" لهم بأن يكون شعارهم فى حربـهم مع عدوهم .. ووجه أوامره المقدسة إلى الذين سوف ينطلقون إلـى الحـرب الصليبيـة أن يرسموا علامة الصليب على جباههم أو صدورهم . ويقول وليم مالمزبرى william Malmsbury :" ": وتقدم بعض النبلاء من فورهـم وخـروا راكعين بين يدى البابا ووهبوا أنفسهم وأموالهم لله ".. واندلع لهيب الحماسـة بين الناس وهجر النساك والرهبان صوامعهم ليصبحوا من أجناد المسيـح بكل ما تحمله هذة الكلمة من معنى سطحى ، إن أجيز هذا التعبير. بعد هـذا خف البابا إلى مدن أخرى نذكر مها : تور ، وبـوردو وطولـوز (طلوشـه) ومنبلييه : ونيمز nimes .. واستغرقت هذه الرحلة تسعة اشهر متواصلـة لـم يفتر فيها عن الدعوة إلى شن حرب صليبية .. فلما أن وصل إلـى رومـا وكان قد قضى بعيدا عنها ما يقرب من سنتين ، فتحت لـه رومـا ذراعيـها



مرحبة أحر ترحيب. وحتى يحض المرحبين على التطوع في الجيش الصليبي فإنه: "أحل جميع الصليبين من كل ما كان يكبلهم ويمنعهم من الانضمام إلى المقاتلين ولم يلق في عمله هذا مقاومة جادة ، فحرر رقيق الأرض وحرر التابع الإقطاعي طوال مدة الحرب مما عليه من الولاء لسيده. ومنح جميع الصليبيين ميزة المحاكمة أمام الكنيسة لا أمام المحاكم الإقطاعية وضمن لهم مدة غيابهم حماية الكنيسة لأملاكهم .. وأمر بوقف الحروب القائمة بين المسيحيين والمسيحيين ووضع مبدأ للطاعة يعلو على قانون الولاء الإقطاعي".

وهكذا استطاع البابا إربان الثانى أن يوحد أوربا فى وحدة صليبية لم يعرفها تاريخها من قبل كما ضمت الحماسة الدينية فئات الشعوب الأوربية من قبل أن تؤلف فرق المقاتلين وتجهز بعدتها وعتادها.. وهكذا كانت الروح العامة للمنادين بالحروب الصليبية والمؤيدين لها والمشتركين فيها فهى جهل بالمسيحية فضلا" عن الإسلام ، وهى تطرف غوغائى أخرق لا يعي حقيقة الدين فى أبسط مظاهره ولا حقيقة التعارف الإنساني بين الشعوب.

* * *

* المناوشات الأولى :

وجاءت المناوشات التمهيدية للحروب الصليبية فيما يمكن تسميته بالحرب الصليبية الأولى وكان ذلك فى الفترة من ١٠٩٥ الى ١٠٩٩ .. فلما رأى البابا حماسة الجماهير فى إقبالها على الانضواء تحت لواء الحرب فإنه رأى أن يبعث فى نفوسهم غاية الاطمئنان على مستقبلهم والاستبشار بمآلهم . فزين لهم شأن القتال بما يحثهم على الانضمام إلى أشقائهم المقاتلين. فكل من قتل فى الحرب فقد غفرت له كل ذنوبه فكأنه صار بريئا مطهراً كيوم أن ولدته أمه .. وأعطى لأحلاس الأرض ورقيقها الحق فى

أن يهجروا الأراضي التى كبلوا بالعمل بها من قبل سادتهم .. أما سكان المدن فقد رفع عنهم كل الضرائب المقررة وكذلك المدينون فإنهم أجلوا إلى يوم يستطيعون فيه سدادها نظير فائدة يسيرة فى مقابل هذا التأجيل.. ثم اتخذ إجراءات إغرائية أخرى تدل على جرأته الواسعة فإنه فتح أبواب السجون للمسجونين ليخرجوا منها أحرارا ، أما المحكوم عليهم بالاعدام فإنه خفف ذلك الحكم شريطة أن يقضوا بقية أعمارهم فى فلسطين يخدمون فيها ..

مثل هذه الإغراءات كانت كفيلة بأن تجتذب الآلاف من الضائعين إلى القائمين بتلك الرحلة المقدسة كما استجاب لها جمهور كبير من الصالحين ليستنقذوا الأرض المقدسة التى كانت مهداً للسيد المسيح ومات فيها: "فهم رجال سئموا الفقر الذى يعانونه والذى ظنوا أن لا نجاة لهم منه ، ومنهم المغامرون التواقون إلى الاندفاع فى مغامرات جريئة فى بلاد الشرق ، ومنهم الأبناء الصغار يرجون أن تكون لهم إقطاعيات فى تلك البلاد ومنهم التجار الذين يبحثون عن أسواق لبضائعهم والفرسان الذين غادروا أرضهم أرقاؤها فأصبحوا لا عمل لهم ، ومنهم ذوو النفوس الضعيفة الذين يخشون أن يرميهم الناس بالجبن والخور".

وكان لابد أن تصحب الإغراءات بالتطوع لحرب المسلمين وانتزاع المقدسات المسيحية من أيديهم أن تطعم بما يؤججها فى الصدور فكانت الدعاوى الزائفة تروج بينهم . فهى تؤكد أن المسيحيين يعذبون تعذيبا وحشيا فى فلسطين على أيدى المسلمين هذا فضلا عما افتروه على العقيدة الإسلامية من أنها بهتان وأكاذيب ، وكثير من الأضاليل والتخريفات ..

وحين ننظر فى تلك التخرصات المفتراة على الإسلام والمسلمين .. وحين ننظر فى طبيعة الجماهير الغوغائية التى تألف منها جيش الحملة الصليبية الأولى نجد أنها لا تصلح لأن يكون منها جيش منظم قادر على خوض معارك مجهولة الطابع مجهولة الاحتمالات .. وكان البابا إربان الثانى

قد حدد موعد قيام تلك الحملة الأولى بشهر أغسطس ١٠٩٦م ، غير أن جماهير الفلاحين ، وكانوا مقدمة المتطوعين قد استبد بهم القلق ومن ثم فإنهم لم يصبروا طويلا على ترقب موعد الرحيل . فما كان إلا أن انطلقوا في غوغائيتهم فيما يقرب من اثنى عشر ألفا وقد ضموا فى زمرتهم ما يقرب من ثمانية فرسان ..

وانطلقت الرحلة فى شهر مارس من هذه السنة بقيادة بطرس الناسك ، وولتر المفلس .. ثم انطلقت مجوعة أخرى قادها القس جتسشوك .. ثم انطلقت مجموعة ثالثة من منطقة الرين يقودها الكونت إمكو اللييننجينى . وقد نزلت هذه الجموع فى سلوكياتها الى درجة الوحوش الضارية ، حتى اذا نضبت أموالهم ، وفرغت بطونهم إلى حد الصراخ وجدوا أنفسهم مرغمين على القيام بعمليات نهب بشيعة شملت كل ما كان يصادفهم وهم فى طريقهم من حقول ومنازل .. وأكثر من ذلك فإنهم أضافوا إلى جرائمهم الفجور والاعتداء على الأعراض . وهب السكان الذين تعرضوا إلى تلك المصائب الطارئة ، إلى مقاومة أولئك الأوغاد المجرمين حتى أنهم - أى أهل المدن المنكوبة - اضطروا إلى أن يغلقوا أبوابها صدا لهم وحماية لأنفسهم . فلما انتهوا إلى مدينة القسطنطينية كانوا قد أنفقوا كل ما كان معهم ومات منهم الكثيرون بسبب الطاعون الذى تفشى بينهم والجوع الذى عانوه وكذلك المعارك التى واجهوها وهم فى سبيلهم .. ورغم هذا فقد استقبلهم الإمبراطور الكسيوس بترحاب ظاهر وإن كان لم يفض عليهم بالجزيل من المطاعم . فما كان منهم إلا أن اجترأوا على الإمبراطور فعاثوا فى عاصمته القسطنطينية فسادا فاقتحموا الكنائس ينهبونها ، والبيوت يسرقون منها ما يقدرون عليه .. وحاول الكسيوس أن يحمى عاصمته من تلك العصابات الضارية فرأى أن الطريق الوحيد هو التعجيل بترحيلهم على سفن أمرها بحملهم وأن تعبر بهم البسفور وفى نفس الوقت أمدهم بما يحتاجونه من طعام



كما أنه أمر السفن أن تتريث قليلا حتى تكون لتلك الجموع قدرة على خوض المعارك . ورغم هذه النصيحة التى كانت إلى حد ما مخلصة فإن أولئك الصليبيين صموا آذانهم عنها واندفعوا فى سبيلهم . وإن هى الا فترة يسيرة هاجمت قوة من المسلمين جموع الرعاع وأنزلت بهم كارثة فلم يبق منهم أحد. وكان ولتر المفلس من بين القتلى أما بطرس الناسك فإنه انتحى جانبا لأنه أنف أن يخالط تلك الجموع التى لا تعرف نظاما ولا طاعة لقيادة . ثم قفل من المعركة إلى القسطنطينية وظل بها حتى عام ١١١٥م.

وفى خضم تلك الأحداث التى كان يقودها الغوغاء وقد حاق بهم ما حاق من كوارث ومحن ، كان هناك فريق أكثر تنظيما وأكثر مالا وأكثر جندا وإنهم كبار الإقطاعيين الذين رفعوا راية الصليب وجمعوا تحت لوائها ما استطاعوا جمعه من رجال أقاليمهم ولم ينضم إليهم أحد من الملوك فقد كان فِليب الأول ملك فرنسا ، ووليم الثانى ملك انجلترا ، وهنرى الرابع ملك ألمانيا، كل هؤلاء كانوا بعيدين عن دائرة التعاطف الدينى ، فى الوقت الذى كان فيه إربان الثانى ينادى بحرب صليبية ضد المسلمين إلا أن هذا لم يمنع من أن يشارك فى هذه الحملة الأشراف الذين وجدوا فى أنفسهم القدرة على القتال وكانوا فى معظمهم من الفرنسيين .. ومن بين الذين انضموا إلى صفوف المقاتلين الدوق "جد فرى" سيد بويون ، وكذلك الكونت بوهمند من سادة تورنتوا وقد رافقه ابن أخيه تانكرد الهوتفيلى ، كما صحبهم ريموند كونت طولون. واتخذت هذه الجماعات وجهتها الى القسطنطينية مصطنعة طرائق قددا وفى أثناء المسيرة اقترح بو همند على جد فرى أن من الصواب أن يستوليا على مدينة القسطنطينية فانتهره جد فرى قائلا :" إننا لم نأت إلا لقتال الكفره".. إلا أن هذه الفكرة ظلت مخبوءة فى صدور الزعماء ذلك لأن الطمع كان يعبث بهم ويغريهم . فقد كان أولئك الفرسان الأشداء ينظرون بعين السخرية الحاقدة لرجال الشرق الذين بلغوا من الثقافة

حداً لا يعرفه أولئك الغربيون الجهلة الذين نظروا إلى سادة الشرق على أنهم:" مارقون من الدين ومخنثون مترفون".. ولقد كان الحسد يحرق قلوب أولئك المغامرين الأوربيين فقد كانوا يرمقون الكنوز المخبأة فى كنائس العاصمة البيزنطية وكذلك فى قصورها وأسواقها بعين الحسد حتى كان طمعهم يسول لهم أنهم هم الأجدر بذلك الثراء الطاغى إذ ليس أحق به من الفرسان البواسل الشجعان .. ويظهر ان الامبراطور الكسيوس قد بلغته تلك الأنباء فأوجس منهم خيفة فما كان منه إلا أن قتل منهم الكثيرين مما جلب عليه لوم الغرب .. وقد دعاه عمله هذا إلى أن يمالئ القوم بعض الشئ رغم كونه على حق فيما عمله . صحيح أنه استصرخ الغرب فى أن ينقذه من أولئك الأتراك. ولكن هذا لا يعنى أنه دعاهم الى أن تأتى أوربا متناصرة يدقون أبواب عاصمته طامعين . ذلك لأنهم فى تقديره لم يكونوا يطمعون فى أورشليم قدر ما يطمعون فى القسطنطينية .. أو أنه كان يأمل منهم أن يرجعوا إليه ما قد ينتزعونه من الأتراك وهو ما كان من أراضى الدولة البيزنطية من قبل.

وإذ حاكت بصدره تلك المخاوف فإنه من سياسة الممالأة للصليبيين والتخوف منهم والطمع فيهم فى نفس الآن – أمدهم بما هم فى حاجة إليه من أموال ومؤن وسفن وعربات وأسلحة . كما أنه أفاء على زعماء الصليبيين بمنح جمة من الذهب والمجوهرات وشفع ذلك السخاء بأن طلب منهم أن يقسموا يمين الولاء له بوصفه سيدهم الإقطاعى وأن تكون كل الأراضى التى يستولون عليها إقطاعيات لهم منه ".. فما كان من أولئك النبلاء إلا أن لانت قلوبهم فأقسموا اليمين المطلوبة.

ثم اندفعت جيوش أولئك النبلاء وقد وصل عددها ثلاثين ألفا وعبرت المضيقين : البسفور والدردنيل وذلك فى عام ١٠٧٩م .. ولم تكن لها قيادة واحدة بل كانت متعددة القيادات . ولعل من حسن طالع الصليبيين أن حالة



الإمارات الإسلامية كانت أشد سوءا من حالة الصليبيين فقد كانت الإمارات منقسمة على نفسها : أضعفتها الحروب فى أسبانيا ، كما أن الصراعات الدينية التى نشبت فى شمال إفريقيا مزقتها شر ممزق ، وفى الوقت الذى كان فيه الفاطميون يضعون أيديهم على الشام الجنوبى كان السلاجقة أعداءهم يضعون أيديهم على الإقليم الشمالى وعلى جزء كبير من آسيا الصغرى ، هذا فى الوقت الذى ثارت فيه أرمينيه على غزاتها السلاجقة متحدة مع الصليبيين وفى ظل تلك الظروف أغارت الجيوش الأوربية على الأراضي الإسلامية فحاصرت نيقية ولم تصمد الحامية الإسلامية طويلا فقد سلمت المدينة بعد أن عاهدها الكسيوس على أن يحافظ على حياتها وكان ذلك في ١٩ يونيه سنة ١٠٩٧ .. وأسرع الإمبراطور ورفع العلم الإمبراطوري على حصن المدينة كما أنه صانها من عمليات النهب والسلب فضلا عن أنه أجزل العطاء للزعماء الإقطاعيين .. ورغم هذا كله فقداتهم الجنود المسيحيون الكسيوس بأنه كان متعاطفا مع الأتراك إلى حد بعيد ..

بعد هذه المعركة أعطى الصليبيون أنفسهم قسطا من الراحة وبعدها اتخذوا وجهتهم صوب أنطاكية وقد التقوا عند دويليوم بجيش تركى كان يقوده قلج أرسلان وهزموه هزيمة دموية عنيفة وكان ذلك فى أول يونيو ١٠٩٧م .. ثم جاسوا خلال آسيا الصغرى بغير أن يصادفوا عدوهم . وما كان عدوهم سوى ندرة الماء وقلة الطعام والحر الذى لم يتعود الأوربيون على مواجهته .. حتى إذا تخطوا جبال طوروس وقع تفرق داخلى فقد استقل بعض النبلاء بقواتهم عن القوة الرئيسية ليحققوا لأنفسهم انتصارات خاصة وبذلك يضمون بعض المناطق لحسابهم الخاص . فتوجه ريمند ، وبوهمند ، وجدفرى نحو أرمينية ، وتوجه تنكرد وبولدوين نحو الرها .. وقد تمكن بولدوين بالتآمر والغدر من أن ينشئ أول إمارة لاتينية فى الشرق وكان ذلك فى سنه ١٠٩٨م ..

أما القوات الصليبية الأخرى فإنها زحفت على أنطاكية وحاصرتها، وظلت المدينة تقاوم المحاصرين مدة ثمانية أشهر هلك فيها كثير من الصليبيين. وفي شهر مايو من عام ١٠٩٨م ، تواترت الأخبار بأن جيشا إسلاميا كبيرا يقوده كربوغه أمير الموصل قد خف لنجدة المدينة غير أنها لسوء الحظ سقطت في أيدي الصليبيين في ٣ يونيو ١٠٨ ، قبل أن يبلغها الجيش ببضعة أيام . ثم تملك الخوف الكثيرين من الصليبيين خشية من جيش كربوغه فأسرعوا بامتطاء السفن في نهر العاصي وهربوا بجلودهم .. وحاول الإمبراطور الكسيوس أن يدعم الصليبيين الذين استولوا على أنطاكية غير أن نفرا من الهاربين خدعوه فقالوا له إن المسيحيين قد هزموا فرجع من حيث أتى ليدافع عن آسيا الصغرى .. وقد ظن الصليبيون أنه نكص على عقبيه فلم يساندهم حرصا على ممتلكاته ومن ثم فلم يصفحوا عنه من جراء فعلته هذه .

وقد وجدها زعماء الصليبيين فرصتهم لكي يتحللوا من العهد الذى قطعوه على أنفسهم للإمبراطور الكسيوس بأن يكونوا خاضعين له . أما الأمير بوهمند فإنهم رفعوه أميرا" على أنطاكية اعترافا" بفضله . ثم ظل الصليبيون ما يقرب من ستة أشهر وهم مخلدين إلى الراحة وتنظيم صفوفهم وإعداد عدتهم .. وبعدها زحفوا للاستيلاء على أورشليم . وقد استمرت الحرب بينهم وبين المسلمين ثلاث سنوات بعدها تمكنوا من دخولها. ومن عجائب الأحداث التاريخية أن الأتراك الذين قدموا لمحاربتهم قد سبق أن خرجوا من المدينة وكان الفاطميون هم الذين أخرجوهم منها .. وإبان حصار الصليبيين لأورشليم عرض عليهم الخليفة الفاطمي أن يقيم بينه وبينهم صلحا بمقتضاه يكون للمسيحيين الحق في أن يحجوا إلى أورشليم وهم آمنين على أنفسهم ، غير أن بوهمند ، وهو في موقف المنتصر رفض هذا العرض وأصر على تسليم بيت المقدس بغير شروط .. وهنا قامت القوات



الفاطمية وكانت تتألف من ألف رجل بمقاومة الحصار مدة أربعين يوما حتى إذا كان اليوم الخامس عشر من شهر يوليو فإن جد فرى وتانكرد أصدارا الأوامر إلى قواتها بتسلق أسوار المدينة وبذلك تم للصليبيين الاستيلاء على بيت المقدس.

ويصور القس ريمند الأجيلى مشهد الاستيلاء على المدينة فيقول : "..وشاهدنا أشياء عجيبة إذا قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين وقتل غيرهم رميا بالسهام وأرغموا على أن يلقوا أنفسهم من فوق الأبراج وظل بعضهم الآخر يعذبون عدة أيام ثم أحرقوا فى النار .. وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيل "..

ويذكر آخرون تفاصيل أشد بشاعة فيقول أحدهم :" إن النساء كن يقتلن طعنا بالسيوف والحراب ، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم ويقذف بهم من فوق الأسوار أوتهشم رؤوسهم بدقها بالعمد .. وذبح السبعون ألفا من المسلمين الذين بقوا فى المدينة . أما اليهود الذين بقوا أحياء فقد سيقوا إلى كنيس لهم وأشعلت فيهم النار وهم أحياء . واحتشد المنتصرون فى كنيسة الضريح المقدس وكانوا يعتقدون أن مغارة فيها احتوت فى يوم ما المسيح المصلوب".

وصارت أورشليم مملكة لاتينية مستقلة ذات سيادة كاملة وبعد أن تأكد قيامها وأصبح راسخا فإن المسلمين قاموا ببعض المقاومة فقد وصل إلى عسقلان بعض مضى أسبوعين جيش من مصر غايته تحرير المدينة من الصليبيين وتصدى جد فرى لهذا الجيش وأنزل به هزيمة قاسية . ثم مات جدفرى بعد سنة من هذا النصر وكان ذلك فى سنة ١١٠٠م .. وتولى بعده أخوه بولدوين وكان أقل منه فى الجرأة والقدرة العسكرية وقد منح نفسه لقب "ملك" وقد ضمت هذه المملكة فى عهد الملك فلك Falk ، كونت انجو (١١٣١ – ١١٤٣) جزءاً كبيرلً من فلسطين وسوريا . هذا فى الوقت الذى



كانت للمسلمين فيه السيطرة على حلب ودمشق وحمص . وقد كان شعارهم الذى سجله لهم برنار: " إن على المسيحى الذى يقتل غير المؤمن فى الحرب المقدسة أن يثق بما سينال من ثواب وعليه أن يكون أشد وثوقا من هذا الثواب إذا هو نفسه قتل وإن المسيحى ليبتهج بموت الكافر لأن المسيح يبتهج بهذا الموت".

فى هذا الوقت كان الروم يترصدون لإعادة السيطرة على أنطاكية والرها ، وكذلك مدنا أخرى وحجتهم فى ذلك أنها مدن بيزنطية .

وخلال هذه الفترة تجاوبت النداءات الإسلامية بضرورة أن يتحد المسلمون لمواجهة الهجوم الضارى المحموم الذى بدأ الصليبيون يشنونه على الإسلام والمسلمين. وكان أن لقيت تلك النداءات استجابات نشطه فصار الأمراء المسلمون يتسارعون لضم صفوفهم لملاقاة ذلك العدو الحقود وكان من الذين لبوا الدعوة واستجاب لها استجابة خالصة عماد الدين زنكى أمير الموصل . وكان جيشه منظماً حسن القيادة حسن التدريب فتمكن فى عام ١١١٤م من أن يطرد الصليبيين من المعقل الخارجى الشرقى . وكذلك تمكن من استعادة مدينة الرها . ثم قتل زنكى بيد أحد منافسيه وجاء بعده ابنه نور الدين. ولا شك أن كانت هذه الأحداث بما حملته من مفاجآت لم تكن فى حسبان الصليبيين سببا فى أن تزداد العداوة الصليبية الأوربية للمسلمين فتنادى زعماء أوربا بضرورة مهاجمة المسلمين بحملة صليبية جديدة ، فكانت الحملة الثانية من ١١٤٦م الى ١١٤٨م .. وبدأ الاستعداد لهذه الحرب ...

بدأ الاستعداد لهذه الحرب بصرخات الاستثارة الانتقامية من المسلمين، أطلقها من عقالها القديس برنار الذى استنجد بالبابا بوجنيوس الثالث كى يهب بالدعوة إلى ضرورة حمل السلاح . وكان بوجنيوس فى ذلك الوقت فى مأزق مع المناوئين للدين فى روما نفسها وأمام ذلك الموقف الحرج لم يجد بوجينيوس مناصاً من أن يوكل إلى برنار هذا العمل ، وكانت فكرة

حصيفة وصائبة ذلك لأن القس كان أرفع مكانة من بوجنيوس لأنه هو الذى أقامه بابا ، وكانت سانحة لبرنار فإنه قصد من فوره إلى الملك لويس السابع واستطاع أن يأخذ منه وعداً بحمل الصليب . وبعد أن ضمن فرنسا فى صفه فإنه قصد إلى المانيا وتمكن من أن يستميل الإمبراطور كنراد الثانى إلى معسكر الحرب للصليبية .. فهى حسب منطقه السبيل الوحيد لتوحيد الحزبين الرئيسيين فى الدولة ، وكان ذلك سببا فى أن يستجيب الكثيرون من النبلاء للانضمام إلى الإمبراطور كنراد .. وبدأت مسيرة كنراد يحف به النبلاء الألمان فى عيد الفصح من عام ١١٤٧م .وتبعه الفرنسيون فى يوم عيد العنصرة . ولقد احتاط الجميع للمباغتات فكان كل فريق يضمر العداء للآخر. فكان الفرنسيون يخشون الألمان وكان الألمان يوجسون من اليومنان والفرنسيين. وفى مسيرتهم الغوغائية كانوا نكبة على المدن التى مروا بها فقد نهبوها شر نهب مما اضطر مدن كثيرة إلى أن تغلق أبوابها فى وجوههم .. وفى أثناء ذلك اقترحت بعض العناصر التى ضمها مجلس لويس أن يستولى على القسطنطينية ويضمها إلى فرنسا غير أنه رفض هذه الفكرة المتعجلة وإن كنا لا نستبعد أن أسرارها بلغت آذان اليونان .. ثم أسرع مانويل فنقل الجيشين فى مضيق البسفور وفى الوقت نفسه أعطى لليونان نقودا" ذات قيمة قليلة كى تساعدهم على التعامل مع الصليبيين . والشئ الذى كان يؤرق فردريك أنه اضطر فى عملية تنظيم قوات الجيشين إلى أن يقتل بسيفه بعض المسيحيين وذلك حتى يتمكن من ملاقاة " الكفار " فيما يزعم . وهنا حدث تصادم بين كنراد ومانويل . فكنراد رأى أن يتخذ الطريق الذى اقتفته الحملة الأولى طريقه بينما يخالف مانويل هذا الرأى . فكان أن سار الألمان فى طريقهم على غير هدى وإن صحبهم مرشدون لهم . فقد طرقوا فيافى قاحلة خالية من الطعام والشراب كما أنهم صادفوا كمائن كثيرة باغتتهم بها المسلمون فعبث بهم اليأس ولا سيما بعد أن قتل منهم كثيرون .

وعند " دورليوم " حيث أنزلت الحملة الأولى بجيش قلج أرسلان هزيمة شنعاء التقى جيش كنراد بقلب الجيش الإسلامى الذى أنزل به هزيمة

وعند " دورليوم " حيث أنزلت الحملة الأولى بجيش قلـــج أرســلان هزيمة شنعاء التقى جيش كنراد بقلب الجيش الإسلامى الذى أنزل به هزيمــة كاملة حيث لم تكتب النجاه لجيش المسيحيين إلا لعدد يسير جدا لم يزد علـــى واحد من كل عشرة .. أما الجيش الفرنسى ، وكـــانت بينـــه وبيـــن الجيـــش الألمانى مسافة كبيرة فقد بلغته الأنباء بأن الجيش الألمانى حقق انتصارا" على المسلمين وهذا ما أغراه باقتفاء أثر الألمان .. ويبدو أنها كانت خدعـــة مـــن المسلمين أسمعوها للفرنسيين الذين تقدموا مطمئنين فوقعوا تحت عدويـــن لا يرحمان الجوع وكمائن المسلمين فقتل الكثيرون من الفرنســـيين .. حتـــى إذا بلغت فلول الجيش الفرنسى أضاليا صار الملك لويس يفاوض رؤساء بحـــارة السفـــن اليونانية فى أن يقوموا بنقل الجيش الفرنســـى إلـــى طرســـوس أو أنطاكية المسيحيتين . ورغم أن زعماء البحارة طالبوا بأجور مرتفعة مقـــابل نقل كل شخص إلا أن لويس ومجموعة من النبـــلاء اضطـــروا إلـــى قبـــول العرض وغادروا المدينة ببعض القوات تاركين القوة الرئيسية فـــى أضاليـــا ووجدها المسلمون فرصتهم فهاجموا المدينة وقتلوا الجنود الفرنسيين بكاملـــهم وكان ذلك فى سنـــة (١١٤٨م) .. ثم تمكن الملك لويس يرافقه مجموعـــة من النساء من الوصول إلى بيت المقدس . وفى نفس الوقت وصل إليها كنراد ومعه بعض من عصابات جيشه الذى غادر به راتسبون .. واستطاع الملـــك أن يكوّن من تلك العصابات والبقايا التى كانت موجودة بالعاصمة شبه جيـــش واتجه به نحو دمشق وكان ذلك تحت قيادة ثلاثية مؤلفة من كنراد ، ولويس، وبولدوين الثانى (١١٤٣م – ١١٦٢م).. وفى أثناء حصارهم لدمشـــق اندلـــع الشقاق ، بين المحاصرين فى أيهم يكون له الحق فى أن يكون أمـــيراً علـــى المدينة بعد سقوطها . وخلال ذلك الشقاق اندس الكثيرون من العمال المسلمين بين جنود الجيش المسيحى واستمالوا بعض قادة الجيش بالهدايا ممـــا جعلـــهم



يفضلون النكوص أو الابتعاد عن ميدان القتال .. آنئذ كانت بعض الأنباء قد راجت بأن أميرا حلب والموصل يقتربان من دمشق لفك الحصار عنها .

وكانت النتيجة أن رجحت كفة الداعين إلى الانسحاب ، ومن جراء ذلك تفتت الجيش الصليبى إلى شراذم اضطرت إلى الهرب إلى انطاكية أو عكا أو بيت المقدس فتلقى كنراد هزيمة شديدة آثر بسببها الرجوع إلى المانيا وكذلك عاد أكثر الفرسان الفرنسيين الى فرنسا بينما ظل لويس فى فلسطين لمدة عام حج فيه إلى الأماكن المقدسة .. وآنئذ ضعفت حماسة المسيحيين لشن حروب صليبية على المسلمين غير أن الإرجاء لم يدم طويلا.

وفى خضم ذلك التخبط العسكرى كان المسيحيون يسيطرون على مدن صور وأنطاكية وطرابلس . وقد أدى احتفاظهم بتلك المدن الى أن تتفتح الآمال فى قلوبهم من جديد ، وفى الوقت نفسه كانت الأساطيل الإيطالية التى كانت لها الحرية فى خوض مياه البحر لمتوسط على استعداد لنقل الجنود الصليبيين إذا دفعوا لها الأجر المطلوب .. ثم رجع كبير أساقفة صور ليلتقى بالأوربيين فيحكى للإيطاليين والفرنسيين والألمان قصة سقوط القدس .. حتى إذا كان فى المانيا واستمع منه الإمبراطور فردريك بربروسا وقائع المشهد الذى تم فيه السقوط حتى أخذته سورة الحماسة فاندفع بجيشه فى سنة ١١٨٩م نحو الأراضى المقدسة .. وقد رفعه العالم المسيحى آنئذ إلى أرفع مقام وأطلق عليه اسم ": موسى الثانى الذى سيشق الطريق إلى الأرض الموعودة"..

*** أفول نجم ... وصعود نجم**

كانت الدولة الفاطمية قد ضعف شأنها وتراخت قبضتها على العالم الإسلامى الذى قدر لها أن تضمه فى محيطها الإمبراطورى .. وكان المشهد الختامى أن تولى الخلافة الفاطمية الشيعية فى مصر الخليفة العاضد (٥٦٧ هـ). وكان من الضعف والهوان بحيث أسلم أمره لوزيره

شاور، وضرغام صاحب الباب . وبلغ التفكك لأجزاء الإمبراطورية أن استقل بالأجزاء الداخلية منها فى الشام نور الدين محمود زنكى وهيمن الصليبيون على الساحل الشامى وفلسطين. وقام النزاع فى مصر بين شاور وضرغام على الانفراد بالسلطة ولجأ كل منهما إلى من ينصره . أما شاور فإنه استغاث بالقوة الإسلامية التى مثلها نور الدين محمود زنكى واستنقذه بأن يدعم موقفه بقوة عسكرية تعينه على خصمه ضرغام وترجعه إلى مكانته فى الوزارة .. وفى سبيل ذلك فإنه تعهد بأن يقدم إليه ثلث ما يحصل عليه من أموال مصر وأن يكون خاضعا له ومن تابعيه .. ولم يتردد نور الدين فى قبول هذا العرض السخى فاستضاف شاور وأكرمه لأن هذا الطلب جاء ملبيا لما كان يراوده من آمال فى ضم صفوف الإمارات الإسلامية فى وحدة تعينها على مواجهة الخطر الصليبى الذى أصبح واقعا مخشيا . وما كان من نور الدين إلا أن أرسل مع شاور جيشا يقوده أسد الدين شيركوه الذى اصطحب معه ابن أخيه يوسف صلاح الدين ولم تكد أخبار هذا التحرك تصل إلى آذان ضرغام حتى أنه اضطرب وخاف . ذلك لأن الجيش الفاطمى لم يكن فى حالة عسكرية تعينه على التصدى أو تحقيق النصر وفى مقابل ذلك لم يجد ضرغام مفرا" من أن يستغيث بالصليبيين فى الشام .. واستطاع أسد الدين شيركوه وفى صحبته شاور من أن يدحر جيش ضرغام الذى لم يجد قواده مناصا" من التخلى عنه .. وكانت النتيجة أن قبض على ضرغام وأعدام ثم تسلم شاور السلطة فى مصر .

ولكن شاور لم يكن ممن لا ينقضون العهد والميثاق فقد تخلى عن الشروط التى قطعها على نفسه فلم يدفع المبلغ الذى تعهد بدفعه وأكثر من هذا فإنه طلب من أسد الدين شيركوه بأن يعود بجيشه إلى الشام .. غير أن شيركوه لم يقبل أسلوب الغدر فقد تحصن بمدينة بلبيس .. وهنا اصطنع شاور ما اصطنعه ضرغام من قبل فإنه لجأ إلى عمورى Amalanic ، الملك

الصليبى لبيت المقدس يرجوه أن يخف لنجدته من محنته .. ووجدها عمورى فرصة طيبة ، فأسرع لإنقاذه لأنه كان يدرك مدى الخطورة التى يمكن أن يقع فيها لو امتلك نور الدين مصر ذلك لأن الصليبيين فى الشام سيكونون محاصرين بقوات نور الدين من الشمال والجنوب ولذلك وجد عمورى ما أغراه على محاصرة أسد الدين فى مصر فتوجه بجيشه فى سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) ليحكم الحصار . ولكن نور الدين لم يشأ أن يضع جيشه فى مصر تحت تهديد الصليبيين فلم يجد بداً من مهاجمة الصليبيين فى الشام كما أنه هاجم بانياس فاضطر عمورى أمام ذلك الوضع الخطير من أن يتفق مع شيركوه على أن ينسحبا سويا من مصر .. إلا أن ذلك قد تكرر مرة ثانية وثالثة ، فكانت كل من القوتين ، الاسلامية والصليبية ، تسعى الى السيطرة على مصر والقضاء على خصمها . غير أن عمورى أخفق تماما فى مسعاه وتحقق النصر لقوات نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه .

وكانت خاتمة شاور أنه قتل جزاء غدره ولجوئه للصليبيين .. وأدرك الخليفة الفاطمى العاضد أن لا بد من الخروج من تلك المحنة فأسند الوزارة إلى أسد الدين شيركوه الذى توفى بعد شهرين .. ثم وقع اختيار الخليفة العاضد على ابن أخى شيركوه يوسف صلاح الدين فعينه وزيرا" له . ولما تولى صلاح الدين الوزارة كان فى موقف ظاهر الشذوذ ، فهو من ناحية وزير لحاكم مصر الخليفة الفاطمى الشيعى، وهو فى نفس الوقت قائد لقوات نور الدين حاكم الشام ، وهو سنى ، فكان عليه أن يسوس أموره بحذر وتريث وأن يصطنع الحكمة فى تعامله مع الجبهتين المتعارضتين . أما نور الدين فإنه كان يستحث صلاح الدين على أن يسرع بإزاحة الدولة الفاطمية من الطريق وأن يقطع الخطبة للخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، وأن يعيد الخطبة باسم الخليفة العباسى. ومن بواعث ذلك أن نور الدين كان سنى النزعة يكره الشيعة كرها شديدا كما أنه يسعى إلى أن ينال رضاء الخليفة

العباسى .. غير أن صلاح الدين كان على بصيرة بما يجرى فى مصر وبالكيفية التى يجدر به أن يعالج ذلك الموقف . ولهذا فإنه جنح إلى التريث لكى يعد ضربته ويوجهها التوجيه السديد .فقد كان على علم بأن رجال القصر والدولة الفاطميين يقفون منه موقف العداء والمناوأة ويتحينون أن لو استطاعوا القضاء عليه هو ورجاله عساهم يسترجعون سابق نفوذهم ولذلك فإن صلاح الدين لم يشا أن يبادر بقطع الخطبة عن العاضد وإنهاءالدولة الفاطمية خشية أن يتمكن رجالها من استعادة نفوذهم بثورة مباغتة.. يقول ابن واصل فى كتابه ": مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب":

" كان العادل نور الدين لما تحقق ضعف الدولة المصرية وأنه لم يبق لهم منعة كتب إلى صلاح الدين يأمره بقطع خطبة العاضد ويخطب للخليفة من بنى العباس فاعتذر صلاح الدين بن أيوب بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الإجابة لذلك لميلهم إلى العلوية فلم يصغ نور الدين إلى قوله وأرسل إليه يلزمه إلزاما لا فسحة فيه ".

وكان على صلاح الدين أن يتخذ سياسة تمهيدية هادئة لإضعاف الخليفة العاضد ومعاونيه من القادة ورجال القصر .. فكان أن أخرجهم من القاهرة ووضع يده على أملاكهم وقدمها منحة لقواده لكى يطمئن على إخلاصهم له وتنفيذهم لما يطلبه منهم .. يضاف الى هذا أنه رغبة منه فى نشر المذهب السنى فإنه أقام المدارس التى تقوم بتدريسه . ثم جاءت الضربة الختامية فقطع الخطبة عن العاضد وأعلنها للخليفة العباسى المستضئ بنور الله.

ولم يكن أفول نجم الخلافة الفاطمية مجرد حادث عابر ، أو مجرد خاتمة طبيعية لدولة ذلك لأن هذا الأفول أحدث هزة واسعة النطاق فى محيط الدائرة الاسلامية بأسرها فكان أن عبر الخليفة العباسى المستضئ عن امتنانه لنور الدين فأرسل إليه بسيفين يرمز أحدهما إلى أن سلطته



مبسوطة على الشام ويرمز الثانى إلى أن سلطـــانه مبسوط على مصر ايضا، مؤيدا لوجود صلاح الدين بها كتائب عنه .. وبذلك صار صلاح الديـــن هـــو مركز القوة فى مصر والمسئول الأول عن شؤونها ومن ثم فإنه وضع سياسة تمكن له تمكينا خالصا فى مصر. فقام بخمسة اعمال كانت كلـــها ضروريـــة لتأسيس دولته ، وهى :

١- بدأ فى تشييد القلعة

٢- أنفذ حملة إلى برقه

٣- وحملة ثانية إلى فلسطين لتأمين الدولة حتى يتمكن من تقويتها عســـكريا واقتصاديا

٤- فتح اليمن بقيادة أخيه توران شاه

٥- القضاء على المؤامرات التى كان من الممكن أن تطيح به

وبعد وفاة نور الدين استقل صلاح الدين بمصر والشام وذلك منذ سنه ١١٧٦ م . وقد تأكد هذا الاستقلال بمعاهدة الصلح التى عقدهـــا مـــع الملـــك اسماعيل بن نور الدين ، كما أن الخليفـــة العباسى أقر رسميا بـــأن صـــلاح الـــدين أصبح ملكا على مصر فى ظل الخلافة العباسية . ولذلك صار مـــن حقه أن يسك النقود الذهبية والفضية والنحاسية باسمه فـــى مصـــر والشـــام. وبعدها عكف صلاح الدين على القيام بأعمال داخلية تمكن وجـــوده وتكـــون منهاجا لسياسته الداخلية فى المستقبل وقد استغرقت تلك الأعمال حتـــى ســـنة ١١٨٢م ..

ولئن كانت تلك الاعمال الداخلية قد شغلت صلاح الدين طويلا وكان لابد منها إلا أنه لم يمتنع الأمر عن وقوع أعمال عسكرية بينه وبين القـــوى الصليبية ولا سيما مملكة بيت القدس التى كان يتزعمها أرناط أمير الكرك كما كانت الهزيمة التى تلقاها من القوات الصليبية عنـــد الرملـــة ســـنه ١١٧٧ م تجربة قاسية أفادته كثيرا فى تحركاته وحروبه بعد ذلك .. ولقد رأى صـــلاح



الدين على إثر تلك الهزيمة أن لابد له من أن يطاول الصليبيين إلى حين حتى تقوى قواعده وتكتمل قواته فى بنائها وتسليحها . ولذلك فإنه أدرك أن لابد له من مهادنة من يرى أنه خطر عليه ، فوقع هدنة سنه ١١٨٠ م ولمدة سنتين مع مملكة بيت المقدس .. وعلى غرارها هدنة أخرى فى نفس السنة مع قلج أرسلان ملك السلاجقة الروم .. وكذلك معاهدات مؤقتة مع أمراء الموصل والجزيرة وأربل وكيفا وماردين. والدلالة السياسية الكبرى لتلك المعاهدات أن قد أصبح لصلاح الدين النفوذ الأقوى فى الشرق الإسلامى ولما يمض على استقلاله بمصر والشام سوى عدة سنوات .

نأتى بعد هذا إلى العماد الرئيسى الذى قامت عليه الحروب الصليبية وهو الجيش. فكيف جاء تكوين صلاح الدين لجيشة ؟ جاء فى دائرة المعارف الإسلامية عن جيش صلاح الدين :" كان السلطان يستند إلى قوة الجيش وكانت سياسته كلها فى حاجة إلى جيش قوى .. ولم يعد هناك وجود جيش للفاطمين اللهم الا فرقا من الجند غير النظاميين .. ولم يكن بد من أن يعتمد على الجيش التركى وهو دخيل على شعب مصر تماما ورثه صلاح الدين عن نور الدين وطوره على حساب موارد مصر . وكان الجيش المصرى يتألف عام ٥٧٧ هـ (١١٨١م) من ١١١ ، أميرا و ٦,٩٧٦ طواشيا (فرسان مجهزين بكامل العتاد) و ١,١٥٣ قرة غلام (فرسان من الطبقة الثانية).. وهذا عدا سكان الحدود من العرب الذين لا يصلحون للقتال فى الغزوات الخارجية .. ولا بد أن يضاف إلى هذا الجيش فرق الجند من الشام وبلاد الجزيرة وتشمل فرق الموصل وهى القوات التى نصت عليها المعاهدة التى عقدت بعد انتهاء الحروب بين عامى ١١٧٤ ، ١١٨٣ م ورخصت لصلاح الدين باستدعائها عند الحاجة وهى تربو فى مجموعها على ٦٠٠٠ رجل .. وجدير بالذكر أن صلاح الدين انتصر فى وقعة حطين وهو يحارب بكل قوته تقريبا التى كانت تناهز ١٢,٠٠٠ من الفرسان وقد حقق بها انتصاراته التالية.



وكانت المعدات اللازمة للحرب والحصار - والتى ازدادت كما وكيفما فيما يرجح - قد حظيت بالاهتمام ايضاً..

" وكان صلاح الدين فى السنوات الأولى من حكمه مهدداً من الأساطيل البوزنطية والنورمنديه والايطالية التى تستخدم القواعد المنتشرة فى الشرق اللاتينى فبذل جهداً كبيراً لإعادة إنشاء الأسطول البحرى للفاطميين فى البحر المتوسط بعد ان أصيب بالعطب فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) نتيجه للاضطرابات الداخلية وتقدم الصليبيين والايطاليين. وتمكن بفضل هذه الجهود من شن عده هجمات على أقرب موانى الفرنجة ولا نستبعد الرأى القائل بأن توسع تراقوش فى الزحف على طول الساحل الإفريقى كان يستهدف - علاوة على إيجاد مخرج للتخلص من الالمان المشاغبين - السيطرة على الشواطئ لاتاحة التنقل بحرية لسفن المسلمين وتيسير الحصول على مصدر يمده بالأخشاب والبحارة ". على أن الأيوبيين تخلوا عن فكرة إنشاء أسطول كبير يتمكنون به من شن الهجوم على الصليبيين وركزوا جل اهتمامهم فى حماية مصر على الجيش البرى والتحصينات . كما أنهم كانوا يعمدون إلى نسف التحصينات الساحلية للعدو ونشر الجواسيس والعيون للحصول على المعلومات العسكرية التى تمكنهم من تدبير الهجمات البرية المؤثرة . ومن هناكانت الخطط القتالية فى استراتيجيتها الرئيسية تقوم على القوات البرية من فرسان ومشاة

والمرحلة الثانية ...

الجهود التى بذلها خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين ، والدولة المملوكية بعد ذلك فى محاربة لصليبيين ثم طردهم من الأرض العربية الإسلامية ومنهاجنا فى عرض **المرحلة الأولى** سيكون فى صورة يوميات صلاح الدين ".. وسوف نجسد فيها المعارك الكبيرة والصغيرة التى خاضها



بما يظهر قدرته العسكرية وحنكته القتالية واستراتيجيته السياسية .. وسـوف نشهد فى تلك اليوميات كيف كانت حياة صلاح الدين من يوم أن تولى شـأن مصـر وتمكن من توحيد الأمة الاسلامية فى جبهـة واحـدة أمـام القـوى الصليبية وهو فى معارك متصلة متداخلة يسأل فيها عن كل معركـة كيـف سارت ؟ وعن أخبار كل أمير فى رجالـه؟ حتى تتكامل الصورة العامة لسير الحرب التى نهض بمسئوليتها أمام ربه وأمته ...



يوميات صلاح الدين

فى عام ٥٦٥هـ ـ ١١٧٠م

* تأكد الصليبيون أن صلاح الدين قد تمكن من بسط نفوذه على مصر فخشوا أن يوليهم اهتمامه الأول فيخرب مواقعهم فاتفقوا على مهاجمته عساهم ينتزعون مصر من يديه فاتجهوا نحو دمياط .. ووجدها الصليبيون فى الشام فرصة فاستولوا على عكا وأسروا صاحبها .. وعندئذ لم يجد نور الدين زنكى أحكم من أن يشغلهم عن غزوهم لمصر بمحاصرة الكرك[1] أما صلاح الدين فإنه عندما وصلته الأنباء بنية الصليبيين فإنه أمد دمياط بالمدافعين الذين تصدوا لهم من البر والبحر حتى كتب لهم النصر وانسحب العدو.

* * *

فى عام ٥٦٨ هـ ـ ١١٧٣م

وعن أول غزوة غزاها صلاح الدين من مصر فإنه خرج بجنده قاصداً بلاد الكرك والشوبك [٢] . وقد استهل بها غزواته لقربها من ناحية ولاعتراضها الطريق إلى مصر من ناحية أخرى فأراد إخضاعها حتى لا تكون عقبة فى سبيل القاصدين إلى البلاد .. ورغم أن قد جرت بينه وبين الصليبيين عدة معارك حول الكرك إلا أنه لم يظفر بها وظفر بثواب القصد .

* * *

---

[١] الكرك : قلعة حصينة فى طرف الشام قرب بيت المقدس،
[٢] الشوبك : بلد صغير بها قلعة قرب الكرك ،

فى عام ٥٧٠ هـ ١١٧٥م

* وتوهم الصليبيون بسبب التغيرات السياسية التى وقعت بمصر أن بإمكانهم الاستيلاء عليها فاتجهوا بقواتهم نحو الإسكندر فأسرع صلاح الدين فدفعهم ودحرهم فانسحبوا خاسرين.

* * *

فى عام ٥٧٣ هـ ١١٧٨م

* فى أوائل جمادى ذهب صلاح الدين إلى دمشق وأخذ أهبته لمواجهة الغزاة فتوجه إلى الساحل جهة الرملة وذلك لمواجهة البرنس أرناط. وبينا هو يعدل من المواقع القتالية لقواته بنقل الميمنة إلى الميسرة، والميسرة إلى الميمنة وذلك حتى يكون تل الرمل حماية لظهورهم انتهز الصليبيون فرصة انشغال المسلمين بتغيير المواقع وهاجموهم وهزموهم .. ثم رجع صلاح الدين الى الشام عندما علم بوقوع اضطرابات به.

* * *

* عين جالوت

فى جمادى الآخرة أعد صلاح الدين قواته للقتال وتقدم حتى أتى الجالوت ، وهى قرية عامرة بالخير فعسكر بها ثم أرسل طلائعه لتستكشف أخبار الصليبين فشاهدوا جنوداً من الكرك والشوبك تتجه لمعاونتهم فانقض المسلمون عليهم وقتلوا منهم وأسروا .. ثم جاءت الأخبار بأن الصليبيين قد تجمعوا لمهاجمة صلاح الدين فرتب قواته ميمنة وميسرة وقلب ثم انطلق لمواجهة العدو فوقع قتال عنيف بين الطرفين ولما أدرك الصليبيون أن الهلاك مصيرهم فإنهم آثروا السلامة بالانسحاب .. وبذلك ظفر صلاح الدين بالنصر ورجع الى دمشق ..

فى عام ٥٧٩ هـ ١١٨٤م

* فى شعبان .. تحرك صلاح الدين نحو الكرك ، ولما علم الصليبيون بخروجه خرجوا للدفاع عن تلك القلعة وقد وقع بينهما قتال عنيف ثم آثر صلاح الدين أن ينسحب بعد أن كبد العدو الكثير من القتلى .

* * *

فى عام ٥٨٠ هـ ١١٨٥م

* فى الخامس عشر من شهر صفر .. عاود صلاح الدين الهجوم على الكرك وقد تألفت قواته من مصريين وشاميين وجزيريين تحت قيادة قرة أرسلان .. ولما وصل خبر ذلك التحرك إلى الصليبيين فإنهم خرجوا للدفاع عن الكرك وهنا رأى صلاح الدين أن من الحكمة الجنوح عن الكرك والاتجاه إلى الساحل لعدم وجود ما يحسب مناوئا فهاجم المسلمون نابلس ثم جالين وبعدها انضموا إلى صلاح الدين الذى ذهب إلى دمشق وعليه مظاهر الفرح .

* * *

فى عام ٥٨٣ هـ ١١٨٨م

*** موقعة حطين ...**

فى يوم الجمعة السابع عشر من ربيع الآخر .. أعد صلاح الدين قواته ونظم مواقعها وحدد لكل فريق مهامه وبعدها انطلق نحو البلاد الصليبية ولما علم العدو بتحركه جمع قواته بأرض عكا ثم أقامهم غربى طبرية على سطح جبل فى وضع قتالى ولما لم يتحرك العدو من مواقعة فإن صلاح الدين خف ببعض قواته وانقض بها على طبرية فاستولى عليها. وبمجرد أن علم العدو بسقوط طبرية فإن أسرع لاسترجاعها ولما حدث ذلك ترك صلاح الدين جزءا من قواته لحراسة طبرية وقلعتها وأخذ هو القوات الرئيسية حيث التقى بقوات العدو على سطح جبل طبرية الغربى .. ووقع

التصادم المروع واستحر القتال وكان موقف القوات المسلمة دقيقا وخطيرا فقد كان وراءهم الأردن وأمامهم بلاد العدو ..

وفى لحظة حملت القوات الإسلامية على العدو حملة رجـــل واحـد فألقى الله الرعب فى قلوب الكافرين فقتل منهم الكثيرون كما استسلمت القوات التى وجدت نفسها وهى فوق تل حطين تحيط بها النيران من كـــل جـــانب .. وكان فيمن استسلم من كبار قادتهم الملك جفرى .. والبرنس أرناط ، وابـــن الهُنْفرى ، وابن صاحب طبرية وقائد الداوية ، وأمير جبيل وقائد الاسبتارية . وبعد هذا النصر العظيم اتجه صلاح الدين إلى عكا فخلـــص منـــها أســـرى المسلمين وأخذ منها مغانم كثيرة .. وبعدها انطلقت قواته الى بـــلاد الســـاحل فاستولوا على الكثير من الحصون والقلاع . كما سقطت بأيديهم مدن كثـــيرة منها نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية ، والناصرة .. وبعد أن دعم قواعـــده فى عكا اتجه الى تبنين ، ورغم قواتها الشديدة البأس فإنه حقق نصره عليها..

وبعدها سقطت صيدا ، ثم بيروت ، ثم الرملة ، وبينا والدارون ، ثـــم عسقلان وهكذا جاء نصر حطين فاتحة خير وبركة على جيوش المسلمين .

* * *

* فى الخامس عشر من رجب .. اتجه صلاح الديـــن إلـــى القـــدس الشـــريف وكانت أصداء نصر حطين قد زلزلت كيان العدو ولذلك فإنه آثـــر أن يسلم القدس بغير قتال .. وتم ذلك فى يوم الجمعة السابع والعشرين مـــن رجب فكانت ليلة المعراج بشارة خير على المسلمين .

* فى يوم الجمعة الخامس من رمضان.. قصد صلاح الدين مدينـــة صور .ونشب قتال عنيف مع حاميتها مما جعله يستدعى الأسطول المصرى، فتم حصارها براً وبحرا ولم تجد مفرا من التسليم .

* * *

* فى السابع والعشرين من شوال أصابت الأسطول المصرى هزيمة ذلك لأن البحارة خالفوا أوامر قائدهم ووجدها أسطول الصليبيين فى صور فرصة فهاجم الأسطول المصرى ودمر الكثير من سفنه .. وعندما وصل ذلك الخبر إلى صلاح الدين فإنه حزن كثيرا ثم رحل عن الموقع ليعطى قواته بعض الراحة .

* * *

فى عام ٥٨٤ هـ ١١٨٩م

* فى أوائل المحرم من هذا العام.. رأى صلاح الدين ضرورة الاستيلاء على الحصون الباقية لأن الاستيلاء عليها يضعف من مقاومة الصليبيين ، ولا سيما فى صور ، فتوجه نحو حصن كوكب ولكنه لم يشأ أن ينتظر أمامه طويلا فقد وجد أنه حصن قوى يلزمه قوة عسكرية كبيرة حتى يمكن مداهمته .. ولذلك فإنه قرر العودة الى دمشق ، ولم يكد يستقر بها حتى علم أن الصليبيين توجهوا إلى جبيل فخف إليها ولم يكد الصليبيون يشاهدون القوات المسلمة حتى رفعوا أيديهم عنها .. ولما تم ذلك توجه صلاح الدين على الفور نحو حصن الأكراد القوى المنيع.

* * *

* فى السادس من جمادى الأول .. اتجه المسلمون نحو انطرسوس[١] وأعملوا فيها السيف ثم دمروها بالحريق ، وساروا بعد ذلك الى جبلة [٢] التى سلمت بطلب الأمان خشية الدمار . وبعدها سار صلاح الدين نحو اللاذقية وقامت بها معركة عنيفة لم يحتملها العدو فطلب الأمان .

* * *

[١] انطرسوس : بلد على ساحل الشام
[٢] جبلة : قلعة على الساحل قرب اللاذقية



* فى التاسع والعشرين من جمادى الأولى .. غادر صلاح الدين اللاذقية قاصدا صهيون [١] وكانت بها قلعة حصينة قوية المنعة فحاصرها المسلمون ودار حولها قتال شديد. وإن هو إلا وقت قليل حتى ارتقى المسلمون سورها وزحفوا عليها من كل صوب ولما أيقن قادتها أن هلاكهم محقق فإنهم رفعوا أيديهم براية الأمان .فأمنهم صلاح الدين وسلموا أنفسهم وأموالهم وغيرها من القلاع .

* * *

* فى السادس من جمادى الآخرى .. رحل صلاح الدين الى بكاس ، وكانت قلعة منيعة على جانب نهر العاصى ، فأحاط بها إحاطة كاملة وقاتلها قتالا شديدا ثم تم فتحها . وكان يتبعها قلعة تسمى الشعر قريبة منها، فتحها ورفع العلم الاسلامى عليها .. ثم وجه صلاح الدين ابنه الملك الظاهر إلى قلعة سرمانيه التى أسرعت بالتسليم.

* * *

* فى الرابع والعشرين من جمادى الأخرى .. بعث صلاح الدين بفرقة من الجيش إلى قلعة برزيه[٤] ، وهى قلعة حصينة فى غاية القوة والمنعة على حافة جبل شاهق يضرب بها المثل فى جميع بلاد الإفرنج والمسلمين .. فأحدق المسلمون بالقلعة من جميع جهاتها .. ثم هاجمها صلاح الدين بنفسه فدمر سورها وأخذها عنوة.

* * *

---

[١] صهيون : حصن قريب من البحر

[٤] برزيه : قلعة تطل على بحيرات فاميه



* فى الثامن عشر من رجب .. نزل صلاح الدين على درْبِساك وهى قلعة منيعة قريبة من أنطاكية ، أحاطها بالمنجنيقات وأصلاها ضربا متصلا حتى طلبت الأمان ثم رفع عليها العلم الاسلامى .

* * *

* فى الثانى من شعبان .. هاجم صلاح الدين قلعة بفراس - قرب أنطاكية - وكانت تتميز بمنعتها وكثرة سلاحها ورجالها. وبعد قتال شديد طلبت الأمان بعد أن تستأذن أنطاكية وتم لها ما أرادت ورفع العلم الإسلامى عليها .. ثم حدث فى نفس يوم النصر أن راسله أهل أنطاكية وطلبوا منه الصلح فوافق على شريطة أن يطلق الأنطاكيون جميع أسارى المسلمين الذين عندهم .. ثم رحل إلى دمشق طلبا للراحة .

ولما كانت هناك مجموعة من القلاع قريبة من حوران يخشى منها ويخشى عليها فإنه رأى أن يشغل وقت صومه بفتحها .

* * *

* فى أوائل رمضان .. خرج صلاح الدين من دمشق قاصدا صفد وهى قلعة منيعة فأحاط بها وصار يشاغلها ، وفى أثناء ذلك - أى أثناء شهر رمضان - أرغمت الكرك على التسليم من جانب نواب صاحبها وكان ذلك ثمنا لتخليصه من الأسر ، فقد أسر فى معركة حطين المباركة .. أما حول صفد فقد ظل القتال مستعرا حتى سلمت طالبة الأمان ، وتم ذلك فى ١٤ شوال .

* * *

* الثامن من ذى الحجة .. ثم قصد صلاح الدين نحو كوكب وهى تقع على الجبال ولها قلعة قوية فحاصرها ، ولما أدرك العدو أنه هالك لا محالة فإنه طلب التسليم فأجيب .. وبعدها توجه صلاح الدين إلى عسقلان

ليطلع على أمورها ويصلح شؤونها ، ثم ودع أخاه وأعطاه الكرك وأخذ منه عسقلان ورجع إلى عكا قاصداً مهاجمتها ..

* * *

في عام ٥٨٥ هـ ١١٩٠م

* في رجب ... بلغ صلاح الدين أن الصليبيين بصور قد اتجهوا قاصدين عكا . ولكنه تريث في مواجهتهم خشية أن يعرفوا قصده . فلما وصل قرية الخروبة استطاع أن ينفذ بعض الجند في داخل عكا تقوية ومساندة لمن فيها حتى صار فيها جند كثيف مما مكنه من أن ينظم قواته إلى ميمنة وميسرة وقلب .. بعدها أحاطت القوات المسلمة بالعدو .. وفي صباح يوم السبت الثاني من شعبان أرسل صلاح الدين فرقة إلى شمال عكا ومن ثم أصبح الطريق مفتوحا وتمكن من الدخول والصعود إلى سورها .. ثم حمل على العدو حملة واحدة إلا أن العدو استمات في دفاعه ومحاولاته لإبعاد المسلمين فما كان من صلاح الدين إلا أن صاح في جنده :" يا للإسلام " وتمكنوا من فتح الطريق للمرور العام ..

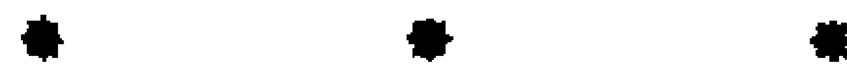
ومن الطريف أنه في وقت من أوقات الراحة بين الطرفين ، قال بعضهم لبعض " إلى كم نقاتل الكبار وليس للصغار حظ ، نريد أن يتصارع صبيان منا ومنكم .. فأُخرِجَ صبيان من البلد إلى صبيين من الإفرنج واشتد الحرب بينهم فوثب أحد المصبيين المسلمين إلى أحد الكافرين فاختطفه وضرب به الأرض وقبضه أسيرا فاشتراه بعض الإفرنج بدينارين وقالوا هو أسيرك فأخذ الدينارين وأطلقه .

نعود إلى معركة عكا .. فأمام حشود صلاح الدين نظم العدو قواته: قلبا وميمنة وميسرة . وكان ملك الصليبيين في القلب وبين يديه الإنجيل محمولا مستورا بثوب أطلس مغطى يمسكه اربعة أنفس بأربعة أطراف وهم

يسيرون بين يدى الملك . وأما جند المسلمين فقد تنادوا :" يا للإسلام وعساكر الموحدين". وهجموا على عدوهم وصلاح الدين يحرضهم على الثبات والمواصلة فى سبيل الله . وتمكن المسلمون من العدو وظفروا منهم بالكثير من الغنائم .. إلا أنه وقعت نكسة بسبب إنهماك المسلمين فى الغنائم .. وهنا جمع صلاح الدين أمراءه وقواده وجنده وقال فيهم كلمة " بسم الله ، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ، اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا ، قد نزل بلدنا ، وقد وطئ أرض الإسلام وقد لاحت لوائح النصر عليه إن شاء الله تعالى وقد بقى فى هذا الجمع اليسير ولا بد من الاهتمام بقلعه والله قد أوجب علينا ذلك وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل وهو واصل .. وهذا العدو إن بقى وطال أمره إلى أن ينفتح البحر جاءه مدد عظيم .. والرأى كل الرأى عندى مناجزتهم فلينجزنا كل منكم ما عنده فى ذلك ".



فى شهر رمضان.. وصلت رسالة من حلب كتبها الملك الظاهر ابن صلاح الدين يخبره فيها أن قد وصلته الأخبار المؤكدة أن " ملك الألمان قد خرج فى عدة عظيمة يريد البلاد الاسلامية ".. فعظم ذلك على صلاح الدين ورأى ضرورة استنفار الناس للجهاد .



فى عام ٥٨٦ هـ ١١٩١م

* فى الخامس عشر من ربيع الأول .. تأكد الصليبيون المقيمون بالشقيف أنهم أصبحوا تحت رحمة القوات المسلمة وأنهم إن أخذوا عنوة ضربت رقابهم فطلبوا الأمان . ولما تأكد لصلاح الدين أن الصليبيين مهتمون بعكا وأن عزائمهم نحوها متوفزة فإنه انتهز فرصة فصل الشتاء وأمد عكا

بما تحتاجه من المؤن والأسلحة والرجال .. ثم أصدر أمره إلى نوابـــه فـــى مصر بضرورة الإسراع فى تجهيز أسطول كبير محمل بـــالجند الكثيــف .. ووصل الأسطول ودخل عكا رغم أنف العدو .. ولما أصبحت القوات المسلمة فى كثافة كافيـــة تقدم صلاح الدين نحو العدو ونزل فى تل كيســـان ورتـــب جنده قلب وميمنة وميســـرة .. أما العدو فإنه أعد قواته إعداداً جيداً كما أنـــه أقام ثلاثة أبراج شاهقة صنعها من خشب وحديد ليقذف منها القوات المســـلمة بنيرانه لكن صُنّاع صلاح الدين تمكنوا من إحراقها بتصويب قوارير النفـــط عليها .. وهنا لاحت للعدو أن المسلمين سوف ينتصرون .. وفى هذا الوقـــت ودعمـــا لمقدمات النصر فقد وصل الأســـطول المصـــرى وعليـــه رجالـــه المدربون .. وفى المقابل جهز العدو أسطوله ليمنع الأسطول المصرى مـــن دخول عكا وتقدم لملاقاته فى الوقت الذى كانت فيه الجيوش البرية المســـلمة تسير بمحاذاة الساحل لتشدّ من أزر الأسطول المصرى . والتقى الأســـطولان والجيشـــان البريان واشتد القتال واشترك أهل عكا فى المعركـــة ليصرفـــوا العدو عن الإسطول المسلم وتحقق النصر للمسلمين فى كل مواقع المعركة.

* * *

* فى العشرين من جمادى الآخرة .. علم العدو بعد النصـــر الـــذى حققـــه المسلمون أن جيش الميمنة قد خف لأن بعض فرقه سافرت للراحـــة من الجهاد فسارع لمهـــاجمة الميمنة التى ضعفت حتى وصل إلى خيمة الملك العادل .. وعندما شاهدهم وهم مشغولين بالنهب فإنه حمل عليهم من الميمنـــة التى رجع معظم رجالها لمواجهة الصليبيين واستطاع دحرهم .. فـــى هـــذا الوقت تراءت لصلاح الدين على البعد ، غبار الحـــرب مـــن ناحيـــة أخيـــه فأشفـــق عليه وصاح فى الناس قائلا " يا للإسلام وأبطال الموحّديـــن ، هـــذا عدو الله قد أمكن الله منه وقد داخله الطمع حتى غشـــى خيـــامكم بنفســـه "..



وتناصر الرجال وقد اتخذ القلب مكانه واحتدمت الحرب ، وإن هى الإ ساعة حتى كان القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية .. وتـم النصـر .. ولمـا وصلت الأنباء الى جند المسلمين بعكا تحمل نصر إخوانهم فإنهم خرجـوا إلى مخيم العدو حيث وقعت بينهما معركة عنيفة تم فيها النصر للمسلمين ..

ثم جاء خبر آخر بأن فرقة من الصليبيين الشماليين خرجوا لـترويع البلاد الإسلامية الآمنه ونهبها فما كان الا أن خرجت اليهم قوات مـن حلـب قطعت عليهم طريق عودتهم واستأصلتهم عن آخرهم .. وقـد كـان لـهذه الأخبار وقع عظيم فى نفوس المسلمين.

* * *

* فى السابع والعشرين من جمادى الأخرى.. وصل أحد كبار ملوك الصليبيين بطريق البحر ويدعى الكندهرى .. وقدم بأسطوله مشحونة سـفنه بالرجال والذخيرة والمؤن والسلاح . وكان قصده مهاجمة الجيش الاسـلامى المحاصر لعكا ليلاً. واستشار صلاح الدين رجاله فيما يفعل فأشـاروا بـأن يوسعـوا له الدائرة بالابتعاد عنه ليغروه بالخروج عن خيامـه .. فـى هـذا الوقت لما أحس العدو بقوته بسبب توالى النجدات عليه فإنه زاد طمعـه فـى عكا وركب المنجنيقات فى كل جانب لكن المسلمين تمكنوا من إضرام النيران فى المنجنيقات فاحترقت لوقتها وكان الحريق مروعا حتى خشى العدو.

* * *

* فى أواخر رجب .. كان الصليبيون يقومون بدوريات بحرية حول عكا خشية أن تدخلها السفن الإسلامّية .. وكانت عكا فى ذلك الوقت تعـانى من نقص حاد فى الطعام والمؤن .. فماذا يصنع المسلمون ؟ ركـب بعـض جنود المسلمين سفينة ولبسوا ملابس الصليبيين ، وحلقوا لحاهم ، ووضعـوا الخنازير على سطح السفينة حيـث يمكن رؤيتها من بعيـد ، كمـا علقـوا

الصلبان على صدورهم وانطلقوا بسفينتهم نحو البلد وخالطوا مراكب العدو وبهذه الحيلة أفرغوا حمولتهم لأهل عكا .

* * *

* في منتصف شعبان .. تجهزت السفن الثلاث التى كان صلاح الدين قد طلب من نوابه فى مصر إعدادها محملة بالمؤن والأقوات وكل ما يحتاجه الحصار وما أن تجهزت هذه السفن حتى شقت طريقها نحو عكا . وفى مقصدها اعترضها أسطول العدو على مشهد من القوات المسلمة الموجوده على الساحل والناس يهللون ويكبرون ضارعين إلى الله أن ينقذ السفن الإسلامية من سفن العدو حتى وصلت سالمة إلى ميناء عكا وأفرغها أهل البلد وسعدوا بها كثيراً .

* * *

* فى العشر الأواخر من شعبان .. هاجم الألمان فرقة من طلائع الجيش الإسلامى وقد تبعهم كثيرون من الصليبيين فتصدت طليعة صلاح الدين . فما كان من الألمان إلا أن ولوا الأدبار .. وعندما علم ملك الألمان بما وقع لقواته على يد شرذمة من المقاتلين المسلمين فانه خرج الى مقاتلة عكا فجاء بآلات نارية لم يشهدها المسلمون من قبل وأقامها حولها - وفى حمايتها شرع فى الزحف فما كان من القوات المسلمة إلا أن هاجمت الأعداء من كل اتجاه وأطبقت عليهم فى خنادقهم مما أوقع فيهم الذعر ففروا مهزومين. ولما شاهد المسلمون ما حاق بالعدو هجموا على منجنيقه الكبير وألقوه فى النار . وكان العدو قد أعد سفينة لجر البرج الذى أقامه لضرب عكا فخرج عليه من الميناء بعض جند المسلمين وقذفوه بزجاجات النفط فأحرقوه فحزن الألمان كثيرا ..

وفى هذا الوقت وصلت رسالة (طائرة) إلى صلاح الدين تنبه إلى أن البرنس صاحب أنطاكية خرج بجند ليغير على القرى الإسلامية القريبة منه .



فلما شاهده جند الملك الظاهر ونوابه فإنهم أعدوا له الكمائن اللازمة .. وبغتة انقضوا عليهم فقتل من قتل وفر الباقون

* * *

* فى ٢٢ شوال .. رأى صلاح الدين أن يضع للعدو كمينا خاصا فانتقى مجموعة من الجنود الشجعان الأشداء وحدد لهم الموقع وكان فى سفح تل شمالى بعيداً عن بصر العدو .. ثم أطلق مجموعة صغيرة من الجند، وعندما شاهدهم العدو استهانوا بهم ذلك لأن هذه المجموعة تظاهرت بالهزيمة واستدرجته حتى الكمين وعنده خرجت المجموعة المسلمة فصاحت صيحة الرجل الواحد وهجمت عليه فقتلت معظم رجاله واستسلم الباقون وكان ممن أسروا قائد القوة الفرنسية المهاجمة ..

* * *

فى عام ٥٨٧ هـ ١١٩٢م

* فى التاسع من جمادى الأولى .. وصلت الأخبار إلى صلاح الدين بأن العدو لا يكف عن مهاجمة عكا وأنه ركب عليها المناجيق وينوى ضربها. فما كان من صلاح الدين إلا أن هجم على العدو فى خنادقه وأنزل به خسائر كثيفة لم يحتملها وصلاح الدين مستمر فى الزحف على الخنادق حتى اقتلع العدو تماماً.

* * *

* فى السادس عشر من جمادى الأولى .. وصلت سفينة من بيروت حمّلها صلاح الدين بما تحتاجه عكا من مؤن وطعوم ومعها الكثير من الناس وأثناء إبحارها نحو عكا تصدت لها قوات ريتشارد (الأنكتار) ملك الإنجليز وأغرقتها.

* * *



* فى الثالث والعشرين من جمادى الأولى .. وصلت رسالة الى صلاح الدين من ريتشارد ملك الإنجليز يطلب فيها الاجتماع به ، وكان جواب صلاح الدين عليها :" إن الملوك لا يجتمعون إلا عن قاعدة ولا يحسن منهم الحرب بعد الاجتماع والمواكلة . وإذا أراد ذلك فلابد من تقرير قاعدة قبل هذه الحالة ولابد من ترجمان نثق به في الوسط يفهم كل منا ما يقول الآخر فليكن بيننا ذلك الترجمان فإذا استقرت القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك إن شاء الله تعالى"... ولما أنكر ملوك الصليبيين عمل ريتشارد فإنه بعث إليه برسوله ليقول له على لسانه": ..ان زمام قيادى مفوض الىّ فأنا أحكم ولا يحكم علىّ.

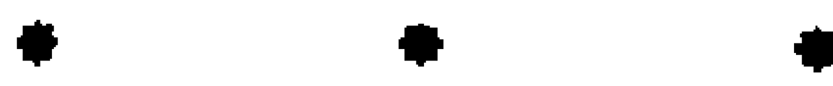
* * *

* فى أوائل جمادى الآخره.. كان هناك تصميم من الصليبيين على اقتحام عكا والاستيلاء عليها عنوة ولذلك أحكموا عليها حصار المنجنيقات وظلوا يضربون بها الأسوار حتى تخلخلت وتهاوت وأصلوا قواتها جحيما من النيران حتى أن المحاصرين بعثوا برسالة الى صلاح الدين قالوا فيها :" إنا قد بلغ بنا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم ونحن فى الغد ثامن الشهر إن لم تعملوا معنا شيئا نطلب الأمان ونسلم البلد ونشترى مجرد رقابنا.. والحق أن هذا الخبر كان شديد الوطأة على المسلمين . فكان فاطراً لقلوبهم ومزعجا لنفوسهم ذلك لأن عكا لم تكن مدينة هينة استراتيجيا فقد ": احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر ، وجميع البلاد الاسلامية واحتوت على كبار من أمراء العسكر وشجعان الاسلام كسيف الدين المشطوب ، وبهاء الدين قراقوش وغيرهما .. وجرت مفاوضات للمصالحة اشتط فيها العدو كثيرا .. ولما أن وجد العدو أن قد أصبحت البلد مهيأة للاقتحام ، صاح الصليبيون صيحة رجل واحد واقتحموها وزلزل المسلمون

زلزالا شديدا :" وانحصر العقلاء من الناس فى تلاوة " إنا لله وإنا إليه راجعون" .. ولما انتهت المعركة بتلك الهزيمة المرة واتفق الطرفان على الصلح ، دخل قائد الصليبيين البلد ومعه أعلام الملوك الذين اشتركوا فى المعركة ، وقام برفع علم على القلعة وعلم على مئذنة الجامع وعلم على برج الداوية وعلم على برج القتال وأنزلوا علم الإسلام وحاصروا المسلمين فى بعض أطراف المدينة .

وقد وقعت معركة فى اثناء ذلك الاحتلال ، معركة جانبية لها دلالتها، فقد خرجت مجموعة من الصليبيين من شمال البحر على شاطئ عكا وانتشروا انتشارا واسعا وكان فيهم مجموعة من الفرسان .. ولما أن وصل الخبر الى صلاح الدين فإنه واجههم بمقدمته التى باغتتهم ولم يجد العدو مفرا من النكوص على عقبيه.. أما المسلمون الذين كانوا بعكا فقد نزلت بهم كارثة شديدة ذلك لأن ريتشارد تذرع بأن صلاح الدين لم يرسل المال المتفق عليه ، وأسرى الصليبيين ، والصليب .. وإذا كان قد صالح المسلمين على أن يكونوا آمنين على انفسهم إلا أنه سرعان ما وجدها فرصة وفتك بهم أجمعين .

ولما اجتمع الملك العادل مع الملك ريتشارد لتحقيق الصلح قال له الملك العادل: "أنتم تطلبون الصلح ولا تذكرون مطلوبكم فيه حتى أتوسط أنا الحال مع السلطان". فقال له ريتشارد :" إن القاعدة أن تعود البلاد كلها إلينا وتتصرفوا إلى بلادكم ".. ولكن العادل أغلظ اليه القول وانفض الطرفان.



* فى الرابع عشر من رمضان .. علم صلاح الدين أن العدو تحرك نحو أرسوف (مدينة على ساحل البحربين قيسارية ويافا) فنهض بجنده ورتب مواقعهم للقتال . وعند الالتحام تمكن العدو من مهاجمة الميمنة والميسرة والقلب وانهارت قوات المسلمين . فثبت صلاح الدين بقليل من الجند المسلمين

ورأى ضرورة أن يتجه مسرعا نحو عسقلان لتخريبها قبل أن يصـل إليـها العدو ويستولى عليها فيقتل من بها من المسلمين ثم يقفز منـها إلـى القـدس وبذلك يقطع الطريق إلى مصر.. فكان أن تقرر حماية القدس بقـوات كافيـة والاتجاه لتخريب عسقـلان ، وكان الحزن يملأ صلاح الدين وهو يخربـها وقد قال فى ذلك: " والله لأن أفقـد أولادى بأسرهم أحب إلى مـن أن أهـدم منها حجرا واحداً وبعدها أمر بتخريب كل من اللد والرملة لنفس السبب ثـم جرت مفاوضات للصلح ولكنها لم تصل إلى نتيجة جادة .

* * *

* فى السادس والعشرين من رمضان .. وقعت مفاوضات للصلح بين صلاح الدين وريتشارد الذى بعث برسالة الى صلاح الدين يقول فيـها ": إن المسلمين والإفـرنج قد هلكوا ، وخربت البلاد وخرجت مـن يـد الفريقيـن بالكلية وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين وقد أخذ هذا الأمـر حقـه وليس هناك حدث سوى القدس والصليب والبلاد ، والقدس متعبدنا ما نـنزل عنه ولو لم يبق منا إلا واحد ، وأما البلاد فيعاد إلينا ما هـو قـاطع الاردن، وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار لها وهو عندنـا عظيـم فيمـن بـه السلطان علينا ونصطلح ونستريح من هذا التعب ".. فرد عليه صلاح الديـن بعد أن استشار رجاله بالرسالة الآتيه :" القدس لنا كما هو لكم وعندنا أعظـم ممـا هو عندكم فإنه مسرى نبينـا ومجتمع الملائكة فلا تتصـور أن نـنزل عنه ولا نقدر على التفريط بذلك بين المسلمين . وأما البلاد فهى أيضـا لنـا فى الأصل واستيلاؤكم كان طارئا عليها لضعف من كان فيها من المسـلمين فى ذلك الوقت وما يقدركم الله على عمارة حجر منها ما دام الحرب قائما وما فى أيدينا نحن منها نأكل بحمد الله فعله وننتفع به وأما الصليب فهلاكه عندنـا

قربة عظيمة لا يجوز لنا أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوفى منها ".

وتطورت مفاوضات الصلح بين الملك العادل وريتشارد . وقد عرض ريتشارد على لسان رسوله أمراً غريبا ذلك أن " ريتشارد قد أراد أن يزوج الملك العادل بأخته وكان قد اصطحبها معه من صقلية فإنها كانت زوجة صاحبها.وقد مات فأخذها أخوها لما اجتاز بصقلية فاستقرت القاعدة أن يكون مستقر ملكها "القدس" وأن أخاها يعطيها بلاد الساحل التى بيده من عكا الى يافا وعسقلان الى غير ذلك ويجعلها ملكة الساحل ويجعله ملك الساحل ويكون ذلك مضافا إلى ما فى يده من البلاد والأقطاع وأن يسلم إليه صليب الصلبوت وتكون القدس للداوية والاسبتار والحصون كلها وأسرانا تفك أسرهم وكذلك أسرهم وان الصلح يستقر على هذه القاعدة ويرحل الأنكتار طالبا بلاده فى البحر وينفصل الأمر".. وكان موقف صلاح الدين من رسالة ريتشارك أنها مجرد :" مكروهزل".

* * *

* فى الخامس عشر من شوال .. استولى الأسطول المصرى على مجموعة من مراكب العدو ، وفرح المسلمون كثيراً بهذا النصر.

* * *

* فى السادس عشر من شوال .. أمر صلاح الدين أن تكمن فرقة للعدو ثم أطلق بعض الأعراب لمخادعة العدو بمناوشات يسيرة لمتابعته، فلما خرج لاقتفاء الأعراب خرجت عليه القوات الاسلامية من مكمنها فولى الأدبار بعد أن قتل منه عدد كبير . وكان أن عتب ريتشارك على الملك العادل بسبب ذلك الكمين وطلب الاجتماع به فلما اجتمع به طلب منه أن يعرض على صلاح الدين أن يمثل بين يديه فلما وصلت هذه الرسالة

استشار صلاح الدين أصحابه فكان أن بعثوا إلى ريتشارد بالرسالة التالية: "الملوك إذا اجتمعوا قبح منهم المخاصمة بعد ذلك فإذا انتظم أو حسن الاجتماع لا يكون إلا فى مفاوضة فى فهم وأنا لا أفهم بلسانك وأنت لا تفهم بلسانى ولا بد من ترجمان بيننا تثق أنا وأنت فيه فليكن ذلك الترجمان رسولا حتى يستقر أمر وتستتب قاعدة وعند ذلك يكون الاجتماع الذى يعقبه الوداد والمحبة" ... وهنا أدرك ريتشارد أنه لابد من أن يكون لين الجانب سهل العريكة مع صلاح الدين .

ومن قول ريتشارد فى إحدى رسائله الى صلاح الدين :" إنى أحب صداقتك ومودتك .. وأنك ذكرت أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك فأريد أن تكون حكما بينى وبينه ولابد أن يكون لنا علاقة بالقدس الشريف ومقصودى أن تقسم بحيث لا يكون علىّ لوم من المسلمين ولا على لوم من الافرنجية ".. ثم قال الملك عن الأسرى ":إن كان صلح فعلى الجميع وإن لم يكن صلح فلا يكون حديث الأسارى شئ" ... وكان صلاح الدين حصيفا بصيرا فرد على مناورات الملك ريتشارد بقوله لأخيه الملك العادل ": متى صالحناهم لا تؤمن غائلتهم فإننى لو حدث بى حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر وتقوى الإفرنج فالمصلحة أن لا نزال على حالنا حتى نخرجهم من الساحل أو يأتينا الموت".

* * *

فى عام ٥٨٨ هـ ـ ١١٩٣م

فى هذه السنه جرت مفاوضات كثيرة كان أحدثها ان ريتشارد وافق على أن تكون الصخرة للمسلمين وكذلك القلعة تكون فى أيديهم على أن يكون الباقى مناصفة ولا يتواجد من الصليبيين أحد فى القدس وفى نفس الوقت تكون قرب القدس وباطنة مناصفة.



* فى ربيع اول من هذا العام.. أغار الصليبيون على قرية تسمى حلة عرب قريبة من الدارون وأخذوا جماعة من أهلها أسـرى كما نـهبوها فغضب صلاح الدين لهذا العمل .

* * *

* فى جمادى الأولى .. يبدو أن استيلاء الصليبيين على القرية كـان تمهيـداً لاستيلائهم على بلدة الدارون ، فقد انتهزوا أن صلاح الدين منح جنده إجازة يستريحون فيها من القتال وكان أن تفرقوا فـى بلدانـهم فـنزل جنـد الصليبيين على حصن الدارون فطلب أصحابه من ريتشارد أن يمهلهم حتـى يصل إليهم رأى صلاح الدين فلم يستجب لرجائهم واقتحـم البلـد واسـتولى عليها.

* * *

* فى السادس عشر من جمادى الأولى .. أغارت فرقة من الصليبيين على صور فخرج عليهم جند المدينة المسـلمين ، وطرودهـم ولـم يصـب المسلمون بسوء.

* * *

* فى السادس عشر من جمادى الاخرة .. حقق العدو الصليبى بقيادة ريتشارد نصرا على صلاح الدين مما أطمعه فى مهاجمة القدس والاسـتيلاء عليهـا ، وطلب من الكندهرى أن ياتى بمزيد مـن الرجـال مـن صـور وطرابلس وعكا ليزحفوا على القدس . ولما بلغت صلاح الدين تلك الأخبـار المزعجة فإنـه حصن الأسوار وأمر بإفساد المياه التى تـأتى إلـى القـدس وطلب من كل الجهات أن تمده بالرجال .

* * *

* فى التاسع عشر من جمادى الأخرة .. اجتمع كبار القادة بصلاح الدين للتشاور وإعداد خطة للدفاع . ثم أمر القاضى ابن شداد أن يلقى كلمة فى القادة ، فكان من قوله ": إن النبى صلى الله عليه وسلم لما اشتد به الأمر بايعه الصحابة رضى الله عنهم ، على الموت فى لقاء العدو ونحن أولى من تأسى به صلى الله عليه وسلم والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت ولعل ببركة هذه النية يندفع هذا العدو".

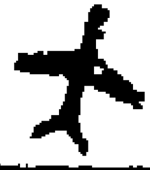
فوافق الجميع على كلمة الشيخ القاضى ، ثم ألقى صلاح الدين كلمته وقد جاء فيها ": الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .. اعلموا أنكم جند الاسلام اليوم ومنعته وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة بذمتكم ، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من تلقاه إلا أنتم فإن وليتم بأنفسكم – والعياذ بالله – طوى البلاد طى السجل للكتاب وكان ذلك فى ذمتكم فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا وأكلتم مال بيت المال فالمسلمون فى سائر البلاد متعلقون بكم .. والسلام".

ثم رد القادة بكلمة على لسان القائد سيف الدين المشطوب جاء فيها : "يا مولانا نحن مماليكك وعبيدك وأنت أنعمت علينا وكبرتنا وعظمتنا وأعطيتنا وليس لنا إلا رقابنا وهى بين يديك والله لا يرجع أحد منا عن نصرتك إلى أن نموت".

وأمام الإصرار والتحدى والقوة الاسلامية الكبيرة لم يجد الصليبيون مفراً من الانسحاب عن القدس.

* * *

* فى السادس والعشرين من جمادى الآخرة .. جرت مفاوضات للصلح وكان مما قاله ريتشارد إلى صلاح الدين على لسان رسوله :" إنى راغب فى مودتك وصداقتك وأنه لا يريد أن يكون فرعون يملك الارض ولا يظن ذلك فيك ولا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم ولا يجوز لى أن



أهلك الأفرنج كلهم وهذا ابن أختى الكندهرى قد ملكته هذه الديار وسلمته إليك ليكون هو وعسكره تحت حكمك ولو استدعيتهم إلى الشرق سمعوا وأطاعوا . إن جماعة من الرهبان المنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها وأنا أطلب منك كنيسة وتلك الأمور التى كان يضيق صدرك منها مما كان يجرى فى المراسلة مع الملك العادل تركتها وأعرضت عنها ولو أعطيتنى قوقعة أو خربة قبلتها".

وعندما سمع صلاح الدين هذه الرسالة جمع أصحابه وقادته للتشاور فيما يكون عليه الرد وأخيرا اتفقوا على هذا الجواب ": إذا دخلت معنا هذا الدخول فما جزاء الإحسان إلا الإحسان . إن ابن اختك يكون عندى كبعض أولادى وسيبلغك ما أفعل معه ، وأنا أعطيتك أكبر الكنائس وهى القيامة وأما بقية البلاد فنقسمها . فالساحلية التى بيدك تكون بيدك والذى بأيدينا من القلاع الجبلية يكون لنا وما بين العملين يكون مناصفة وعسقلان وما وراءها يكون خرابا ، لا لنا ولا لكم وإن أردتم قراها كانت لكم والذى كنت أكرهه حديث عسقلان ثم طلب الملك ريتشارد على لسان رسوله جفرى طلبا آخر فقال عنه :" إن الذى أطلبه منك أن يكون لنا فى قلعة القدس عشرون رجلا وأن من سكن من النصارى والإفرنج لا يتعرض إليهم وأما بقية البلاد فلنا منها الساحليات والوطاة والبلاد الجبلية لكم"

ولما طلب صلاح الدين من ريتشارد ضرورة تخريب عسقلان رد عليه الملك بقوله :" لا يمكن أن نخرب من عسقلان حجراً واحدا و لا يسمع عنا فى البلاد مثل ذلك .. وأما البلاد فحدودها معروفة ولا مناكرة فيها "

بعد هذا تأهب صلاح الدين لشَن هجمات جديدة على الصليبيين لإحراجهم والضغط عليهم.

* * *

* فى الخامس عشر من رجب .. اتجه صلاح الدين إلى حصار "يافا" فعين من يقومون بنقب سورها ودخل منه الجند .. والتحموا بالعدو .. وأذاقوه مر الحرب. ولما رأى العدو ما حل به طلب الصلح ولكنه – أى صلاح الدين – استمر فى القتال خوف الخديعة . ثم رجع العدو وطلب الأمان .. ولما كان على وشك التسليم فإن ريتشارد عاود الهجوم على يافا وقاتل المسلمون قتالا شديدا ثم جرى حديث الصلح بشأن يافا وغيرها .. ثم استقر الصلح وتم التوقيع عليه وذلك فى يوم الأربعاء الثانى والعشرين من شعبان .. ثم انطلق المنادى ينادى فى الطرقات والاسواق ": الا إن الصلح قد انتظم فى سائر بلادهم فمن شاء من بلادهم ان يدخل الى بلادنا فليفعل .. ومن شاء من بلادنا أن يدخل الى بلادهم فليفعل".

ثم توفى البطل العظيم فى السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩ هـ ١١٩٤م

الأيوبيون يواصلون

* * * *

١- الملك العادل

٢- الملك الكامل

٣- الملك الصالح

٤- الملكة شجر الدر

* * *

تولى الملك العادل المسئولية بعد وفاة شقيقه السلطان صلاح الدين (٥٩٧ هـ - ١٢٠٠م) . وتمكن في مستهل حكمه من أن يطوى جميع أبناء البيت الأيوبى تحت إمرته . كما تمكن من أن يوحد جميع إمارات الدولة الأيوبية تحت لوائه ..

وفى مستهل عهده بالحكم تغيرت الأفكار الصليبية فيما يتعلق بالإغارات على مدن الشام الساحلية والداخلية وفلسطين .. فقد خطرت للزعامات الصليبية فى أوربا والشرق أن مواجهة القوات الإسلامية فى الشام وفلسطين لا جدوى منها طالما بقيت مصر هى القاعدة الأولى الرئيسية التى يعتمد عليها الأيوبيون و أن الأصلح والأصوب هو اقتلاع الأيوبيين من مصر بالاستيلاء عليها وتدمير دولتهم . وقد راقت هذه الفكرة لزعماء المدن التجارية الايطالية فقدمت كل عون لتنفيذ المشروع لأنهم كانوا يدركون جيدا أنه إذا تمكن الصليبيون من الاستيلاء على مصر فقد انبسطت لهم أحلامهم التجارية إلى أوسع مدى " فسوف يقيمون جاليات تجارية بالموانئ المصرية على نسق ما أنشأته بالمدن الفلسطينية كما أنهم سيتمكنون من ارتياد طريق البحر الأحمر ومراكز التجارة الشرقية" ..

وقد تزامن ذلك التحول الصليبى مع الدعوة التى كان يروج لها البابا إنوسنت الثالث سنة ١٢١٦ م ، والخاصة بضرورة إعـداد حملـة صليبيـة خامسة.. ومن المشاهد الصليبية الشعبية فى أوربا - وفى مستهل حكم العادل - أن قامـت دعوات هوجاء طائشة بشأن إعداد حملات صليبية للاسـتيلاء على الأراضى الاسلامية فى الشام .. ففى عام ١٢١٢ م قام شـاب ألمـانى مجهول التاريخ اسمه نقولاس Nicholas بالترويج لفكرة أن الله " قد أمـره أن يقود إلى الأراضى المقدسة حملة صليبية مؤلفة من الاطفال".

وبالرغم من قيام الكثيرين من رجال الديـن وغـيرهم بمعارضتـه والوقوف ضده إلا أن دعوته صادفت هوى ورواجا كثيرا فى زمن استبدت به حماسة دينية جارفة لا يحكمها وعى سليم أو إدراك قويم . وقد بـذل الآبـاء غايـة ما فى وسعهم ليمنعوا أبناءهم من الانخراط فى زمـرة ذلـك الـهوس الدينى ولكنهم فشلوا فى مسعاهم . وتجمع الآلالف من الصبية (وبعض البنات فى ثياب الغلمان) لا يتجاوزون الثانية عشرة من أعمارهم . وخرجـوا مـن بيوتهم خفية يتبعون نقولاس ، وقد كان عددهم يقترب من ثلاثة آلاف طفـل معظمهم من مدينة كولونى واتخذوا سبيلهم بجوار نهر الرين وفى أعالى جبال الألب .

وخلال هذه الرحلة الموجعة هلك الكثيرون مـن الجـوع وافترسـت الذئاب أولئك الذين بعدوا عن الجماعة هذا فضـلا عـن اللصـوص الذيـن انخرطوا فى صفوفهم سرقوا ثيابهم وطعامهم . ولما أن وصل الناجون منـهم إلى ميناء جنوى فإنهم لسوء حظهم لم يجدوا السفن التى تنقلهم الى فلسـطين فتوجهوا إلى البابا انوسنت الثالث يلتمسون منه المساعدة .. وكل ما فعله البابا بكل لطف وحنان أنه نصحهم بأن يعودوا الى بلادهـم . فكـان منـهم مـن استجاب إلـى النصيحة ورجع مؤثرا السلامة وإن غمرهم الحـزن فعـبروا جبال الألب فى عودتهم ، ومنهم من آثر البقاء فـى جنـوى حيـث تعلمـوا الأساليـب التجارية المعمول بها فى العالم آنذاك . وإذا كان هذا هو ما حدث فى ألمانيا فإنه فى فرنسا ظهر أحد الرعاة وكان اسمه استيفن فى الثانية عشرة



من عمره وقصد الملك مدعيا ان المسيح ظهر له وهو يرعى غنمه وأمره أن يقود حملة من الأطفال إلى فلسطين .. فما كان من الملك إلا أن نصحه بأن يعود الى مرعاه ليرعى غنمه .. لكن سرعان ما ذاعت دعوة الراعى بين رفاقة من الغلمان حتى تجمع منهم ما يقرب من عشرين ألفا .. فساروا خلفه مخترقين فرنسا إلى مرسيليا وخلال ذلك كان ستيفن يستحث رفاقه بقوله:" ان البحر سينشق عند مدينة مرسيليا ليمكنهم من الوصول إلى فلسطين على أرجلهم ".:. ولكن للأسف لم ينشق لهم البحر .. ثم تعهد لهم اثنان من أصحاب السفن بأنهما على استعداد لأن ينقلوهم إلى الجهة التى يريدونها بغير أجر . وفرح الأطفال وتزاحمو لركوب السفن وهم يهللون بأناشيد النصر. وكان أن تحطمت سفينتان على مقربة من جزيرة سردينيا وغرق كل من فيهما أما الناجون فإنهم أخذوا إلى تونس حيث بيعوا فى أسواق الرقيق ثم أمر الملك فردريك الثانى بشنق أصحاب السفن.

* * *

وبعد مضى ما يقرب من ثلاث سنوات من تلك الأحداث انتهز البابا إنوسنت الثالث إنعقاد مجلس "لاتران" الرابع وجهر بدعوته وانطلقت الحملة الصليبية الخامسة من المانيا والنمسا والمجر وذلك فى عام ١٢١٧ م ، يقودها أندرو Andrew ملك المجر .. وتمكنت من الوصول إلى دمياط التى سقطت فى أيدى القوات الصليبية .. ولما أن علم الملك العادل بتلك الغارة الصليبية فإنه عجل بالقدوم إلى مصر غير أنه لقى ربه بالقرب من دمشق وهو فى طريقه .. حتى اذا انتهى الأمر إلى ابنه محمد الذى لقب بالملك الكامل ، فقد وقعت عليه مسئولية طرد الصليبيين من مصر .. وهنا مال الملك الكامل إلى اصطناع السياسة وسيلة لتحقيق مأربه فعرض على الصليبيين الصلح بالشروط الآتية :" أن يجلو الصليبيون عن دمياط والشواطئ المصرية جلاء تاما وأن يقدم السلطان للصليبيين فى مقابل ذلك مدينة بيت المقدس ومعظم المدن الفلسطينية التى أخذها منهم صلاح الدين أى مملكة بيت المقدس الصليبية وبلادها كلها تقريبا ماعدا بلدتين صغيرتين واقعتين عند الأطراف

المصـــرية الفلسطينية وهما الكرك والشوبك لما لهما من أهمية استراتيجية".. لكن الصليبيين رفضوا ذلك العرض السخى وطالبوا بضرورة دفـــع غرامـــة حربية . ومن هذا يتضح أن هدف الصليبيين كان دنيويا وما كـــانت مســـألة القدس إلا ذريعة فحسب هذا فى الوقت الذى لم ترض فيه المـــدن الايطاليـــة التجارية عن هذا العرض لأنها كانت تطمع فى أن يتمكن الصليبيـــون مـــن مصر لأنها كانت تعد دمياط مفتاح المصالح التجارية الايطالية مع مصر.

وفى سنة ١٢٢١ م اتخذ الصليبيون الذيـــن احتلـــوا دميـــاط قـــرارا بضرورة التحرك نحو القاهرة للاستيلاء عليها وبالتالى السيطرة على مصـــر بالكامل .

ولما كان النيل قد بلغ ذروة فيضانه فقد حدث أنه أمام بلدة طلخا والى الشمال من المعسكر الأيوبى حيث بحر أشمـــوم طنـــاح ، اتخـــذت القـــوات الصليبية البرية والبحرية مواقعها استعداداً للزحف علـــى القـــاهرة وإرغـــام الأيوبيين على التراجع .. أمام ذلك الموقف العسكرى الخطير أصدر الملـــك الكامل أمره بالإسراع لفتح السدود والجسور على الصليبيين فغمـــرت ميـــاه الفيضان مساحات كبيرة من الأرض وفوجـــئ الصليبيـــون بأنـــهم أصبحـــوا محاطيـــن بمياه النيل المتدفقه فمنعتهم من التقـــدم وأصبحـــوا بمعـــزل عـــن مركزهم العام فى دمياط . ولم يعد لهم سوى طريق ضيق عند بلـــدة أشمـــوم طناح ... هكذا وجد الصليبيون أنفسهم فى حصار من صنع الطبيعة ، بذلـــك تبددت أحلامهم فى إسقاط القاهرة فكان عليهم أن يلتمســـوا بصعوبـــة بالغـــة طريقا ينجيهم مما صاروا فيه . فكان طريقهم إلى الشمال من قاعدتـــهم فـــى دمياط ، ولما حاولوا ان يستتروا بالظلام فى انسحابهم فإنهم وجـــدوا أنفســـهم محاصرين بين الماء وجند الإسلام فأصابتـــهم الهزيمـــة الشديـــدة ورضـــوا صـــاغرين بالانسحاب الكامل من الأراضى المصرية بغير قيـــد أو شـــرط.. وتم ذلك فى أواخر سنة ١٢٢١م.

ومع هذا فإن الملك الكامل وجد أنه من الأصوب - وعلـــى المـــدى الطويل - ان يعقد صلحاً مع الصليبيين ليضع حداً للحروب التى لم تنته بعد .



ولقد وافق الامبراطور الألماني فردريك الثانى على مبدأ الصلح ودارت المفاوضات والمراسلات بين الطرفين حتى استقر الأمر على عقد معاهدة بينهما .

وحتى يكون للمعاهدة وزنها الدولى فإن الامبراطور فردريك جاء إلى فلسطين بوفد رمزى من رجال جيشه فى سنه ١٢٢٩ م لتوقيع تلك المعاهدة التى لم يكن لها نظير فى تاريخ العصور الوسطى . وقد نصت هذه المعاهدة على ما يلى :

"أن يسلم السلطان الكامل مدينة بيت المقدس للإمبراطور فردريك باعتباره ملك الدولة الصليبية، وأن يسلم له كذلك بيت لحم والناصرة وطريق الحج من عكا إلى بيت المقدس على أن تظل منطقة المسجد الأقصى فضلا عن بعض المدن الفلسطينية بيد الأيوبيين . وتعهد الإمبراطور فردريك الثانى فى مقابل ذلك بأن يعمل على منع أية حملات صليبية من أوربا وأن يوقف الإمدادات الأوربية عن الإمارات الصليبية كأنطاكية وطرابلس على أن يكون حليفا للسلطان الكامل كما نصت المعاهدة أيضا على أن تكون مدتها عشر سنوات وعشرة أشهر ".

وقد أثارت هذه المعاهدة سسخط الجانبين المسلمين والصليبيين رغم أنها قررت السلام بين الطرفين لعدة سنوات .. وخير شاهد على ذلك أنه رغم الشقاق الذى دار بين الأيوبين فى مصر والشام فى أعقاب وفاة الملك الكامل سنة ١٢٣٨ فضلا عن ضعف الأيوبين فى المدة التى تولى فيها الملك الصبى العادل الثانى ابن الكامل ، فإنه لم يحدث أن قامت أية إمارة صليبية بما يخالف المعاهدة وكذلك لم تأت أية حملة صليبية من أوربا ولكن حدث أن تجمعت غيوم الصراع بين المسلمين والصليبيّن ، ذلك أنه على إثر اجتياح المغول للدولة الخوارزمية ودخول بعض فرقها فى خدمة الأمراء المسلمين أن دخل عدد منهم يبلغ عشرة آلاف فارس فى خدمة الملك الصالح أيوب بن الكامل الذى كان على خلاف مع أمير دمشق . فكان أن هاجموا ضواحى دمشق المعادية ، ثم هاجموا مدينة بيت المقدس وقتلوا عدداً كبيرا من أهلها واحتلوها

باسم الملك الصالح سنة ١٢٤٤ م. وكان هذا بداية لصراع جديد مع الصليبيين، فجاء رد الفعل من الملك لويس التاسع أو القديس لويس ملك فرنسا على رأس الحملة الصليبية السابعة ..

فوضع على صدره شارة الصليب واستطاع أن يحصل على تعاطف نبلاء البلاد أن يقتفوا خطاة :" ولما حل عيد الميلاد أهدى إلى بعض المسيحيين الذين ظلوا ممتنعين عن الانضمام إلى الحملة أثوابا غالية الثمن نقشت عليها شارة الصليب ".. وقد عمل الملك كل ما فى وسعه ليقرب بين أنوسنت والإمبراطور فردريك وذلك لكى تحظى الحملة الصليبية بالتأييد الأوربى ككل . غير أن أنوسنت لم يقبل الوساطة وأكثر من هذا فإنه أرسل أحد رهبانه واسمه جيوفنى ده بيانكو كربينى إلى خان المغول الأعظم يطلب منه أن يقوم بين المغول والمسيحيين تكتل ضد المسلمين فما كان من الخان إلا أن قال إنه لا يقبل ذلك الاتحاد الا إذا خضعت البلاد المسيحية للمغول ..

حتى إذا كان عام ١٢٢٨ م ، قاد الملك لويس التاسع حملة من الفرسان المسيحيين وفى معيته جان سيد جوانفيل مؤرخ الملك . ولما اقتربت من الشواطئ المصرية ألقت مراسيها خارج دمياط .. وقد توهم الملك أنه سوف يتجنب أخطاء الحملة السابقة على حين أنه اقترف أغلب أخطائها ، ومع أن الملك الصالح بن الكامل كان فى ذلك الوقت يعانى من مرض أصابه إلا أنه نهض بالتبعة على خير ما يجب .. فأعد قواته فى البر والنهر . وكان أول ما فعله أن جمع قواته عند بلدة أشموم طناح ، وهى تقع جنوب البحر الصغير وكان أغلب تلك القوات من المماليك الأتراك . كما اتخذ من بلدة المنصورة مقراً لقيادته وفى نفس الوقت فإنه أمد دمياط بما يلزمها من السلاح والمواد الغذائية احتياطا لما قد تواجهه من هجوم مفاجئ أو حصار يستدعي المقاومة الطويلة. ثم أرسل فخر الدين بن حموية ، وهو من قواده بإحدى فرق الجيش لتتمركز على الجانب الغربى المواجه لدمياط .. غير أن فخر الدين لم ينفذ أمر السلطان كما يجب، ذلك لأنه كان مشغولا بالاحتمالات التى قد تنجم بعد وفاة السلطان مباشرة إذ عليه ان يكون على مقربة من مركز

الأحداث ليقوم بدوره فى المؤامرات والصراعات التى سوف تقع .. ولذلك فإنه انسحب بجنده الى اشموم طناح تاركا دمياط معراة مما يحميها من العدو . وأمام هذا النكوص التآمرى غير المقدر للعاقبة لم يجد أهل دمياط مفرا من أن يهجروا البلد فرارا بحياتهم . وبذلك تهيأت الأمور للصليبيين لكى يدخلوا دمياط بغير إراقة دماء أو مجاهدة لحصار فكان أن استولوا على كل ما فيها من مؤن وأسلحة ومعدات .

ولما كان الطريق ممهدا أمام الصليبيين فإنهم قرروا أن يزحفوا جنوبا نحو المنصورة .. وترك الصليبيون دمياط وراءهم فى نوفمبر سنة ١٢٤٩ م. وبينا الصليبييون يتأهبون للزحف جنوبا توفى الملك الصالح .. وهنا تفتحت آمال الملك لويس التاسع فى إحراز النصر السريع والحاسم على الأيوبيين .

ثم أسفرت الأحداث فى البيت الأيوبى عن تحمل زوجة الملك الصالح التى عرفت باسم شجر الدر ، لشئون الحكم ومصالح البلاد إلى أن يصل ولى العهد إلى مصر وكان ذلك مما زاد من ثقة الصليبيين فى قرب انتصارهم .

ثم تمكن الملك لويس التاسع من ان يتقدم بالقوة الرئيسية فى الجيش الصليبى الى بلدة البرمون الواقعة على البحر الصغير .. وبذلك صار البحر حاجزا طبيعيا بين القوات الأيوبية الموجودة من أشموم طناح الى قرية جديلة وبلدة المنصورة وبين القوات الصليبية المتواجدة فى البرمون .. وبدأ الجيشان فى التناوش المتقطع فى مدة استغرقت شهرين ونصف أى إلى أواخر يناير سنه ١٢٥٠ م .. وفى هذا الوقت كان الملك الفرنسى ينشئ جسرا من الخشب فى عرض البحر الصغير حتى تتمكن قواته من العبور إلى المعسكر المصرى الأيوبى غير أنه استغنى عن ذلك الكبرى عندما تقدم أحد العربان الخونة فأرشد الملك إلى مخاضة يستطيع جيشه أن يعبرها لمهاجمة المواقع الأيوبية .. وفعلا قامت نخبة من القوات الصليبية قبل الفجر بقليل يقودها شقيق الملك وباغتت المعسكر الأيوبى فى جديلة .. وفى أثناء القتال قتل القائد الأيوبى فخر الدين واضطرت القوات الأيوبية إلى التقهقر إلى قاعدتها الرئيسية بالمنصورة فى الوقت الذى كانت فيه الطلائع الصليبية



تلاحقهم . وأمام ذلك المشهد تصور أخو الملك الفرنسى أن النصر الصليبى قد أصبح وشيكا .. ثم بدأت الشكوك تساوره عندما دخل بلدة المنصورة ذلك أنه لم يصادف فيها أى مقاومة وعندما اقترب من قصر الملك حاصرته الجيوش الأيوبية بإشارة متفق عليها ..

وفجأة تحول الأمل العريض فى النصر إلى هزيمة نكراء عند المنصورة إذ قتل من الصليبيين ما يزيد على ألف وخمسمائة جندى فى ساعات قلائل .. وهو عدد يمثل معظم الطلائع الصليبية التى كانت تقتفى الأيوبيين .. أما الملك الفرنسى فإنه عجل بعبور البحر الصغير ثم صار يراقب تحركات الجيش الايوبى .. ثم اشتبك الجانبان فى قتال محتدم تراوح فيه النصر والهزيمة بين الجانبين .. وكان الصليبيون فى هذا الوقت خارج المنصورة يراقبون أحوال الطرف الأيوبى على أمل أن ينشب النزاع بين السلطانة شجر الدر وولى العهد تورانشاه .. وهنا خاب أمل الصليبيين بل خاب أمل الملك الفرنسى لأنه بمجرد أن وصل الملك الجديد تورانشاه وتسلم مقاليد الحكم فإنه عالج الموقف القتالى باقتدار ووعى يدل على ذلك ما اصطنعه من أساليب قتالية متنوعة من ذلك انه أمر باستدعاء أسطول مؤلف من سفن خفيفة حملتها الجمال وهى مفصلة إلى مكان قصى عن شمال المنصورة وهنا رُكِّبت ثم جُرِّبت ، والغاية من ذلك أن تحول بين المراكب الصليبية المحملة بالمؤن والقادمة من دمياط وبين المعسكر الصليبى .. وقد تمكن هذا الأسطول من أن يقوم بمهمته على خير ما يكون .

وجاءت النتيجة سريعة إذ صارت الجيوش الصليبية تعانى من المجاعة ، وبعد المجاعة انتشرت بين الجنود الأمراض الوبائية الخبيثة ولا سيما التيفود الذى فتك بالصليبيين فتكا ذريعا.. وأمام ذلك الموقف المؤذن بأوخم العواقب اجتمع الملك الفرنسى بقادة جنده وانتهى نقاشهم بضرورة التقهقر إلى دمياط وفى نفس الوقت تقوم المراكب الصليبية بحمل الجرحى والمرضى وأن تكون عودة الجميع عن طريق البرمون وفارسكور .

وبدأت القوات الصليبية تتقهقر براً ونهراً في أوئل ابريل سنة ١٢٥٠م. واهتبل الجنود الأيوبيون الفرصة فقد خرجوا من المنصورة لمطاردة الصليبين ووضع العراقيل فى طريق تقهقرهم ثم تطورت المطاردة إلى إحكام محاصرة الجيوش الصليبية الهاربة .. ووقعت الهزيمة الشنعاء بالجيش الصليبى وكان الملك الفرنسى مريضا متهالكا لا يقوى على النهوض ليعتلى فرسه . فكان أ ن التسليم إنقاذا لمن بقى من جنوده . ثم حملت ثلة من الجنود المسلمين الملك الفرنسى أسيرا مكبلا بالسلاسل إلى المنصورة حيث سجن مدة بدار القاضى ابراهيم بن لقمان .

وجاء التسليم مشروطا بأن يرحل الصليبيون عن دمياط رحيلا تاما وأن تبتعد المراكب الصليبية عن الشواطى المصرية فى الحال وأن يدفع الملك فدية حدد مقدارها وموعد دفعها .. وكذلك يدفع كل من كبار الصليبيين فدية عن نفسه هو .. فإذا تم ذلك أطلق سراح الملك وكبار الصليبين وكذلك جمهور الأسرى وقد تم الاتفاق على اطلاق سراحهم ..

وجاءت نهاية الدولة الأيوبية فى أعقاب هذا النصر المبين .. فقد عمد المماليك وشجر الدر إلى القضاء على تورانشاه الذى لقى مصرعه فى فارسكور سنه ١٢٥٠ م ..

المماليك يواصلون

دولة المماليك

١- المظفر قطز

٢- الظاهر بيبرس البندقدارى

* * *

كان عماد الجيش الأيوبى ، كما كان عماد الجيش العباسى (العصر العباسى الثانى) هم المماليك الذين جئ بهم من أماكن شتى من وسط آسيا . وكانوا يأتون بهم أطفالا أو صبية صغاراً فيتولاهم أولو الأمر بالتربية الإسلامية : حفظ القرآن الكريم ، ومعرفة السنة النبوية الشريفة والتفقه فى الشريعة الإسلامية على أساس المذهب السنى .. وكأساس أولى كانوا يتعلمون اللغة العربية ويحفظون الكثير من الشعر العربى .

وكان هؤلاء المماليك وقد نشئوا تنشئة إسلامية قد صار الإسلام حبهم، وعقيدتهم وصار الوطن الاسلامى وجودهم وحياتهم وكرامتهم وشرفهم ومن ثم اتفقت غيرتهم على الاسلام مع شجاعتهم فى القتال مع معرفتهم بفنونه وأساليبه وأسلحته .. فكانوا بحق الذائدون عن الإسلام فى وقت تدفق فيه الصليبيون على المنطقة العربية تحركهم حمية دينية متطرفة وجاهلة طائشة لاستعمارها واستغلالها واستعباد أهلها وإن شاءوا أن يبيدوهم فلن يحجموا . وكان ذلك هو الدافع الأصلى والأساسى للصليبيين من يوم أن وطئت أقدامهم الأرض العربية إلى اليوم .. وان اختلفت الشارات والسياسات والبواعث المعلنة .

وكما ابتليت الأمة العربية بالصليبيين فقد ابتليت بالمغول الذين كانوا كارثة على الإسلام والحضارة الإسلامية .. ومن هنا صارت الأمة الاسلامية



وهى تواجه عدوين لدودين: الصليبيون والمغول وقد تعاونا معا على القضاء على الإسلام . ولذلك كانت رسالة المماليك ثقيلة التبعة باهظة التكاليف.

فعندما بسط المغول كلمتهم على بغداد حاضرة الأمة الإسلامية فـــى العالم كله ، وكان ذلك فى فبراير سنة ١٢٥٨ م ، فإن إراهبهم الدموى البشيع قد خلق حالة من الرهبة والخوف فى مزاج من الحزن فى العالم الاســـلامى من شرقه الى غربه . وتوجس المسلمون فى الشام ومصر شراً من المستقبل. فقد كانوا يشعرون وكأن الخطر المغولى الداهم يقرع أبوابــــهم . ومــن ثــم أدركوا أنهم لابد أن يتقاربوا وأن يتحدوا فى جبهة واحدة تحت قيـــادة قـــادرة على مواجهة الخطر ..

وأسرع أحد أمراء المماليك وهو سيف الدين قطز الذى كـــان نائبــا للسلطان فى مصر فنصب نفسه سلطانا على مصر والشام بحجة أن المنصور بن أيبك أخر المنتسبين إلى الأيوبيين صغير ليست لدية القـــدرة ولا الكفـاءة على تصريف شئون الدولة الأيوبية وأنه :" لابد من سلطان قاهر يقاتل هـــذا العدو"..

ولما أصبح خطر المغول على حلب وشيكا فـــإن صاحبـــها النـــاصر يوسف ، طلب النجدة من المغيث عمر صاحب الكـــرك ، والمظفــر قطــز صـــاحب مصر .. وفى هذا الموقـــف العصيــب أظـــهر الأمـــير بيـــبرس البنرقـــدارى أحد كبار أمراء المماليك ، وكان وقتها فى دمشق وكان صاحب نخوة وشهامة إسلامية - أظهر غيرة فى مواجهة المترددين والمتخـــاذلين . فعندما أظهر الأمير زين الدين الحافظ التخاذل والتهرب فأعلن فـــى اجتمـــاع للأمراء أنه لتجنيب البلاد ويلات الحرب فإنه يستحسن الاستســـلام لـــهولاكو وجيشه . فما كان من بيبرس إلا ان ثار ولطمه وسبه قائلا :" أنتم سبب هلاك المسلمين".. وكان أن أعلن بيبرس أن يتناسى الجميع أحقادهم وخصوماتـــــهم وأن يدركوا تماما أن الإسلام فى خطر .. ومن هذا المنطلق مـــد يـــده إلـــى

المظفر قطز الذى اصبح سلطانا على مصر والشام وسار إلى غره ومن غزه أرسل إليه أنه يطلب منه الأمان وأنه على استعداد للتضافر معه فى حرب المغول.

فكان رد قطز أنه رحب به واستقبله فى حفاوة وإكرام ، وكان ذلك فى اوائل سنة ١٢٦٠ . وفضلا عن ذلك منحه ولاية قليوب وما حولها من قرى تابعة ..

وإن هى إلا أيام حتى شن المغول غارتهم الوحشية على حلب ودمشق وغيرهما من مدن الشام .. وفى أثناء الهجوم غادر هولاكو الميدان عائدا إلى قاعدة المغول فى قراقورم على أن يقوم كتبغا نائبه بمهمة القيادة العامة.

ونشير هنا الى ان هولاكو سبق له أن بعث برسالة تهديد إلى الأمير قطز فى مصر ينذره فيها بالويل والثبور من عواقب المقاومة ، وأن عليه ان يسلم قبل فوات الآوان .. ومما جاء فى هذه الرسالة :" ولكم بجميع البلاد معتبر وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ . فنحن لا نرحم من بكى ولا نرق لمن اشتكى .. فأى أرض تأويكم وأى طريق تنجيكم ، وأى بلاد تحميكم؟ فما من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال ؟

ولما وردت هذه الرسالة الى قطز فإنه عقد اجتماعا خاصا للآمراء استشارهم فيه عن كيفية الرد على تلك الرسالة فاستقر رأى الجميع على أن الجهاد فى سبيل الله هو الرد الواجب .. فما كان من قطز إلا أن قبض على رسل المغول وقتلهم ثم علق رءوسهم على باب زويلة :" فكانت هذه الرءوس أول ما علق على باب زويلة من رءوس التتار"

ولما ان وصلت مقدمة الجيش المغولى إلى غزة والخليل فإنهم اقترفوا مآثم كثيرة فقد :" قتلوا الرجال وسبو النساء والصبيان واستاقوا من الأسرى

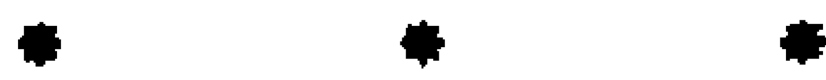
والأبقار والأغنام والمواشى شيئا كثيرا".. ثم تصدى قطز للمغول بأن أرسل طليعة الجيش المصرى فى أواخر يوليو سنة ١٢٦٠ ، إلى غزة يقودها الأمير ركن الدين بيبرس " ليتجسس أخبار التتار ".. وإذ كانت مقدمة الجيش المغولى عند غزة فإن "بيدرا" قائدها أرسل إلى كتبغا فى بعلبك يخبره بأن الجيش المصرى قد وصل وأنه يستنجد به لمواجهته غير أن بيبرس أسرع بشن الهجوم على المغول قبل أن تصلهم النجدة فهزمهم وتعقب فلولهم حتى نهر العاصى .

ولما وصل قطز بالجزء الرئيسى من الجيش صحبه بيبرس وسارا بجوار الساحل وبعدها توجهت قواتهما شرقا عبر الجليل إلى الأردن لانتزاع دمشق من المغول .. ولما أن وصلت كتبغا أنباء هزيمة قواته عند غزة فإنه جاء إليها " وكأنه بحر من اللهب بسبب الغيرة والغضب ".. ثم قادها لملاقاة جيش المسلمين وكان اللقاء عند قرية عين جالوت – بين بيسان ونابلس – فى أوائل سبتمبر سنة ١٢٦٠ ، وعند المواجهة اصطنع السلطان المظفر قطز خدعة عسكرية كانت موفقه كل التوفيق . ذلك أنه دبر للمغول كمينا خطيرا ، فقد أخفى معظم الجيش بين الأحراش الكثيفة والأشجار المتشابكة التى كانت تحيط بقرية عين جالوت .. أما طليعة الجيش وكانت بقيادة بيبرس فإنها استمرت فى طريقها لمواجهة المغول وانطلت الحيلة على كتبغا الذى أسرع بالانقاض على بيبرس ورجاله . وفى هذه اللحظة باغت الجزء الرئيسى للجيش – وقد خرج من بين الأحراش والأشجار – المغول من كافة الاتجاهات وفى هذه الموقعة – موقعة عين جالوت – أبدى الجيش المصرى شجاعة خارقة .. ومما يروى أن قد أصاب الجيش فى لحظات القتال الأولى شيئا من الاضطراب مما دفع السلطان قطز إلى أن يرفع خوذته من على رأسه ويلقى بها على الأرض صائحا بصوت مدو :" وا إسلاماه" .. واندفع بنفسه على العدو الذى ولى الأدبار .. وكان النصر ..

ولتقدير دور بيبرس فى هذه المعركة المصيرية فإننا نقول : إن بيبرس هو الذى قاد فرقة المواجهة الأولى مع المغول فهو الذى تقدم الجند إلى غزة حيث أوقع بالقائد المغولى "بيدرا" هزيمة قاسية ، كما أنه هو الذى قاد طليعة المواجهة فى عين جالوت لاستدراج كتبغا ثم مهاجمته .. فضلا عن أنه أظهر أثناء المعركة شجاعة كبيرة وفروسية خارقة فكان بموقفه القتالى هو قطب المعركة .. ومما يدل على اعتزاز بيبرس بدوره فى هذه المعركة أنه أقام نصبا تذكاريا لتخليد انتصار المسلمين فى عين جالوت وقد سمى ذلك النصب :"مشهد النصر" وهو يعد المثال الوحيد الذى خلدت به المعارك فى الإسلام .

وبهذا النصر العظيم أصبح السلطان المظفر قطز صاحب الكلمة العليا فى بلاد الشام كما خشيت البقية الباقية من البيت الأيوبى من التصدى له أو مناوأته .. فكان دخول قطز دمشق فى موكب الظافرين مشهداً عظيما ، وجاء استقباله من جماهير المسلمين استقبالا عظيما كذلك.

وبعد ذلك الاستقبال أخذ قطز يصرف شئون الشام وينظم إدارته.
ثم تأهب لدخول القاهرة التى استعدت لاستقباله ، ولكن للأسف الشديد لم يقدر له أن يسعد بتلك اللحظة فقد نشب خلاف بينه وبين بيبرس" ويظهر أن بيبرس هو الذى افتعل ذلك الخلاف أو تلمسه فكان أن قتل قطز وأصبح هو سلطان مصر والشام وكان دخوله قلعة الجبل فى يوم ٢٣ اكتوبر ١٢٩٠ إعترافا رسميا من كل القوى بسلطته.



بهذا يمكن القول بأن بيبرس هو مؤسس دولة المماليك التى خلفت دولة الأيوبيين .. فوقع عليه واجب الجهاد الاسلامى ضد المغول والصليبيين ولم يكن فى استطاعة بيبرس أن ينهض بتلك التبعة الجسيمة إلا



بعد أن يقضى تماما على المناوئين له والثائرين عليه .. وبعد أن أجهز على الخصوم وأصبحت له السلطنة خالصة فإنه دعم مكانته بما هو تدعيم لدولة المماليك فقد أحيا الخلافة العباسية فى مصر باستقدام أحد العباسيين . فكان ذلك هو السند الإسلامى الذى جعل الجميع يهنئونه عليه ويذكرونه له بالتبجيل والتعظيم .

وقد اصطنعَ بيبرس سياسة خاصة فى تعامله مع القوى الخارجية وفى معالجته لعلاقاته السياسية مع الدول المحيطة أو مع القوى المحيطة .. فقد عمل على أن يحمى حروبه بمعاهدات واتفاقيات مع الدول والقوى المحيطة لتكون سندا لجبهته ولتعطية الحرية الآمنه فى تحركاته العسكرية .. فقد عقد بيبرس مع الإمبراطورية البيزنطية ، وهى العدو التاريخى للصليبيين بالشام، معاهدة صداقة وعدم اعتداء إذ لما كانت غايته أن يستولى على انطاكية فإنه أراد بهذه المعاهده أن يمتنع البيزنطيون عن الاستيلاء عليها لا سيما وأنهم كانوا على خلاف مع أمرائها .. ولهذا فإنه أرسل أحد أمرائه وهو الامير فارس الدين أقوش المسعودى رسولا إلى الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن باليولوجس .. فأكرم الإمبراطور رسول السلطان واحتفى به أيما احتفاء كما أبان له أنه يقدر الإسلام ويحترم مقدساته ودليل ذلك أنه جدد مسجد القسطنطينية الذى كان الصليبيون قد ضربوه فى الحملة الصليبية الرابعة ...

وبالاضافة إلى البيزنطيين وتحالفه معهم فإنه سعى إلى استدامة علاقات المودة والصداقه والتحالف مع حكام جزيرة صقلية . ولذلك أرسل السلطان بيبرس بعثة سياسية تحمل الكثير من الهدايا إلى "مانفرد" ملك صقلية سنه ١٢٦١ . وجاء رد "مانفرد" يدل على الكرم واستجابة لبواعث الصداقه . وقد بلغت روابط الأخوة بين الطرفين غاية ازدهارها فى عهد الملك شارل



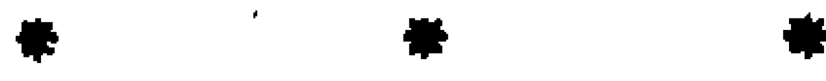
الأنجوى الذى تولى الحكم بعد وفاة "مانفرد" وكان ذلك من عوامل رفع مكانة بيبرس وفى نفس الوقت تضييق دائرة الحصار حول الصليبيين بالشام .

وفضلا عن انتهاج سياسة المهادنة والتحالفات فقد تميزت تحركات بيبرس بالنشاط المثير بحيث يصعب التكهن بخططه وتحركاته . فإذا ذهب إلى الإسكندرية مثلا للتفتيش فإنه لا يلبث أن يرجع إلى دمشق بغير ان يعلم أحد واذا أعلن انه سيقابل المغول فربما تحرك إلى الصليبيين وقد صدق الشاعر حين قال فيه :

يوما بمصر ويوما بالحجاز وبالشـ ... سام يوما ويوما فى قرى حلب

كما تميز بيبرس بالحسم السريع الذى لا يعرف التردد والتوجس لكنها المهادنة إذا كانت هى الأصلح فى تقويم الموقف العسكرى..

ثم فوق هذا كله ايمان عميق بالله ، وحب مكين لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. وحمية إسلامية جسورة لا تعبأ بما يصيبها فى جهادها من مشاق .



وترجع الشرارة الأولى للحرب بين السلطان بيبرس والصليبيين الى الغارة التى شنها واحد من أمرائه على ضاحية من ضواحى أنطاكية سنة ١٢٦٠، فخشى الصليبيون عاقبة ما يحدث بعد ذلك فبعثوا بوفد منهم لمقابلة السلطان يعرضون عليه الصلح فحدد لهم شروطا لم يقبلوها فحقرهم وأزرى بهم .. ويبدو أن بيبرس تريث فى شن هجوم واسع على الصليبيين فى الوقت الذى كان يعمل فيه على تثبيت دعائم حكمه وسلطانه حتى إذا تمكن من معالجة مشكلاته الداخلية ثم نجاحه فى إحيائه الخلافة العباسية بمصر ، فإنه فى سنة ١٢٦٣ ، أخذ يستعد للقيام بهجوم كاسح على الصليبيين فى الشام، "فتوجه بكلية الى الفرنج" .. واستهل تحركه من غزة نحو جبل الطور

القريبة من عكا . وما كاد الصليبييون يتسامعون بهذا التحرك حتى أصابتـــهم رعدة الوجل ، وبعثوا إلى السلطان بوفد أظهر خضوعه ورجوعه عما بـــدر منه . كما أعلن تمسكه بالهدنة التى عقدها معهم . وبعد أن وبخـــهم بيـــبرس سألهم" ما تقولون ؟" قالوا " نتمسك بالهدنة التى بيننا " فرد الســلطان " لــم لا كان هذا قبل حضورنا الى هذا المكان وانفاق الأموال التى لو جرت لكـــانت بحارا ؟" .

وطفق رسل الصليبيين يلتمسون صفح السلطان عنهم ويتطلعون إلـــى "مـــراحمه" وأن يأخذ عليهم المواثيق والعهود التى ترضيه والتـــى يتعـــهدون فيها بإطلاق سراح أسرى المسلمين. غير أن بيبرس لم يســـتمع لضراعتـــهم وكان أن قال لهم فى خفاء واضح النية :" كان هذا قبل خروجى من مصر فى هذا الشتاء وهذه الأمطار ووصول العساكر الى هنا ".

ثم استهل بيبرس هجومه الكاسح الشامل بعدة هجمات متفرقة علـــى الصليبيين ، كان الهدف من ورائها أن يتعرف على المواقع القوية والمواقـــع الضعيفة فى تحصيناتهم . فوجه الأمير علاء الدين طيبرس بفرقة من الجنـــد الى الناصرة فهدم كنيستها دون أن :" يتجاسر أحد من الفرنج أن يتحرك".

ثم وجه الأمير بدر الدين الأيدمرى بفرقة أخرى الـــى عكـــا فشنتـــا غارتين متتاليتين الأولى تمكنوا فيها من اقتحام أبوابها ، وفى الثانية اســـتولوا على أعداد كبيرة من المواشى.

وحتى يتأكد بيبرس بنفسه من إمكانية التعامل مع تحصينات عكا فإنه ذهب اليها . ويذكر المؤرخون أن السلطان طاف بأسوار عكا من ناحية الـــبر وكلـــف بعض رجاله بحصار برج للصليبيين كان قريبا منهم فشرعـــوا فـــى نقبه وما أن عاد الى الطور حتى علم بأن الصليبيين أخذوا يحفرون الخنـــادق ويقيمون التحصينات قرب عكا فخرج ثانية إلى عكا وردم رجالـــه الخنـــادق وهدموا الأبراج المحيطة بها وحرقوا ما حولها من أشجار كما هاجموا أبواب

عكا .. وعندما شاهد بيبرس الصليبيين وهم يفرون داخل أسوار عكـــا فقــد ساورتـــه الرغبة المحمومة فى أن يستولى على المدينة .. ثـــم أحجـــم عـــن التنفيذ لأنه وجد أن استعدادته لم تكن كافية بما يكفل النصر فى هـــذا العمـــل العسكـــرى الكبير .. وقد ألمح المقريزى الى ذلـــك عندمـــا قـــرر أن غايـــة السلطـــان من الأعمال الحربية التى شنها كانت :" كشف مدينـــة عكـــا فـــإن الفرنج كانوا يزعمون أن أحدا لا يجسر أن يقرب منها".

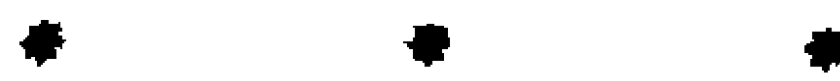
غير ان بيبرس لم يتلبث طويلا أمام عكا فصار يتنقل بيـــن المواقـــع الصليبية فى فلسطين :" وكشفها مكانا مكانا".. فذهب الى الناصرة الصليبيـــة فى فلسطين ورأى تدمير كنيستها وبعدها انتقل الى القدس وأصدر أمره بتجديد المسجـــد الأقصى واصلاح ما خرب منه .. ثم غادر القـــدس الـــى حصـــن الكـــرك فانتزعه من أصحابه وأمده بالسلاح والمؤن .. وفجـــأة رجـــع الـــى مصر فى أغسطس سنة ١٢٦٣م ، للقيام بحركة تفتيشية فى إقليـــم البحـــيرة والاسكندرية .. وخلال جولته التفتيشية تلك جاءته الأخبار بأن المغول شنـــوا غارة على البيرة فوجه الأمير عز الدين إيغان الى الشام وبعده أرسل الأمـــير جمال الدين المحمدى تدعيما للموقف العسكرى .. حتى إذا كان ٢١ يناير سنة ١٢٦٥ ، انطلق بيبرس الى الشام وما إن وصلها حتى أبلغوه بـــأن المغـــول رجعوا عن البيرة ، آنئذ أصر على مهاجمة الصليبيين وابتدأ معركته بمهاجمة قيســـارية فأقام المجانيق على أسوارها وفجأة هاجم المدينة فلم تحتمل اكـــثر مـــن أسبوع فسلمت فى ٥ مارس سنة ١٢٦٥ :" فتســـلق المســـلمون مـــن الأسوار وحرقوا الأبواب ودخلوها من أعلاها وأسفلها وأذن بالصبح عليها ".

وقد جاء الاستيلاء على قيسارية ضرورة استراتيجية ذلك لأنها تتحكم فى المواصلات الإسلامية التى تربط بين مصر والشام ثم أنها حجر عثرة فى التحركات العسكرية فى فلسطين آنئذ صمم بيبرس بعد الاســـتيلاء عليـــها أن يدمرها فهدمها وأسهم هو فى عملية الهدم .

وقد حدث أنه فى الوقت الذى كان فيه المسلمون مشغولون بمحاصرة قلعة قيسارية أن وجه بيبرس فرقة من الجيش يقودها الأمير شـهاب الدين القيمرى الى بيسان ، وفى ذات الوقت وجه مجموعة من العربان (التركمان) الى عكا فتمكنوا وهم على أبوابها من أسر بعض الصليبيين . وأكثر من هذا فإن بيبرس وجه جزءا من قواته إلى حيفا وعندما شاهدهم الصليبيون فروا من المدينة وقلعتها واحتموا بسفنهم آنئذ ضرب المسلمون حيفا وقلعتها بالمجانيق وأحرقوا أبوابها ورجعوا بأسلاب من الأسرى والغنائم .. وفى نفس الوقت هاجم بيبرس بنفسه مدينة عثليت :" فخربها وقطع ما حولها من أشجار ثم عاد الى قيسارية ".

ثم انطلقت جهود بيبرس نحو قلعة أرسوف ، وهى قلعة منيعة تقع الى الجنوب من قيسارية ، فقام بفرض حصار على المدينة وحفر حولها الخنادق ثم اندلع القتال ، وقد أبدى بيبرس من ضروب الشجاعة ما جعل المؤرخين يشيدون بها :" فكان يمشى بمفرده وفى يده ترس تارة فى السرب وتارة فى الأبواب التى تفتح وتارة على حافة البحر يرامى مراكب الفرنج .. وكان يجر فى المجانيق ويطلع فوق الستائر يرمى من فوقها ورمى فى يوم واحد ثلثمائه سهم بيده. وحضر فى يوم إلى السرب وقعد فى رأسه خلف طاقة يرمى منها فخرج الفرنج بالرماح وفيها خطاطيف ليجذبوه فقام وقاتلهم يداً بيد .. حتى قتل فارسين من الفرنج وكان يطوف بين العساكر فى الحصار بمفرده ولا يجسر أحد أن ينظر إليه ولا يشير إليه بأصبعة".

وبعد ذلك القتال الضارى سقطت أرسوف فى ٢٦ إبريل سنة ١٢٦٥



..وفجأة غادر بيبرس الشام يوم ٢٩ مايو سنة ١٢٦٥ ، وفجأة رجع الى الشام فى ١٢ مايو سنة ١٢٦٦ .. ثم اتخذ سبيله الى عين جالوت ومنها

شن رجاله عدة هجمات خاطفة على الإمارات الصليبية مثل صــور وصيــدا بقصد اختبار تحصيناتها .. ثم وصلت بيــبرس أنبــاء فحواهــا أن بوهيمنــد السادس أميــر انطاكية شن غارة على مدينة حمص فكـــان رد بيــبرس ان أرســل اليها جيشا يقوده الأمير جمال الدين أيد غدى العزيـــزى ، والامــير سيف الدين قلاون الألفى لدعم قوة حمص العسكرية.. أما بيبرس فإنه قصــد عكا ومنها اتجه الى صفد ، وفيها تجمعت الجيوش الإسلامية ببلاد الشام .. ثم باغت صفد بالهجوم العنيف الذى أرغم به الصليبيين على التسليم وكان ذلــك فى ٢٣ يونيو سنة ١٢٦٦ ، طالبين الأمان فأمنهم شريطة :" ألا يخرجوا بمال أو سلاح وألا يتلفوا شيئا من ذخائر القلعة " ثم أمر جنده بتخريــب القلعــة ، على أنه عاد وبناها من جديد فى العام التالى على نظام عسكرى خاص ..

ومما يستحق التنويه هنا أن بيبرس دون بعض العبارات ذات الدلالــة الخاصة التي تصور شخصيته وتقديره لذاته ، ومن هذه العبارات ": ســلطان الإسلام والمسلمين .. سيد التتار .. فاتح القلاع والحصون والأمصـــار وارث المــلك .. سلطان العرب والعجم والترك .. اسكندر الزمان .. صاحب القرآن أبو الفتح بيبرس قسيم أمير المؤمنين ".. هذا فضلا عما سجله على أسوار تلك القلعة من تاريخ جهاده ومعاركه مع الصليبيين..

وبعد ان غادر الصليبييون صفد وجه بيبرس جماعات من دمشق اليها ليعمروها كما أنه تأكيدا لطابعها الاسلامى بنى بها مسجدين .. ثم رجع الــى القاهرة فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٢٦٦ .. ثم غادرها متجها الى غــزة فــى ٢٥ مارس سنة ١٢٦٧ .. وما أن علم الصليبيون بوصوله إلى غزة حتى ركبــهم الفــزع فكان أن اسرعوا إليه محمليــن بالــهدايا ومجموعــة مــن أســرى المسلمين.. وبعد هذا صمم بيبرس على شن هجوم على عكا فدبـــر خدعــة حربية كان المقصود منها ان يأخذ عكا على حين غفلة من أهلــها :" فــألبس بعض جنوده ملابس فرسان الداوية ، وألبس البعض الأخر ملابس الاسبتارية

فكان أن نجحت الخطة فلم يشعر الصليبيون الا والمسلمين على أبواب عكا وعندئذ وضع بيبرس السيف فيهم " وصارت الرءوس تحمل إليه من كل جهة ".. وهنا تسابقت القوى الصليبية بالشام فى الذهاب إلى السلطان " تعتذر وتعلن التوبة والندم وتطلب الصلح "..

وأمام هذه الرجوات الصلبية فإن بيبرس وجد أن من السياسة ألا يرفضها جملة وذلك حتى لا تتكتل القوى الصليبية ضده فرأى أن من الأحكم ان يعقد صلحا مع بعضها ويترك البعض الآخر إلى حين ليعطى لنفسه الحرية والحق فى مهاجمة ذلك الآخر والقضاء عليه على مراحل .. وقد كان، فعقد بيبرس صلحا مع أمير بيروت ، وصاحب صور كما عقد صلحا مع فرسان الاسبتارية فى حصن الأكراد وفى المراقب .

وكانت مدة الهدنة مع جميع القرى التى اصطلح معها عشر سنوات ، وعشرة أشهر وعشرة أيام ، وعشر ساعات.

ثم رجع بيبرس إلى القاهرة ولم يكد يستقر بها لفترة وجيزة حتى حملت اليه الأنباء خبر إغارة التتار على حلب فعجل بمغادرة القاهرة وكان ذلك فى ١٩ فبراير سنة ١٢٦٨ ، متجها إلى الشام ولمخادعة التتار فإنه فضل ان يغير على الصليبيين فحاصر يافا ثم استولى عليها ثم هدم قلعتها هدما تاما وأرسل أخشابها ورخامها الى القاهرة حيث استخدم فى بناء مسجده .. وبعد يافا توجه بيبرس إلى الشقيف ارنون وهو من حصون الداوية بالشام قوى منيع على المهاجمين . وتروى المصادر العربية قصة تدل على ذكاء بيبرس وسعة حيلته ".. اذ وقع فى يده وهو قائم على حصار الشقيف خطاب مرسل من الصليبيين الى إخوانهم بالشقيف يحثونهم فيه على الثبات والمقاومة حتى لا يتمكن المسلمون من أحد الحصون".

ولم يكد بيبرس يطلع على مضمون هذه الرسالة حتى استدعى من يكتب بالفرنجية وكلفه بأن يكتب رسالة الى أهل الشقيف تحوى الأمارات التى



استفادها من الخطاب الذى وقع فى يده ويتضمن هذا الخطاب تحذيرا من أهالى عكا الى مقدم الشقيف من بعض آعوانه . كما ارسل بيبرس خطابا اخر بالطريقة نفسها الى اولئك الأعوان يحذرهم من مقدم الشقيف .. وبهذه الخدعة نشب الخلاف بين الصليبيين وتبادلوا التهم .

هذا فى الوقت الذى كان فيه جيش المسلمين يحكم قبضته على الصليبيين جميعا . وهنا وجد الصليبيون ان نجاتهم فى أن يسلموا الحصن إلى بيبرس وتم تسليمه فى ١٥ ابريل سنة ١٢٦٨. وحسب ما جرت عليه خطة بيبرس فى المهادنة فإنه لم يهادن عكا وطرابلس وانطاكية فكانت ميدانه لتوجيه ضربات موجعه الى الصليبيين الذين كانوا فى المواقع الشمالية والجنوبية .. فبعد ان انتهى بيبرس من الاستيلاء على حصن الشقيف أرنون ، فإنه سار نحو الشمال من طرابلس وصافيتا وأنطرسوس فقدم له أهلها فروض الطاعة والولاء وسلموا بإمارته عليهم .. ثم اتجه الى انطاكية .. ولمدينة انطاكية تفرد تاريخى خاص ، فهى من المدن الكبيرة المحصنة تحصينا قويا فشلت أمامها جهود الأباطرة البيزنطيين لانتزاعها من الصليبيين . وهنا لجأ بيبرس الى سياسة التهديد ، فأهالى انطاكية وقوتها العسكرية يعرفون من هو بيبرس ، فكتب إليهم :" يدعوهم وينذرهم بالزحف عليهم وفاوضهم فى ذلك مدة ثلاثة أيام وهم لا يجيبون ". وبعدها لم يجد بداً من الهجوم الشامل على المدينة وقلعتها .. وتمكن رجاله من دخولها. وأمامهم ولت القوة الصليبية الأدبار واعتصمت بالقلعة ثم أرسلت إلى السلطان تطلب الأمان فأمنها . وبذلك انتزع بيبرس أنطاكية من الصليبيين وكان ذلك فى اواخر مايو سنه ١٢٦٨ .. وقد اعقب التسليم تدمير المدينة وإحراق قلعتها وقتل الكثيرين من أهلها بعد أن أظهروا شيئا من التمرد .

والحق أن وقوع انطاكية فى أيدى المسلمين كان فتحا عظيما فقد ابتهج به المسلمون وتبادلت الأقطار الشامية والمصرية التهنئة كما أقيمت



الاحتفالات ورفعت الزينات .. أما عند الصليبين فقد كان سقوط انطاكيــة لا كارثة عسكرية فحسب لأنها كانت ذات قيمة رفيعة فــي التــاريخ المســيحى الأول فى بلاد الشام هذا الى الجانب أنها كانت من اولى الإمارات التى أسسها الصليبيون فى الشرق فى الحملة الصليبية الأولى سنه ١٠٩٨ ، وإنها منذ ذلك الوقت ظلت بمثابة القلعة الكبرى للصليبيين فى بلاد الشام . ومن ثــم كــان سقوط انطاكية فى يد بيبرس سنة ١٢٦٨ ،بشارة لسقوط الصليبية فى الشــام وفاتحة لاستنهاض حمية المسلمين لشن حملات متتابعة على المواقع الصليبية تلك الحملات التى كللت خاتمتها سنه ١٢٩١ ، بطرد الفلول الصليبية الباقيــة فى الشام طرداً نهائيا. فليس من الغريب إذن أن يقع خبر سقوط انطاكية فــى يد المسلمين وقع الصاعقة علي الصليبين وهنا دب الذعر فى صفوفهم فكــان منهم من جد فى الهرب الى البلاد الصليبية القريبة ، وكان منهم مــن فضــل الاستسلام للسلطان بيبرس طالبا مرحمته وعفوه .

وأمام تلك الكارثة التاريخية المروعة لم يجد صاحب عكا بــداً مــن طلب الصلح فبعث بوفد من رجاله محملا بالهدايا . فكان الاتفاق بين الطرفين على هدنه مدتها عشر سنوات ".. على أن تكون اعمال عكا مناصفــة بيــن بيبرس وصاحبها فى حين تظل حيفا للصليبيــن ويســتولى الســلطان علــى المرتفعات المحيطة بصيدا".

وفى ١٨ نوفمبر سنة ١٢٦٩ ، قام بيبرس بجولات تفقدية متعددة فى جميع أنحاء مصر للوقوف بنفسه على أحوال الناس فى معيشتهم ومدى شيوع العدل بينهم . وفى أثناء انشغاله بجولاته تلك وصلته الأخبار بإغــارة التتــار على الساجور القريبة من حلب . فسافر فى الحال الى الشام فوصل دمشق فى ديسمبر ..

وفى دمشق علم بأن الصليبيين والمغول قد تحالفوا على العمل ســويا ضد المسلمين وسلطنة المماليك . وأمام هذا التحالف لم يجد بيبرس مناصا من

أن يوجه ضربه قاصمة لأولئك الذين سولت لهم أنفسهم الاجتراء عليه . وكان من رأيه أن تكون الضربة الموجهة للصليبين المقيميين فى الشمال من بلاد الشام ولكنه فضل أن يتريث فى تنفيذ هذا الاجراء . فعليه أولا أن يهادن طائفة الاسماعيلية فقد صارت لهم قلاع كثيرة فى الجهات الشمالية كما أنهم على علاقة مصلحية قوية مع الصليبيين . ويعتبر المؤرخون هذا التهادن أو التصالح الذى قام بين بيبرس والاسماعيلية حركة دبلوماسية حصيفة إذ أنها تمكن السلطان من أن يحمى جانبه من أولئك الاسماعيلية الذين اصطنعوا الإسلام دينا لهم وهم يكيدون له كيدا .. وبهذه المهادنة يمكنه أن يتوجه بكليته إلى الصليبيين والمتحالفين معهم من المغول .

وفجأة عاد بيبرس الى القاهرة ليستكمل جولاته الإصلاحية .. ثم عاد إلى دمشق فى ٢٤ يناير سنة ١٢٧١ ، ثم غادرها إلى طرابلس .. وكانت عينه على هذه المدينة لأهميتها الكبرى ، ولما كان على علم تام بأنها قوية التحصين ، فكيف يتعامل معها؟ .. لقد رأى ألا يهاجمها مباشرة والأفضل أن يمهد للهجوم بأن يستولى على ما يحيط بها من حصون وقلاع ذات فائدة متتالية كبيرة . فإذا وفق فى هذا الإجراء أصبح من ليسير عليه ان يحكم حصاره حول طرابلس فكان أن استولى على صافيتا وكانت تحت إمرة الداوية وغيرها من الحصون والأبراج القريبة .. وفى فبراير سنة ١٢٧١ ، اتخذ السلطان أهبته لشن هجوم خاطف على حصن الأكراد الذى كان معروفا بمنعته وقوته وكان هذا الحصن تابعا لفرسان الاسبتارية، أمام تلك الاعتبارات العسكرية قام بيبرس بهجومه الخاطف والعنيف على حصن الأكراد فأعلنت حاميته التسليم فى أوائل إبريل .. وقد انهار الكثيرون من الصليبيين فى الحصون الأخرى عندما علموا بسقوط أقوى حصونهم . فمقدم فرسان الداويه في انطرسوس أنقذ نفسه فعرض الصلح على السلطان . وقام فرسان الاسبتارية فى حصن المرقب بنفس العمل فوافق بيبرس على الصلح



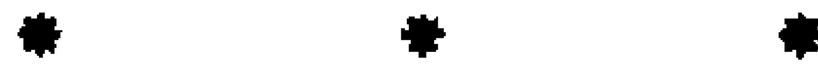
شريطة :" أن يكون له نصف ما يتحصل من بلادهم على أن تكون الهدنة بين الطرفين لمدة عشر سنين ، وعشرة أشهر وعشرة أيام ".

ولتضييق الخناق حول طرابلس أكثر فأكثر هاجم بيبرس حصن عكار شمال طرابلس وكان ذلك فى ابريل سنة ١٢٧١ ، وبهذا الهجوم أرغم حصن عكار على التسليم .. لم يبق سوى أن يشن بيبرس هجومه على طرابلس فاتبع سياسة التهديد علها تجدى فيجنب جنده تضحيات القتال فبعث إلى بوهيموند السادس رسالة ينصحه فيها بأن يتدبر مصير حصن الأكراد وحصن عكار .. فحتى يقى نفسه من ذلك المصير فعليه أن يسلم طرابلس قبل أن يفوت الأوان، فقال له ".. بهجومنا سوف تعرف كنائسك أن المنجنيقات تسلم عليها إلى حين الاجتماع عن قرب وتعلم أحياء فرسانك أن السيوف تقول إنها عن الضيافة لا تغيب لأن اهل عكار ما سدوا لها جوعا ولا قضت من ريها بدمائهم الوطر وما اطلقوا الا لما عافت شرب دمائهم وكيف لا وثلاثة أرباع عكار عكر" ؟

وأخذ السلطان ينشر قواته حول طرابلس وينظمها بأسلحته ويحدد لها خطة الهجوم .. ولكن وقع ما غير خطته وتقديره ، فقد علم أن الأمير ادوارد الانجليزى (صار فيما بعد ادوارد الأول ملك انجلترا) قد وصل إلى عكا ومعه قوه مكونة من بضع مئات من الفرسان ووجهته بيت المقدس ليقوم بالحج .. وهنا ساورت بيبرس الشكوك : إذ لماذا لا يكون قدوم ذلك الأمير بذريعة الحج إشارة إلى قدوم حملة صليبية كتلك التى جاءت من أوربا من قبل وهى الآن فى طريقها إلى الشام . ووزن بيبرس أموره فوجد أن من الأصلح الا يرفض عرض الصلح الذى عرضه عليه بوهيموند السادس صاحب طرابلس .. وعقد الصلح بين الطرفين على هدنة مدتها عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة ايام.

وكذلك جاءت اتفاقية طرابلس خاتمة للمعارك الواسعة التى قام بـــها بيبرس فى مجاهدة الصليبيين .

ثم قام بيبرس بعد ذلك بعمليتين محدودتين لهما أهميتهما : الأولى سنة ١٢٧١ ، وفيها تم الاستيلاء على حصون طائفة الإسـماعيلية فأنـهى بذلـك وجودهم فى أرض الشام .. والعملية الثانية كانت حمله شنها علــى قــبرص حتى تمتنع عن مساعدة الصليبين فى الشام .



أما عن الخطر الثانى الداهم الذى ابتليت به الأمة العربية فهو خطـــر المغول . وكانت سياسة بيبرس بالنسبة لحرب المغول والصليبيـــن – وقــد أشرنا إلى ذلك من قبل – أنه لم يحارب جبهة منهما دون الأخرى الى ريـــث ينتهى منها ولذلك كانت حروبه متراوحه بين هذا الطرف وذاك .. ونســتطيع أن نقول إن ها هنا غاية عسكرية مقصودة هى أن يجعل القوى المعادية فـــى حـــالة تأهب متصل وفى ذلك إرهاق شديد للجنود وقادتهم هذا فضـــلا عــن القلق الذى يعيشه القادة فلا يعرفون : متى وكيف سيكون الـــهجوم .. فربمـــا خرج بيبرس معلنا محاربة الصليبيين ثم يغير خط سيره فجاة ويتجه الى موقع مغولى، كما يحدث على نقيض ذلك.

وبالنسبة للمغول فقد كان لبيبرس خبرة كبيرة بحروبهم حتى قبـــل أن يصير سلطانا فقد واجه المغول فى غزة كما نازلهم وانتـصر عليهم فى عيـــن جالوت. وقد أعانته تلك الخبرة على أن يحدد لنفسه الأساليب التى يتبعها فـــى كل معركة.. ففى حربه مع المغول عندما صار ســـلطانا علـــم مـــن رســـله وجواسيسه ان قد اتفق أعداء العروبة والإسلام وهم مغـــول فـــارس والبابـــا ولويـــس التاسع ملك فرنسا وملوك أرمينيا الصغرى ، اتفق هـــؤلاء جميعـــا على ضرورة التعاون الصادق للقضاء على جميع البلدان العربيـــة واقتســـام

إماراتها غنيمة لهم .. ولقد كان هناك فرعان للمغول وهما أبنـاء عمومـة .. الفرع الأول وكان يتزعمة هولاكو وهو الطاغية المدمر الذى هبط كارثة على البلاد الإسلامية فأباد المعالم الحضارية فى العراق ودمر بغداد وأعمل السيف فى جماهيـر الشعب المسلم وقتل الخليفة المستعصم . ثـم اندفـع هائجـا لا تصده قوة نحو الشام فوصل غزة وعين جالوت فى فلسطين حتى قيض الله له جندا من جنود المسلمين اعطته الضربة الرادعة التى تراجـع بعدهـا عـن أغراضه وأهدافه .

والفرع الثانى هم مغول القفجاق أو القبيلة الذهبيـة . وكـان محـط تواجدهم بين بحر قزوين ونهر الفولجا .. وقـد انتـهجوا لأنفسـهم سياسـة مناهضة تماما لمغول فارس فقد دان بركة خان مغـول القفجـاق (١٢٥٦ - ١٢٦٧) بالإسلام وآمن به ايمان اليقين والحب .. وقد كره ما فعله هولاكـو بالبلاد الإسلاميه من قتل وتدمير ولا سيما قتله للخليفة العباسى .. وقد جـاء اعتناق بركة للإسلام فاتحة خير، فقد أسلم الكثيرون من مغول القفجاق ممـا كان سببا فى نشوب العداوة بينه وبين مغول فارس .. ولما أن أصبح مغـول القفجاق الذين أسلموا قوة لها وزنها وتأثيرها فقد أصبحوا سنداً قويـا للجبهـة الاسلامية ومن ثم نشأ تواصل وتعاطف بين بيبرس والمغول المسلمين . فقـد بعـث بركة خان برسله سنة ١٢٦٣ ، إلى السلطان بيبرس يحملون رسـالة منه جاء فيها :" فليعلم السلطان (الظاهر) أننى حاربت هولاكو الذى هو مـن لحمى ودمى لإعلاء كلمة الله العليا تعصبا لـدين الاسلام لأنه باغ والبـاغى كافر بالله ورسوله ".

ومما تجدر ملاحظته فى رسالة بركة خان أنه امتدح بيـبرس علـى إحيائه للخلافة العباسية فى القاهرة وعلى ما يبذله من جهود لتحريـر بغـداد وإنقاذها شعبا وعقيدة من أيدى مغول فارس .. ولقد أظهر بيبرس فى حرصه على تأكيد التواصل الإسلامى بينه وبين مغول القفجاق المسلمين على رؤيـة

سياسية بعيدة الآثار فى الموقف العسكرى الإسلامى فبهذا التناصر استطاع بيبرس أن :" يمنع قيام تحالف بين القوى المغولية فى الشرق الاوسط ضد دولة المماليك الناشئة فى مصر والشام ".. كما أنه فى نفس الوقت أبعد مغول فارس عن أن يخصوه باهتمامهم وحتى يكون همهم مواجهة مغول القفجاق الذين أسلموا.

ولقد امضى بيبرس فى القاهرة بعض الوقت ليصرف شئون البلاد ، وأثناء تواجده جاءه نبأ عاجل بأن مغول فارس أغاروا على البيرة (كان ذلك فى سنة ١٢٦٥) ، وفرضوا حصارا عليها لايقاعها فى أيديهم .. وعلى الفور نهض بيبرس فأطلق جيوشه إلى الشام على موجات متتابعة ثم قام هو بنفسه بالتوجه إلى مواقع القتال وكان ذلك فى نهاية يناير سنة ١٢٦٥ ، وبينا هو فى بلدة يبنى علم ان الملك المنصور صاحب حماة توجه إلى البيرة تؤازره القوات التى أرسلها فلما وجد المغول أن القوات الإسلامية المتجهة نحوهم لا يمكن التصدى لها أسرعوا فولوا الأدبار بعد أن تخلصوا من مجانيقهم وأغرقوا سفنهم فى الفرات . ورغم أن أنباء هذا الفرار المغولى كان مطمئنا إلا أن بيبرس لم يركن إليه فقد كان مقدراً تماما لأهمية الموقع الاستراتيجى للبيرة وما يمكن ان يجنيه عليها ذلك الموقع فى المستقبل من هجمات للتتار لأنها مركز رئيسى للعبور من شمال العراق إلى شمال الشام . وبهذا التقويم العسكرى لموقع البيرة أسرع بيبرس فأمدها بكل ما يلزمها من آلات وأسلحة ومواد غذائية تستعين بها حتى لو امتد حصارها عشر سنوات .. وأثناء تلك الاستعدادات مات هولاكو خان مغول فارس وكان ذلك فى سنة ١٢٦٥ ، وخلفه ابنه أبغا وكان على المسيحية وقد حرص من يوم توليه على أن يقوى صلته بالعناصر المسيحية فى الشرق والغرب وتأليف جبهة موحدة هدفها الفتك بالمسلمين فى بلاد الشام ومصر .. ولما كانت مشكلاته الداخلية والخارجية لم تسعفه بتشكيل تلك الوحدة الانتقامية فإنه لجأ إلى سياسة المهادنة

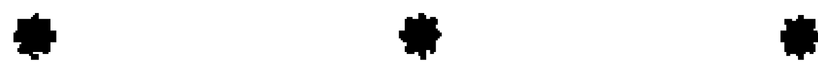


وجس النبض .. فبعث بوفد من عنده سنة ١٢٦٥ ، يحمل ثمين الهدايا وقد طلب عقد معاهدة صلح مع السلطان بيبرس .. غير أن بيبرس أظهر غيرة الإباء الإسلامى فأنف أن يصافح المغول أولئك الذين أصابوا الاسلام بكارثة لم يعرفها من قبل كما قتلوا خليفة المسلمين ووقفوا فى صف أعداء الاسلام .. غير أن أبغا عاد للصلح مرة ثانية فلم يقبل السلطان .. آنئذ لم يجد أبغا مفراً من أن يشن غاراته على المواقع الاسلامية ببلاد الشام وذلك بمساندة الصليبيين .. ثم سافر بيبرس إلى الاسكندرية (سنة١٢٦٩) فلم يمكث بها طويلا حتى تناهى إلى سمعه أن المغول أغاروا على الساجور - قرب حلب - " وأنهم واعدوا فرنج الساحل " ، أى تحالفوا مع الصليبيين على الإغارة معا على بلاد الشام . فوجه السلطان بيبرس الأمير علاء الدين البندقدارى بقوة كبيرة من الجنود :" وأمره أن يقيم فى أطراف بلاد الشام على أهبة لصد المغول ". وتدعيما للموقف القتالى للأمير علاء الدين فإن بيبرس ذهب إلى الشام على رأس قوة أخرى .. ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان فبمجرد أن وصل الى دمشق وصله نبأ هزيمة المغول وتقهقرهم بعيداً عن بلاد الشام.

فى هذا الوقت حملت الأخبار إلى بيبرس نبأ خروج الصليبيين من أرغونة لمقاتلة المسلمين بالشام يناصرهم المغول فى هجومهم غير أن السفن التى أقلتهم واجهت إعصاراً شديدا بددها وأغرق الكثير منها ففشلت الحملة .. ورغم تلك الهزائم التى أصابت أبغا فى غاراته على بلاد الشام فإنه لم يتعظ .. فكرر هجومه سنة ١٢٧١ ، فما كان من السلطان إلا أن قاد جيشه الى حلب كما وجه فرقا أخرى يقودها بعض أمرائه إلى شمال الشام والعراق حيث مدينة مرعش وحران والرها .. وفي حران تجرع المغول كأس الهزيمة.

وبناء على التحالف القائم بين الصليبيين والمغول فقد أسرع الصليبيون لمساندة المغول فهاجموا قاقون غير أن المسلمين أوقعوا بهم الهزيمة فردوهم على أعقابهم.

وحتى يكون جزاء الصليبيين رادعا فإن بيبرس أغار على عكا .. وتقديرا للموقف القتالى فقد أيقن الصليبيون أن موقفهم فى غاية الحرج وأن لا منقذ لهم إلا الصلح فكان أن وقعوا صلحاً مع بيبرس مدته عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام . وقد أدى ذلك الصلح إلى حرمان أبغا من حليف قوى فاضطر إلى أن يتقدم بطلب الصلح وكرر طلبه مرات عدة .. غير أن شيطان الطمع أغرى المغول بأن يغيروا على المواقع الإسلامية . فتوجه أبغا بجيوشه نحو البيرة ونصب حولها المجانيق وكان حصاره كافيا لإعاقة المسلمين عن تخطى نهر الفرات . ولم يتوان بيبرس – كما لم يتوان من قبل – فجمع الجيوش التى تكفى لإنقاذ البيرة وأخذ معه بعض السفن حملتها الجمال ليعبر بها الفرات . وفعلا عبر بيبرس وجنوده الفرات واستطاع بجحافله أن يوقع الهزيمة بالمغول وأن يردهم عن البيرة مدحورين .



وبعد أن فقد المغول أقوى حلفائهم وأخلص حلفائهم من الصليبيين صاروا يبحثون لهم عن حلفاء جدد لأن الصليبيين أصابهم الضعف وتمزقت وحدتهم . ومن ثم فليس من الصواب الركون إليهم أو الاعتماد عليهم فتوجهوا إلى سلاجقة الروم فخاطبوا زعيمهم معين الدين البرواناه فى شأن التحالف معهم لمحاربة المماليك – هذا مع العلم بأن بلاد سلاجقة الروم بآسيا الصغرى كانت واقعة تحت الحماية المغولية .. وأمام هذا التحالف الجديد – وكانت له خطورته بغير شك – فإن بيبرس أعد قوات كبيرة تكفى لمهاجمة بلاد سلاجقة الروم وكان ذلك فى سنة ١٢٧٧ ، .. وتم الهجوم



وكانت النتيجة أن تبددت القوات المغولية وحاقت بها الهزيمة القاصمة عند أبلستين في ١٨ إبريل .. ودخل بيبرس العاصمة قيصرية دخول الظافرين: "وجلس على تخت آل سلجوق".. وهنا أعلن معين الدين البرواناه استسلامه للسلطان بيبرس وقد خطب له على منابر العاصمة .. وكان من نتائج غزو بيبرس للأناضول أن عاد التحالف بين المغول ، والصليبيين وكان ليون الثالث ملك أرمينيا الصغرى أول المبادرين من القوى الصليبية في الشرق بالتعاون مع المغول فتعهد كل من ليون الثالث وأبغا على محاربة المسلمين بالشام للاستيلاء على أراضيهم وأن يخلصوا بيت المقدس من أيديهم كما تعهدا بالتعاون على إغراء البابا وملوك أوربا بتقديم العون لهما وذلك بإعداد حملة صليبية مكبرة لم يشهدها الشرق الإسلامي من قبل .. وفشل التدبير الصليبي المغولي فشلا كان هو الهزيمة .

* * *

ومن الجهات التي وجه اليها السلطان بيبرس اهتمامه جبهة أرمينيا الصغرى . ذلك أن هيثوم ملك أرمينيا لم يزدجر من نزول الهزيمة بالمغول في عين جالوت ، فأراد أن يجرب حظه مع بيبرس فهاجم عينتاب سنة ١٢٦٤ ، وقابله السلطان بجيش مؤلف من جنود حماه وحمص وجهه إلى حلب فهزم الأرمن هزيمة لم يعرفوها من قبل .. ولما كان هيثوم الأول قد فرض حصارا اقتصاديا على مصر فمنع عنها الخشب والحديد الذى يأتيها من آسيا الصغرى .. ولما كان أبغاخان مغول الفرس في حرب مع مغول القفجاق المسلمين ، فإنه - أي بيبرس - قد وجّدها فرصة لتوجيه ضربة قوية الى هيثوم . ففي صيف ١٢٦٦ ، وجه إليه جيشا يقوده الأمير قلاوون والملك المنصور صاحب حماه فهاجما أرمينيا الصغرى وأنزلا به وبكل حلفائه هزيمة نكراء في دربسك في أغسطس ١٢٦٦ . وبعد هذا النصر المبين شن الأمير

قلاوون سلسلة من الغارات على المدن الأرمينية المشهورة وهى: المصيصة، وأذنه ، وطرسوس وكذلك ميناء إياس .. وفى الوقت نفسه قصد الملك المنصور صاحب حماه مدينة سيس عاصمة أرمينيا الصغرى فاستولى عليها ودمرها تدميرا شاملاً ثم أشعل النار فيها .

ثم أيقن الصليبيون والمغول ان لا فائدة ترجى من وراء محاربة المسلمين ولا سيما وقد شغلتهما الأحوال الداخلية ببلادهما ..

* * *

وهكذا كان دور الظاهر بيبرس فى نصرة الإسلام

ثم جاء بعده من أتم المسيرة ونهض بالرسالة

* * *



مرحلة جديدة من مراحل الجهاد

كان قلاوون نعم الساعد الأيمن للسلطان بيبرس فقد بذل في سبيل توطيد سلطته كل عون وأظهر له غاية الإخلاص في مساعدته في كافة ميادين الأعمال العسكرية والاجتماعية .. هذا فوق شجاعته التي كانت مضرب الأمثال والتي تجلت في قتال الصليبيين والمغول والحرب في أرمينيا الصغرى .. حتى إذا ما لقى بيبرس مصرعه (مسموما) فقد تمكن قلاوون من الاستيلاء على السلطة غير أن الاستيلاء على السلطة لم يكن عملا سهلاً فقد ثارت في وجه قلاوون معارضات كثيرة من قيادات مملوكية كانت تزاحم لتفوز هي بمنصب السلطة وكان أقوى المعارضيين وأشدهم خصومة سنقر الأشقر نائب دمشق الذي أسرع فأعلن نفسه سلطانا وقد صادف استجابة واسعة في الشام وفلسطين .. فلم يجد قلاوون مناصاً من منازلة سنقر عسكريا فهزمه في موقعة حربية جنوبي دمشق كاد يقبض عليه فيها لولا أنه تمكن من الهرب فقد ذهب إلى بلاط إيلخان أبغا بن هولاكو يستنجد به في محنته .. في الوقت الذي كان فيه أبغا يحرص على إقامة تحالف بين الصليبيين والمغول لضرب المماليك والقضاء على سلطانهم ..

ولذلك فإن طلب سنقر الاشقر لقى قبولا فوريا من إيلخان الذي كان متلهفا على تقديم المساعدة لكل خارج على الحكم المملوكي في مصر والشام .. ومن هنا خف أبغا بأسرع ما يستطيع لإنقاذ سنقر . فقامت فرقة من جيشه بغزو شمال الشام في سبتمبر سنة ١٢٨٠ ، وأخذت في طريقها قرى كثيرة بجوار حلب .. آنئذ بادر قلاوون بالذهاب إلى الشام لصد الغزاة وكانت المفاجأة أن بعث قلاوون إلى سنقر يعرض عليه عودة التعاون بينهما



وتعهد فى مقابل ذلك أن يخصه ببعض المدن السورية فى الشمال وأن يستقل بحكمها . وفضلا عن هذا فإن مهمته الوظيفية والإقطاعية ستكون فى مرتبة نائب السلطان .

وبهذه الترضية استطاع قلاوون ان يستل الضغن الذى كان يملأ صدر سنقر .. وبذلك أصبح أمام قلاوون مهمة واحدة هى الايقاع بالغزاة الذين تقدموا نحو حلب مرة ثانية ، يقودهم منكو تمر شقيق أبغا تشد من أزره بعض الجماعات من أرمينيا الصغرى وجورجيا وكذلك من البلاد التى كانت تحت سيطرة المغول .

ثم نشبت المعركة الفاصلة بين الجانبين عند حمص فى اكتوبر سنة ١٢٨٠ .. فقد هُزِم منكوتمر شر هزيمة مما جعله يسحب قواته إلى الشمال .. ثم توفى أبغا وتولى الإيلخانية بعده أحمد تكدار الذى هجر المغولية ودان بالإسلام . ولقد جعل تكدار يتقرب من قلاوون ويظهر فى عدة رسائل بعث بها إليه عمق حبه للإسلام .. ومما يلفت النظر فى رسائلة أنه كان يؤكد أن غايته فى الحياة أن يعيش فى سلام ومودة مع الدول الإسلامية التى تحيط به.. إلا أن الإيلخانية لم تكن راضية عن هذا التقارب وتأكد ذلك عندما استولى المغولى أرغون على الحكم سنة ١٢٨٤ فقد انقلب على المسلمين وصار يدعو إلى ضرورة إحياء الحلف الصليبى المغولى القديم لتدمير السلطنة المملوكية . غير أن هذا المشروع العدوانى لم يقيض له الوجود ، فى الوقت الذى كان فيه قلاوون يتمنى ألا يتحقق .. ومن ثم عمل على أن يعقد معاهدات ويقيم علاقات مع مغول القبيلة الذهبية والإمبراطورية البيزنطية وملوك فرنسا وقشتالة وصقلية وجمهورية جنوا ، وكذلك الإمبراطور رودولف هابسبرج وذلك على غرار ما كان يتبعه بيبرس فى سياسته .

ومما يجب ذكره هنا أن قلاوون وهو فى سبيله لملاقاة المغول وكان ذلك قبل معركة حمص أنه جدد المعاهدات التى كانت معقودة بين بيبرس

والمدن الصليبية . وإذا كانت مدة الهدنة عشرة أعوام فإن قلاوون أثقلها بشروط أجحفت بالإمارات الصليبية التى قبلتها صاغرة لأنها كانت فى حالة من الضعف الشديد .

على أن قلاوون كان فى الحقيقة يضمر نقض هذه المعاهدات بعد أن يتخلص من المغول لأنه كان يتطلع الى دور يشبه دور بيبرس مع الصليبيين وكذلك الدور العظيم الذى نهض به صلاح الدين .. ولم يكد قلاوون يكتشف فشل خطة أرغون فى إقامة تعاون مغولى صليبى حتى قرر أن يوجه للصليبية ضربة لا تقوم لهم بعدها قائمة .. فتوجه أول ما توجه إلى حصن الاسبتارية بالمرقب قرب الأطراف الشمالية لإمارة طرابلس فانقض عليه وبث الألغام فى أسواره فى سرعة شلت تفكير الحامية مما أرغمها على التسليم ومغادرة الحصن وكان ذلك فى مايو سنة ١٢٨٥ .. وبعدها توجه قلاوون إلى مرقية وهى قلعة منيعة تقع على ساحل البحر وصاحبها تابع إقطاعى للكونت بوهيموند السابع أمير طرابلس . وقد وجه قلاوون إلى بوهيموند إنذاراً بضرورة إخلاء القلعة مما بها من جند وسلاح وإلا فإنه سيشن عليها الحرب بأسرع مما يتصور . فخشى الكونت عاقبة الإنذار ونفذ كل ما طلبه منه قلاوون ، وكان ذلك فى سنة ١٢٨٦ ، وذلك لإنقاذ إمارته ..

وفى نفس الوقت خشيت مرجريت أميرة مدينة صور صولة قلاوون فاشترت منه السلم بشروط أرغمها على قبولها . كما أن ليو الثالث ملك أرمينيا الصغرى لم يتوان عن مسالمة قلاوون فوقّع له على معاهدة ألزم نفسه فيها بدفع جزية كبيرة .. بتلك السياسة أصبح قلاوون على قناعة تامة بأنه أذل الصليبيين وكلفهم مغانم كثيرة وأن لم يعد أحد منهم يجسر على أن يفوه أمامه بكلمة تعارضه . وهذا ما جعله يعود الى غريمه سنقر الأشقر الذى كان قد هادنه من قبل فوجدها فرصته لأن ينتزع منه إمارته وفعلا أرغمه سنة

١٢٨٨ على ترك إمارته فى شمال الشام وأن عليه أن يقنع بأن يعيش "بطالا"، أى بعيداً عن الحياة السياسية ، فى القاهرة .

وحدث فى سنة ١٢٨٨ ، أن توفى بوهيموند السابع أمير طرابلس بغير أن يخلف وريثا مما تسبب فى قيام صراع بين الصليبيين حول من هو أحق بعرش الإمارة ... وقد شجع ذلك الصراع قلاوون على أن يشن غارة على الإمارة فاقتحمها بقواته بعد أن خرب حصونها وأفقدها كل قدرة على القتال وكان ذلك فى سنة ١٢٨٩ ، ثم عرج قلاوون على قلعة البطرون وهى تقع جنوب طرابلس فاستولى عليها ثم خربها ..

ثم رجع إلى القاهرة ليدبر القوات والمعدات اللازمة للاستيلاء على عكا . وهى آخر ما تبقى للصليبيين بالشام من مدن قتالية . وحتى يبرر حصارها ومحاربتها فإنه زعم لأصحابها أنهم يعاملون التجار المسلمين الذين يفدون إليها معاملة مجحفة .. وقبل أن يتحرك قلاوون بجيشه وافته منيته وهو بمعسكره خارج مدينة القاهرة فى نوفمبر سنة ١٢٩٠ .. وكان قد عين ابنه الأكبر عليا ليخلفه سلطانا على البلاد إلا أن وفاته المفاجئة مكنت شقيقه خليل من أن يرث السلطة .

وكان أول شئ صنعه خليل أنه أخذ فى تحقيق غزو عكا ولذلك فإنه ضاعف عدد المقاتلين وزودهم بكميات ضخمة من الأسلحة أربت على أية كمية سابقة لقتال أية مدينة من المدن الصليبية .. ولما كانت عكا على درجة كبيرة من التحصين فإنها قاومت قوات خليل التى حاصرتها لمدة عشرة أيام . وهنا وجد خليل أنه من الضرورى اقتحام المدينة مهما كانت التضحيات فكان الهجوم الكاسح على عكا صباح يوم الجمعة الموافق ١٨ مايو سنة ١٢٩١ .

فكان أن صارت المدينة فى قتال شرس حيث تبادل الطرفان الضرب فكانوا بين الكر والفر والدفاع والهجوم حتى تمكن المسلمون من هدم

تحصينات المدينة فكان سقوطها نصرا كبيرا للسلطان خليل بن قلاوون .. وبعدها تهاوت كل المدن الصليبية الساحلية واحدة بعد الأخرى .. ويستثنى من ذلك مدينة بيروت التى فضلت التسليم على القتال والمواجهة . ثم عاد السلطان خليل إلى دمشق وفى ركابه الكثيرون من الأسرى وقد تناقلت البلاد فى مصر الشام أنباء انتصاراته فأقامت له الاحتفالات ابتهاجا بنصره العظيم متناسية ما كان من قسوته على أصحاب أبيه .

ثم عاد إلى القاهرة فى أوائل سنة ١٢٩٢ ، يحدوه طموح كبير للغزو والفتح لا سيما وأنه صار بطلا حقق لأمته النصر النهائي على الصليبيين .. ولذلك فإنه زين للخليفة العباسى أن يعلن الدعوة للجهاد ضد الصليبيين وحتى يجعل السلطان خليل من نفسه مثلا يحتذى فإنه قاد حملة إلى الأراضى الفراتية غير أنه لم يصب منها مغنما كبيرا وكل ما غنمه قلعة أسماها قلعة المسلمين وكان ذلك فى يوليو سنة ١٢٩٣ .. ثم جهز جيشا لينطلق به نحو أرمينيا الصغرى ولكن سرعان ما جاءه وفد من ملكها يقدم إليه تنازله عن مدينة مرعش والبهنسا مقابل أن ينعم بالسلام فى حماه وما كاد السلطان خليل يعود إلى القاهرة حتى جاءه وفد مغولى بعثه إيلخان كيختو ملك المغول يطالب بضرورة تسليم مدينة حلب .. ولم يخش السلطان خليل من هذا التهديد فقابله بتهديد مثله فقد توعد المغول بأنه سوف يزحف بقواته عليهم ليخلص بغداد من أيديهم ويعيد إليها سابق مجدها العباسى .

ولكن التهديد لم يجد بشئ إذ أن السلطان تربص به من شكوا فى سوء طويته فقتلوه .

ثم خلفه السلطان الناصر محمد سلطانا على مصر والشام بتأييد من زعماء المماليك .. وبعد أن تمكن الناصر محمد من عرشه عاد المغول يهددون الشام بالغزو . فجهز جيشا كبيرا وخرج به تحت قيادته وإلى جانبه معاوناه : الأمير سلار ، والأمير بيبرس .. ولجأ المغول إلى أسلوب الشائعات

فأرجفوا بأنهم رجعوا عن نية الحرب لأنهم ــ فيما زعموا ــ لا قدرة لهم على مواجهة جيش الناصر .. وانطلت الخدعة على السلطان فصدقها ثم انتشرت بين الجند ففترت همتهم للقتال ولم يعودوا يكترثون بما عليهم من الحذر واليقظة للقتال وكانت للمغول فرصتهم فاستداروا إلى المتخاذلين وهبطوا عليهم كالصاعقة ؛ وحاقت الهزيمة بجند الناصر الذين فروا نحو دمشق مخلفين وراءهم كل أسلحتهم وعتادهم .. ولكن أمراء المماليك لم يرضوا عن تلك الهزيمة النكراء فأعدوا جيشا مجهزا ومدربا لطرد المغول من الشام .. وبيناهم يجهزون ويعدون حمل البريد إلى القاهرة رسالة مضمونها أن غازان سلطان المغول قد ارتد عن دمشق وشفع غازان رحيله بأن بعث بوفد إلى سلطان مصر والشام يعرض عليه الصلح .. ومما جاء فى رسالة غازان ":.. إن عساكر السلطان الناصر قد دخلت فى العام الماضى أطراف بلاده وأفسدت فيها وأنه أنف من ذلك وحضر إلى بلاد الشام وهزم العساكر ثم عاد إليها فلم يخرج له أحد فرجع إلى وطنه إبقاء على البلاد لئلا تخرب وأنه مستعد للحرب ولكنه يدعو إلى الصلح "..

وجاء رد الناصر تكذيبا لكل ما حوته رسالة غازان من افتراءات .. وكانت خاتمة الرسالة خير دليل على الوعى الإسلامى والخلق الإسلامى ؛ فقال الناصر :

" إذا جنح الملك للسلم جنحنا لها وإذا دخل فى الملة المحمدية ممتثلا" ما أمر الله مجتنبا ما عنه نهى وانضم فى سلك الإيمان وتمسك بموجباته تمسك المتشرف بدخوله فيه لا المنان وتجنب التشبه عمن قال الله فى جقهم: قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان .. وطابق فعله قوله ورفض الكفار الذين لا يحل له أن يتخذهم حوله وأرسل إلينا رسولا من جهة يرتل آيات الصلح ترتيلا ويرون خطابه وجوابه حتى يتلو كل أحد: ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، صارت حجتنا وحجته المركبة على ما



خالف ذلك وكلمتنا وكلمته قامعة أهل الشرك فى سائر الممالك ومضافرتنا له تكسب الكافرين هوانا والمشاهد لتصافينا يتلو قوله تعالى : واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمة إخوانا .. وينتظم إن شاء الله شمل الصالح أحسن انتظام ويحصل التمسك من الموادعة والمصافاة بعروة لا انفصال لها ولا انفصام . وتستقر قواعد الصلح على ما يرضى الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام "..

وكد أب غازان فى سياسته فما كانت رسالته إلا تمويها القصد منه إعداد جيشه إعدادا" قويا..

ثم جاء البريد برسالة تحذيرية تفيد أن غازان يزحف إلى الشام وأن الناس قد أصابهم الوجل الشديد حتى أن أهل دمشق هجروا بيوتهم واعتصموا بالمسجد الجامع وارتفعت أصواتهم بالضراعة إلى الله أن يرد كيد غازان عنهم ..

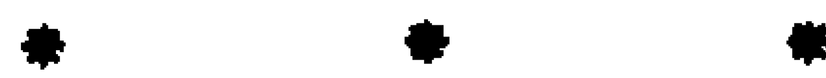
وأمام ذلك الخطر القادم أخذ الناصر كل استعداداته للحرب ثم زحف نحو جيش المغول .. وفى مرج الصقر ــ وهو قريب من دمشق ــ وقع التصادم بين المسلمين والمغول ، أظهر فيه المسلمون شجاعة نادرة .. أما الأميران سلار وبيبرس فقد اندفعا بكل ما أوتيا من قوة وجسارة لمقاتلة العدو .. ولما أدرك المغول أن الدائرة توشك أن تدور عليهم فإنهم اصطنعوا سلاح الإشاعة فأشاعوا أنهم انتصروا وأن جيش السلطان الناصر هزم شر هزيمة .. فثار الناس فى دمشق ساخطين غاضبين على جيش المسلمين .. كما اضطربت الجند .. وفى هذا الموقف المنذر بأفدح كارثة بذل السلطان والأميران بيبرس وسلار كل جهودهم لإعادة النظام إلى صفوف الجيش ليعاود الهجوم ؛ وهنا قال السلطان لقواد جيشه ": من خرج من الأجناد عن الصف فاقتلوه ولكم سلاحه وفرسه ".

ودبت الحمية فى صفوف جند المسلمين فكان هجومهم على المغـــول فى غاية الشراسة والبأس حتى تحقق النصر ..

ثم كان للسلطان الناصر بعض المعارك البحرية خاضها ضد ملـــوك الصليبيين الذين جنحوا إلى جزيرة قبرص وغيرها .. فقـــد أُبلــغ الســلطان الناصر أن الفرنجة الذين أرغموا على الهجرة من عكا فى عهد السلطان خليل ابن قلاوون قد استوطنوا جزيرة قبرص . وفى بضع ســـنين اســتطاعوا أن يقيمــوا مملكة خاصة بهم فى جزيرة صغيرة أمام ساحل مدينة طرابلس وكان اســم هذه الجزيرة " أرواد " .. وقد كدسوا فيها الكثير من الأســلحة وأدوات القتال لأنهم طمعوا فى أن يهددوا سواحل الشام .

ولمواجهة ذلك التهديد البحرى بنى السلطان الناصر أربع سفن حربية جديدة للهجوم على تلك القوة الصليبية .. وانطلقت السفن الأربع نحو جزيرة " أرواد " فأشاعت فيها التخريب والتدمير كما أسرت الكثيرين من جنودهم .

ثم توفى السلطان الناصر محمد سنة ١٣٤٠ ، ثم خلفه ثمانيـــة مـــن أبنائه واثنان من أحفاده .. ثم اثنان من أبناء أحفاده ؛ لم يستطع واحد منهم أن يسمو إلى مكان الناصر .. وفى مدة حكمهم التى استمرت واحـــد وأربعـــون عاما وقعت حوادث كثيرة تصور فى دلالاتها طابع الضعف والـــهوان الـــذى انتهى إليه حكم الدولة المملوكية الأولى.



من هذه الحوادث أن أسطولا صليبيا مكونا من عدة سفن اشتركت فيه قبرص ورو دس والبندقية وجنوة وتألفت جنوده من تلــك الإمــارات هــاجم الإسكندرية فى خريف سنة ١٣٦٥، يقوده بطرس الأول لــوز يجنــان ملــك قبرص وقد أنشأ هذا الملك فرقة من الفرسان الصليبية شاعت باسم " طائفـــة السيف " غايتها استرجاع بيت المقدس من المسلمين . وتمكن هذا الأســـطول

بفضل الضعف والهوان الذى صارت إليه أمور مصر أن يستولى على الإسكندرية وانطلق جنوده فى أنحائها يعيثون فسادا: ينهبون ويقتلون ويغتصبون ، لا فرق عندهم بين يهودى ومسيحى ومسلم. وبعد أن شاع الذعر والخراب فى المدينة رحل عنها الأسطول وعلى ظهره خمسة آلاف أسير من الرجال والنساء . ثم جرت مفاوضات للصلح بين الصليبيين والمسلمين لم تكلل بالنجاح إلا بعد تدخل جمهوريتي جنوة والبندقية .

فى ذلك الجو المشحون بالصراع تمكن برقوق زعيم المماليك البرجية من أن يستولى على السلطة بعد أن تخلص من آخر أحفاد الناصر محمد وكان ذلك سنة ١٣٨٢ ، وبهذا صار برقوق أول سلاطين المماليك البرجية وفى أول عهد برقوق بالسلطة ظهر خطر المغول من جديد. فقد أسس تيمورلنك دولة مغولية جديدة أثارت الذعر فى جميع أنحاء آسيا الوسطى والهند والشرق الأوسط وكان ذلك فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى .

وبعد أن شن تيمورلنك غاراته المخربة على الهند فإنه توجه بضراوته الدموية إلى العراق واستولى على بغداد فى سنة ١٣٩٣ ، وفى السنة التالية استولى على ماردين وكانت تابعة للسلطة المملوكية فى ذلك الوقت .. وأمام ذلك الخطر الداهم الذى لا يعرف سوى التخريب وسفك الدماء لم يتقاعس السلطان برقوق فقد نهض للتصدى للكارثة المقبلة .. فعمل على إنشاء حلف إسلامى وكان الحلف مؤلفا من : الأمير قرا يوسف التركماني ، وبرهان الدين أمير سيواس ، وبايزيد الأول السلطان العثمانى ، وطقتمش خان القبيلة الذهبية المغولية على نهر الفلجا .. غير أن برقوق توفى قبل المعركة فانفرط عقد التحالف وكان ذلك فى يونيو سنة ١٣٩٩ . ثم جاء بعده ابنه فرج غير أن فرج كان رعديدا" جبانا فنفذ لتيمور لنك كل ما أرغمه عليه .

ثم شهدت مصر والشام خمسة سلاطين كانوا ألعوبة فى أيدى المغول.

.. فى هذه الأثناء تطلعت القوة العثمانية إلى فرض الاستعمار العثمانى على



مصر فتحرك السلطان سليم الأول سلطان العثمانيين للقضاء على الدولة المملوكية فالتقى بالجيش المملوكى فى أغسطس ١٥١٦ فى مرج دابق بشمال حلب فلقى السلطان قانصوه الغورى هزيمة مريرة كان فيها مصرعه .. وبعد هذه الهزيمة ــ التى فتحت للعثمانيين الطريق إلى مصر ــ نهض بعبء الذود عن مصر السلطان طومان باى ــ وكان نائبا لقنصوه الغورى أثناء جهاده فى الشام ..

وكانت المأساة : فقد هزم طومان باى على أرض مصر فى الريدانية ثم قبض عليه .. ثم أعدم فى إبريل ١٥١٧ .. وفقدت مصر استقلالها وصارت إحدى ولايات الإمبراطورية العثمانية .

* * *

الفصل الرابع

العسكرية المصرية الحديثة



تمهيد

العسكرية المصرية ... بخير

مصر أمة سلام .. وعسكريتها عسكرية سلام تنشده خيرا" وأمنا وتعاطفا إنسانيا مع الناس أجمعين ...

بهذه العقيدة الإنسانية واجهت العسكرية المصرية قدر مصر ، قدر الأمة العربية ، قدر الإسلام فى كل عصورها الحضارية .. لم تجفل ، ولم تتخاذل ، ولم تمار فى حق .. ومثل هذه الرسالة الحضارية التى نهضت بها مصر ، ولا زالت منذ بواكيرها الفرعونية الأولى لا تستريح إليها الدول المتطلعة إلى الاستعمار وفرض الهيمنه الاستعمارية على الشعوب .. وكانت مصر دون أمم العالم قاطبة هى الغاية الاستراتيجية الكبرى التى تحسب لها القوى الاستعمارية كل حساب . فهى تسعى إلى أن تطويها تحت حمايتها أو تفرض عليها حمايتها . وقد تصدت مصر - ولا زالت - لتلك السياسات ، وإذا كانت مصر قد وقعت فى براثن الاستعمار التركى إلا أن هذا لم يفقدها أو يحبط من قدرتها العسكرية ، ولا وعيها العسكرى ، ولا حميتها العسكرية. فقد ظلت محتفظة بكل تلك المعانى تحققها فى أوانها الذى يوجبه ، فلا تتردد ولا تنكص ولا تتوارى خشية أو هلعا .

ولقد قيص الله لمصر محمد على باشا الذى أجبر السلطان العثمانى على تعينيه واليا على مصر مؤيدا" من الزعامة الشعبية ممثلة فى السيد عمر مكرم ، فالزعامة الشعبية هى التى اختارت ، وهى التى أيدت ، وهى التى فرضت .. ففى المرحلة الأولى من ولاية محمد على كانت السياسة العالمية فى قطاع الدول الأوربية متدابرة ، كل دولة أو مجموعة متحالفة

تعمل جاهدة على تقويض إمبراطورية السلطان العثمانى وتدميرها . ولقد كان لانجلترا تطلع إستعمارى إلى مصر والشرق العربى تعمل على تحقيقه على حساب السلطنة العثمانية .. فعين انجلترا لم تغمض عن مصر فى يوم من الأيام ، ومن هنا كانت تلتمس كل ذريعة للتدخل فى شئونها رضى السلطان العثمانى أم أبى .. فعندما تحالفت تركيا مع فرنسا لم تجد إنجلترا مفرا" من أن تتحالف مع روسيا ضد تركيا واحتدم الخلاف بين إنجلترا وتركيا وزادت حدته إلى درجة أن نشبت الحرب بين الدولتين .

ولكى تنتقم إنجلترا من تركيا لم تجد سوى تجريد حملة عسكرية بحرية على مصر وقد كانت هذه الحملة ذات هدفين : الأول ، معلن ظاهرة وهو إهانة تركيا على أنها غير قادرة على حماية أملاكها .. والثانى ، تحقيق ما تنشده من سياسة استعمارية فى الشرق بالسيطرة على مصر . ولهذين السببين وجهت إنجلترا حملة بحرية إلى مصر تحت قيادة الجنرال فريزر . وحتى تضمن إنجلترا نجاحها فى حملتها فقد كانت متفاهمة مع محمد بك الألفى أحد زعماء المماليك فى مصر مقابل أن تمكنه وزمرته من المماليك من السيطرة على الحكم فى البلاد والتخلص من الوالى الجديد محمد على باشا .. بهذا التعاهد تشجعت إنجلترا وأرسلت حملتها التى كانت أخبارها قد شاعت فى الرسائل التى صدرت من الآستانة . فخشى الناس مغبة تلك الحملة فنهضوا بالاستعدادات اللازمة لمواجهة الموقف القادم .

ولقد وصل الأسطول الإنجليزى إلى الإسكندرية فى مارس سنة ١٨٠٧ ، ثم ذاع خبر وصول الإنجليز فى القاهرة فى الوقت الذى كان فيه محمد على باشا فى قتال مع المماليك فى الوجه القبلى .. وشاءت الإرادة الإلهية أن يكون قدوم الحملة الإنجليزية بعد وفاة أقوى زعماء المماليك محمد بك الألفى وتمزق أنصاره وذهاب ريحهم واختلاط جيشه مع جيوش الزعامات المملوكية الأخرى وهكذا جاءت وفاة الألفى دعما لقوة الشعب



التى قررت أن تواجه الإنجليز. وكان أول ما صنعه قائد الأسطول عندما اقترب من الإسكندرية أن أجرى مفاوضات صورية مع أمين أغا محافظ المدينة ، وكان تركياً متواطئا فقام بمهزلة لم تجز على أحد وهى تسليم نفسه للإنجليز على أنه أسير حرب ومعه حامية المدينة . وبهذا التدليس الرسمى احتل الإنجليز الإسكندرية ليلة ٢١ مارس بغير أن يتكلفوا بأى عملية عسكرية.

وعندما وصلت القاهرة الأنباء بأن الإنجليز احتلوا الإسكندرية وأن محافظها أمين أغا هو الذى سلمها لهم ثارت ثائرة الشعب ونهض زعماؤه فى غيرة شديدة على وطنهم ورغبة صادقة فى الدفاع عنه. فاجتمعوا وتشاوروا وانتهت مشاوراتهم إلى ضرورة القيام بطرد العدو الإنجليزى من الوطن وعندما وصلت محمد على باشا أخبار الحملة الإنجليزية وكان وقتها فى قتال مع جموع المماليك فى الصعيد فإنه رأى أن من الحكمة ألا يشتد معهم فكان أن وافق على شروطهم للصلح بعد أن تعهدوا له بأن يتعاونوا معه فى قتال الإنجليز .

فى هذا الوقت كان الإنجليز قد دعموا مواقعهم فى الإسكندرية وبعدها تقدموا لغزو البلاد وكانت بدايتهم الأولى مدينة رشيد فاتجهوا إليها فى ٢٩ مارس. ولما كان محافظها على بك السلانكلى أمينا على شعبه وبنى وطنه فإنه رفض أن يخون الأمانة ويتواطأ مع الإنجليز فصمم على مقاتلتهم.. وكانت عدته القوة العسكرية الهزيلة التى كانت تحت قيادته والأهالى الذين أسرعوا بالتطوع للدفاع عن مدينتهم . وكانت خطة على بك أن تختفى قوته العسكرية ومعهم الأهالى فى منازل المدينة ، فلا يظهر منهم أحد وأن يكون الجميع متأهبا لإطلاق النار عند إشارة معينة .. ثم اقترب الإنجليز من المدينة ولم يصادفوا أى إنسان يمكن أن يقاومهم .. فظنوا أن القوة العسكرية للمدينة قد قررت تسليم المدينة على شاكلة ما فعله أمين أغا محافظ الإسكندرية فكان أن ساروا فى شوارع المدينة لا يخالجهم أى خوف..

وفجـأة أعطى على بك السلانكلى الإشارة المتفق عليها فأطلق جنود الحامية والأهالى رصاص بنادقهم من كل منزل ومن كل مكـان فأصـاب الإنجلـيز رعب شديد ولم يجدوا سبيلا لنجاتهم سوى التقهقر السريع إلى الإسكندرية عن طـريق أبوقير وقد كان لهذا النصر أصـداء كبـيرة فقـد امتـلأت قلـوب المصريين بالفخر والعزة كما أنهم استهانوا فى نفس الوقت بالإنجليز.

ووصلت القاهرة أخبار هذا الانتصار فسرت بيـن جمـاهير شعـب القاهـرة حمية الدفاع عن الوطن .. فخرجوا بفضل الزعامـة التـى قادهـا الزعيـم عمر مكرم لحفر الخنادق وبناء الاستحكامات التى تعـوق حركـة العدو عن اقتحام المدينة وذلك فى شمال القاهرة إذا زحفوا عن طريق شبرا.. وأثناء تلك الاستعدادات خف أهل القاهرة إلى التطوع فى صفوف أبناء وطنهم من أهل رشيد..

ومع أن أهل رشيد تمكنوا من صد الفرقة الإنجليزية الأولـى التـى أغارت عليهم فقد سير الإنجليز فرقة ثانية استطاعت أن تحاصر رشيـد وأن تصـب عليها حمم مدفعيتها .. ولم يقتصر الأمر على شعب القـاهرة الـذى بادر بالتطوع فى صفوف أهل رشيد بل تطوع كذلك أهل البحـيرة والقـرى القريبة من رشيد هكذا خرج الشعب بسلاحه المتواضع ليدفـع العـدو عـن أرضه..

وعندما وصل محمد على إلى القاهرة فى إبريل سنة ١٨٠٧ ، أحيـط علما بهزيمة الإنجليز فكان أول عمل قام به هو اتخاذ الاستعدادات الدفاعيـة التـى تحمى القاهرة من الغزو والعمل الثانى إعداد قـوة عسـكرية يقودهـا طبوز أوغلي تتوجه إلى رشيد . ولما علم الإنجليز أن محمد على باشا سـير حملة لمقاومتهم فإنهم وجهوا فرقة بقيادة الجـنرال سـتيوارت زحفـت مـن الإسكندرية فى يوم ١٣ إبريل نحو رشيد لدعم القوة الإنجليزيـة المحـاصرة للمدينة . فى هذا الوقت كان الإنجليز يتلهفون على أن يأتيهم مدد من المماليك يقوى موقفهم غير أن المماليك تخاذلوا عن نصرتهم .. وفجأة بـدأت القـوة الإنجليزية تضرب رشيد فرد عليهم أهالى رشيد فى غـير هـوادة . وظـل التراشق قائما" حتى وصل المدد الذى أرسله محمد على باشا بقيـادة طبـوز

أوغلى . وهنا تحول ميزان القتال إلى جانب الشعب المصرى . فعندما وصلت طلائع الجيش المصرى من الفرسان فإنها تقدمت نحو المواقع الإنجليزية عند " الحماد " التى كان الإنجليز يتخذونها خط دفاعهم الأول .. فأنزل الجيش المصرى – يسانده جيش الشعب – بالجيش الإنجليزى هزيمة قاسية .. ولم يكتف محمد على باشا بالهزيمة التى تجرعها الجيش الإنجليزى بل عزم على طرد الإنجليز نهائيا" من مصر. فأعد قوة خاصة للزحف على الإسكندرية لتخليصها من أيديهم . ولما أدرك الجنرال فريزر قائد الحملة الإنجليزية حرج موقفه العسكرى وبأنه لا أمل يرجى من المماليك فإنه طلب الصلح من محمد على باشا وتعهد بالجلاء عن الإسكندرية والعودة إلى بلاده..

وكان هذا النصر دافعا إلى محمد على باشا لكى يضم الإسكندرية إلى سلطة الحكومة المصرية فقد كان لها وضع خاص إذ كانت فى تبعية مباشرة للسلطان العثمانى ..

إذن فالشعب فالمصرى هو صاحب الفضل الأول فى إنزال الهزيمة بالإنجليز .. وهو صاحب الفضل الأول فى بعث فكرة إنشاء جيش مصرى حديث فى عقل محمد على باشا .. فالجنود الذين كانوا عماد جيشه كانوا وبالا" على الشعب ومن ثم فلا يمكن الاعتماد عليهم فى إنشاء دولة حديثة أو جيش حديث ذلك لأنهم كانوا بطبيعة تكوينهم النفسى والأخلاقى والاجتماعى وحتى العسكرى أميل إلى الشغب وإثارة الذعر وسلب ما بأيدى الناس ..

ولذلك فإن محمد على باشا اتبع سياسة حكيمة للتخلص منهم بالتدريج.. فأخذ يرحل بعضهم خارج البلاد ومن لم يستطيع ترحيله بعث به إلى ميادين القتال كالحجاز والسودان للتخلص منهم..

بعد ذلك جاء تكوين الجيش المصرى الحديث من الفلاح المصرى الذى أذهل العالم بانتصاراته وحقق استقلال أمته..

(١)

أهداف العسكرية المصرية

الحديثة

فى عصر محمد على باشا



لم يكن محمد على باشا مجرد ضابط ألبانى مغامر وصل إلى مقام السلطة والسيطرة على مقدرات شعب بل كان بكل المقاييس العسكرية والسياسية والعلمية والفكرية والاجتماعية والصناعية والتجارية بانى أمة ومؤسس حضارة ـ ولتحقيق هذه العناصر المتكاملة لابد من توافر عقلية واعية تضع خطتها ـ وهى تتطلع إلى المستقبل ـ بوعى وعلم وغاية محددة واضحة .. وهذا كان من شأن محمد على باشا فى إنشاء الدولة المصرية الحديثة التى لا يتحقق وجودها ولا يكتب لوجودها القوة والبقاء والصمود ، بغير قوة مسلحة قادرة على الردع وليس مجرد الصد والتأمين ..

ومن هنا فإن أهداف العسكرية المصرية كانت تتركز فى ثلاثة عناصر التكامل بينها ضرورى ومن ثم فلا يمكن لعنصر أن يستقل بنفسه ويغفل العنصرين الآخرين أو يستهين بأى منهما .

والعناصر الثلاثة هى :

الأول : تحقيق استقلال مصر

الثانى : تحقيق الوحدة العربية

الثالث : تحقيق المكانة الدولة

فبهذه العناصر الثلاثة متكاملة وضعت الاستراتيجية القتالية للعسكرية المصرية فى عصر محمد على باشا .



(١)

الحجـــــاز

كانت أول الحروب فى سبيل تحقيق العناصر الثلاثة الى حددناها هى الحرب الوهابية (١٨١١ ــ ١٨١٩) ..

لقد كانت شبه الجزيرة العربية هى الميدان الأول الذى خاضت فيـــه الجيوش المصرية معاركها .. وليس من المستغرب أن تكون الحروب التـــى خاضتهـــا الجيوش المصرية فى شبة الجزيرة العربية شاقة قاسية ، أخذت من الوقت الكثير ، ومن الأموال الكثير ، ومن الضحايا الكثـــير .. لأن الطبيعـــة الجغرافية لشبه الجزيرة العربية قاسية على من لم يعتد على المعيشـــــة بـــها ويعـــرف مسالكها ودروبها ويحتمل جوها .. كما كانت القـــوات المصريـــة تقاتل قوات على مذهب إسلامى خاص هو المذهب الوهـــابى الـــذى اتبعـــه الكثيرون من شعب الحجاز وإلى هذين السببين ترجع قسوة المعارك وطـــول أمدها وكثرة ضحاياها. فمنذ أواخر ديسمبر ١٨٠٧ ، وقد مر علـــى ولايـــة محمد على باشا ما يقرب من عامين فضلا عن أن السلطان العثمانى عين ابنه إبراهيم باشا فى منصب الدفتر دار (مدير الشئون المالية) .. فبهذا الفضـــل الذى أسبغه السلطان العثمانى على محمد على باشا ، طلب منـــه أن يرســـل حملة لتأديب الخارجين عليه وإلزامهم بالتخلى عما انتهجوه من فكر إسلامى.. وفى أول الأمر لم يشأ محمد على باشا أن يستجيب لما طلبه منه السلطان لأنه وجـــد أن الحرب فى الحجاز باهظة التكاليف فصار يقدم اعتذاراته واحـــــدا" بعد الآخر حتى جاء وقت كان عليه أن يستجيب وينفذ.. وذلك بعـــد أن درس الفكرة جيدا" وأمعن فى فحصها وتصور احتمالاتها وما يمكن أن يجنيه مــــن ورائها من منافع ومزايا.. فإذا تمكن بقواته المعدة والمنظمة والمسلحة بأحدث

الأسلحة من أن ينجح فى ميدان فشلت فيه تركيا - والشعوب الإسلامية تعرف عجزها وقلة حيلتها أمام الوهابيين - بتخليص الأراضى المقدسة من الوهابيين والقضاء على دولتهم. فإن هذا العمل يكون من أقوى البواعث لتثبيت وجوده فى مكانته التى احتلها بل أن تضفى عليه هالة من الفخار والعزة. فلا تجرؤ تركيا على أن تنازعه فى مكانته أو تتنكر له فتستبدل به غيره فى ولاية مصر وأكثر من هذا فإنه يعامل تركيا معاملة الحليف أو معاملة الحليف .. ومن هنا فلماذا لا تتطور العلاقة بينه وبين تركيا إلى الدرجة التى يصبح فيها مستقلا" عنها ؟

كل تلك التطلعات لا بد أن تكون قد راودت محمد على باشا .. إذن فلماذا لا تكون الحجاز هى السبيل لتحقيق مكانة مصر ، فتنال احترام العالم الإسلامى وتقديره ؟ ولا سيما أن الغرض من الحملة إنقاذ الحرمين الشريفين من حكم فرقة الوهابية وتجديد ما بين الأمم الإسلامية من الصلات الأدبية والاقتصادية وإعادة مناسك الحج وتأمين سبل الحجاج الذين يأتون كل عام من مشارق الأرض ومغاربها ..

فلما نجحت القوات المصرية فى حربها مع الوهابيين بالحجاز فإنها لم تغادرها بمجرد انتصارها ولكن محمد على باشا أقام بها حكومة بسطت الأمن ووضعت منهاجا إصلاحيا لتحقيق العدل والرخاء . وفضلا عن ذلك فإن الدائرة المصرية قد اتسعت لتضم إلى الحجاز نجد والعسير وبعض أجزاء من اليمن بل إنها وصلت إلى شواطئ الخليج العربى ...

وكانت تلك هى الخطوة الأولى لتحقيق الوحدة العربية ..

تلك كانت رسالة محمد على باشا التى ارتجاها وعمل لها حتى تحققت.. ولكن كيف نعرف طبيعة العسكرية المصرية عندما خاضت الحرب الوهابية ؟

* * *



عنـــدما اتجهت قوات محمد على باشا إلى الحجاز ، كانت تحت قيادة ابنه:

أحمد طوسون باشا، وكانت القوة العسكرية الوهابية التى أخذت على عاتقها واجب التصدى للقوات المصرية ، تحت قيادة الأمير سعود بـــن عبـــد العزيز ، الملقب بسعود الكبير .. إلا أن القوات المصرية لـــم تواجـــه عـــداء شاملا" من جميع طوائف الشعب الحجازى . فقد كانت هناك قوى غير راضية عـــن الوهابيين لأن الدعوة الوهابية فى تقدير تلك القوى كانت سببا فى إحجام المسلمين عن الحج فكان أن تضرر سكان مدينتى جده وينبع الذين يعتمـــدون فى معيشتهم على ما يأتيهم من رزق من الحجاج .. كما أن الأمـــير غـــالب شريف مكـــة قد أضيـــر من الوهابيين لأنهم قوضوا سلطانه وهدموا مكانته.. وفضلا" عن هذا فقد استعـــان محمد على باشـــا، وإبراهيـــم باشـــا، وأحمـــد طوسون باشا ، بسلاح المال والعطاء الجزيل لاستمالة النفوس فانضم إليـــهم بعـــض رؤساء القبائل المناصرين للأمير سعود كما وعدوهم بمزايا" كبـــيرة فى حكومة الحجاز..

* * *

واتخذت الحملة سبيلها فى البحر الأحمر ، وعندما وصلت إلى ميناء ينبع فإنها احتلته بغير مقاومة تذكر . ومن ينبع زحف الجيش المصرى إلـــى بدر ، وكان الوهابيون متحصنين بها فدارت معركة معهم لم يصمـــدوا فيـــها طويلا ، فاحتل الجيش المصرى بدرا" وتقهقر الوهابيون إلى وادى الصفـــراء فتبعم أحمد طوسون باشا إلى وادى الصفراء .. وقـــاوم الوهـــابيون الجيـــش المصرى مقاومة شديدة وحاصروه من جهات مختلفة ثم .اجموه فنزلت بـــه هزيمة كبيرة قتل فيها ستمائة جندى كما خسر الكثير من المدافـــع والذخـــيرة والمواد التموينية .. وتراجعت بقية الجيش فى اضطراب شديد إلى قاعدته فى ينبع .

ولم تهزم هذه الهزيمة إرادة محمد على باشا ، فقد جهز حملة جديـــدة إلى الحجاز. ومع هذا الانتصار الذى فاز به الوهابيون فى موقعة الصفـــراء فإنهم ظلوا متحصنين فى معاقلهم لا يجسرون على معـــاودة الـــهجوم علـــى

طوسون باشا بينبع لذلك آثروا زيادة التحصينات لمدينتهم الصفراء. وخلال تلك الفترة وجدها طوسون باشا فرصة لمفاوضة القبائل الموجودة بين ينبع والمدينة ونجح سلاح المال والهدايا فى إثنائهم عن الانضمام إلى القوات الوهابية.. وتدعيما لسلاح المال فإن محمد على باشا أرسل عدة صناديق مملوءة بالأموال والملابس والأقمشة لتوزيعها على رجال القبائل الذين وقفوا بعيدا" عن القتال.. حتى إذا وصل المدد العسكرى من مصر تحرك طوسون باشا متوجها إلى مدينة الصفراء التى هزم فيها من قبل وقد انضم إليه فى الطريق قبائل كثيرة من عرب "جهينة" "وحرب" . وقد تمكن من احتلال الصفراء حيث لم يواجه مقاومة تذكر .. ثم عرج على المدينة المنورة التى كانت مقصده فى أول سيره ، وكانت لها أسوار منيعة ورغم مناعتها تمكنت قواته من نسف جزء كبير منها ثم تدفقت إلى داخل المدينة فقتلت عددا" كبيرا" من جنودها ، ثم استولت عليها " فكان [1] احتلالها أول انتصار كبير للجيش المصرى فى حرب الحجاز ، فأرسل طوسون مفاتيح المدينة إلى أبيه فى مصر وبشره بهذا النصر المبين فأذيع الخبر فى العاصمة وأطلقت المدافع من القلعة ابتهاجا بهذه البشرى .

وبعد هذا النصر رجع طوسون باشا إلى ينبع وأبحر منها إلى جدة فاستولى عليها . وهناك التقى بالشريف غالب فاستقبله استقبال التكريم والاحتفاء وبعدها قصد إلى مكة المكرمة فدخلها ظافرا منتصرا فى يناير سنة ١٨١٣ ويرجع تحقيق النصر إلى المعاونة الصادقة التى قدمها الشريف غالب، وقبائل عرب الحجاز الذين ألف المال قلوبهم وسواعدهم.

وبعض أن حصن طوسون باشا مواقعه فى مكة فإنه سار إلى مدينة الطائف فاستولى عليها فى يناير سنة ١٨١٣ .. ثم قصد إلى مدينة تربة وكانت محصنة تحصينا متينا إذ كانت معقلا للأمير فيصل بن سعود. فكلف مصطفى بك وهو قائد من قواده بمهاجمتها وإرهاق قواتها. ولكن رجال

---

(١) كتاب "تاريخ محمد على" ، تأليف: عبد الرحمن الرافعى، الناشر: دار المعارف، ط ٥، سنة ١٩٧٩، ص١٢٩ .



المدينة من الوهابيين هاجموا الجيش المصرى وأنزلوا به الهزيمة القاسية .. ثم وقعت بالجيش المصرى هزيمة مماثلة فى مدينة الحناكية .. وقد أطمعت الهزيمتان – فى تربة والحناكية – الوهابيين فى مهاجمة المواقع المتقدمة للجيش المصرى . وكانت المهاجمة مستمرة وبعنف حتى أضعفت الموقف القتالى لطوسون باشا .. وهنا – وبعد استشارة أركان حربه – وجد أن لا بد من طلب المدد من والده ؛ وحتى يصل إليه المدد فإنه التزم بخطة دفاعية معتصما بجيشه فى مكة والمدينة وجدة وينبع ولمواجهة هذه الهزائم وطلب المدد قرر محمد على باشا أن يكون هو شخصيا على رأس المدد ليتولى قيادة الجيوش المصرية فى الحجاز ، وكان ذلك فى أغسطس سنة ١٨١٣.

وكان أول ما صنعه محمد على باشا أن قام باعتقال الشريف غالب لأنه شك فى صدقه وحسن نواياه فقد وجد منه تهاونا مقصودا فى مد يد العون للجيش المصرى.. ولعل هذا التهاون المقصود يرجع إلى أن الشريف غالب يريد إطالة أمد القتال ليحقق بعض أهدافه الشخصية.. ومن ثم فإن هذا المسلك– فيما تصور محمد على باشا – يؤدى إلى زيادة انتشار الدعوة الوهابية . ولهذا فإنه من الخطر أن يبقى الشريف غالب فى مركزه ، فكان أن قبض عليه واعتقله فى نوفمبر سنة ١٨١٣.

وكان مما صنعه محمد على باشا دعما لموقفه فى مكة المكرمة أنه حماها من هجمات الوهابيين .. وبعد هذا رأى أن يغزوهم فى مواقعهم وهنا أمر ابنه طوسون أن يتخذ مدينة الطائف قاعدة للزحف .. وقصد طوسون باشا إلى الطائف وانطلق منها إلى تربة للاستيلاء عليها ومع أنه حاصرها وأحكم الحصار حولها إلا أنه أخفق فى إسقاطها مما اضطره إلى أن يرفع عنها الحصار ويتقهقر بقواته فاقتفاهم الوهابيون حتى امتنعوا بقاعدتهم فى الطائف .. ولقد اكتشف محمد على باشا أن مدينة العسير تتعاون مع الوهابيين وتتراشق مع قوات الجيش المصرى فجرد فرقة إلى ميناء قنفذة فاستولى عليه ثم أمر بتحصين المدينة تمهيدا" للانطلاق منها إلى داخل البلاد ولم يفته فى نفس الوقت أن يترك بها حامية تعزز الوجود المصرى بها غير أن سوء

الحظ حالف قائد الحامية فلم يتنبه إلى احتلال عين الماء التى تستقى منها المدينة فقد سبقه العربان واستولوا على العين وقطعوا الماء عن الحامية.. وكان ذلك هو السبب فى التخلى عن قنفذة. ولو أننا استعرضنا الهزائم التى منى بها جيش مصر لوجدناها كثيرة ولو أننا أضفنا إلى الهزائم استماتة الوهابيين فى مقاومة جيش مصر لظننا أنه من الوارد جدا أن يصاب محمد على باشا باليأس والقنوط ولكن إرادته القوية جعلته صامدا" فى مواجهة تلك النكبات.. فكان أن بعث إلى كتخدا بك فى مصر (محمد لاظ أوغلي) أن يسرع فى إمداده بقوات جديدة فضلا عن المواد التموينية..

وقد كان..

آنئذ أخذ محمد على باشا يعد العدة ويتهيأ للزحف .. وكان الحظ حليفه فقد توفى خصمه القوى العنيد الأمير سعود بن عبد العزيز ، وجاءت وفاته بالدرعية فى إبريل سنة ١٨١٤ .. ثم تولى الإمارة من بعده ابنه عبد الله بن سعود . وكان فى خلائقه يختلف تماما عن أبيه فقد كان مسالما يخشى الحرب كما كان كثير التردد لا يستقر على رأى..

وفى الوقت الذى علم فيه محمد على باشا بوفاة خصمه الشديد العنيد فإنه وجه عابدين بك أحد قواده لاحتلال وادى زهران وكان بمثابة حد فاصل بين اليمن والحجاز .. ولم يصادف عابدين بك فى أول زحفه مقاومة مؤثرة لكن الوهابيين أسرعوا فهاجموا القوة المصرية بعنف وأرغموها على الانسحاب وقد نزلت بها خسائر جسيمة .. وكان الإنسحاب فى ذاته يعد نصرا" كبير للوهابيين الذين تعقبوا المصريين حتى الطائف .. وهنا حاصر الوهابيون المدينة وكان طوسون باشا موجودا" بها .. فتحرك محمد على باشا لإنقاذ ابنه وكان وقتها فى جدة .. فبعث برسالة إلى ابنه عمل على أن يطلع عليها الوهابيون . فحوى الرسالة أن قوات جديدة قادمة إليه فتصوروا أنهم بتلك القوات سيكونون محاصرين من الأمام ومن الخلف وهكذا فضل الوهابيون الانسحاب ورفعوا الحصار عن الطائف. وبعد أن أنقذ محمد على باشا ابنه طوسون ومعه قواته من الحصار الوهابى تقدم هو إلى مدينة بسل

فى يناير ١٨١٥ ، وتقع بسل بين الطائف وتربه . وفيها تصادم مع الجيش الوهابى فأنزل به الهزيمة . ويعتبر المؤرخون أن موقعة بسل تعد من أكبر معارك الحرب الوهابية فى التاريخ العسكرى لمصر. بعد هذا النصر الكبير واصل الجيش المصرى تقدمه فاستولى على تربه ، ثم رنيه ، ثم بيشه، ثم انحرف إلى الشاطئ واحتل ميناء قنفذه، وقبل أن يغادرها إلى جدة ومنها إلى مكة ترك بها قوة تكفى لحمايتها والدفاع عنها .. ثم تابع طوسون باشا تقدمه من المدينة نحو القسم الشمالي من نجد فبلغ فى زحفه إلى الرس إحدى مدن نجد المهمة فاحتلها ثم استولى على الشبيبية وهى قريبة من الدرعية عاصمة الوهابيين.. وفى هذا الموقف صار الجيشان على موعد مع المعركة الفاصلة.. وعندما علم طوسون باشا بأن حجم القوات الوهابية مما لا يمكن مقاومته فإنه رأى – ومعه قواد الجيش أن الحكمة تفرض الانسحاب إلى المدينة وفعلا" بدأ الاستعداد للانسحاب .. غير أنه حدث ما لم يكن يتوقعه أحد، فقد بعث الأمير عبد الله بن سعود بأحد رجاله إلى طوسون باشا يعرض الصلح والطاعة فكان رد طوسون أن ليس من سلطته أن يبت فى هذا الأمر وأنه سوف يعرض الأمر على والده.. وتوقف الجانبان عن القتال حتى يصل رد الباشا الكبير.. وفجأة ، وعلى غير توقع سافر محمد على باشا إلى مصر فقد وصلته أنباء عن مؤامرة يدبرها ضده لطيف باشا.. وأثناء الهدنة التى عقدها طوسون باشا مع عبد الله بن سعود وصلت إليه رسالة من والده تأمره بالزحف على الدرعية وأن يوجه إلى الوهابيين ضربة تكون فيها نهايتهم. ورغم هذا الخطاب الذى يأمر بالحرب فإن طوس ن باشا عقد مؤتمرا للتشاور فى الموقف العسكرى وفى مسألة طلب الصلح وكان المؤتمر مؤلفا من قواد الجيش وزعماء القبائل المناصرة وانتهوا إلى أنه من الأصوب قبول الصلح على شروط وافقوا عليها جميعا؛ وهى": أن تحتل الجيوش (1) المصرية الدرعية ، وأن يرد عبد الله بن سعود كل ما أخذه الوهابيون من الحجرة

---

(1) المرجع السابق ص ١٤٢ &

النبوية من النفائس والجواهر ، وأن يكون رهن أوامر طوسون باشا حتى إذا طلب إليه السفر إلى أى جهة كائنة ما كانت أذعن للأمر .. وأن يؤمن سبل الحج ، ويكون خاضعا" لحاكم المدينة ، وألا يتم الصلح إلا بعد عرضه على محمد على باشا وإقراره". لكن مفاوضات الصلح انهارت وكان سبب انهيارها أن عبد الله بن سعود لم يقبل أن يذهب إلى الآستانة ليقدم تقريرا: عن أعماله . فما كان من محمد على باشا أمام ذلك الرفض إلا أن هدد بشن حرب يكون فيها الدمار والخراب لبلاده . وردا" على ذلك التهديد أسرع عبد الله بن سعود باتخاذ كافة الاستعدادات القتالية اللازمة . أما محمد على باشا فإنه أرسل مددا" جديدا" إلى الحجاز بقيادة ابنه إبراهيم باشا . وبدأ إبراهيم باشا" فى مسيرته الجديدة من الصويدرة قاصدا" الحناكية وأقام معسكره بها بعد أن حصنها تحصينا جيدا لتكون قاعدة لزحفه .. ثم اتجه إلى الرس ، وهى المدينة التى كان عبد الله بن سعود قد اصطنعها معسكرا " له .. ومما يذكر أن الوهابيين كانوا قد احتلوا هذه المدينة بعد رجوع طوسون باشا إلى مصر .. فبالقرب من الرس بدأ القتال وفيه حقق الجيش المصرى انتصاره وقد أرغمت تلك الهزيمة الوهابيين على أن يتراجعوا إلى الرس وأن يتخذوها موقعا يضربون منه الجيش المصرى . فأسرع إبراهيم باشا وفرض عليها حصارا" قويا فأحاطها بالاستحكامات ونصب حولها المدافع لضربها ورغم ذلك الحصار فقد نهض الوهابيون بالدفاع عن الرس بكل حماسة ، فبذلوا أرواحهم فداء لمدينتهم مما أصاب الجيش المصرى بالخسائر الجسيمة وأمام ذلك الصمود الباهظ التكاليف وجد إبراهيم باشا أنه سوف يصاب بكارثة إذا ظل على حصاره للمدينة لأن ذخيرته نقصت نقصا شديدا لا يمكنه من مواصلة القتال .. وكذا مؤونته أشرفت على النفاد فأصبح الجيش على حافة المجاعة هذا فضلا عن القنوط الذى أصاب نفوس الجند .

وأمام هذا الصمود الوهابى والمخاطر التى أصابت القوات المصرية اضطر إبراهيم باشا إلى أن يرفع الحصار عن الرس وأن يوافق على شروط الصلح التى حددها الأمير عبد الله بن سعود ، فأتم الصلح على أن

يرفع إبراهيم باشا الحصار عن المدينة : وأن يضع * [1] أهلها سلاحهم ويقيموا على الحياد ، ولا يدخل الرس أحد من جنود إبراهيم باشا أو ضباط جيشه ولا يجبر الأهالي على تقديم شئ من المؤونة للجيش ولا يؤدوا إتاوة ، وأنه إذا استولى الجيش (المصرى) على مدينة عنيزة تسلم له الرس بدون قتال وإن لم يفلح يعود القتال ثانية ".

ووفق هذه الشروط تحول إبراهيم باشا إلى عنيزة ، وفى طريقه إليها استولى على الخَبْراء بعد أن أمطرها بقذائف مدافعه لعدة ساعات .. وفى الخبراء مكث الجيش أحد عشر يوما للراحة واستكمال عدة القتال .. وبعد ذلك قصد عنيزة وفرض عليها حصاراً استمر ستة أيام فى نهايتها اضطر حاكمها محمد بن حسن أن يسلم المدينة طبقا" للشروط الآتية ": .. لا تؤسر الحامية [2] الوهابية وأن يؤذن لها بالذهاب أنى شاءت بشرط أن تتخلى عما لديها من الأسلحة والذخائر والمؤونة ".فقبل إبراهيم باشا تلك الشروط واحتل المدينة .. ثم بعث بكتيبة من جنده لاحتلال الرس طبقا للشروط المتفق عليها . وقد جاء سقوط عنيزة ضربة قاصمة للأمير عبد الله بن سعود لأنها كانت من أهم مواقع نجد.. ثم قفل الأمير عبد الله إلى الشقراء ولم يبق أمامه سوى الدرعية العاصمة فبذل جهودا" جباره لتحصينها خشية أن تنهار أمام قصف المدفعية المصرية.. ثم استمر الجيش المصرى فى إسقاط المدن التى يسيطر عليها الوهابيون منها مدينة بريدة التى لم تحتمل القتال الشديد واستراح بها إبراهيم باشا ما يقرب من شهرين وصله فى أثنائها مدد كبير من مصر كان قد طلبه من والده . ثم واصل الزحف إلى الشقراء فبلغها فى ١٣ يناير سنة ١٨١٨. وكانت الشقراء مدينة منيعة لذلك فإنه ضرب حولها حصارا يعز النفاذ منه ثم صار يضربها بالمدافع بلا هوادة حتى انصاع أهلها إلى التسليم . وقد قبل منهم إبراهيم باشا شروطهم وهى :

* المرجع السابق ص ١٤٤ &

[1] المرجع السابق ص ١٤٥ &

[2] المرجع السابق ص ١٤٥.

" ألا يؤخذ منهم أسرى[1] ، وأن يؤذن لأهلها بالذهاب حيث شاءوا على ألا يحملوا السلاح ثانيا لقتال الجيش المصرى وإذا نقضوا عهدهم يستحل دماءهم". ودخل إبراهيم باشا مدينة الشقراء دخول المنتصرين فى يوم ٢٢ يناير سنة ١٨١٨ . ويعد فتح الشقراء انتصارا" له خطر وذلك لأهميتها العسكرية .

وبقيت الدرعية ـ عاصمة الوهابيين ـ فزحف إليها إبراهيم باشا فى ٢٥ مارس ومن الطبيعي أن يجدها على غير المدن التى قاتلها وفتحها فقد كانت على درجة كبيرة جدا" من التحصين بحكم مكانتها وخطرها كما كانت مزودة بالكثير من المدافع. ولمواجهة ذلك التحصين القوى حدد إبراهيم باشا لجنوده المواقع التى يهاجمون منها المدينة ثم انطلق القتال فى شراسة وضراوة ورغم ذلك لم يهن الدفاع فقد ظل الوهابيون يذودون عن الدرعية فى حمية استهانت بالموت . وأثناء القتال أصابت الجيش المصرى كارثة فقد نسف مخزن الذخيرة وعلم الواهبيون بما أصاب المصريين فى ذخيرتهم وبأن موقفهم العسكري أصبح حرجا للغاية فشددوا من هجومهم على الجيش المصرى.. وتدبر إبراهيم باشا موقفه القتالى فأعاد تنظيم خططه وفى نفس الوقت أمر جنوده بضرورة الاقتصاد فى الذخيرة.. وتمكن بهذا العمل رغم خطورته من أن يصد الوهابيين وظل التناوش قائما بين الجانبين حتى وصلت الذخيرة والمؤن من مصر ومعها رسالة من والده بأنه سيبعث إليه بمدد من الجنود يبلغ ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة خليل باشا. غير أن إبراهيم باشا لم يرض أن يشاركه أحد فى إحراز النصر الحاسم والنهائى على الوهابيين فأعاد تنظيم قواته التى أطبقت على أحياء الدرعية من كل جانب ولما استمر الضرب واستمر الحصار حتى ضاق الخنادق على الوهابيين وجد الأمير عبد الله بن سعود أن لامفر من التسليم فأرسل إلى إبراهيم باشا فى يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨١٨ ، برسول من عنده يطلب وقف القتال استعدادا" للصلح . وغمرت

[1] نفس المرجع ص ١٤٦ &



السعادة إبراهيم باشا ، فأمر بوقف القتال فورا .. ثم جاء الأمير عبد الله بن سعود إلى معسكر إبراهيم باشا الذى استقبله بكل ترحيب وتكريم .. وتم الصلح ": على أن تسلم"[1] الدرعية إلى إبراهيم باشا وأن يتعهد بالإبقاء عليها ولا ينالها ضرر وأن يذهب عبد الله بن سعود إلى مصر ثم إلى الآستانة كما هى رغبة السلطان ".

فوافق الأمير عبد الله بن سعود على كل الشروط ..

وكان فتح الدرعية فاتحة للاستيلاء على باقى مدن الحجاز .. ثم عاد إبراهيم باشا إلى مصر فى ديسمبر سنة ١٨١٩ ، وبعدها وضع محمد على باشا للحجاز نظاما للحكم يحقق الأمن والعدل والرخاء ...

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٦.



(٢)

السودان

إذا كان محمد على باشا قد بدأ أولى لبنات الوحدة العربية بضم الحجاز إلى مصر ضما عربيا إنسانيا ذا أبعاد أسمى وأعظم من مجرد الحرب فقد كانت العملية الثانية هى إعادة الوحدة العضوية المصيرية بين مصر والسودان.. ومن ثم لم تكن العمليات العسكرية التى قام بها محمد على باشا فى السودان مجرد عمليات الغرض منها السيطرة والهيمنة على غرار ما صنعه الاستعمار الإنجليزى بعد ذلك . ولكنه كان فتحا لإعادة الوحدة العضوية المصيرية كما قلنا وذلك لتخليص السودان من التمزق والتخلف القائم فى ربوعه والارتفاع به إنسانيا وحضاريا ليكون سندا لمصر ولتكون مصر سندا" له. وبهذا المفهوم الحضارى الإنسانى كان فتح محمد على باشا للسودان . إلا أنه يمكن إعطاء تصور متكامل عن الأسباب المباشرة وكذلك الأسباب غير المباشرة التى أضمرها محمد على باشا . ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن تلك الأسباب فى مجملها كانت أسبابا سياسية .. فما هى تلك الأسباب ؟ وما هى البواعث التى دفعت محمد على باشا إلى فتح السودان ؟

من هذه الأسباب أن محمد على باشا أراد أن يحصل على مغنم من الذهب والماس الذى أشيع أنه متوافر فى جهات من السودان لا سيما منطقة سنار .. وسبب ثان هو أن محمد على باشا رغب فى تجنيد السودانيين بالجيش المصرى الحديث لما هو معلوم عنهم من خصائص تتطلبها العسكرية وهى : الشجاعة والصبر والطاعة والأمانة .. وفضلا" عن هذا السبب فقد كان هناك سبب مقابل يأتى من العناصر الى لا زالت باقية فى الجيش لم تفنهم

الحرب الوهابية ، وهم فرق الأرناءود، و الجنود غير النظاميين (البا شبوزق) وقد كانوا مثار اضطراب وعصيان وتمرد بين فرق الجيش فكـــانت حـــرب السودان فرصة للتخلص منهم .. ويساند ذلك السبب سبب آخر هو التخلـــص مـــن المماليك الذين فروا هاربين من مصر ولا سيما بعـــد مذبحـــة القلعـــة وأقاموا بالسودان فى إقليم دنقلة .. ورغم أنهم كانوا من الهوان وضعف الشأن بحيث لا يخشى بأسهم إلا أن محمد على باشا كان ينظر بعين المستقبل . فمن يـــدرى ؟ ربما يأتى يوم يستردون فيه عافيتهم وتتكـــاثر أعدادهـــم ليكونـــوا مصدر خطر على مصر .

ومما كان يرمى إليه محمد على باشا من فتح السودان هـــو تحقيـــق الأبعاد الطبيعية لمصر فى السودان ، وتحقيق الأبعاد الاقتصادية بين مصـــر والسودان ، هذا فضلا" عن اكتشاف منابع النيل للوصول إلى البعد النهائي بين شطري الوادى ..

يمكن القول إذن إن فتح السودان ": حرب قومية[1] بحتة الغرض منها من أسمى أغراض الحروب وأنبلها قصدا إذ كانت الغاية منها تـــأليف وحـــدة وادى النيل . وليس فى فتح السودان أى غضاضة على أهله فـــإن الحـــروب كثيرا ما كانت دعامة للوحدة القومية . ومن الأمثلة التاريخية علـــى ذلـــك أن إنجلترا حاربت اسكتلندا لتكوين الأمة الإنجليزية ، وتكونت الولايات المتحـــدة الأمريكية بالحرب الأهلية التى نشبت بيـــن الولايـــات الشماليـــة والولايـــات الجنوبية فى القرن التاسع عشر ".

* * *

---

[1] المرجع السابق ص ١٦٠ &

الفتـــــح

كان لفتح السودان مرحلة تمهيدية ، وإنها لمرحلة القضاء على فلـــول المماليك الفارين بعد مذبحة القلعة إلى السودان .. فقد ذهبت تلك الفلول إلـــى جنوب النوبة فيما يلى شلال أسوان ، وجعلوا مديرية دنقلة قاعدتهم ومقرهـــم وأصبحوا ذا كيان ظاهر . فأرسل إليهم محمد على باشا وفـــدا" مـــن رجالـــه يعرض عليهم الرجوع إلى مصر للإقامة بها وذلك على شـــروط محـــددة ": أهمها ألا يستوطنوا [1] المدن المصرية إلا بإذن منـــه وأن يحضـــروا إلـــى العاصمة يخفرهم بعض ضباطه حتى لا ينهبوا شيئا من القرى والبلاد التـــى يمرون بها فى طريقهم إلى القاهرة وأن يتنازلوا عن امتيازاتـــهم القديمـــة ولا يطالبوا بما أخذ منهم بعد مذبحة القلعة ".

وكان محمد على باشا واثقا بأن مثل تلك الشروط وفيها إذلال كبـــير للمماليك لا يمكن أن يقبلوها .. ومن ثم تكون لديه الذريعة التى تجعله يشـــن عليهـــم حرب إبادة . وكان أن ثارت ثائرتهم وصاروا يهددون باختراق الحدود المصرية .. وهنا أصدر محمد على باشا الأمر للجيش المصرى الذى كـــان مـــوجودا" بمصر القديمة بأن يتوجه على الفور لفتح النوبة ودنقلـــة وأســـند القيادة العليا إلى ابنه إسماعيل باشا .. وحتى تكون لـــدى القيـــادة العســـكرية صورة عن الأرض السودانية وخطط محددة للمواقع وتحركا محسوبا للمعارك فقد وجد محمد على باشا ضرورة أن يذهب إلى حدود مصر العليا فبدأ رحلته فى سبتمبر ١٨١٩ ، وكان فى صحبته حسن باشا قائد الجنود الآرنـــاءود ، ومحمد لاظ أوغلى (كتخدا بك) . فلما تخطى شلال أســـوان وتجـــول فـــى المناطق القريبة والبعيدة نظر مع أركان حربه فى الخطة التى تحقق النصـــر

[1] نفس المرجع ص ١٦٠ &

فعين المواقع الصالحة والتحركات التي يجب تنفيذها في عملية الزحف من موقع إلى آخر ومن جهة إلى أخرى .. وبعد أن اطمأن محمد علي باشا على الخطة والنظام والمواقع وأساليب التحرك القتالي عاد إلى الجيزة في يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٨١٩ .. ثم كانت جهوده نحو إعداد الحملة جندا وسلاحا ومؤونة وكل ما يلزم عمليات القتال .

ثم تقلد إسماعيل باشا ابن محمد على باشا مقاليد القيادة العامة للحملة..

وبدأ التحرك ومعه أركان حربه في يوم ٢٠ يوليو سنة ١٨٢٠ .. حتى إذا ما وصلوا إلى أسوان تحركوا منها إلى وادى حلفا ، ومن وادى حلفا توجهوا إلى مديرية دنقلة . وفي هذا المسار لم يواجهوا مقاومة ذات خطر من المماليك فقد رأى بعضهم أن السلامة في الاستسلام ، وفضل البعض الآخر الذهاب إلى شندى طمعا في حماية ملكها غير أنه رفض إقامتهم في مملكته فكان مصيرهم التشتت وسط القبائل السودانية وتعرضهم لاعتداءات السودانيين الذين جردوهم من أسلحتهم .. وهكذا كانت خاتمة المماليك .

وأثناء زحف الجيش سلمت له كل المدن التي مر بها مثل سكوت ، والمحس ، وأرقو ، فلم يبد أهلها أقل مقاومة ، وأكثر من هذا تعهد حكامها بالطاعة والولاء .. ثم دخل الجيش بلاد الشايقية جنوبي دنقلة ـ وهي ذات أصول عربية – فتجمعت قوات الشايقية في شبه جيش لمقاتلة إسماعيل باشا بالقرب من كورتي الواقعة على الشاطئ الغربي للنيل .. ودارت معركة مع الشايقية انتهت بهزيمتهم في نوفمبر سنة ١٨٢٠ .. ورغم هزيمتهم فإنهم " أبدوا بسالة [١] كبرى في قتالهم فأعجب بهم إسماعيل باشا وعرض عليهم بعد

[١] المرجع السابق ص ١٦٢ &



انتهاء القتال أن ينتظموا فى سلك الجيش المصرى فاستجابوا إلى طلبه وبذلوا ولاءهم للحكم المصرى وظلوا محافظين على عهدهم على مدى السنين ". وبعد المعركة واصل إسماعيل باشا زحفه فوصل كورتى عاصمة الشايقية فأحرقها.. ثم واصل الزحف فى ٢١ فبراير سنة ١٨٢١، واخترق صحراء بيوضة حتى وصل إلى النيل تجاه بربر ، ونجح الجيش المصرى فى فتح بربر ، وكان ذلك فى ١٠ مارس سنة ١٨٢٣ .. ولم يسع ملكها نصر الدين إلا الإذعان والخضوع فأبقاه إسماعيل باشا" حاكما على بلده .. ثم واصل الزحف إلى مدينة شندى فاستولى عليها يوم ١٨ ، ثم أعلن ملكها " نمر " ولاءه لمصر .. ثم توجه الجيش فى زحفة ناحية الجنوب فوصل إلى مدينة حلفاية حيث يلتقى النيل الأزرق بالنيل الأبيض .. فاستولى عليها ، ثم استولى على مدينة أم درمان التى تقع على النيل الأبيض .. ثم سار الجنود حتى وصلوا إلى مدينة الخرطوم وقد ترك بها إسماعيل باشا قوة من الجند تكفى لحمايتها والدفاع عنها وأخذ معه باقى الجيش ليكمل فتح مملكة سنار فتمكن من الاستيلاء عليها واحتلال ود مدنى أكبر مدنها .. وقد أعلن ملكها الملك نادى خضوعه وطاعته ، ثم أتم إسماعيل باشا عملية سنار بدخوله عاصمتها وكان ذلك فى ١٥ يونيو سنة ١٨٢١ .

وأثناء تلك الفتوح واجه جيش الدفتر دار (صهر محمد على باشا) جيش السلطان محمد الفضل سلطان دار فور فنشبت معركة دامية بين الجيشين قرب بلدة باره شمالى الأبيض فى إبريل سنة ١٨٢١ ، وانتصر جيش الدفتردار ووضع يده على الأبيض عاصمة كردفان .

أما المعركة الحقيقية التى خاضها الجيش المصرى فكانت معركة: "باره " .. وفى هذه المعركة أظهر جيش كردفان شجاعة فائقة غير أنه عجز عن مواجهة قذائف المدفعية المصرية فسقطت كردفان وبعد المعركة قام سلطان دارفور بمحاولة استرداد كردفان ولكنه فشل ..

وكان أخطر الأعداء الذين واجههم الجيش المصرى بالسودان هو المرض فقد فتكت الأمراض المتوطنة بالجيش فتكا ذريعا وأوقفت قائده إسماعيل باشا عاجزا أمامه فبعث إليه والده بأخيه إبراهيم باشا الذى اصطحب معه مجموعة من الأطباء المتخصصين فى أمراض المناطق الحارة هذا فضلا" عن الملابس والمؤن التى جاء بها معه .. وبقدوم إبراهيم باشا دبت الحماسة فى الجنود ، وبُعث فيهم الأمل .

وبعد أن أستقر إبراهيم باشا واطمأن على قواته تدارس مع أخيه إسماعيل باشا الخطة التى تحقق إتمام فتح السودان . فكان على كل منهما أن يأخذ جبهة خاصة به فوزع الجيش بينهما إلى فرقتين ، فرقة بقيادة إسماعيل باشا ":لفتح [1] البلاد الواقعة على النيل الأزرق لغاية إقليم فازوغلى، والأخرى بقيادة إبراهيم باشا ليخترق جزيرة سنار إلى بلاد الدنكا على النيل الأبيض ويمد فتوحات مصر إلى أعالي النيل ".

وبعد أن تمت التجهيزات العسكرية للفرقتين أصيب إبراهيم باشا بمرض أعجزه عن مواصلة الفتح فاضطر إلى الرجوع إلى مصر .

أما إسماعيل باشا فإنه واصل الزحف إلى بلاد فازوغلى فأقرت له بالسلطة عليها فى يناير ١٨٢٢ ، وقد أعلن ملكها حسن أنه مطيع مخلص لمصر ولجيش مصر.. وبعد أن انتهى إسماعيل باشا من فتح بلاد فازوغلى فإنه اتجه إلى جبل بنى شنقول جنوب فازوغلى طمعا فى العثور على الذهب على أنه لم يجد شيئا .. فعاد إلى سنار..

هكذا فُتِح السودان وتولى حكمه ولاة من قبل محمد على باشا وقد بذلوا كل ما فى استطاعتهم وآخر ما فى قدرتهم لإصلاح شئون السودان الزراعية والصناعية والتجارية والاجتماعية والأمنية .. ومن هؤلاء الولاة

---

(1) المرجع السابق ص ١٦٥ &

المصلحين الذين ضرب بهم المثل فى العدل والرحمة وحب الخير لأهل السودان خورشيد باشا .. وفضلا عن إصلاحاته فإنه قام ببعض الفتوحات التى وسع بها المجال السودانى فاحتل القلابات شرقى السودان ، وكانت ذات موقع عسكرى وتجارى هام إذ كانت قريبة من حدود الحبشة . ولذلك فإنه أقام بها فرقة عسكرية دائمة .. كما أنه أخضع جبل قلى وكذلك قبائل الشلك وقبائل سبدرات ..

ومن الولاة المصلحين أيضا أحمد باشا أبو ودان فإنه فضلا" عن إصلاحاته المتعددة قام ببعض الفتوحات فى السودان : ففتح إقليم التاكا (كسلا) الواقع بين نهر عطبرة والبحر الأحمر سنة ١٨٤٠ .. ثم انشأ مدينة كسلا واتخذها عاصمة للإقليم ..

ومن المؤسف أن قد حدثت بعض المشاغبات دبرها" نمر ملك شندى. فلما علم بها إسماعيل باشا فإنه استقدمه وأهانه إهانة بالغة فأسرها فى نفسه ودبر له حفلا" استطاع أن يقتله فى أثنائه.

إلا إن فتح السودان كان خيرا" وبركة لا لمصر وحدها .. ولا للسودان وحده ولكن للأمة العربية كلها ...

(٣)

حرب اليونان

بعد أن تم فتح السودان اتسعت ربوع مصر لتضم شبه الجزيرة العربية فكانت نواة الوحدة العربية .. ومن ثم كان على محمد على باشا أن يخصص وقتا كافيا لإرساء الأسس الحضارية الكفيلة بتحقيق العظمة المصرية فسار شوطا له وزنه فى تحديث الجيش المصرى من حيث العناصر الإنسانية التى يضمها، ومن حيث نظم التدريب والتسليح بإقامة المصانع التى تمده بالأسلحة فلا يكون رهينة لأية دولة أوربية . يضاف إلى هذا إنشاء المدارس العسكرية على اختلاف تخصصاتها .. وكان على محمد على باشا أيضا أن يعنى بالزراعة ويضيف أنواعا" جديدة منً المزروعات وأن يشق الترع ويقيم الجسور ، كما أن عليه أن ييسر كل الأسباب التى تعمل على ازدهار العمران وتوفر الأمان للأمة .. فضلا عن تفكره فى المشروعات التى تفتح أبواب الرخاء لا فى مصر وحدها ، بل فى السودان بل فى شبه الجزيرة العربية .

وبينما كان محمد على باشا وأبناؤه ورجال مصر يبذلون أقصى ما عندهم فى إنشاء البناء الحضارى لمصر الحديثة لا يشغ`هم شئ سوى ذلك الهدف الأسمى .. بينما الإعمار يسير على هذا المنهج إذ فجأة يأتيه أمر تكليف من السلطان العثماني محمود بضرورة القيام بتوجيه ضربة عسكرية تكفل القضاء على الثورة التى تفجرت فى بلاد اليونان التى كانت فى ذلك الوقت جزء من الإمبراطورية العثمانية ، يقوم بحكمها - كما كان الشأن فى مصر قبل محمد على باشا - ولاه أتراك تبعث بهم حكومة الآستانة بين

وقت وآخر.. ولم يصبر اليونانيون على التحكم التركى العثمانى ، لم يصبروا على بغيه وظلمه، ولم يصبروا على فساده وإفساد. فأدركوا أن حريتهم بل حرية وطنهم.. و أن كرامتهم بل كرامة وطنهم لا وجود لها ولا ضمان لوجودها بغير الثورة التى تقتلع الأتراك من أرضهم. فأخذت الإدارة الثورية تتآلف وتتكاتف وتتحدد معالمها فى فلسفة ومنهاج.

فتكونت الجمعيات الثورية فى أنحاء اليونان.. وبفضل الرؤية الفلسفية وعرض المنهاج استثار الرأى العام الأوربى بأفكار الثوار اليونان فأيدهم وناصرهم..

ولم تظهر الدعوة الثورية فى شمال البلقان فحسب ، إنها كانت بعيدة الأغوار فى بلاد اليونان ونعنى بذلك شبه جزيرة المورة .. ولقد كانت الروح الدينية هى باعث الثورية . وإنها لدلالة لها مغزاها أن يكون أول من جهر بالثورة اليونانية متحديا الاستعمار العثمانى هو القس جرمانوس أسقف باتراس وشمال المورة.

وبفيض متدفق من الحماسة الدينية استجابت الإرادة اليونانية لنداءات الثورة فأعلن اليونانيون نضالهم من أجل حريتهم واستقلال وطنهم فى البر والبحر .. ففى البحر انطلقت السفن اليونانية تجوب كل ناحية فيه لتقتنص السفن التركية ببحر الأرخبيل فتأسرها أو تدمرها .. أما فى البر فقد تمكن الثوار من الاستيلاء على أهم مدن المورة وطرد الأتراك منها ، كما أنهم احتلوا عاصمتها تريبولتسا. ولم يخرجوا الأتراك إلا بعد أن أصلوهم عذابا" شديدا" .. ولما تزايدت الهجمات الانتقامية من السفن اليونانية للسفن التركية لم يجد السلطان بدا" من أن يطلب النجدة من محمد على باشا وذلك بأن يكلف أسطوله بمطاردة السفن اليونانية والقضاء عليها، وكان ذلك فى سنة ١٨٢١..

لقد قامت الثورة فى جزيرة كريت سنة ١٨٢١ ، كما قامت فى بلاد المورة وجزر الأرخبيل كما ذكرنا.. وقاوم الثوار الحاميات التركية التى لم

تجـد مناصا من الاختباء فى الحصون الموجودة بالجرر . فلما أن وصل أمر التكليف إلى محمد على باشا بأن يتولى القضاء على الثورة قبل أن يستفحل شأنها ويرداد عددها فإنه قام مرغما بتجهير حملة تستطيع مواجهة الثائرين، بقيادة حسن باشا فخرج الأسطول المصرى من الإسكندرية إلى جزيرة كريت فوصلها فى يونيو سنة ١٨٢٢، وقامت الحرب بين الجيش المصرى والثوار اليونانيين فى سنة ١٨٢٣.. وقد أظهر المصريون حماسة شديدة فى مقاتلة الثوار لإنقاذ الجنود الأتراك المحاصرين فى القلاع وظل القتال مستعرا حتى استطاع المصريون أن يخمدوا تحركات الثوار فعاد للجزيرة هدؤها واستقرارها. وبنفس الأسلوب القتالى قضى المصريون على الثورة فى جزيرة قبرص.

وعندما رأى السلطان محمود، سلطان العثمانيين، ما حققه جيش محمد على باشا من انتصارات عجزت قواته عن تحقيقها صار ينظر إليه بعين الريبة والتوجس والتآمر فى نفس الوقت. فقد صار لمحمد على باشا جيش قوى على أحدث نظام وأحدث تدريب، وأحدث تسليح ، فساورته الشكوك، إذ لماذا لا يصل محمد على باشا إلى وقت يناهض فيه تركيا فيتحداها بالانفصال عنها وإعلان استقلاله، ولا سيما وقد صار أقوى من تركيا بضم الجزيرة العربية والسودان إلى الدائرة المصرية؟

ومن هنا أضمر السلطان محمود النية على إضعاف قوة محمد على باشا المتنامية عن طريق تكليفه بإخماد الثورة اليونانية . ولإغراء محمد على باشا للقيام بالحملة " أصدر له [1] فرمانا يدعوه إلى ذلك ويخوله ولاية المورة .. وقد كان هذا الفرمان بمثابة توسيع لنطاق الدولة المصرية وبسط لنفوذها فيما وراء البحار وبالتالى يرفع من شأن محمد على ويريد مس

(١) المرجع السابق ص ١٩٤ &

مكانته .. كما أن استنجاد تركيا بجيشه كلما قصرت يدهـا وعجـزت عـن مقاومة الثورات سواء فى الحجاز أو اليونان مما يزيده فخرا ويوطد مركـز الدولـة المصرية التى أسسها فلم يكن هناك بد من تلبية دعوة تركيـا هـذا فضلا عن أنه إذا رفض ما عرضه عليه السلطان من التكريم والتكليف فـإن رفضه يكون حجة فى يد الساعين إلى خلعه عن عرشه وإظـهاره بمظـهر الخارج على إرادة السلطان ".

* * *

لقد بدأ الأسطول المصرى تعامله مع الأسطول اليونـانى فـى سـنة ١٨٢٤، وكانـت المفاجأة أن تعرض الأسطول المصرى لضربات موجعـة آثر بسببها الانسحـاب بعد أن أبلى بـلاء حسـنا.. ولقـد أشـاد الخـبراء العسكريون آنئذ بالمهارة القتالية العالية لرجال الأسطول المصرى ومن هؤلاء المسيودوان . فقد امتدح الأسطول المصرى فى كتابة ": فرقاطات محمـد[١] على باشا " فقال ": مضت خمسة شهور على مغادرة العمارة المصرية ثغـر الإسكندرية .. خمسة أشهر تقضت فى جهود شاقة ومتاعب لا هـوادة فيـها ومخاطر تُجدد كل يوم . وإن ما أبداه إبراهيم باشا فى هـذه الظـروف مـن الثبات ورباطة الجأش لمما يسترعى النظر . فإن قيادة أسطول بحرى تصحبه عمـارة من سفن النقل لمن المهام التى لا يسـهل الإضطـلاع بـها . وإن إبراهيـم باشا فى قيادته عمارة من مائة سفينة تقل نحو عشرين ألف رجـل من جنود وبحارة فقد اضطلع بمثل المهمة التى حملها بونابارت من قبل مـع حفظ النسبة بين الموقفين حينما اجتاز البحر الأبيض فى أواخر القرن الماضي بعمارة من ٢٨٠ سفينة تقل ٣٨,٠٠٠ مقاتل . وإذا تذكرنا أن مصر لم يكـن لها إلى ذلك الحين أسطول منتظم ولا تقاليد بحرية ولا هيئـة مـن الضـابط

[١] المرجع نفسه ص ١٩٦ &

البحـــريين الأكفاء ولا العدد الكافي من البحارة المدربيـــن .. وكـــان علـــى إبراهيـــم باشا أن يبتكر وينظم على الفور كل ما يلزم الحملة البحريـــة مـــن سفن حربية وسفن للنقل ورجال وعتاد وأن يوطن نفسه على ركـــوب البحـــر والقتال بين أمواجه وأهواله .. إذا تذكرنا كل ذلك فإنه يحق أن نعجب كيـــف أن العمارة التى حشدها محمد على أمكنها أن تبقى خمسة أشهر تجوب البحار دون أن تتفكك أوصالها ، وكيف استطاعت أن تثبت أمام الوثبات والـــهجمات الشديدة التى استهدفت لها وأصابتها من عدو له حظ كبير من المهارة من غير أن تخســر سوى سفينتين حربيتين وبضعة نقالات لا شك أن هـــذه الحقـــائق تدلنـــا على مضاء عزيمة إبراهيم باشا وعلو همته ، وتطالعنا بمـــا تحتويـــه نفسه من صفات العظمة ومزايا الرياسة والقيادة كما أن مواقفه فـــى ميـــادين القتال ورباطة جأشه فى مغالبة المحن تدل على شجاعة كـــبرى لا يســـع أى إنسان إلا أن يبادر بالإعجاب بها ".

وبعد عدة معارك بحرية تبين لإبراهيم باشا أن منازلته لثوار اليونان لا تكون عن طريق البحر ولكنه البر الذى يمكن عليه منازلتـــهم ودحرهـــم.. فعلى جزيرة كريت رسى إبراهيم باشا على البر أى على شواطـــئ المـــورة فاتخذ قاعدته الأولى ميناء مودون ، وكان ذلك فى فبراير سنة ١٨٢٥ .. ففي هذه القاعدة صار ينظم شئون الجند وما يلزمهم من السلاح والعتاد والمؤن.. وبعد ذلك حدد خطة الزحف - وذلك بالاستشارة مع أركان حربه - وكيفيـــة التحرك داخل البلاد من موقع إلى آخر ومن مدينة إلى أخرى.. ثم انتقل مـــن ميناء مودون إلى ميناء كورون لتخليص حاميتها من الحصـــار اليونانـــى. وبعد أن نجح فى رفع الحصار أمد جند الحامية بما هم فى حاجه إليـــه مـــن العتاد والمؤن.. وبعد الانتهاء من كورون أرسل فرقة من قواته لإنقاذ مدينـــة نفارين من أيدى الثوار الذين احتلوها وتحصنوا بها فقد كانت من أهم مواقـــع المورة .

ولما كانت نفارين على درجة عالية من التحصين فقد رأى إبراهيم باشا أن يضرب عليها الحصار برا وبحرا .. وواجه اليونانيون ذلك الحصار بمقاومة مستميتة بذل أمامها المصريون الكثير من التضحيات وعانوا الكثير من الشدائد . ولما شاهد إبراهيم استماتة الثوار فى مقاومتهم فإنه أخذ فرقة من جنده ليدعم بها قوة الحصار .. وفى أثناء التفافه حول المدينة تصدت له قوة من اليونانيين تبلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة جندى خفوا لإنقاذ حامية نفارين ، فأنزل بهم إبراهيم باشا هزيمة قاسية فأسر قائدهم وتمزقت الفرقة شر ممزق..

وبعدها ضاعف إبراهيم باشا من قوة الحصار من البر والبحر وكانت المدينة على وشك الإنهيار والتسليم لولا أن خفت إليها قوة من المتطوعين اليونانيين لتخليصها من الحصار والتغلب على الجيش المصرى .. وعندما شاهد إبراهيم باشا تمزايد القوات اليونانيه تزايدا" له خطره عليه فإنه أعاد تنظيم قواته على نحو يضمن قهر العدو .. وبعد أن صار بينه وبين العدو حوالي عشرة أميال فإنه أقام المدافع القويةحول المدينة على أن تتولى فرقة خاصة مهمة الإبقاء على الحصار ومراقبته.. ثم أخذ إبراهيم باشا باقى الجيش وتقابل مع اليونانيين قريبا من المدينة .. وبدافع من الغيرة الوطنية الطاغية هاجم اليونانيون المصريين فى الوقت الذى أعطى فيه إبراهيم باشا أوامره إلى رجاله بألا يطلقوا النار من مواقعهم إلا إذا صدرت إليهم الإشارة .. فلما أن اقترب العدو حتى أصبح على بعد مائة متر فقط أعطيت الإشارة فأطلق الجنود المصريون رصاصهم بغزارة فوقع المئات صرعى واضطربت صفوف العدو وأصابه الذعر من هول الرصاص المنطلق ولم يجد الناجون مخلصا لهم سوى اللجوء إلى الجبال والفيافى ..

لقد كانت هده المعركة انتصارا" ساحقا للقوات المصرية أعلـــت مـــن مكانة الجيش المصرى وزكت النظرة إليه .. كما كانت المعركة فـــى ذاتـــها بشارة لانتصارات متوالية وقعت بعد ذلك .

بهذا الانتصار الكبير استطاع إبراهيم باشا أن يشدد الحصـــار علـــى نفارين.. غير أن المدينة واصلت صمودها إذ أن وقوعها على ساحل البحـــر مكنهـــا من الحصول على ما تحتاجه من المؤن والذخائر التى تعينـــها علـــى مواجهة الحصار.. وأمام هذا الموقف الموئس أدرك إبراهيم باشا أنه لا بد من القيام بعمل عسكرى يمنع وصول المدد إلى نفارين .. ولا يمكن أن يتـــم ذلك إلا إذا استولى على جزيرة إسفاختريا التى تحجب الميناء حتى يتمكـــن مـــن إقامـــة المدافع فيغلق بها مدخل الميناء فلا يستطيع أحـــد الدخـــول إليـــه .. وتقديرا للوضع العسكرى الخطير لهذه العملية فإنه أقام التحصينات القوية وقد زودها بالمدافع حتى يستحيل الاستعلاء عليها ..

ثم تقرر الاستيلاء على جزيرة إسفاختريا وتعين لهذا العمل ســـليمان باشا الفرنساوى ، وكان ذلك فى مايو ١٨٢٥ ،، وقام سليمان باشا من مينـــاء مودون – بحرا – متجها إلى نفارين وعندما أصبحت السفن المصرية علـــى مرمى المدافع أطلقت عليها قلاع العدو مدافعها فردت السفن المصرية بإطلاق مدافعها وتحت وابل الضرب نزل الجنود المصريون فى زوارق خفيفة اتجهت بهم إلى الجزيرة فتشبثوا بها وتجمعوا بأسرع ما يمكن وذى هجمة واحدة تـــم لهم الاستيلاء على الجزيرة بعد دفاع عنيف من العدو .

وكانت النتيجة الأولى لهذا النصر أن شدد إبراهيم باشا مـــن قبضتـــه على مدينة نفارين .. وحاول اليونانيون لمواجهة هذا الموقـــف العصيـــب أن يقدموا العون العاجل من الرجال والأسلحة والمؤن إلى المدينة ولكن إبراهيـــم باشا تعقب تلك المحاولات بالضرب المتواصل حتى عجز اليونانيون عن إنقاذ المدينة .. ويئس المحاصرون من إمكانية الصمود فكان أن تقدموا إلى إبراهيم

باشا أن ": يسلموا[١] إليه المدينة بقلاعها وما فيها من المؤن والذخائر والأسلحة بشرط أن يؤمنهم على حياتهم .. فاستجاب لهذا الطلب فى ١٨مايو سنة ١٨٢٥ ، ودخل المدينة فكان دخول الجيش المصرى بها من أعظم الانتصارات التى تزين تاريخه الحربى "..

وكان من نتائج سقوط ميناء نفارين أن سيطر القنوط وفقدان الرجاء على اليونانيين ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر أن الوجود العسكرى المصرى فى المورة أصبح راسخا" فلا يمكن اقتلاعه ولا سيما أن المدينتين اللتين استولى عليهما وهما: مودون ، وكورون ، من القواعد العسكرية التى تمكن من إحكام السيطرة الكاملة على المورة ..

وحاولت البحرية اليونانية محاولة اعتدائية يائسة ، فقد توجهت خمس من سفنها إلى السواحل المصرية لممارسة القرصنة للانتقام من مصر لاشتراكها فى الحرب ..

فلما وصل خبر القرصنة اليونانية إلى محمد على باشا فإنه أصدر أمره إلى محرم بك أميرال الأسطول المصرى ، ووكيله بلال أغا بضرورة الخروج لتعقب السفن اليونانية التى ما إن شاهدت السفن المصرية حتى لاذت بالفرار .

وبعد سقوط نفارين لجأ الثوار إلى ميناء كلامتا ، وكان سكانه من أهل الجبل المعروفين بالشجاعة والإقدام فقصد إليهم إبراهيم باشا بنفسه وكان وصوله باعثا على اشتداد القتال بين الجيش المصرى والثوار اليونانيين غير أنهم رغم شجاعتهم لم يستطيعوا الصمود فسلموا لإبراهيم باشا قلاعهم وذخيرتهم وأسلحتهم . وكان من أصداء تلك الهزيمة أن سلمت القرى القريبة كما تمكن إبراهيم باشا من فتح مدينة أركاديا الواقعة على البحر غربى المورة.

* * *

---

[١] المرجع السابق ص ١٩ &

ثم وجد إبراهيم باشا أن الضرورة العسكرية تفرض إسقاط مدينة تريبوليتسا عاصمة المورة التى تقع فى قلب شبه الجزيرة .. ومن الطبيعى أن تكون العاصمة محصنة تحصينا يخشى العدو أن يقترب منه ولذلك فإن إبراهيم باشا وجد أن القضاء على الثورة اليونانية يحتم القضاء على العاصمة والاستيلاء عليها فأخذ فى عبور جبل تايجنت .. وصادف الجنود مشقات كثيرة فى عبورهم " لأن اجتياز مضايق هذا الجبل الوعر من أشق الأمور لوعورة الطرق واستهداف من يجتازها للأخطار"[1] . وقد التقت القوات المصرية بالثوار اليونانيين عند مضيق كوشيكا فهزموهم وبعدها دخل إبراهيم باشا مدينه تريبوليتسا ثم واصل سيره لمطاردة الثوار فى وادى أرجوس .. وفى ٢٧ يوليو سنة ١٨٢٥ ، نزل على وادى لكونيا ، وفيه توجد مجموعة من معاقل الثوار فهاجمهم وأوقع الهزيمة بهم .. ثم دمر استحكاماتهم.. ثم واصل الزحف واحتل باتراس وباحتلال باتراس أصبحت جزيرة المورة تحت السيطرة المصرية سوى مدينة نوبلى.. التى كانت فى مقام عاصمة الحكومة الثورية.. فكان لا بد من اتخاذ استعدادات خاصة لضرب الحصار عليها واقتحامها.

وأثناء الاستعدادات التى كانت جارية فى همة وسرعة لحصار نوبلى جاءت إلى إبراهيم باشا رسالة من رشيد باشا قائد الجيوش التركية يطلب منه فيها الإسراع فى الاشتراك معه فى حصار مدينة ميسولونجى وذلك لحرج موقفه ..

فما كان من إبراهيم باشا إلا أن أرجأ حصار نوبلى واتجه إلى ميسولونجى .ولقد حاول رشيد باشا فى حصاره لميسولونجى أن يتغلب على قواتها ويقتحمها غير أنها ظلت صامدة لمنعتها أولا ، ولوصول الإمدادات

[1] المرجع السابق ص ٢٠١ &

إليها باستمرار ثانيا .. ومما ساعد على ذلك أنها كانت تقع على خليج باتراس فكانت متصلة بالبحر تأتيها الإمدادات عن طريقه .. هذا فضلا" عن أن السفن الحربية التركية لم تجسر علـــى الاقـــتراب مـــن ميســـولونجي لأن الســـفن والحراقات اليونانية كانت لها بالمرصاد ..

وأمام هذه المنعة التى كانت لمدينة ميسولونجى طلب إبراهيم باشا من والده بعد أن عرض عليه الموقف العسكرى أن يبعث إليـــه بقـــوات تكفـــى لخـــوض المعركة .. فلما جاءه المدد دبر خطة المواجهة وقـــد اقتضتـــه أن يترك فى بلاد المورة قوات تكفى لحمايتها ثم عين سليمان باشـــا الفرنســـاوى قائدا" عاما للقوات المصرية فى تريبوليتسا وكل بـــلاد المـــورة .. وبعـــد أن اطمأن إبراهيم باشا على قواته فى المورة توجه إلى مدينة ميسولونجى.. ولما تصـــور الجو الذى سوف تكون عليه المعركة أدرك أنـــه ســـيكون دمويـــا رعيبـــا ومـــن ثم فإنه دعا سكان المدينة إلى التسليم لتجنـــب ســـفك الدمـــاء ولكنهم أصروا على المقاومة وإن فقدوا أرواحهم وسالت دماؤهم .. وفى نفس الوقت طلبوا من القائد اليونانى كرا سيكاكى – وكان غير بعيد منهم – أنـــهم قرروا الخروج جمعيا فى ليلة ١٢ إبريل سنة ١٨٢٦ ، فعليه من ثم أن يقـــوم بمهاجمة الجيش المصرى فى موعد ضربوه له ": فلما خرجوا [1] فى الوقـــت المعلوم فى هدوء وسكون مستترين فى جنح الظلام قابلهم الجيش المصـــرى بنار كالصواعق حصدت صفوفهم حصدا فارتدوا إلى المدينة من غير نظـــام وتعقبهم المصريون حتى دخلوا المدينة فى أعقابهم وأعملوا فيهم السيف والنار وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ".

واسودت الدنيا أمام أولئك المدافعين عن مدينتهم فقد ضـاع أملـــهم لا فى إنقاذ المدينة فحسب بل فى حياتهم نفسها فقـــرروا الانتحـــار الجمـــاعى":

---

[1] المرجع السابق ص ٢٠٢ &

فاجتمعوا [1] فى مستودع ذخائر وكان عددهم نحو ألفين ما بين شيوخ وأطفال ونساء.. واتفقت كلمتهم على أن يؤثروا الموت على التسليم فوضعوا البارود وأشعل فيه رئيسهم النار فانفجر وخر المكان على من فيه وقتلوا جميعا "..

وبعد سقوط ميسولونجى وجه محمد على باشا جهوده لإعداد القوات الكافية بالاشتراك مع تركيا لإسقاط آخر حصون الثورة اليونانية فى جزيرة هيدرا، واسبتزيا ، وميناء نوبلى .. وأثناء هذا الإعداد العسكرى ونتيجة لتأثر الرأى العام الأوربي بهزائم الثوار اليونانيين وتعاطفه معهم عقدت الدول الغربية فيما بينها عدة مفاوضات انتهت بمعاهدة لندن (٦ يوليو سنة ١٨٢٧) وفى هذه المعاهدة اتفقت إنجلترا وفرنسا وروسيا ، وانضمت إليهم فرنسا فيما بعد، على التحكيم بين تركيا واليونان على أن يقوم التحكيم على مبدأ تحقيق الاستقلال الداخلي لليونان على أن تحتفظ تركيا بسيادتها عليها .. كما نصت المعاهدة على أن يوقف الطرفان المتحاربان القتال بينهما كما تعهدت الدول الثلاث : إنجلترا وفرنسا وروسيا بعرض وساطتهم على السلطان العثمانى فإذا لم يقبلها فى مدة شهر كانت القوة هى وسيلة التنفيذ .. ويبدو أن الحلفاء كانوا واثقين من أن السلطان العثمانى لن يرضخ لطلبهم ": فاتفقوا [2] على إرسال أساطيلهم إلى مياه اليونان لتأييد مطالبهم بالقوة ولمنع السفن المصرية والعثمانية من الوصول إلى الشواطئ اليونانية وإرسال المدد إلى الجيش المصرى والتركى بها ".

لقد كانت للمعاهدة التى عرضها الحلفاء على سلطان تركيا أبعاد" خطيرة .. فهم كانوا يسعون إلى فرض المعاهدة على الجانب التركى المصرى فقط على ألا يتقيد اليونانيون بها فقد أعطوهم الحرية الكاملة فى تحركاتهم العسكرية فى البر والبحر سواء فى شبه جزيرة المورة أم فى بحر الأرخبيل .. وبهذه الحرية يمكنهم أن يوحدوا صفوفهم مرة ثانية وأن تأتيهم الإمدادات التى يطلبونها من أية جهة بما يمكنهم من محاربة المصريين

---

(1) نفس المرجع ص ٢٠٢ &

(2) المرجع السابق ص ٢٠٧ &

وإنزال الهزيمة بهم . وأمام تلك المعاهدة التى علم بها محمد على باشا فإنه عكف على دراسة موقفه العسكرى والتأييد الدولى لليونان ووصل إلى نتيجة هامة هى أن الدخول فى حرب مع الحلفاء معناه الدخول فى حرب عالمية ستكون بلا شك وبالا" على مصر ومستقبلها .

ولما كان الحلفاء قد أضمروا الشر للوجود المصرى التركى القائم على أرض أوربية فإنهم صمموا على تدمير الأسطول المصرى التركى بأسرع ما يمكن أيا كانت سياسة المسالمة التى يصطنعها إبراهيم باشا من المعاهدة .. ولعل دول الحلفاء كانت تسير خلف السياسة الإنجليزية التى كانت ترى ضرورة القضاء على الأسطول المصرى لأنه إذا ترك وشأنه فسوف يكون أخطر منافس للسيادة البحرية الإنجليزية فى البحر الأبيض المتوسط على الأقل .

ونفذ الحلفاء أسلوب الغدر بالأسطول المصرى فدمروه وكان فى تدميره المفجع نهاية للقوة البرية المصرية فى أوربا .. وبعدها سلمت تركيا بقرارات معاهدة لندن التى نصت على استقلال اليونان استقلالا داخليا وألا يكون لتركيا عليها من السيادة إلا السيادة الإسمية فحسب وفى نفس الوقت أعطت الدول الموقعة على المعاهدة لليونان الحق فى الاستقلال التام فى ٣ فبراير سنة ١٨٣٠ .

وأمام تلك المؤامرة الأوربية والإذعان التركى المذل .. والخسارة الجسيمة التى أصابت مصر فى أسطولها فى معركة نفارين وفقدانها الاتصال بجيوشها فى بلاد اليونان .. أمام هذه الكوارث أصبح محمد على باشا على يقين مكين بأن مصلحة مصر ، ومستقبل مصر يكمن فى الابتعاد عن تركيا تماما .. وكيف لا تبتعد وقد ضحت بالآلاف من أرواح جنودها فضلا" عن النفقات التى لا تستطيع أية دولة أن تتحملها ؟..

وبهذه الاعتبارات اتفق محمد على باشا مع الحلفاء على وقف القتال وجلاء الجيش المصرى عن المورة وذلك وفق الشروط الآتية :

أولا : يتعد محمد على باشا بإعادة الأسرى اليونانيين وتحرير من بيع منهم فى مصر .

ثانيــا: يتعهد الأميرال الإنجليزى بإرجاع الأسرى المصريين وإعادة السـفن المصرية التى أسرت .

ثالـث: أن تخلى الجنود المصرية المورة وينقلهم محمد على باشا على سفنه.

رابعـا: ألا يكره اليونانيون المقيمون بمصر على الرحيل عنها ولا يجـبرون على البقاء فيها وكذلك يسمح لمن يشاء من اليونـانيون أن يصحبـوا الجيش المصرى فى عودته إلى مصر.

خامسا : يجـوز لإبراهيم باشا أن يترك فى المورة عددا" مـن العسـاكر لا يزيد على ألف ومائتين للمحافظة على مودون، وكدرون، ونفارين، وباتراس، وتوريزه، أما المواقع الأخرى فتخلى فورا..

ومع هذه الخسائر التى أصيبت بها القوات المصرية فضلا عن الشعب المصرى فقد كان للحرب اليونانية عدة نتائج كانت كلها فى صالح مصر، من هذه النتائج:

أن قد كانت الحرب الأوربية المصرية أول حرب من نوعها يخوضها الجيش المصرى الذى أثبت فى كل معاركه أنه أعلى تنظيما وأرقـى تحديثـا وأكفأ قتاليا من كثير من الجيوش الأوربية مما أكسـبه احـترام أوربـا لـه وتقديرها لمكانته .. وبفضل هذا الاحترام والتقدير جعلت أوربا علاقتها بمحمد على باشا مباشرة وأهملت الوجود التركى .. ومن النتائج ذات الدلالة الخطيرة أن الحـرب اليونانية أكدت استقلال مصر عن تركيـا . وجـاءت الإشـارة الأولى لاستقلالها حين رفض محمد على باشا مساعدة تركيـا حيـن نشبـت الحرب بينها وبين روسيا متذرعا" بأسباب واهية ..

إذن لماذا لا يعلن محمد على باشا استقلاله عن تركيا ؟

لماذا لا يحقق الوحدة العربية بضم الشام وفلسطين ؟

لماذا لا يحقق الوحدة بالسيف فتركيا أضعف من أن تواجهه أو تقف فى سبيله؟



(٤)

الشـــــام

تطلع محمد على باشا إلى تحقيق الوحدة العربية بضم سوريا أو الشام بعامة إلـــى مصر ، وراودته هذه الفكـــرة طويـــلا وألحـــت علـــى خـــاطره وشعـــوره وأحلامه فانتهز فرصة حرب المـــورة (اليونـــان) فطلـــب مـــن السلطان العثمانى أن يمنحه شيئا من التعويض عما لحقه فى جيشـــــه وأمتـــه المصرية من نكبات أنفق فيها أموالا طائلة ما كانت تحتملها خزانة الســـلطان نفسه.. انتهز فرصة انتهاء حرب المورة وعرض أمنيته هـــذه علـــى البـــاب العالى ، ولكن الباب العالى رفض ، وكرر الطلب فرفض ، وكـــرر الطلـــب فرفض .. إذن لـــم يكن أمام محمد على باشا سوى القوة يحقـــق بـــها تلـــك الرغبة العزيزة على نفسه..

ولتحديد البواعث التى دفعت محمد على باشا إلى شن حـــرب علـــى السلطان لانتزاع سوريا من إمبراطوريته فإنه يمكن القول بأن بواعث الحملة المصرية العسكرية على الشام كانت دفاعية وهجومية فى نفس الآن.

أما عن الأسباب الدفاعية فقد كان محمد على باشا واثقا من أن تركيا لن تتقاعس عن استـــرجاع أملاكها التى فقدتها فى شبه الجزيرة العربية وفى السودان وذلك لاسترجاع مكانتها فى مصر .. وكان محمد على باشا واثقا من أن السلطان محمود يضمر له العداء فى أعماق نفسه ولولا أن الدولة العثمانية كانت مضطربة فى شئونها وتصريف أعمالها لما تأخر السلطان عـــن شـــن الحرب على محمد على باشا الذى كان مصرا" على ضم سورية إلى مصـــر لأنها الحجاز الطبيعى الذى يعوق تركيا عن مهاجمة مصـــر .. ولقـــد كتـــب



الدكتور: * كلوت بك فى هذا الموضوع يقول": إن ضم (١) سورية إلى مصر كان ضروريا لصيانة ممتلكات الباشا فمنذ تقرر فى الأذهان أن إنشاء دولة مستقلة على ضفاف النيل يفيد المدنية فائدة عامة وجب الاعتراف بأنه لا يمكن إدراك هذه الغاية إلا بضم سورية إلى مصر . وقد رأينا فعلا أن موقع البلاد الحربى لا يجعلها فى مأمن من الغزوات الخارجية خصوصا عن طريق برزخ السويس فإذا استثنيا غزوة الفاطميين المغاربة وغزوة الفرنسيين بقيادة بونابارت نجد أن سائر الغزوات جاءت عن طريق سورية، كغزوة الفرس فى عهد قمبيز، وغزوة الإسكندر، والفتح الإسلامى وغزوات الأيوبيين والأتراك. وعلى ذلك يمكن الاطمئنان إلى بقاء مصر مستقلة بإعطائها الحدود السورية لأن حدودها ليست فى السويس بل فى طوروس ".

أما عن البواعث الهجومية التى حدت بمحمد على باشا لانتزاع سوريا من السلطان العثمانى فقد كانت أمنيته أن يوسع سلطانه بالاستيلاء على سوريا وقد جال بخاطره ذلك الأمل منذ سنة ١٨١٠ .. ولكنه كان يرجو فى بادئ الأمر أن يبلغ هدفه برضاء السلطان وموافقته لا أن يحصل عليه عنوة .. كتب المسيو دروفتى قنصل فرنسا فى مصر، وكان من أكبر أعوان محمد على باشا، رساله إلى حكومته جاء فيها": إن محمد على يطمع فى ولاية سورية، وقد قال لى يوما إنه لا يستبعد أن ينالها مقابل مبلغ من المال سبعة أو ثمانية ملايين قرش يدفعها لخزانة السلطان , وقد أخذت فكرة الاستقلال تزداد رسوخا" عنده منذ استظهاره على أعدائه وقمعه فتنة الجنود وتخلصه من الارتباكات المالية " . وفى رسالة أخرى إلى الحكومة الفرنسية ، وقد عرض فيها إلى الأسلحة الهائلة التى أخذها محمد على باشا فى حرب الوهابيين لأنها كانت من الكثرة بحيث توحى أن محمد على باشا لم يكن يقصد بها الحجاز

* كلوت بك ، فرنسي من أصدقاء محمد على باشا وقد عمل بمصر &

(١) المرجع السابق ص ٢١٨ &

وحده .. فلماذا لا تكون سورية كذلك ، وقد قال فى هذه النقطة ": إن جميع الاستعدادات [١] التى يعدها الباشا تدل على أن الحملة تخترق الصحراء وتصل إلى سورية ولا تزال غايتها الحقيقية سرا" مكتوما فى ضميره ، وخطته فى هذا الصدد لم تتغير وهى التأنى ثم التصرف مع الأحوال بحسبها".

ومما يؤكد ظن القنصل الفرنسى أن محمد على باشا انتهز فرصة الحرب الوهابية - وكان السلطان فى أشد الحاجة إلى إخمادها وطلب منه أن يضم إليه ولاية الشام متذرعا بأنه يحتاج إلى مدد من الرجال منها يساعدونه فى محاربة الوهابيين.. إذن فقد كان محمد على باشا مصرا على الاستيلاء على سوريا. غير أن انشغاله بالحرب الوهابية والحرب السودانية ثم الحرب اليونانية أجل التنفيذ إلى ريث تحدث مبرراته ودوافعه .. ومما يجعلنا نؤكد أن تلك هى النية المبيته لتحقيق ذلك الحلم تلك التصريحات التى أعلنها إبراهيم باشا وهو مشتغل بالحرب فى سورية فقد أورد المسيو كادلفين، وبارو فى كتابها • إنه بينهما كان الحصار مضروبا على عكا سئل إبراهيم باشا: إلى أى مدى تصل فتوحاته إذا تم له الاستيلاء على عكا ؟ فقال ما معناه: إلى مدى ما يتكلم الناس وأتفاهم وإياهم باللسان العربى . وقد قابله البارون " لبو الكونت " بالقرب من طرسوس بالأناضول سنة ١٨٣٢ ، بعد عودته من كوتاهية وكان له معه حديث طويل فذكر عنه ": إن إبراهيم باشا يجاهر علنا بأنه ينوى إحياء القومية العربية وإعطاء العرب حقوقهم وإسناد المناصب إليهم سواء فى الإدارة أم فى الجيش وأن يجعل منهم شعبا مستقلا ويشركهم فى إدارة الشئون المالية،ويعودهم سلطة الحكم كما يحتملون تكاليفه وتتجلى فكرته هذه فى منشوراته ومخاطباته لجنوده فى الحرب

---

[١] المرجع السابق ص ٢١٨&

•١كتاب ": حرب مصر ضد الباب العالى فى سورية والأناضول سنة ١٨٣١ ــ ١٨٣٣"

الأخيـرة فى سورية فإنه لا يفتأ يذكر الأمة العربية ومجدها التالد ويتصل بهذا مجاهرته بأن كل البلدان العربية يجب أن تنضم تحت لواء أبيه . وقد قال لى إن أباه يحكم مصر والسودان وسورية ومن الواجب أن يضم العراق إلى حكمه ، وأن جزيرة العرب تابعة لأبيه الذى يعمل الآن على إتمام فتحها . وهو فى صلاته مع أهل البلاد يستخدم اللغة العربية ويعد نفسه عربيا ولذلك لا ينفك يطعن فى الأتراك . وقد لاحظ عليه ذلك أحد جنوده وخاطبه بتلك الحرية التى كان يشجع رجاله عليها وسأله كيف يطعن فى الأتراك وهو منهم؟ فأجابه إبراهيم باشا على الفور ": أنا لست تركيا فإنى جئت مصر صبيا، ومنذ ذلك الحين قد مصرتنى شمسها وغيرت دمى وجعلته دما" عربيا".

إذن فقد كان إبراهيم باشا" متكاملا" فى فكره مع أبيه فقد كان ينشد إقامة دولة عربية مصرية تؤلف بين الناطقين باللغة العربية فتسترجع بذلك عظمة القوة الإسلامية التى تجسدت فى الفاطميين والأيوبيين والمماليك حيث كانت مصر تؤلف مع سوريا والجزيرة العربية والمغرب والسودان دائرة القومية العربية .

وإلى جانب هذه الأهداف القومية فقد كان هناك هدف اقتصادي من فتح سورية وكذلك هدف عسكري .. أما الهدف الاقتصادي فقد كان محمد على باشا يريد أن يستثمر الخيرات السورية من الخشب والفحم والنحاس وغيرها . وهى التى كانت تفتقر إليها مصر فى صناعاتها المدنية والعسكرية .. والهدف العسكري هو أن يجند من الشباب السوري جنودا يكونون عونا لإخوانهم المصريين هذا فضلا عن إعادة المصريين الذين أرغمتهم أعمال السخرة على الفرار إلى الشام فى جماعات ليتخلصوا من الأعباء الجسام وليتخلصوا من الخدمة العسكرية التى كانوا يلزمن بها . وقد أربت الأعداد المهاجرة من الفلاحين على ستة آلاف مهاجر .. ولما كان لتلك الهجرة تأثيرها على الاقتصاد وتأثيرها فى نفس الوقت على سمعة محمد على



باشا ، فإنه خاطب عبد الله باشا والى صيدا بشأنهم طالبا منه أن يرجع المصريين الذين هاجروا إليه إلى مصر . ولكن عبد الله باشا رفض طلب محمد على باشا ذاكرا" له أن ليس من حقه أن يطالب بإرجاعهم فهم من الرعايا العثمانيين الذين لهم الحق فى أن يقيموا حيث شاءوا .. فأغضب ذلك الرد محمد على باشا وهدده بأنه إن لم يرجعهم فسوف يقدم إليه ليأتى بهم جميعا" يزيدون [1] واحدا" وهو عبد الله باشا ذاته "..

وهكذا اصطنع محمد على باشا الذريعة التى جعلته يجرد حملة على عبد الله باشا .. فكأن محمد على باشا لم يقصد بحملته على الشام محاربة السلطان أو الخروج على طاعته . فهو مخلص له غاية الإخلاص يكن له كل تقدير ، وكل ما فى الأمر أنه يحارب حاكما يحسب أنه أعلى من الدولة .. وكان ذلك هو ما روج له محمد على باشا حين أرسل حملته إلى الشام ...

فى شهر أكتوبر سنة ١٨٣١ ، أصدر محمد على باشا أمره إلى الحملة بأن تبدأ تحركها .. وكان الجانب الأكبر من الجيش يتخذ طريق العريش ليجتاز منها إلى الحدود السورية .. وكانت القيادة مكونة من إبراهيم باشا القائد العام ومعه أركان حربه الكولونل سيف (سليمان باشا الفرنساوى)، وعباس حلمى باشا (وهو عباس باشا الأول ابن محمد على الذى تولى الحكم عقب وفاة إبراهيم باشا) ..

ولقد بدأ التحرك العام للقوات البرية فى يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٣١ ، متجهة إلى الحدود السورية تحت قيادة إبراهيم باشا يكن .. ولم تكد القوات المصرية البرية تقترب من غزة حتى فرت حاميتها العثمانية .. ثم تقدم الزحف إلى يافا فغادرتها الحامية التركية وتركتها للجيش المصرى . ووصل الأسطول المصرى إلى يافا وهناك التقى بالقوات البرية .. وقد اتخذ

---

[1] المرجع السابق ص ٢٢١ &

إبراهيم باشا من حيفا قاعدته العسكرية الرئيسية والمركز الرئيسي للإمداد والتموين كما خزن بها الأسلحة والذخائر والمدافع .. ومنها بدأ يتخذ أهبته للهجوم على عكا .. وكانت عكا تتمتع بتحصينات قوية تعز على أى مهاجم لها عن اختراقها أو زلزلة أسوارها . ولا عجب فى ذلك فعكا هى التى سخرت من نابليون منذ نيف وثلاثين سنة فعجز عن اقتحامها . هذا فضلا" عن أن حاكمها أحمد باشا الجزار قد أضاف إليها الكثير من الاستحكامات بعد أن ارتد عنها الفرنسيون فصارت أشد بأسا" وتحصينا مما كانت عليه من قبل.. ولهذا كان واليها عبد الله باشا على ثقة من أن الجيش المصرى لن يستطيع اقتحامها أو حتى الاقتراب منها .. ثم تقدم الجيش المصرى نحو عكا وحاصرها فى يوم ٢٦ نوفمبر وقد شارك الأسطول المصرى فى الحصار ، فكان الحصار برا" وبحرا .. ثم بدأ الصدام فأطلق الجيش المصرى من البر والبحر قذائفه على أسوار عكا فردت عليه القوات التركية من الحصون بنيران كثيفة أصابت بعض السفن المصرية إصابات مباشرة فأخلت مواقعها عائدة إلى الإسكندرية لإصلاحها .

ولما كانت عكا على هذا النحو من القوة وتحدت القوات المصرية لمدة ثلاثة أشهر فإن إبراهيم باشا رأى أن يضيق الخناق على عكا فقام بإحتلال المواقع ذات الأهمية العسكرية فى ولاية صيدا وما حولها . فاستولت إحدى الفرقة المصرية بقيادة حسن بك المناسترلى على صور ، وصيدا وبيروت وطرابلس . كما قامت فرقة أخرى باحتلال مدينة القدس .. ولم يصادف الجيش المصرى فى طريقه أية مقاومة فقد كانت البلدان السورية تسلم إليه بدون مقاومة ..

وأمام هذا الزحف السريع وسقوط المدن السورية واحدة بعد أخرى فى يد القوات المصرية فقد خشي السلطان مغبة النتيجة فأرسل رسولا من عنده إلى محمد على باشا يطلب منه التوقف الفورى عن القتال . وكان

محمد على باشا يعلم أن تركيا من الضعف بحيث لا يمكنها أن تؤلف قوة يمكنها أن توقفه عن مواصلة الزحف . فاصطنع أسلوب المماطلة فى تلبية طلب السلطان معلنا لرسول السلطان أنه مخلص للدولة العثمانية وأنه لا يسعى إلا لتأديب الخارجين عليها .. وفى نفس الوقت بعث برسالة إلى ابنه إبراهيم باشا يأمره بأن يواصل الزحف ويشدد من الحصار على عكا ، وأن يجتهد فى فتحها قبل أن تصلها أية نجدة تركية إذا فكرت تركيا فى نجدتها ولكن السلطان تمكن من جمع نحو عشرين ألف مقاتل جعلهم تحت قيادة عثمان باشا اللبيب والى طرابلس وجعل مهمته أن يرفع الحصار عن عكا وهنا تقدم الجيش العثمانى من ناحية البر وصار يجمع كل من يصادفهم فى طريقه من الأكراد والعرب ويضمهم إليه .. ووصل خبر تحرك المدد التركى إلى إبراهيم باشا ، فجمع أركان حربه وتشاور وإياهم فيما ينبغى اتخاذه لمواجهة الموقف الجديد فانتهى الرأى إلى أن تبقى قوة حول عكا تظل قائمة بالحصار ثم يتجه الجزء الآخر من الجيش نحو القوات التركية القادمة وأن ينزل بها الهزيمة قبل أن تبلغ عكا .

وزحف عثمان باشا وتحت قيادته بضعة آلاف مجموعة كيفما اتفق ، وانتهز فرصة إنشغال إبراهيم باشا بحصار عكا وتوجه نحو طرابلس لانتزاعها من الحامية المصرية ولئن تمكن عثمان باشا من دخول المدينة إلا أن الحامية المصرية تمكنت من طرد المهاجمين وأخرجتهم .. ثم ازداد الموقف العسكرى للمصريين خطورة عندما وصل مدد إلى الأتراك فأصبحت طرابلس على شفا السقوط ، فأسرع إبراهيم باشا لإنقاذها واتخذ ساحل البحر طريقه فلم يكد العدو يشاهد القوات المصرية حتى تراجع عن المدينة تماما ؛ وأسرع إبراهيم باشا خلف الأتراك إلى حمص ثم رجع إلى بعلبك ليتزود بالذخيرة التى تعينه على مطاردة الجيش العثمانى.. وفى هذا التراجع وصل إلى سهل الزراعة (قرية جنوب حمص). وقد كان هذا التراجع سببا فى إطماع



عثمـــان باشا فى تعقب الجيش المصرى .. فجاء اللقاء فى ســـهل الزراعـــة ولئن كانت القوات العثمانية أكثر من المصرية إلا أنها كانت مؤلفة من أشتات من فرسان العرب والأكراد ليست على شئ من النظام أو التدريب أو القـــدرة علـــى القيادة .. وهجم عثمان باشا على الجيش المصرى ولما كان قد أحـــاط به من كل اتجاه فقد ظن أنه صار تحت رحمته .. غير أن إبراهيـــم باشـــا ، وبمساعدة سليمان باشا الفرنساوى ، نظـــم جنـــوده فـــى صفـــوف منتظمـــة متراصة وجعل المدافع وراءهم فاختفت عن أعين العدو .. وانطلـــت الحيلـــة على القائد التركى فشن هجوما شاملا" على القوات المصرية التى لم تتحـــرك أمامه ولم تطلق رصاصة . ولما أن أصبحت القوات التركية علـــــى مســـافة قصيرة رجع المصريون إلى مدافعهم فأطلقوها على المـــهاجمين محصدتـــهم حصداً فخر منهم صرعى كثيرون وتشتت شمل الباقين فـــأجفلوا هـــاربين . وتعقبهم المصريون حتى ألجأ وهم إلى نهر العاصى فغرق فيه كثيرون ..

وهكذا انتهت المعركة بهزيمة دموية للجيش التركى .. وتراجع عثمان باشا ومعه بقية جيشه إلى مدينة حماة منتظراً أن يأتيه مدد ..

أما إبراهيم باشا فإنه ارتد إلى بعلبك ليأخذ منها ما يحتاجه من ذخيرة ومؤونة استعدادا" لمواصلة القتال ..

وحدث أثناء تلك المعركة ــ معركة الزراعة ــ أن عبـــد الله باشـــا وجدها فرصة فى نقص القوات المحاصرة لعكا ، فلماذا لا يهاجمها ؟ فخـــرج من حصونه وهاجم القوة المصرية وتغلب عليها كما أنه غنـــم الكثـــير مـــن مدافعها . ولكن ذلك النصر الذى حققه عبد الله باشا كـــان هزيـــلا ، وظـــل إبراهيم باشا مقيما فى بعلبك يراقب حركات الجيش العثمانى خشية أن يشـــن هجوما جـــديدا .. ثم جاءته الأخبار بعد ذلك أن عثمان باشا بعث إلى الآستانة يرجوها سرعة إمداده بالجند . وفى هذا دليل كاف على حرج موقفه العسكرى



وأن ضعفه لن يمكنه من معاودة الهجوم. فضلا عن أن المدد لن يصله إلا بعد مضى شهرين هذا إذا أسرع الباب العالي بنجدته ..

إذن فقد وجد إبراهيم باشا أن فرصته تكمن فى تشديد الحصار على عكا من البر والبحر .. وكان ممن ساعده فى إحكام الحصار وسهله له العرب والدروز والموارنة الذين عرضوا خدماتهم عن رضى وطيب خاطر ..

ثم بدأ ضرب عكا من جديد ، وصار إبراهيم باشا يصب عليها من قذائف مدفعية القوية حتى زلزل سور المدينة من شدة الضرب . ونشأ عن تصدعه ثغرتان كبيرتان وأخرى صغيرة .. آنئذ وجد إبراهيم باشا أن لا بد من شن هجوم شامل على المدينة وحدد الهجوم بيوم ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ .. وفى صباح ذلك اليوم تقدمت القوات المصرية نحو الثغرات الثلاث فاستولت على اثنتين . أما الجنود الذين توجهوا إلى الثغرة الثالثة فإنهم واجهوا أمامها مقاومة عنيفة فتراجعوا قليلا .. وعندما أبصرهم إبراهيم باشا وهم يتراجعون فإنه أخذ فرقة من الجند الاحتياط وتقدم أمامهم شاهرا" سيفه . فلما وجد الجنود أن قائدهم يفتديهم دبت فى نفوسهم سورة الجسارة ورجعوا إلى الثغرة فاقتحموها .. وظل القتال مستعرا فى ضراوة حتى المساء بعد أن أظهرت حامية عكا ضروبا من التضحية ما يستحقون من أجله الثناء .. وأخيرا" عجزت الحامية عن الصمود .. فطلب عبد الله باشا التسليم وتم تسليم المدينة فى مساء ذلك اليوم .

وهكذا استولى الجيش المصرى على عكا بعد ستة أشهر بعد أن تكبد الجانبان خسائر تجل عن الوصف ..

وقد كان لسقوط عكا أصداء واسعة فى تركيا وأوربا أما فى مصر فقد غمر الابتهاج البلاد وأقيمت الأفراح ثلاثة أيام متوالية .

وبعد معركة عكا منح إبراهيم باشا جنوده راحة ليستعيدوا قوتهم ونشاطهم .. واثناء تلك الراحة نظم الشئون الإدارية فى المدينة وكذلك الشئون العسكرية من حيث إعادة تسليح قلعتها واعادة تحصينها وبناء ما تصدع منها.

* * *

* وكان الهدف التالى لإبراهيم باشا هو مدينة دمشق .. فانطلق من عكا فى يوم ٩ يونيو سنة ١٨٣٢.. فلما أصبح على مشارف دمشق تصادم الجيشان المصرى والعثماني غير أن العثمانين لم يصبروا على القتال ففروا من الميدان . أما أهالى مدينة دمشق فإنه لم تبد منهم أية مقاومة للجيش المصرى ، فاستقبلوه مرحبين لأنهم كانوا يتمنون الخلاص من الحكم التركى وبغيه فكان أن تألف وفد من أعيان المدينة وذهبوا إلى إبراهيم باشا الذى استقبلهم استقبالا كريما .. فعرضوا عليه طاعتهم وولاءهم ومناصرتهم . ثم دخل المدينة فى ١٦ يونيو ": ونصب الجيش[١] خيامه خارج المدينة واحترم الجنود المصريون أملاك الأهالى وأموالهم ، فكان سلوكهم مدعاة للإعجاب مما حبب الحكم المصرى فى نفوس السوريين وخاصة حينما قابلوا هذا المسلك بما اعتاده الجيش العثمانى من أنواع الاعتداء المنكرة ".

ثم أمضى إبراهيم باشا فى دمشق ثمانية عشر يوما حضر أثناء صلاة الجمعة فى المسجد الأموى .. رتب أثناءها الشئون الإدارية للمدينة وذلك على نظام ييسر للناس شئونهم وينشر بينهم العدل والأمن . و ن ثم فإنه عين أحمد بك اليوسف من كبار رجالات دمشق متسلما عليها ، ثم أقام ديوانا يتكون من عشرين عضوا من أعيان المدينة سماه ": ديوان المشورة " يناط به النظر فى دعاوى الرعية والحكومة ..

* * *

[١] المرجع السابق ص ٢٢٩ &



* لقد كان سقوط عكا فى يد الجيش المصرى بمثابة الطامة الكبرى التى حاقت بالسلطان العثمانى الذى عبر عن غضبه وحسرته فى نفس الآن بإذاعة أن محمد على باشا عاص لخليفة المسلمين .. كما أنه وجد فى نفس الوقت أنه لا بد من مواجهة محمد على باشا مواجهة حاسمة وذلك بإعداد أسطول يمكنه منازلة أسطول محمد على باشا وإعداد جيش برى ينزل به هزيمة لا تقوم له بعدها قائمة .. وقد تولى السر عسكر حسين باشا قاهر الإنكشارية قيادة القوات البرية وزاد السلطان فى تكريمه تشجيعا له بأن منحه لقب"سردار أكرم ". . ووعده فى نفس الوقت بأن تكون له ولاية مصر وكريت إذا هزم الجيش المصرى ؛ ويعد حسين باشا من أكفأ قواد تركيا..

تقدمت قوات حسين باشا فى تريث إلى درجة أنه لم يصل إلى مضايق جبال طوروس إلا فى أوائل شهر يولية سنة ١٨٣٢ .. وقد اتبع حسين باشا خطة اتصفت بالحيطة والحذر ؛ فهو لم يخف بجيشه كله لمصادمة الجيش المصرى . ولكنه فضل أن يكون غير بعيد من أنطاكية وفى نفس الوقت أرسل محمد باشا والى حلب ومعه الجيش وأمره بالتحصن فى حمص .. وقد أوقعه ذلك الحذر فى ": خطأ حربى [٢] كبير جدا" لأن انفصال المقدمة عن باقى قوات الجيش وتورطها فى مقاتلة الجيش المصرى يعرضها للهلاك المحتوم ".. فلما أحيط إبراهيم باشا بوقوع القائد التركى فى ذلك الخطأ قرر أن يهاجم المقدمة ويدمرها وبعدها يستدير إلى باقى الجيش.

فسار من دمشق متجها نحو حمص ، ثم استقدم الجنود الذين كانوا تحت قيادة عباس حلمى باشا ، وحسن بك المناستِرلى فى بعلبك وطرابلس . وهكذا تجمع فى حمص ما يقرب من ثلاثين ألف جندى فصار مواجها لقوات محمد باشا والى حلب .. ولقد يقال : ولم كل تلك الحشود أمام مدينة حمص ؟ فالحق

---

(٢) ٣، المرجع السابق ص ٢٣٠ &

أن مدينة حمص التى تقع على الشاطئ الأيمن من نهر العاصي ذات موقع إستراتيجي على درجة كبيرة من الخطورة ": فهى ملتقى [1] عدة طرق ، فهى على طريق بعلبك ودمشق جنوبا وطريق أنطاكية وحلب شمالا ". وتصادم الجيشان ، وهاجم المصريون الجيش التركى بضراوة بالغة زعزعت موقفه. ومما زاد من اضطرابه وحرجه أن المدافع المصرية كانت تصوب قذائفها نحوه بمهارة ودقة متناهية فاستطاعت أن تصيب أهدافها ولا تخطئها وبالطبع كانت ": تحصد صفوف الترك [2] حصد النبات ". أما المدافع التركية فلم تصب أهدافها لأن جنودها لم يكونوا مدربين جيدا"كما أنها نصبت بغير تنظيم يضمن إصابة الهدف .. هذا فضلا" عن أن مدافع الصف الثالث – للعدو – لم تجد من يطلقها فبقيت منصوبة بغير أن تجد رجالها .. وكانت النتيجة انتصاراً عظيما للقوات المصرية فى معركة حمص التى وقعت فى يوم ٨ يوليو ١٨٣٢ .. وتعد معركة حمص المعركة الأولى التى يتصادم فيها الجيش المصرى مع الجيش التركى . ولئن كان الجيشان متكافئين من حيث العدد ، وكان الجيشان يتبعان النظم العسكرية الحديثة .. غير أن هناك تفوق خاص للجيش المصرى هو الذى حسم المعركة ؛ فالجيش المصرى يمتاز ": ببراعة [3] القيادة وحسن النظام وبسالة جنوده والتفوق فى المران العسكرى ".

* * *

* بعد معركة حمص واصل الجيش المصرى التقدم فاستولى على حماة ثم حلب حيث استراح فيها عدة أيام وفد عليه أثناءها جموع من أورقا ،

---

(1) نفس المرجع ص ٢٣٠ &.

(2) نفس المرجع ص ٢٣٠ &.

(3) المرجع السابق ص ٢٣٣ &.

وديار بكر، ترحب بقدوم الجيش المصرى وقد رحب إبراهيم باشا بالوفود وكرمهم وطمأنهم بأن نظام الحكم المصرى هو الذى سيقوم بينهم .. بعد ذلك انطلق إبراهيم باشا فى زحفه حتى أشرف على مواقع العدو فى بيلان .. وبيلان مدينة تقع جنوب الإسكندرونه وشمال المضيق والجبل المعروفين باسمها .. وكانت قوات الجيش التركى تعسكر على قمم جبال بيلان ،فى الوقت الذى كان الجيش المصرى فيه معسكرا" فى السهل الواسع المنبسط " تحت المضيق غرب الطريق[1] الواصل بين كليس إلى أنطاكية ".

وصار إبراهيم باشا يدرس مواقع الترك القائمة على جبل بيلان ، فرآها مواقع محصنة بالطبيعة ولذلك فإنه من العسير أن تقع بها إصابات ذات تأثير من الجيش المرابط فى السهل المنبسط .. ولذلك فإن إبراهيم باشا عقد على الفور مؤتمرا مع ضباط أركان حربه وتبادلوا الرأى والمشورة للوصول إلى خطة يتحقق بها النصر . وانتهت المداولات والمشاورات إلى أنه يستحيل مهاجمة الأتراك بالمواجهة إذ لا بد من الدوران ": حول ميسرتهم[2] من الجنب تمهيدا" للإحاطة بها ثم يحتل الجيش المصرى أكمات تتسلط على القلب فيجعل المشاة هدفا لنيران المدافع المصرية وفى نفس الوقت يرسل الجيش جزءا" من قواته للإحاطة بميمنة الجيش التركى "..

وقد أوكل إبراهيم باشا إلى نفسه القيام بتلك المهمة الخطيرة لأن عليها تتوقف نتيجة المعركة .. ومن الوجهة الاستراتيجية فقد كانت هاتان الحركتان لا سيما حركة الميمنة التى تولى إبراهيم باشا قيادتها تتقاضى الجنود مصاعب كثيرة .. فقد اضطر الجنود المصريون إلى أن يسيروا ويستمروا فى سيرهم فى طرق شاقة ورغم ذلك فإنهم تغلبوا على مشاق الطريق بالصبر

---

(١) نفس المرجع ص ٢٣٨ &.

(٢) نفس المرجع ص ٢٣٨ &.



و الاحتمال.. و عندما شاهدهم الترك و هم يتقدمــون أطلقــوا عليــهم قذائــف مدافعهم.. و هنا أصدر إبراهيم أمره بإقامة المدافع وراء الأكمة التى تمركــز فيها جنود المشاة ثم أطلقت المدافع على الجيش التركى بين القلب و الميسرة . وظــل الجانبان فى تصارع مدفعى عنيف ، هذا بينمــا القــوات المصريــة تزحف شرقا حتى تخطت مواقع الجناح الأيســر مــن الجيــش الــتركى ": فهاجمته[1] من الأمام ومن الخلف هجوما شديدا فتقلقل الترك عــن مواقعــهم واضطــروا إلى الارتداد شمالا فــابتدأت هزيمتــهم واســتمر المصريــون يتعقبونهم ".. وهكذا أرغم الترك على مغادرة مواقعهم على طول خط القتال ، فاستولى عليها المصريون .. وعلى هذه الصورة كانت هزيمة الجيش التركى فى موقعة بيلان فى ٥ يوليو سنة ١٨٣٢.

واتجه الترك وهم فى ذعرهم يتخبطون إلــى مينــاء الاســكندرونه ليعتصموا بالأسطول التركى الذى كان موجودا . ولكنه كان قد غادر المينــاء عقــب هزيمة بيلان ، فاقتفاهم المصريون فلما لحقوا بهم أعملوا فيهم القتــل والأســر . ثم احتلوا الاسكندرونه .. ثم تقدم الفرسان بجوار الساحل حيــث استولــوا على بياس الواقعة شمال الإسكندرونة وأسروا منها ١٩٠٠ مقــاتل من الجيش العثمانى . وفى نفس الوقت تــهاوت مدينــة أنطاكيــة واللاذقيــة والسويدية..

لقد كانت موقعة بيلان هزيمة داحرة للجيش التركى الذى لــم يجــرؤ قائده على الظهور خوفا من الإعدام إذا وقع فى يد السلطان .. فكان أن تنكر واختفى إلى حيث لم يعرف مصيره.

* * *

---

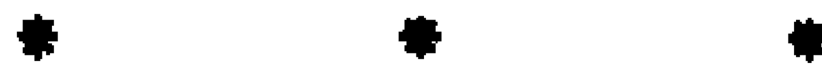
(١) المرجع السابق ص ٢٣٨ &.

* ولم يهدأ السلطان العثمانى فقد أرقته انتصارات محمد على باشا.. وفى عناد اليائس صمم على إدخال الجيش المصرى فى معركة جديدة.. ففى ١٨ ديسمبر سنة ١٨٣٢ ، وصلت طليعة من طلائع الجيش التركى يقودها رءوف باشا إلى شمال قونيه ، وكانت تتكون من مجموعة من الجنود الذين لا يعرفون نظاما وليسوا على شئ من الخبرة العسكرية. فأراد إبراهيم باشا أن يعجم قدرتهم القتالية .. فقاتلهم يسيرا" . فلما أدرك أنهم ليسوا على شئ من العسكرية فإنه أراد أن يجرهم إلى القتال غير أن رءوف باشا تنبه إلى قصد إبراهيم باشا فلم يشأ أن يدخل معه فى معركة فى ولم يزد القتال فى يومي١٨ ، ١٩ ديسمبر ، على مناوشات يسيرة استطاع المصريون أن يأسروا أعدادا" كبيرة من الجنود العثمانيين ، كما استولوا على مجموعة من المدافع .. وفى صباح يوم ٢٠ ديسمبر زحفت الجيوش التركية يقودها رشيد باشا نحو قونية وتواجه الجيشا وصار القائدان إبراهيم باشا ورشيد باشا ينظمان جنوديهما ويحددان لهم المواقع وفى اليوم التالى حيث تقرر الصدام ظهر ضباب كثيف فى الصباح الباكر لم يُمَكِّنْ كل قائد من تعيين مواقع الجيش المواجه له .. وظل الجيشان متأهبين فى مواقعهما .. ثم أخذ الضباب الكثيف ينقشع قليلا " قليلا مما مكن كل قائد من أن يتفحص مواقع الآخر .. وكان إبراهيم باشا قد أعد لقواته خطة محكمة ، ولم يكتف بهذا بل إنه خرج فى جولة تفقدية وكان يصحبه فيها كبار القادة من أركان حربه نذكر منهم: مصطفى مختار بك، وكانى بك، ومحمد أفندى. وذلك فى قوة مؤلفة من ألف وخمسمائة جندى مَن العرب.

وبعض أن فحص إبراهيم باشا مواقع جيش عدوه عرف بخبرته القتالية الموقع الضعيف الذى يمكن أن يحقق له ما يهدف إليه .. وقد أخطأت القيادة التركية خطأ تكتيكيا فادحا ، ذلك أن قوة الفرسان التى كانت تمثل ميسرة الجيش التركى . كانت مفصولة عن المشاة. وكان من جراء

هذا أن صار بين الفريقين – الفرسان والمشاة – مسافة يبلغ طولها حوالي ألف خطوة . ومعنى هذا أن الميسرة أصبحت فى حالة عزلة عن باقى القوات .. ورآها إبراهيم باشا فرصته فى أن يقتحم بقواته – الحرس والفرسان – تلك الثغرة فيتمكن من اختراق صفوف الأتراك .. وهنا أصدر أوامره إلى قواته بالتحرك حسب الخطة فسارت قوة الحرس يعقبها الفرسان .. وتركت البئر وراءها بمسافة قليلة ، وبعدها خطت نحو الشمال فواجهت الميسرة التركية فهاجمتها بشدة وقد عاونتها المدفعية فى هجومها فانهمرت القنابل على الأتراك من الجنب .. وكان نتيجة الهجوم والضرب الصائب بالمدفعية أن تصدعت مواقع الأتراك فاضطروا إلى التراجع ناحية الشمال على غير هدى. فخاضوا فى مستنقعات سيئة ولذلك لحقت الهزيمة بميسرة الجيش التركى .. ثم واصل المصريون زحفهم المنصور حتى حاقت الهزيمة الكاملة بالجيش التركى فأسر قائده ومعه ستة آلاف من رجاله كان بينهم عدد لا بأس به من الضباط والقواد هذا فضلا عن مقتل ثلاثة آلاف جندى.

وتعد هذه المعركة من المعارك الفاصلة فى تاريخ الصراع مع السلطة العثمانية لأنها فتحت الباب للقوات المصرية للزحف على الآستانة مباشرة بغير أن تواجه مقاومة تذكر من القوات التركية .. وهنا أصابت السلطان رعدة الخوف على مصيره ولاسيما أن الجيش المصرى أصبح على مسيرة ستة أيام من البوسفور .



وفى خضم الحرب المصرية العثمانية يستحيل علينا أن نتجاهل دور الأسطول المصرى سواء فى القتال أم فى مؤازرة المقاتلين أم نقل المؤن والذخائر ومن أعماله العظيمة فى تحقيق النصر فضلا عن اشتراكه فى حصار عكا ، فقد أبلغ محمد على باشا من إحدى سفن الأسطول المصرى فى

شهر يونيو سنة ١٨٣٢ ، أن الأسطول التركى قد غادر ميناء الدردنيل يقوده الأميرال خليل باشا رفعت ليقوم بدور فى القتال .. آنئذ أصدر محمد على باشا أوامره إلى القوات البحرية المصرية الموجودة فى بحر الأرخبيل أن تتعقب الأسطول التركى وتشتبك معه . فانطلقت البحرية المصرية إلى مياه رودس ، وعند وصولها علمت أن الأسطول التركى انطلق نحو ميناء الإسكندرونه لتعزيز القوات التركية بالرجال والمؤونة والذخيرة . فلما أن بلغ الإسكندرونة ليقوم بمهمته وجد أن الهزيمة قد حاقت بالجيش التركى فى حمص ثم حاقت به هزيمة أخرى ساحقة فى بيلان . فكان أن عاد يجر أذيال الفشل والخيبة بعد أن أفرغ حمولته من المؤن التى لم يستطيع الجنود الأتراك حملها لأنهم كانوا يسارعون فى الفرار ؛ ثم توجه الأسطول بعدها إلى جزيرة رودس .

أما الأسطول المصرى الذى كان مكونا من سبع وعشرين سفينة حربية والذى كان يقودها الأميرال عثمان نور الدين فإنه انطلق مفتشا" عن الأسطول العثمانى . وتشاء الأقدار أن يجتمع الأسطولان المصرى والعثمانى فى مياه قبرص بعد معركة بيلان .. ورغم أن الأسطول التركى كان متفوقا" من حيث العدد ومن حيث المعدات القتالية على الأسطول المصرى فإن قائده خشى أن يدخل معه فى معركة. فكان أن جنح إلى خطة دفاعية.. وفى نفس الوقت، وأمام ذلك المسلك القتالى من الجيش التركى فإن الأميرال عثمان نور الدين باشا وضع تحركات الأسطول العثمانى تحت المراقبة فحسب فلم يهاجمه فى مبدأ الأمر.. واستمر الأسطولان على هذا الموقف لمدة ليست بالقليلة حتى أقلع أميرال الأسطول العثمانى إلى ميناء مرمريس أحد موانى الأناضول ليستقر به.. فسار الأسطول المصرى خلفه وتمكن من محاصرة الميناء.. ولكن البحر هاج بأعاصيره هياجا شديدا فلم يتمكن عثمان نور الدين باشا من أن يستمر فى محاصرة الميناء .. فتراجع

واتخذ سبيله إلى ميناء السودة بجزيرة كريت .. وبعد أن استخفى الأسطول التركى فى ميناء مرمريس لمدة عشرين يوما فإنه انتهز فرصة هياج البحر ورجع إلى مياه الدردنيل .. وفى نفس الوقت عاد الأسطول المصرى إلى الإسكندرية ..

تلك صورة من صور النشاط القتالى للأسطول المصرى فضلا" عن تحمله عبء تسهيل المواصلات بين مصر وسورية فبفضل الأسطول تمكنت مصر من تزويد جيوشها بكل ما يلزمها .

* * *

* عندما تقهقر الجيش العثمانى مخذولا إلى داخل تركيا ثم تبعه الجيش المصرى حتى اقترب من الآستانة أصاب الدول الأوربية ذعر شديد وخشيت مغبة ما يحدث بعد هذا للسلطة العثمانية ورأت أنه من الضروري إيقاف الجيش المصرى .. لقد خشيت إنجلترا مما قد ينتهى إليه محمد على باشا من تقويض السلطنة العثمانية .. وبنفس الروح خشيت روسيا وكذلك فرنسا وألمانيا والنمسا. إلا أنه كان لكل منهم غايته وهدفه من إيقاف محمد على باشا دون أطماعه . ومن هنا توجهت الدول الأوربية مجتمعة وطلبت من محمد على باشا أن يسوى خلافاته مع تركيا . وهذا يعنى أن قد أصبح لمصر مكانة دولية مرموقة ، فلا تستطيع تركيا أن تتجاهلها . ولكن محمد على باشا لم يعبأ كثيرا باحتجاجات الدول الأوربية أو تلميحها بالتفاوض فقد أدرك أن الدول الأوربية تسعى إلى شئ واحد: حرمانه من حقوقه التى نالها بحد السيف إرضاء لتركيا المريضة المتخاذلة.

* * *

* فى هذا الوقت زحف إبراهيم باشا نحو كوتاهيه فاحتلها وبذلك أصبح على مسافة قريبة جدا من العاصمة التركيه الآستانة .. وبعدها أرسل



فرقة من جيشه تمكنت من احتلال مغنيسيا ، وتقع بجوار أزمير .. ثم بعث بأحد رجاله إلى أزمير ليبسط فيها الحكم المصرى ، فلما وصل قام من فوره بعزل حاكم المدينة طاهر بك وعين مكانه منصور زادة (فى فبراير ١٨٣٣) وكان من كبار أعيان أزمير .. وابتهجت المدينة بهذا التحول الجديد غير أن الأميرال روسان سفير فرنسا فى الآستانة لم يقر هذا الإجراء ونصح بضرورة التراجع عنه حتى لا تتخذها روسيا فرصة إلى إعلان حمايتها لمصالح تركيا . وبعد مفاوضات سريعة أعيد الحاكم القديم إلى مدينة أزمير .. وبعد هذا توسط سكرتير السفارة الفرنسية فى تركيا البارون دى فارين بين السلطان ومحمد على باشا . وانتهت الوساطة بعقد معاهدة كوتاهية بين الطرفين المصرى والتركى ، وقضت المعاهدة ": بأن يتخلى السلطان[1] لمحمد على باشا عن سورية وإقليم أدنه مع تثبيته على مصر وجزيرة كريت والحجاز مقابل أن يجلو الجيش المصرى عن باقى بلاد الأناضول ".. وهكذا كانت معاهدة كوتاهية التى عقدت فى مايو سنة ١٨٣٣ ، خاتمة للحرب السورية الأولى .

ومما لا ريب فيه أن الوجود المصرى فى سوريا كان وجودا" حضاريا له طابع خاص وميزات خاصة لم تعرفها سوريا من قبل .. فأولا، كان لابد من تأكيد الوجود العسكرى المصرى فى سوريا لا خوفا من الشعب السورى ولكن خشية من محاولة السلطان أن ينتزعها من يد محمد على باشا .. ومن ثم فقد عنى ": بتوطيد [2] مركز مصر فى سوريا فأمن حدودها الشمالية وعنى بتحصين مضايق جبال طوروس لصد هجوم الترك

---

[1] المرجع السابق ص ٢٥٥ &.

[2] نفس المرجع ص ٢٦٠ &.

إذا حدثتهم أنفسهم بالزحف على الشام ، ورمم حصون عكا وأسوارها وشيد الثكنات والمستشفيات وخطط الطرق الحربية واستقرت الحاميات المصرية ".

أما الوجود الحضاري المصري في سوريا فقد زكاه وامتدحه السوريون والأجانب على حد سواء ؛ فقد قال سليمان أبو العز أحد أدباء سوريا:

"من التغييرات الاجتماعية[1] التي نشأت عن حكم محمد على باشا في سوريا إطلاق الحرية الدينية ونشر روح الديمقراطية بالضرب على أيدى الزعماء والمتغلبين ونزع السلطة من أيديهم وإنشاء العلاقة ما بين أفراد الشعب وحكامه مباشرة ، وتأليف مجالس مشورة تمثل الشعب بعض التمثيل ولها حق النظر في الشئون المحلية بعد أن كان النظر في جميع الشئون منوطا بحكام مستبدين ".

ومن الشهود الأجانب المارشال الفرنسي مارمون الذي زار سوريا سنة ١٨٣٤ ، فابتهج بما شاهده من شيوع الأمن والاستقرار فكتب عن زيارته يقول ": إذا بقيت أعمال[1] محمد على باشا وبقي الأمن الذي بسطه فيما فتحه من البلاد كما صار إليه الآن من الاستقرار الذي يدعو إلى الإعجاب فإن حالة هذه البلاد سينبه شأنها وستتطور تطورا" كبيرا".

وكتب المؤرخ الفرنسي المسيو لويس بلان في كتابه ": تاريخ عشر سنوات " ": إذا أردنا أن نعرف ما أفادته سوريا[3] من انتقالها من الحكم التركي إلى حكم المصريين فما علينا إلا نلقى نظرة على سهول أنطاكية التي اكتست بأشجار الزيتون وضواحي بيروت التي كثر فيها الكروم والنشاط الذي انبعث في حلب ودمشق .. صحيح أن محمد على باشا أظهر جنفا

---

[1] نفس المرجع ص ٢٦١ &

[1] نفس المرجع ص ٢٦٢ &

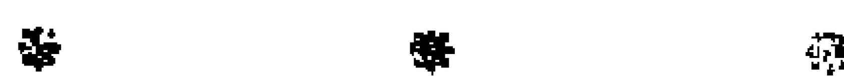
[3] المرجع السابق ص ٦٣ &



وقسوة فى حكم سوريا ولكن فى ظل هذا الاستبداد العارض الذى كان ضرورة ولزاما حيث سادت الفوضى فى تلك البلاد قد نالت سوريا النظام والعمران ".

ومع هذا الاستقرار الحضاري وظهور بشائره فإن تركيا جندت الكثيرين من عملائها السوريين الذين أضيروا من حكم محمد على باشا فألبوا جموع الشعب على الحكم الجديد بل على النظام الجديد بل على الحياة الجديدة – فاندلعت ثورات متعددة فى أنحاء سوريا حاول محمد على باشا وابنه إبراهيم معالجتها بالحكمة ولكن التآمر كان أقوى كما أن التظاهر الأوربي ضد محمد على باشا بدأ بتحرك ليضع نهاية لفتوحاته وحدودا يقف دونها فلا يتخطاها.

صحيح ان الدول الأوربيه حاولت أن تقرب بين محمد على باشا وتركيا لتجنب نشوب الحرب بينهما فتزداد علاقتهما تدهورا وتزداد العلاقات الدولية تأزما لكن المحاولات باءت بالفشل لأن انجلترا كانت دائبه على تحريض تركيا على مواصلة القتال ضد محمد على باشا . وفضلا عن اخفاق المفاوضات التى جرت فقد وجد محمد على باشا ان الدسائس التركية تزداد احتداما ضده فى سوريا وأن الثورات التى اندلعت فى المدن السورية الكبرى كانت من تدبير وتحريض العملاء الأتراك يعاونهم العملاء السوريون، وهنا وجد أن قد آن الأوان لأن يعلن استقلاله عن تركيا . فكان أن استدعى وكلاء الدول فى مصر وأعلن بما استقر عليه رأيه وكان ذلك فى مايو سنة ١٨٣٨ ، وكانت تلك هى المرة الثانية التى يجهر فيها بعزمه على الاستقلال وكانت المرة الأولى فى سنة ١٨٣٤.





* فى أثناء المفاوضات وبعد ما يقرب من عام زحفت طليعة الجيش التركى نحو قرية نصيبين ، وأحاطت بما حولها ؛ وقرية نصيبين قرية صغيرة داخل الأراضى التركية وعلى مسيرة بضع ساعات من الحدود السورية التركية . وتأهب حافظ باشا قائد الجيش التركى للقيام بالزحف نحو القوات المصرية فى سوريا .. فزحفت طلائعه نحو مدينة عينتاب فاحتلها وما حولها من القرى .. وتخطت فرقة من الجيش التركى نهر الساجور ، وهو الفاصل الطبيعى بين سوريا وتركيا ، فانهارت بذلك الشروط التى حددها اتفاق كوتاهية .

ثم سارت القوات التركية متجهة إلى قرية تل باشر فاحتلتها بعد أن قتلت وأسرت نفرا" من حاميتها ..

فماذا يصنع إبراهيم باشا أمام خرق الأتراك للمعاهدة ؟ وقبل أن يصله رد من والده فإنه قاد جيشه من حلب لإرغام الأتراك على الرحيل من تل باشر. وبمجرد أن شاهد الأتراك القوات المصرية قادمة نحوهم فإنهم رحلوا عن البلدة .. وكان ذلك فى ٣ يونيو سنة ١٨٣٩ .. وبعدها تمكن الترك من احتلال مدينة عينتاب بعد أن رحلت عنها الحامية المصرية .

ثم وصل رد محمد على باشا على ابنه فى منتصف يونيو ، وكان الرد حاسما جازما فحواه أنه ما دام الترك هم الذين بدءوا بخرق المعاهدة ولم يراعوا ما بها من مواثيق فإن عليه - أى إبراهيم باشا - ألا يهاجم الجيش التركى فحسب ، بل إن عليه أن يسحقه سحقا .. آنئذ اطمأن إبراهيم باشا ، وفى الحال أصدر الأمر إلى قواده بأن يستعدوا للهجوم على الجيش التركى الذى تمركز فى نصيبين ... ووفق خطة هجومية قرر إبراهيم باشا حشد المشاة والفرسان على ضفاف نهر الساجور ، الحاجز الطبيعى بين الحدود المصرية والتركية .. وفى يوم الجمعة ٢٠ يونيو ١٨٣٩ ، تحرك إبراهيم باشا بقواته نحو قرية مزار لتكون قاعدته للهجوم - وتوجد هذه القرية

جنــوب غرب نصيبين .. وعندما أبصرت القوات التركية بمزار قدوم القوات المصرية نحوها فإنها أخلتها فى الحال وتقهقرت إلى نصيبين حيـــث يوجـد معسكر الجيش.

ثم أخذ إبراهيم باشا ينظم مواقع قواته فى ضواحى " فرار " وذلك فى الجــانب الأيسر من النهر المسمى باسمها .. وكخطوة هجوميه أولى كان لابد لإبراهيم باشا من أن يتعرف على طبيعة المواقع التركية مـــن حيـث القــوة والضعف ليبدأ بمهاجمة الضعيف أولا .. وقد صحبه فـــى عمليـــة التعــرف سليمان باشا الفرنساوى ومعهما من القوات ألف وخمسمائه من الجنود العرب وأربعة آليات من الفرسان وبطاريتان من المدافع .. وصاروا يقـــتربون مـــن المواقع التركية فواجهتهم القيادة التركية بفرقة مؤلفة من الفرسان النظـــاميين وبعض الجنود غير النظاميين (الباشبوزق) وتصادموا مـــع طلائـــع الجيــش المصرى ، غير أنهم لم يحتملوا التصادم فتقهقروا إلـــى مواقعــهم فأســـرع المصـــريون خلفهم وبذلك تمكنوا من معرفة مواقع النقـــط الحصينـــة التـــى أنشأها الأتراك أمام نصيبين .

وفى صيحة يوم٢٢ يوليو أخذ إبراهيم باشا فى تنفيذ خطته الهجومية فانسحب أولا من مواقعة الأولى ليقوم بعدها بحركة الالتفاف التـــى اقتضتـــها عملية الهجوم.. أما الجانب الآخر - التركى - فإن حافظ باشا قـــائد القـــوات التركية عقـــد مع أركان حربه مجلسا للتشاور فى اصلح الخطـــط لمواجهـــة إبراهيم باشا . فكان من رأى البـــارون مولتـــك وزملائـــه الألمـــان: " أن[1] يهاجموا المصريين أثناء حركة الالتفافَ وقبل أن ترسخ أقدامهم فى المواقـــع الجديدة " لكن حافظ باشا ومن معه من الأتراك رفضوا تلك النصيحة الصائبة و رفضوا ان يتركوا مواقعهـــم و ما أقاموه من استحكـــامات قوية ليجازفوا

---

(1) المرجع السابق ص ٢٧٦&.

بقواتهم فى مهاجمة الجيش المصرى ذلك لان المجازفة هنا غير مامونة لأنهم سيقاتلون فى سهل منبسط مكشوف لا توجد فيه أية استحكامات يمكن أن يتحصنوا بها فكان الرأى عندهم البقاء فى مواقعهم بنصيبيين

بدأ إبراهيم باشا ينفذ حركة الالتفاف فتخطى الجيش المصرى نهر كرزين ليلا وتجمعت فرقه على الضفة اليسرى فى ظهر الجيش التركى فكان أن واجهه من الجانب الضعيف فوجد حافظ باشا أنه من الضروري أن يستدير ليكون أمام الجيش المصرى فى مواقعه الجديدة . ووجد نفسه مضطرا لإقامة تحصينات بأسرع ما يمكن بدلا من التحصينات القديمة التى كانت وجهته الأولى .. وفى ليلة ٢٤ يونيو سنة ١٨٣٩ ، شن حافظ باشا هجومه على جنود الجيش المصرى متوهما بذلك أنه يباغتهم فى وقت لا يتوقعون فيه الهجوم عليهم فيربكم ويوقع الهزيمة فى صفوفهم .. غير أن المدفعية المصرية كانت يقظة لتحركات الجيش التركى فأطلقت قذائفها التى حصدت القوات التركية .

وأثناء تلك المعركة الجانبية ظل إبراهيم باشا يكمل استعداداته لضرب الأتراك .. وجاءت خطته فى الالتفاف والهجوم دقيقة محكمة حتى أن الضباط الأوربيين الذين كانوا يعملون مع الجيش التركى ": شهدوا بأن حركات الجيش المصرى[١] كانت تسير طبقا" لخطط الجيوش الأوربية المدربة على أرقى فنون القتال العلمية ".

ومما له دلالته على مقدرة إبراهيم باشا فى التخطيط للمعارك أنه أبصر تلا عاليا على يسار القوات التركية لم يتنبه الأتراك إلى احتلاله .. وعلى الفور أصدر إبراهيم باشا أمره إلى سليمان باشا الفرنساوى الذى كان يقود ميمنة الجيش المصرى بضرورة احتلال ذلك التل فانطلق نحوه فى الحال

المرجع السابق ص ٢٧٧ &

ومعــه سرية من الفرسان والمدفعية وأقام الجند مدافعهم ثم أطلقوا عدة قذائف استكشافية ومن نيرانها عرف سليمان باشا المواقع التركية ومـــدى قوتـــها . وكانت هذه العملية الصغيرة بشارة النصر فى موقعة نصيبين .

وأدرك الترك أنهم ارتكبوا خطأ فادحا حين أغفلوا تسليح ذلـــك التـل فحاولوا استرداده من المصريين غير أنهم عجزوا عن مواجهة النيران التـــى صبها عليهم المدافعون عن التل فتقهقروا إلى مواقعهم الأولى . ولما أن أتـــم الجيش المصرى استعداداته لمواجهة ميسرة الأتراك أصدر إبراهيم باشا أمره بفتح نيران المدفعية على الأتراك وأن تتقدم المشاة للهجوم وصمـــد الأتـــراك وتحملوا الضغط المصرى عليهم .. وخلال المعركة وقع الجيش المصرى فى مأزق خطير فقد فرغت ذخيرته وتوقف جنود المدفعية عن الضـــرب حتـــى تصل الذخيرة .. وفى الوقت نفسه بذل الأتراك كل جهودهم فى صب نيرانهم السريعة على المصريين فاهتز مشاة الجناح الأيمن المصري ورجعـــوا إلـــى الخلف عند ذلك أصدر إبراهيم باشا أمره إلى الفرسان بأن يقومـــوا بالـــهجوم غير أنهم وقد فوجئوا بالنيران الكثيفة للترك اضطروا إلى التقـــهقر ومعـــهم المشاة .. وهنا ظهرت الحنكة التنظيمية لإبراهيم باشا فقد نجح فـــى إيقـــاف التقهقر والعودة إلى النظام والصمود

ثم وصلت الذخائر إلى المدفعية فعاد الجنود إلـــى نشاطـــهم فصبـــوا قذائفهم على الأتراك .. وهنا تكامل التعاون بين المشاة والفرسان والمدفعيـــة فأمطروا القوات التركية بنيران لم يتصوروها من قبل فتخلخلـــت صفوفـــهم وظهر على مدفعيتهم العجز عن تصويب القذائف . فكان أن أجفـــل الأكـــراد عن الاستمرار فى القتال ووجدوا أنفسهم وهم يفرون غير عـــابئين بشـــئ إلا إنقاذ أرواحهـــم ": فاحتل الجيش المصرى مواقعهم وغنم جميـــع مدافعـــهم



وذخائرهم وخيامهم وكل ما فيها من العتاد والميرة إذ لم يتمكن الترك من حمل شئ منها أثناء هزيمتهم حتى أن حافظ باشا ترك خيمته المزخرفة وفيها أوراقه وأوسمته .. فكانت معركة نصيبين نصرا مبينا للجيش المصرى".

ثم بلغت تلك الطامة الكبرى ذروتها بتسليم الأسطول التركى إلى محمد على باشا وقد وقعت تلك الكارثة فى أعقاب هزيمة الجيش التركى فى موقعة نصيبين .. فعندما تولى السلطان عبد المجيد الحكم كان أول ما صنعه هو تعيين خسرو باشا صدرا" أعظم ": هو الذى كان واليا على مصر سنة ١٨٠٣ ، واشتهر بعدائه لمحمد على ".. وكان يكن العداء الشديد لفوزى باشا قائد الأسطول التركى .. وقد أدى هذا الإجراء من جانب السلطان عبد المجيد، إلى أن عبثت الهواجس والظنون بصدر فوزى باشا . فلما أن استدعاه السلطان بضرورة العودة إلى الآستانة فورا لعبت به الشكوك ، فقد يكون الاستدعاء يعنى عزله من منصبه أو قتله .. وتقدم إليه وكيله عثمان باشا ونصحه بأن يلجأ إلى محمد على باشا العدو القديم لخسرو باشا ويسلم إليه الأسطول التركى ، وبذلك يكون قد أنقذ نفسه من الهلاك وقدم هدية كبرى إلى مصر فينال من محمد على باشا التكريم والتبجيل .. وتم تسليم الأسطول وحظى فوزى باشا بإعزاز محمد على باشا له ..

* * *

* وقد فجر تسليم الأسطول التركى أزمات سياسية عالمية بين مصر وتركيا والدول الأوربية بعامة .. وقادت إنجلترا حلف المعارضين لسياسة محمد على باشا وأهدافه لأنها وجدت أنه لابد من الإبقاء على الكيان العثمانى ولا يتحقق ذلك الإبقاء إلا بإعادة سوريا إلى تركيا والتلويح لمحمد على باشا باستخدام القوة إذا رفض النزول على الإرادة الدولية . وهكذا صارت إنجلترا

تحرض الدول الأوربية على محمد على باشا ، على ضرورة التكاتف لحماية السلطنة العثمانية من أطماعه.. لكن ما كانت تضمره إنجلترا غير ما تظهره.. فقد كانت تضمر القضاء على القوة المصرية ، لأنها إذا استفحلت وتمكنت فسوف تكون أخطر منافس لها فى السيادة البحرية فى البحر الأبيض المتوسط كما تكون فى نفس الوقت خطراً يهدد تواجدها ى الهند وعلاوة على ذلك فقد راودت إنجلترا أطماع أخرى فقد كانت تأمل أن يأتى اليوم الذى تحتل فيه مصر .. ومن يدرى ؟

وخشية من منافسة محمد باشا لأحلام إنجلترا الاستعمارية المستقبلية فإنها أصرت على أن يسلم الأسطول التركى إلى السلطنة العثمانية ..

وكانت نتيجة التآمر على محمد على باشا ان أبرمت الدول الأوربية فيما بينها معاهدة سميت معاهدة لندن وكان إبرامها فى ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠.. وقد وقع عليها اللورد بالمرستون عن انجلترا ، والبارون نومان السفير النمساوى فى انجلترا ، عن النمسا ، والبارون بيلوف عن بروسيا ، والبارون برينوف عن روسيا، وشكيب أفندي وزير تركيا المفوض فى لندن عن الباب العالى.. ثم اضطرت فرنسا اللانضمام إلي الموقعين .. وأهم ما يلاحظ فى هذه المعاهدة :" تعهد [1] الدول باتخاذ وسائل العنف والقوة لتنفيذ شروطها فى حالة رفض محمد على قبولها . ونلاحظ أيضا تعهدها بحماية عرش آل عثمان والدفاع عن السلطنه العثمانية فى حالة مهاجمة قوات محمد على البرية والبحرية لها ".

ولهذا كله دلالة كبرى على أن مصر بفضل عسكريتها القوية استطاعت أن ترغم الدول الأوربية على احترامها فكان أن خاطبتها مباشرة بشأن قبول معاهدة لندن .. غير أن محمد على باشا رفض تلك المعاهدة

---

[1] المرجع السابق ص ٢٩٢ ،



الجائرة فىاغسطس سنة ١٨٤٠ ، وتذرعت الدولة الأوربية بذلك الرفض فشنت عليه حربا كان من نتيجتا أن أرغم محمد على باشا،على أن يتخلى عن معظم أملاكه التى استولى عليها وذلك شريطة أن تبقى له مصر وراثية فى عقبة وكذلك السودان ، دولة مستقلة وإن خضعت للنفوذ العثمانى إلا أنه كان خضوعا شكليا .

وبعد ، فكيف كان الحكم المصري لسوريا والدول العربية؟ هل كان نعمة أم نقمة ؟

وعن الفلاح المصرى : هل أتت عسكريته على المستوى العالمي ؟ وهل أثبت أنه مثل أعلى للعسكرية الصادقة ؟

* * *

* أما عن الحكم المصرى فى سوريا فان الأستاذ محمد كرد على بك رئيس المجمع العلمى العربى فى سوريا يقول فى كتابه : خطط الشام :" أثبتت[٢] حكومة محمد على فى فتوحها أن المصرى بل العربى إذا تهيأ له زعيم عاقل لا يقل عن المصريين فى سيرته وجلادته وأنه لم يضره فى القرون الماضية إلا فناؤه فى الحكومة التركية . وكانت حكومة محمد على من أفضل ما رأت الشام من حكومات منذ ثلاثة أو أربعة قرون، بل إن الشام فىالقرون الوسطى والحديثة لم تسعد بما يقرب منها فضلا عما يماثلها: كتب المستر برانت قنصل بريطانيا فى دمشق إلى سفير دولته فى الاستانة سنة ١٨٥٨ ، ما تعريبه : لما كانت الإياليه تحت حكم محمد على باشا عاد كثير إلى سكنى المدن والقرى المهجورة وإلى حراثة الأراضى المهملة .

(٢) المرجع السابق ص ٣٠



وهذا ما حدث خاصة فى حوران وفى الأرجاء الواقعة حول حمص وفى كل الجهات الواقعة على حدود البادية .

وفى هذه الأماكن أكره العرب على احترام سلطة الحكومة وجعل السكان بمأمن من اعتداءاتهم .. وكان الشام بأسره تحت إدارة شريف باشا .

وقيادة الجيش الذى يبلغ عدده ٤٠ ألف جندى من منظم وغير منظم بإمرة إبراهيم باشا . فبحسن إدارة الأول تضاعف نجاح الأهلية وحسنت المالية فى هذه النواحى كما أن نشاط إبراهيم باشا وحزمه وطد الأمن ومد رواق الثقة . وقد عدت الحكومة ظالمة لكنها فى الحقيقة لم تكن تستطيع غير ذلك إذ كان عليها ان تصلح عدة أمور مختلفة وأن تبدل الفوضى والتعصب والقلاقل التى كانت سائدة بالعدل " إلى أن قال :" ولم يكد المصريون يطردون من البلاد ويتقلص ظل سطوتهم - وقد كانوا أخضعوا الجميع لحكمهم الشديد - حتى عاد القوم إلى نبذ الطاعة وخلفت الرشوة والتبذير فى إدارة المالية النزاهة والاقتصاد ، ومنيت المداخيل بالنقص واستأنف عرب البادية غاراتهم على السكان فخلت القرى من المزارع المأهولة جيدا بالتدريج . حتى أمكن القول إنه لا يوجد ثم ظل للأمن على الحياة والأملاك وكل شئ يدل على عودة حالة الفوضى إلى هذه البلاد التى تركها المصريون ".

وقال الكونت بنديتي Benederri ، الذى كان قنصلا" لفرنسا فى مصر": إن [1] الأهالى والأجانب على السواء يستطيعون أن يذهبوا أنا شاءوا فى البلاد التى يحكمها محمد على باشا سواء أكان ذلك فى وادى النيل إلى أقاصي حدود السودان أم فى سورية وجزيرة العرب .. فإن صرامة العدل الذى أقام ميزانه فى كل ناحية لا تقبل هوادة ولا ضعفا فالسودان قد ساده الأمن كما

[1] المرجع السابق ص ١٨٠ &

ساد غيره من البلاد التى حكمها : ففى كردفان مثلا حيث لم يكن أى تاجر يأمن على نفسه أن يسير منفردا استطاع الرحالة بالم "PAIIME أن يجتاز البلاد من غير أن يصحب إلا خادم واحد ولم يقع عليه أى اعتداد أو أذى ، وكذلك ساح فيه الرحالة كوتشى Kotchyمطمئنا سنة ١٨٣٩ ، وساح الأمير الألمانى " بكر موسكو MASKAU فى السودان إلى الخرطوم دون أن يناله سوء .. وجاءت عائلة المسيوملى MEIIY إلى الخرطوم سنة ١٨٥٠ للنزهه كما لو ساحت فى إيطاليا ".

* * *

أما عن الفلاح المصرى وهل أثبت عسكرية على مستوى العالمى ؟ فإننا نستشهد هنا بشهادة الثقات ممن عرفوا الجيش المصرى أيام محمد على باشا عن قرب .. ومن هذه التزكيات تزكية سليمان باشا الفرنساوى أحد القادة الفرنسيين الذين عملوا فى صفوف الجيش المصرى فقد قال ": إن العرب[1] (يريد المصريين) هم خير من رأيتهم من الجنود .. فهم يجمعون بين النشاط والقناعة والجلد على المتاعب مع انشراح النفس وتوطينها على احتمال صنوف الحرمان . وهم بقليل من الخبز يسيرون طول النهار يحدوهم الشدو والغناء . ولقد رأيتهم فى معركة قونية يبقون سبع ساعات متوالية فى خط النار محتفظين بشجاعة ورباطة جأش تدعوان إلى الإعجاب دون أن تختل صفوفهم أو يسرى إليهم الملل أو يبدو منهم تقصير فى واجباتهم وحركاتهم الحربية ".

وقال كلوت بك فى كتابه ": لمحة عامة إلى مصر " ": ربما يعد [2] المصريون أصلح الأمم لأن يكونوا من خيرة الجنود لأنهم على الجملة

[1] نفس المرجع ص ٣٤٦ &

[2] نفس المرجع ص ٣٤٦ &



يمتازون بقوة الأجسام وتناسب الأعضاء والقناعة والقدرة على العمل وإحتمال المشاق .. ومن أخص مزاياهم العسكرية وصفاتهم الحربية الإمتثال للأوامر والشجاعة .

والثبات عند الخطر والتذرع بالصبر فى مقابلة الخطوب والمحن والإقدام على المخاطر والاتجاه الى خط النار وتوسط معارك القتال بلا وجل ولا تردد "..

وقد ظل الجيش المصرى محتفظا بتلك السمعة الطيبة بعد أن ذهب عصر محمد على باشا وبعد أن خفض عدده ، فقد قال المسيو مريوفى كتابه " مصر الحديثة من سنة ١٨٤٠ ،الى سنة ١٨٥٧ :" إن كفاءة الفلاح المصرى فى فهم النظام الحربى واتباعه وما اشتهر به من الثبات والشجاعة فى مواجهة الأعداء كل هذه الميزات قد قامت على البينات ، لا فى ميادين القتال بجزيرة العرب وسورية فى عصر محمد على فحسب بل بحسن دفاع الجيش المصرى عن سلستريا فى حرب القرم".

* * *

وهكذا الجيش المصرى صفحة من العظمة والفخار..
بل صفحات من العظمة والفخار...

الفصل الخامس

العسكرية المصرية

تتحدى الصهيونية والاستعمار

" كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله "

(٦٤ سورة المائدة)

" لتجد اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا "

(٨٢ سورة المائدة)



(١)

تزييف التاريخ صناعة يهودية

هل هناك حضارة يهودية ؟

سؤال لو واجهنا به الفكر الغربى لكانت الإجابة على الفور : نعم ، هناك حضارة يهودية .. لقد أعطانا اليهود فكرا" وأدبا وخيالا وروحانية ووحدانية ، كانت أوربا فارغة منها لولا اليهود الذين تفضلوا بتلك النعمة الكبرى . ولعل مثل هذا القول هو الصبغة الظاهرة التى تجسد الأكذوبة الكبرى التى يعيشها الوعى الأوربي وهو بين التضليل الذى لبس عليه الحقيقة فاختفت عنه وأخفاها هو عن نفسه لخوف ذاتي أو لجحود عنصري .

وحتى نكون منصفين فى هذه القضية المصيرية التى لم تفرغ الدنيا من مشكلاتها وأزماتها وكأنها اللعنة الأبدية التى على الإنسانية أن تقاسيها وتحتمل عواقبها الوخيمة التى لا يعرف لها انتهاء ـ أجل ، حتى نكون منصفين فإننا نقدم اليهودية نفسية بشرية أو خليقة بشرية مجسدة فى كتابها المقدس " التوراة " . ومن واقع هذه " التوراة " التى صنعها أحبار اليهود على تواتر الأحقاب التى عاشتها جماعاتها فغيروا وبدلوا ، وحذفوا وأضافوا حتى جاء الكتاب فى النهاية مصورا" لشئ واحد : الطبيعة النفسية اليهودية , والشخصية اليهودية فى إحساسها بالحياة والوجود .. فى فكرها الذى تقوم به الحياة والناس .. فى تصورها لحياة فى غدها .. ونحن نحدد طبيعة هذه النفسية فنقول إنها نفسية مريضة يتحقق مرضها فى كتابها المقدس أو التوراة فى ثلاث خصائص متكاملة تسعى بها إلى السيطرة على الوجود البشرى كله.

والخصائص الثلاث – أو بذور الشر المقدس ، هى :

أ – تزييف التاريخ كطبيعة متأصلة .

ب – والحقد الجحود كطبيعة متأصلة .

ج – وشن الحرب كطبيعة متأصلة .

والأمة الوحيدة فى العالم كله التى زيف اليهود تاريخها هى الأمة العربية وذلك من لدن البواكير الأولى لتاريخها ...

وقبل أن نعالج قضية تزييف التاريخ التى اقترفها اليهود فى حق العرب بل الإنسانية قاطبة فإننا نقول : إن الشعوب الآرامية واليمنية والبابلية والآشورية والعبرية وما تفرغ عن كل منها بعد ذلك بأنها سامية .. ولعل أول من أطلق عليها هذا اللقب هو العالم الألمانى شلوتزر فى أواخر القرن الثامن عشر وقد استفاد مما ورد فى سفر التكوين بشأن أولاد نوح عليه السلام وهم : سام ، وحام ، ويافث ، والشعوب التى انحدرت من كل منهم.. وبهذا فليس العبريون – أو اليهود بعد ذلك – أو الإسرائيليون ، هم وحدهم الساميين ولكنهم كانوا قبيلة كسائر القبائل السامية التى ماجت بها شبه الجزيرة العربية من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال .

وإن أصح الآراء وأرجحها عن الموطن الأصلى للساميين لهو الرأى القائل بأنه الجزء الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة العربية .. ولقد حدث أنه قبل التاريخ وفى العصور التاريخية كانت القبائل السامية تتجه صوب الشمال والشرق . فهناك قبائل هاجرت إلى جنوب العراق وغلبوا السومريين على أمرهم وأنشأوا دولة بابل والحضارة البابلية .. وهناك قبائل هاجرت إلى الشمال كانت أصلا" لما تفرغ عنها من الشعوب التى عرفت بالكنعانية . ومن هذا الجانب أيضا هاجرت بعض قبائل الإسماعيلية (نسل إسماعيل عليه السلام وكان موطنهم الأصلى بلاد الحجاز) . ومن أشهر هذه القبائل: بنوقيدار، وبنونابت، أما بنوقيدار فقد انتقلوا من الحجاز إلى



يثرب ، ومنها إلى مدائن صالح ثم واصلوا زحفهم شمالا إلى خليج العقبة ومنه إلى وادى موسى وكذلك فعل بنونابت فاستقروا فى خليج العقبة. وفى مستهل التاريخ هاجرت بعض القبائل المعدية التى كان موطنها من الحجاز إلى الشام وبعض القبائل القحطانية التى كان موطنها من اليمن إلى الشمال والشرق فنزلت منها خزاعة بمكة والأوس والخزرج بيثرب وغسان بالشام ولخم بالعراق.

* * *

ولكى نقدر موقف العبريين من سائر القبائل السامية فإننا نمثل لهم بصورة اجتماعية معروفة لدينا ، فمن الأحوال الاجتماعية التى نشهدها وتمر بنا أن أبناء الأسر الكبيرة سواء أكانوا إخوة أم أبناء عمومة لا يكونون دائما على درجة واحدة فى بسطة الرزق والجاه ولا على طبيعة واحدة فى الخلق والخصائص والسلوكية . فإن منهم لمن يحقق لذويه ثراء عريضا وكلمة مسموعة.. وإن منهم لمن يشعر بضعفه وقلة حيلته فلا يجرؤ على منافسة إخوته أو أبناء عمومته أو مسايرتهم أو محاذاتهم على الأقل.. ومن ثم فهو يعتزلهم ما وجد إلى الاعتزال سبيلا ولا يجاورهم إلا وهو على تقية وحذر .. ومثل هذا الضعيف المخذول الذى فرض على نفسه العزلة لضعفه وقلة حيلته فهو أبدا" يتحاشاهم ويتحاماهم وإن كان فى نفس الوقت يلتمس منهم الرفد والمعونة.. مثل هذا الضعيف المخذول يعيش أبدا" وهو مضرس النفس على إخوته وأبناء عمومته، يحسدهم وينقم عليهم ويتحرك حقدا" على الانتقام منهم إن أمكنته الفرّصة.. مصورا" لنفسه بما يشبه اليقين أنه أحق بما هم فيه وأنه أسمى منهم وأعظم ولكنه الزمان الخوان!!

وهو فى ذحله المتجدد هذا يثير الريبة فى نفوس بنى عمومته ويربى الحقد فى نفوس أبنائه فيورثهموه وكأنه أعز ما يتركه لهم ويوصيهم به ..

هكذا كان شأن قبيلة عابر فى مستهل وجودها بين أبناء عمومتها فى الجنوب الغربى من شبه الجزيرة العربية .. فقد اتخــذت جـانب الاعــتزال المقصود من سائر القبائل السامية فلا تأنس إلى واحدة منها .. واتخذت سبيلها إلى الهجرة ــ كسائر القبائل ــ إلى جنوب وادى النهرين وهى على حال بين المعيشة البدوية والحضرية قانعة بأعمال الوساطة والسمسرة وهى الأعمــال التى لا تحتم على أصحابها ضرورة المخاطرة فى التعامل مع أهــل المــدن وأهل الصحراء .

وهكذا احتفظت هذه القبيلة بسلوكياتها وأخلاقها فيمــا بينــها وكذلــك بأسرارها فى العبادة والتنظيم والأهداف كما احتفظت بلهجتها الســامية التــى عرفت بالعبرية والتى أصيبت هى الأخرى بالتحجر فلم تتطــور مــع ســائر اللغــات السامية التى تطورت .. يقول فولتير فى المعجم الفلسفى تحت مادة: "آدم" ": إنه من المحقق أن اليهود كتبوا قليلا جدا وكانوا على جــهل شديــد بعلوم الفلسفة والهندسة والجغرافيا والطبيعيات فلم يعرفوا شيئا مــن تواريــخ الأمم ولم يأخذوا فى التعلم إلا بعد اتصالهم بالإسكندرية حيث شرعــوا فــى اقتباس المعرفة وكانت لغتهم البربرية مزيجا من الفينيقية القديمة والكلدانيــة المشوهة . وبلغ من فقرها أنها تحتوى كثيرا من الأزمنة فى أفعالها ".. وهكذا اكتمل للعبريين مقومات العزلة القبلية والنفسية والعقائدية واللغوية . وبــهذا التحجر المتكامل أصبح لدى العبريين القناعة الكاملة بأن قبيلتهم هى أســمى القبائل وأخلاقهم هى أكمل الأخلاق وبناء على هذا فإنهــم يرفضــون كــل تعامل مع الغيره على سنة الإخاء والتعاطف الإنسانى الكريم.. ورغم هذا فقد كانت وطأة الشعور بالضعف تحتم عليهم أمرين هما: التماس الحمايــة مــن القبائل السامية القوية بالمصاهرة ، أو باصطناع لغتها لغة لهم .. ففــى ســفر التكوين أنهم انتسبوا إلى الأصل الآرامى حين أرسل إبراهيم عليــه الســلام رسوله لخطبة رفقة بنت بتوئيل الآرامى ؛ فقال له ": تذهــب إلــى أرضــى

وعشيرتي وتأخذ زوجة لابني".. ولما نزلوا أرض كنعان جعلوا لغتهم كنعانية. وقال أشعيا وهو يتنبأ بغلبة قومه على أرض مصر ؛ إنه فى ذلك اليوم يكون فى أرض مصر خمس مدن تتكلم بلغة كنعان ".. أما لماذا سمى اليهود باسم العبريين أو سمواهم أنفسهم باسم العبريين فإن ذلك راجع فى أصله التاريخى إلى أن اليهود فى رحلتهم من جنوب شبه الجزيرة العربية- وقبل أن يعرفوا باسم اليهود - صعدوا إلى الشمال حيث أور الكلدانية على نهر الفرات ثم عبروا منها مخترقين الهلال الخصيب إلى الغرب حتى وصلوا إلى أرض كنعان فإن هذا العبور كان بالنسبة إليهم شيئا كبيرا فى تاريخهم حتى أنهم جعلوا منه اسما لهم . فهم العبريون الذين عبروا منطقه الهلال الخصيب من الفرات إلى مصر مرورا" بالشام وفلسطين . ولهم الحق فى هذه التسمية كصفة لهم كما أنهم اشتقوا منه اسم لغتهم فهى العبرية ولهم أيضا الحق فى ذلك . فالعبرية هى اللغة التى استعاروا ألفاظها وتعبيراتها من الشعوب التى عبروا بها وهم على مشارف حدودها من بابلية وآشورية وكلدانية وفينيقية وكنعانية ومصرية وكان من المفروض أن تسمى لغة اليهود باسم اليهودية على غرار سائر الشعوب التى تعرف لغتها باسمها . وهذا هو التزييف الأول الذى أراد اليهود أن يدخلوه على العالم كله على أنهم متفردون عليه بلغتهم المقدسة ولا نعرف ولا يعرف التاريخ من أين جاءتهم أو جاءت لغتهم تلك القداسة . ويمكن القول أن تلك اللغة التى عرفت بالعبرية لم تكن ذات أصداء ثقافية وبالتالي لم يكن لها أدنى وزن حضارى . فهى لم تكن لتزيد عن لهجة من اللهجات السامية التى لا يؤبه بها كثيرا .. ولقد ذكر "البرايت Albright فى كتابة ": أحافير فلسطين ": أن اللغات السامية المشهورة فى القدم هى الآكادية والآشورية والبابلية والسامية الشرقية والسامية الغربية وتنقسم هذه إلى العربية الشمالية والعربية الجنوبية أى المعينية والسبئية والأثيوبية ومعها لهجات شتى بعضها قديم وبعضها حديث. وكل تقسيم



من هذه التقسيمات فإنما هو مسألة اصطلاح والتفرقة فيه أقل جدا" من التفرقة بين اللغات الهندية الجرمانية التى درسها الباحثون خلال القرن والنصف الأخير.. إذ أن اللغات السامية القديمة عدا الآكادية – تتقارب فى الأجرومية والنطق بحيث تشترك كل لهجة وما جاورها ولا يلحظ الانتقال من لهجة إلى لهجة إلا كما يلحظ مثل هذا الانتقال اليوم بين اللهجات الفرنسية والجرمانية . ولما بدأ عصر الآباء العبريين عند مطلع الألف الثانية قبل الميلاد لم يكد الفرق بين اللغات السامية يزيد على الفرق بين اللهجات العربية الأصلية فى هذه الأيام ولم تكن الآكادية نفسها منفصلة عن سائر اللغات السامية الغربية أكثر من الانفصال بين المالطية والعراقية الحديثتين ".

ولقد يظن البعض أن العبرية واليهودية سواء فهذا بعد صريح عن الصواب .. فالعبرية فى نحو القرن العشرين قبل الميلاد كانت كلمة لم تطلق أبدا" على اليهود بالذات وإنما أطلقت على طائفة كبيرة من القبائل الرحل فى صحراء الشام . وكان من أبناء هذه القبائل من يعمل كالجنود المرتزقة هنا وهناك حسب المواقع والمناسبات . وبهذا المعنى وردت كلمة العبري والابرى والهبيرى وما قاربها فى أحافير تل العمارنة وفلسطين وآسيا الصغرى والعراق . وجاءت بهذا المعنى فى الكتابات المسمارية والفرعونية.. هذا فى الوقت الذى لم يكن فيه لليهود أدنى وجود أما حين وجدوا فإنهم انتسبوا الى إسرائيل فى الوقت الذى اعتبروا فيه العبرية لغة غريبة عنهم فهى عندهم لغة كنعان ثم ذابت العبرية فى الآرامية التى أصبحت لغة القبائل جميعها تلك التى كانت موجودة بين فلسطين والعراق مع وجود شئ من الاختلاف القليل بين الآرامية الشرقية والآرمية الغربية . ثم أصبحت العبرية لهجة تختلف بنطق بعض الحروف كما تختلف القبائل بنطق الشين والقاف أو نطق الميم واللام إلى هذه الأيام ثم فضل اليهود العبرية واصطنعوها لغة لهم .

ومن هنا يكن القول إن اللغة العبرية لم تكن ذات مكانة تستحق الذكر أو التنوية بين سائر اللغات السامية التى ذكرها ألبريت "ذلك لأن القبيلة التى تكلمت بتلك اللغة لم يكن لها شأن يذكر وسط سائر القبائل ذات الوزن العنصري والوزن الحضاري :" فلم يذكر اسم لهم (أى اليهود) فى أثر من الآثار التاريخية قبل سنة ١٢٢٠ ق.م .. فى هذا الأثر يروى الفرعون مرنفتاح خبر حملته التأديبية على عسقلان وجزيرة ويوانام وإسرائيل ويقول إنه محا إسرائيل فلم تبق منها باقية ويؤيد خبره هذا أن النصب الذى أقيم بعد ذلك مسجلا لانتصارات رمسيس الثالث على العموريين والفلسطينيين والحيثيين سنة ١١٩٠ ق.م . لم يرد فيه ذكر لإسرائيل .

لكنما اللغة فى الأصل والأعم هى اللغة العربية لانها كانت لغة القبائل التى كانت تعيش فى شبه الجزيرة العربية تهاجرمنا إلى الشمال أو تعود إليها كرة ثانية ..

هذا ولم تعرف العبرية تطورا وتقدما وصقلا وثراء فى اللغة والفكر الا بفضل احتكاك أحبارها وكهانها باللغة العربية إبان ازدهار الحضارة الإسلامية .

وهكذا ادعى اليهود أن لغتهم الأصلية التى نشأت اليهودية عليها هى اللغة العبرية .. وهكذا استعاروا لغة الغير ونسبوها لأنفسهم حتى اكتسبت قداسة عندهم واعترافا من الغير .. وهذا هو التزييف الذى خادع به اليهود الناس .

* * *

أما التزييف الثانى فهوزعم اليهود أنهم هم الساميون ولاساميون غيرهم، دون سائر القبائل السامية الكبرى التى ماجت بها شبه الجزيرة العربي والعراق والهلال الخصيب والشام وفلسطين والحبشة.. وذلك هو



التزييف الصارخ الذى لم يجد من يذكر اليهود به .. وقد بلغ التزييف أقصاه حين سلم به الغرب تسليم البديهات التى تقبل المناقشة ولا يصح عرضها للمناقشة .. وفات اليهود - بتخرصهم - أن الشرق الأوسط بشعوبه كلها هى التى تجسد وحدها الخصائص السامية وإن طرأ عليها امتزاج من شعوب أخرى كالترك والمغول .. ومن هذا التزييف أصبح من المسلمات البديهية أن كل من جهر بالعداء لليهود فهو إنما يعادى الساميين الذين هم اليهود .

ولقد تضافرت الصهيونية مع أهداف الاستعمار الغربى على ترسيخ خرافة السامية .. واستغلالا لهذا المناخ الجديد فإن الصهيونية عملت على تحقيق ثلاث مهام نجحت فيها إلى حد بعيد وهى:

أولا : غرس حب السامية فى الوعى الأوربى على اعتبار أن الساميين هم أصل وروح الحضارة الأوربية بل الحضارة الإنسانية كلها.

ثانيا : إرهاب كل من يجهر بالعداء للسامية بقول مباشر أو غير مباشر وإن كان إحقاقا للحق وتأييدا لكلمة عدل.

ثالثا : تزييف الحقائق التاريخية ومحوها تماما بالنسبة للعرب ومن ثم فلا سامية إلا السامية اليهودية .

وكخصلة نفسية مريضة فإن الحقد الصهيوني يعمل دائما" على الترويج للسامية بطريقتين :

الأولى : تحدى كل القيم والمبادئ الأخلاقية والأعراف الدولية بما يخلق معارضة لليهود واحتجاجا" عليهم وربما عداء فيكون ذلك ذريعتهم لإرهاب من ينددون ويحتجون ويعادون.

الثانية : إيقاع الأذى الإرهابي بأنفسهم حتى لو سقط منهم ضحايا كثيرون .

وبذلك يستطيع اليهود أن يقولوا إنه ما زال هناك من يكره السامية.. وقد انتهزت الصهيونية فرصة ظهور شعار " معاداة السامية " الذى صاغه فى السبعينيات من القرن الماضي (١٩) كل من ": فلهلم مار" الألمانى،



"وإرنست رينان " الفرنسى ، وجعلت منه سلاحها الرئيس فى الإرهاب السياسي والفكري والاجتماعى.. ولو سألنا "العهد القديم" للصهيونية لوجدناه طافحا بخزايا اليهود وأحقادهم على أنفسهم وعلى الناس أجمعين .. فكيف **غفل الفكر الأوربي عن هذا كله؟**

هل هو الافتتان بكل ما هو شاذ غريب؟

هل هو الافتتان بالشرق وما يبعثه فى الخيال الأوربي من أوهام وأحلام؟

هل هو الكره الأوربي للشرق العربى والحضارة الإسلامية ، وكأن الأوربيين قد وجدوا أنفسهم وقد خرجوا تلقائيا من ظلمات الجهالة إلى نور الحضارة الحديثة بخفقه خرافيه من جناح " يهوا "، فلم يعرفوا من ثم علما عربيا" ولا فكرا" عربيا ولا أدبا عربيا ولا تصوفا عربيا؟

هل هى جسارة المخاطرة الاستعمارية التى لا تزال إلى اليوم وهى تعبث عبثها الإرهابي بمصير الأمة العربية و مستقبلها ؟

نعم .. هو كل ذلك ويزيد ...

ولقد سبق أن قلنا إن الصهيونية قد تلقفت شعار ": معاداة السامية " واصطنعته سلاحا ترهب به عدوها أومن تجد فى قوله أو فعله منأواة لها من حسن النية أو يقظة الضمير .. فهى لم تتخذ شعارها من عقيدتها فتقول ": معاداة اليهودية " أو " معاداة الصهيونية " مثلا ، لأن الشعارين معا لا يصلحان لأنهما يفجران كوامن العداء التاريخي القديم ويجسدان الصورة الممقوتة التى عرف الناس بها اليهود . أما شعار": معاداة السامية " فهو تأكيد على الاتهام بالعنصرية وفى نفس الوقت تأكيد على النقاء العنصري لليهود .وهذا هو التناقض الخرافي الذى تعيشه الصهيونية اليهودية : فهى تكره الناس أجمعين باسم السامية .. وتتهمهم بالعنصرية باسم السامية .. ثم تدعى النقاء العنصري باسم السامية .. فأى غرابة ، بل أى خرافة هذه ؟



أما تعليل الصهانية لعداء الناس لهم فهو قمة التحريف وقمة التخريف معا: قمـــة التخريف لأنهم أرادوا أن يصطنعوا من علم النفس التحليلي بينات علميـــة يحللون بها بواعث ذلك العداء وأسبابه فانحرفوا بالتحليل والتعليل عن منطق العقل ومنطق العلم فى أن واحد ، فما من حجة أتـــوا بـــها إلا وهـــى متهافتة فى شكلها ومضمونها .. وقمة التخريف لأنهم أرادوا أن يجعلوا مـــن شعار ":معاداة السامية " خطيئة البشرية فى أزلها وأبدها ، وأن على الأحفـــاد وأحفاد الأحفاد أن يتحملوا أوزارها ويدفعوا ضريبتها جسما ونفســـا" وفكـــرا لأوهام المخططات الصهيونية .

ولتفسير ما نقول فإننا نعرض نظريتين تقومان على أساس التحليـــل النفسي المبنى على نظرية " فرويد " اليهودي الصهيوني ..

فالنظرية الأولى هى نظرية ": كبش الفداء "، التى وضعها عالم النفس اليهودي " أوتوفينيكل"؛ فهو يرى ": أن مضطهدي اليهود كثيرا مـــا ينســـبون إليهم نزعات العدوان (القتل) ، والجنس (السلوك الجنسي المنحل) وذلـــك من صنع الخيال ومعنى ذلك فى مفاهيم التحليل النفســـى أن هـــذه النزعـــات مختفيـــة فى نفوس من يوجهون إلى اليهود تهمتها . وأن اليهود بذلك ليســـوا إلا مجرد " كبش فداء " لهم .. فقد تصور فينيكل أن مضطهدي اليهود يكبتون هـــذه النزعات الموجودة أساسا فى نفوسهم فى اللاشعوري . ولمـــا كـــانت إحدى وسائل الدفاع ضد إدراك ما فى اللاشعـــوري هـ ـى العمليـــة النفســـية المعروفة باسم الإسقاط أى رؤية الصفات التى لا يود المرء أن يراهـــا فـــى نفســـه فيراها فى غيره فإن مضطهدي اليـــهود بإســـقاطهم هـــذه الصفـــات الموجودة فيهم أصلا على اليهود يرون كأنها موجودة فيهم فينطلقـــون إلـــى اتهامهم بها على هذا الأساس وبذا يصبح للإتهام مبرر يقبله الشعور.

ثم يتقدم فينيكل خطوة فى تعليل العداء للسامية فيقـــول :" ان لنزعـــة اضطهاد اليهود خصائص متفردة لأن اليهود عند أصحاب هـــذه النزعـــة لا

يمثلون السلطات التى يجرأون على مهاجمتها فحسب ولكنهم يمثلون أيضا ما فى نفوسهم من غرائز مكبوتة يبغضونها وتحرمها نفس السلطات التى وجهت ضدها . أى ان معاداة السامية تصبح بذلك تكثيفا لنزعات متعارضة تجمع بين الثورة الغريزية الموجهة ضد السلطة والكظم القاسى لهذه الثورة وإنزال العقاب بصاحبها .. ومعنى هذا أن يصبح اليهودي بالنسبة لمن يضطهده، الشخص الذى يود أن يثور عليه ونزعات التمرد داخل نفسه فى آن معا.. ومما يساعد على تحقيق ذلك ان اليهود يشتركون مع اللاشعور فى الغرابة "

فكأن فينيكل بنظريته هذه يتهم الشعوب من البواكير الأولى للتاريخ بالانحراف الجنسي والأخلاقي والرغبة المحمومة فى تدمير كل نظام اجتماعي ..

والنظرية الثانية هى نظرية "الهذاء الجمعى" .. وصاحبها هو عالم النفس اليهودى الصهيونى :" إرنست سيمل".. وهى نظرية غاية فى الغرابة واختلاط المنطق وتفاهته ، فخلاصة رأيه :" أن معاداة السامية مرض عقلى يصيب الشخص ويبدو فى صورة نكوص أوارتداد الى المرحلة التى كان فيها البغض السابق للقدرة على الحب وهو التحكم فى العلاقات البيئية .. ولب هذا المرض العقلى يتمثل فى :"باثولوجية الكراهية".. وهو على هذا النحو يمثل نزعة عدوانية هدامة غير قابلة للضبط ومنطلقة من معتقد هذائى مضاد لكل مقتضيات الواقع أى أنه اضطراب هذائى يصيب العقل الجمعى بينما يظل عقل الأفراد الذين يكونون الجماعة سليما"..

ويفهم هذا الكلام على وجه واحد لا يتجاوزه هو أن الفرد - وهو بطبيعته مجنون - يهرب من جنونه الفردى إلى الجنون الجمعى ليحمل الجماعة تبعة جنونه ..

ويستعين "سيمل" بمصطلح " الإسقاط" لتفسير معاداة السامية فيقول : "إن اتهام اليهود بالشرور التى تعزى إليهم هو إسقاط لهذه الشرور الموجودة أصلا فى نفوس من يوجهون اتهام إسقاطها على اليهود وآية ذلك ان اتهام الغير بدلا من اتهام الذات يريح المرء من الشعور الذاتي بالإثم . وهو إجراء وقائي يقي المرء دون إدراك لإثمه ثم ما يسببه ذلك من متاعب نفسية"..

هكذا جاءت الصهيونية بخرافة السامية ، فرية افترتها على الإنسانية واتخذتها ذريعة لأغرب وأجرم سمسرة عرفها التاريخ..

* * *

والتزييف الثالث ، هو تزييف النسب إلى أبى الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام .. فاليهود هم وحدهم نسل إبراهيم عليه السلام ، فقد جاء فى الإصحاح الخامس عشر من سفر التكوين :" وفى ذلك قطع الرب مع إبرام ميثاقه قائلا : لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات : القينيين، والقنزيين ، والقدمونيين ، والحثيين ، والفرزيين والأموريين والكنعانيين ، والجرجاشيين ، واليبوسيين"..

فكأن نسل إبراهيم الخليل هو الذى سيحل محل تلك القبائل وتصير له الغلبة عليها ، وأن هذا النسل سوف تكون له الأرض :" من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات ".. ثم يأتى الإصحاح السابع عشر ليكون أكثر تفسيرا وأكثر تأييدا فيقول :" ظهر الرب لإبرام وقال له : أنا الله القدير ، سر أمامي وكن كاملا فأجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيرا جدا فخر إبرام ساجدا وتكلم الله معه قائلا : أما أنا فهو ذا عهدي معك وتكون أبا لجمهور من الأمم فلا يدعى اسمك بعد اليوم أبرام بل يكون اسمك إبراهيم لأني أجعلك أبا لجمهور من الأمم وأثمرك كثيرا جدا وأجعلك أمما . ومنك ملوك يخرجون

وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهداً أبديا لأكــون لك ولنسلك من بعدك . وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا وأكون إلههم..

وقال الله لابراهيم وأما أنت فتحفظ عهدى أنت ونسلك من بعدك فــى أجيالهم"..

ففى تلك العبارات سجل الإصحاح السابع عشر تأكيدا علــىان نســل ابراهيم هو الذى سوف يعمر لا منطقة أرض كنعان فحســب بــل المنطقــة العربية بأسرها :" من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات ..

وتعنى لفظة "النسل" هنا كل من خرج من صلب إبراهيم عليه السلام، ومن صلب أولاده وأحفاده .. وتلك حقيقة تاريخية وبشرية معا ..

فالنسل العربى بأنبيائه هو الذى تمثلت فيه إرادة الله سبحانه أمــا أن يخص اليهود أنفسهم وحدهم بأنهم هم النسل ، والنسل وحده فذلك هو التزييف الغريب .. فكيف يظن اليهود ذلك الظن وهم لم يكونوا قد وجدوا بعد؟

ويتكــامل هذا التزييف مع أول تفرقة عنصرية فى التاريخ ، وإنــها للتفرقــة التى تخرصها اليهود وافتروها بغير وعى أو إدراك ولكنه الحقد الدفين فــى سواء قلوبهم .. فقد اضطروا إلى أن يذكروا إسماعيل عليه السلام فى توراتهم وجعلوا له حيزا ضيقا لا يتعداه وبالتالي لا يستطيع أن يتسامى إليهم فى يــوم من الأيام .. فالتفرقة العنصرية أقامها اليهود فى توراتهم ، فقــد جــاء فــى الإصحاح السابع عشر :" وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه هــا أنــا أباركــه وأثمره وأكثره كثيرا جدا . اثنى عشر رئيسا وأجعله أمة كبيرة ولكن عــهدى أقيمــه لإسحاق الذى تلده سارة فى هذا الوقت من السنة الآتية .. فلما فــرغ من الكلام معه صعد الله عن إبراهيم"

ثم يبدأ التمييز العنصري على العرب بأن اليهود هم أصحاب قصــة الفداء ، فقد جاء فى الإصحاح الثانى والعشرون".. وأن الله امتحــن إبراهيــم



فقال له خذ ابنك وحيدك- إسحاق واذهب إلى أرض المرايا وأصعده هناك - فبكر إبراهيم صباحا وشد على حماره وأخذ اثنين من غلمانه ومعه اسحق ابنه وشقق حطب لمحرقة وقام وذهب إلى الموضع الذى قال له الله ".. ثم يذكر نفس الاصحاح الكيفية التى استجاب بها إبراهيم لكلام الله فقال "ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء وقال : بذاتي أقسمت . إني أقسمت أنى من أجل ابنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذى على شاطئ البحر ويرث نسلك باب أعدائه ويتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض من أجل أنك سمعت لقولي ".

فاليهودهم وحدهم الساميون .. واليهودهم وحدهم أصحاب الفداء ...

فهل صحيح أن اليهود هم أصحاب الفداء؟ إنهم يظنون أنهم إذ يجعلون أنفسهم أصحاب الفداء فسيكونون وحدهم أقرب المقربين إلى الله ...

وسيكونون هم وحدهم أصحاب الرئاسة على عباد الله وعلى هذا فهم الشعب الموعود . وذلك هو الفصل التام بين ذرية اسحق وذرية إسماعيل عليهم السلام . فكأنهم بذلك لا يريدون أن يلتقوا مع العرب فى عروة إلهية واحدة .. والملاحظ تاريخيا أن هذا النزاع قديم جدا فهو يرجع إلى ما قبل تدوين نسخ التوراة التى كتبت فى بابل أى قبل الميلاد بعدة قرون ..

والملاحظ تاريخيا أن إسحق لم يكن وحيد إبراهيم عليه السلام بل سبقه أخوه إسماعيل فكيف يكون إسحق هو الإبن الوحيد لإبراهيم عليه السلام؟

يذكر التاريخ الإسلامي أن محمد بن كعب القرظى قال : ذكرت لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كنت معه بالشام هذه القضية (قضية إسماعيل واسحق) فقال لى عمر : إن هذا شئ ما كنت أنظر فيه وإنى لأراه كما قلت (أى أن صاحب الفداء هو إسماعيل عليه السلام).. ثم أرسل إلى رجل عنده

من الشام كان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه وكان يرى أنه من علماء اليهود.

فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك وأنا عنده ، قال له: أى ابنى إبراهيم كان أمر ذبحه ؟فقال إسماعيل . ثم قال : والله يا أمير المؤمنين إن اليهود لتعلم ذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أبوكم الذى أمر الله بذبحه لما فيه من الفضل الذى ذكر أنه كان منه بصبره على أمر به فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحق لأن إسحق أبوهم".

ولقد جاء هذا التمييز العنصري بين أبناء إسماعيل و أبناء اسحق لتكون النعمة الموعودة محصوره فى أبناء اسحق وحدهم .. ولذلك لم يستطع اليهود أن ينكروا انتساب العرب إلى إبراهيم عليه السلام لأن ذلك كان تاريخا مقرراً لا سبيل إلى إنكاره . والشيء الوحيد الذى يمكن فعله هو التمييز بين أبناء إبراهيم من سلالة إسماعيل ، وأبناء إبراهيم من سلالة إسحق .. وفضلا عن هذا فإن التمييز العنصري بين الأخوين إسماعيل واسحق كان ضروريا عند اليهود لأنهم كانوا يحسون من العرب منافسة دينية فضلا عن المنافسة الدنيوية ." فلو لم يكن للعرب حياة دينية يخشى الكهان[1] منافستها لكان يكفيهم أن يحصروا وعد إبراهيم فى أبنائه المؤمنين دون أبنائه الوثنيين الذين لا يعرفون الله الواحد الأحد فيخرج العرب بهذا الاستثناء من وراثة إبراهيم الروحية ولا تدعوا الحاجة إلى أكثر من ذلك الاستثناء . ولا شئ غير خطر المنافسة فى النسب وخطر المنافسة فى العقيدة الدينية يلجئ الكهان إلى حصر النعمة الموعودة فى أبناء إسحق دون أبناء إبراهيم "..

وبعد كل هذا التزييف الذى لا يستطيع أن ينكر الحقيقة فإن اليهود لم يزيدوا عن كونهم شعب حفرى انقضى ومضى .. ومعنى هذا أن يهود اليوم

[1] كتاب :" أبو الأنبياء الخليل إبراهيم " تأليف : عباس محمود العقاد ، ص ١٤١

هم يهود النسب الدينى فحسب الذين تقمصوا وتمثلوا كـــل مفتريـــات يـــهود التوراة..

إن يهود اليوم لا ينتسبون بالدم لليهود الأقدمين يهود التـــوراة فليـــس بينهما "أى صلة أنثروبولوجية[1] مذكورة ".. ذلك أن يهود [2]فلسطين التـــوراة بعد الخروج تعرضوا لظاهرتين أساستين طوال ٢٠ قرنا من الشتـــات فـــى المهجر : خروج أعداد ضخمة منهم بالتحول إلى غير اليهودية ودخول أفواج لا تقل ضخامة فى اليهودية من كل أجناس المهجر واقـــترن هـــذا بـــتزاوج واختلاط دمـــوى بعيد المدى انتهى بالجسم الأساسي من اليهود المحدثين إلى أن يكونوا شيئا مختلفا" كلية عن اليهود القدامى ولم يعد اليهود اليوم من نسل بنى إسرائيل التورة بأى نسبة ذات بال ".

وإذ صار يهود اليوم يهودا بالنسب الدينى فحسب فإنهم عكفوا علـــى عناصـــر التزييف التى ذكرناها عكوف الإيمان الذى لا محيد عنه فتغلغلـــت فى نفوسهم تغلغل القداسة التى لا تعرف المهادنة.. وهنا أخـــذت الصهيونيـــة على عاتقها عملية تحقيق الوعد الأسطورى بالعودة إلـــى فلســـطين أو أرض الميعاد.. فكان أن التقت مصلحة الإستعمار العالمي مع مصلحة الصهيونيـــة وتضافر الاثنان حتى نجحا فى تحقيق وطن قومي لليـــهود فـــى فلســـطين .. وكانت النتيجة أن واجه العالم العربى ظـــاهرة اســـتعمارية تفـــوق ظـــاهرة الاستعمار الصليبي لأسباب سبعة نوجزها على النحو التالى:

"**أولا :** إســـرائيل كدولة ظاهرة استعمارية صرفة فالإسرائيليون لـــم يزيـــدوا عن كونهم غزاة أجانب لأرض لا علاقة لهم بها دينيا أو تاريخيـــا أو جنسيا .

---

[1]، ٢ كتاب ": استراتيجية الاستعمار والتحرير ": تأليف د / جمال حمدان ، ص ١٦٨.

ثانيا : إسرائيل استعمار طائفي بحت والدولة دولة دينية صرفة فهى تقوم علـى تجميع اليهود واليهود فقط فى جيتوسياسى واحد ومن ثم فأساسها التعصب الدينى ابتداء .. وإذا كان من الواضح أنها تمثل شذوذا رجعيا فى الفلسفة السياسية للقرن العشرين الذى لا يعرف أو يعترف بالدولة الدينية فإنها فى الواقع تعيد إلى الحياة حفريات العصور الوسطى بل القديمة ، ومنطق العصور الوسطى القبلية المتحجرة وهى كذلك تفرض من طرف واحد حربا" دينية.

ثالثا : إسرائيل استعمار عنصري مطلق فرغم أن اليهودية ليست ولا يمكن أن تكون قومية بأى مفهوم سياسى سليم كما يعرف كل عالم سياسى ورغم أن اليهود ليسوا عنصرا جنسيا فى أى معنى بل جماع ومتحف حى لكل أخلاط الأجناس فى العالم ، كما يدرك أى أنثروبولوجى فإن فرضهم لأنفسهم كأمة مزعومة مدعية فى دولة مصطنعة مقتطعة يجعل منهم ومن الصهيونية حركة عنصرية أساسا" وذلك بكل معنى العنصرية من استعلاء وتعصب واضطهاد ودموية.

رابعا : إسرائيل قطعة من الاستعمار الأوربي عبر البحار .. إنها جزيرة أوربية على ضلوع آسيا ومستعمرة غربية فى قلب الوطن العربى وذلك جنسيا وحضاريا" على السواء .. وككل دعاوى الاستعمار الأوربي عبر البحار وتبريرا" لاغتصابها لم تتورع إسرائيل عن أن تدعى رسالة الحضارة والتطور فزعمت نفسها واحة التقدم فى صحراء الرجعية العربية وجزيرة الصناعة فى بحر التخلف الشرقى.

خامسا: إسرائيل استعمار سكنى فى الدرجة الأولى، وفضلا" عن هذا فهى تجسيم للاستعمار المتعدد الأغراض فهى تمثل استعمارا" استراتيجيا" واستعمارا" اقتصاديا.. فوجودها غير الشرعى رهن من البداية بالقوة العسكريا وبكونها ترسانة وقاعدة وثكنة مسلحة فما قامت



ولن تبقى – وهذا تدركه جيدا – إلا بالدم والحديد والنار.. ولهذا فهى دولة عسكرية فى صميم تنظيمها وحياتها و" أمن إسرائيل " هو مشكلتها المحورية أما حلها فقد تحدد فى أن أصبح جيشها هو سكانها وسكانها هم جيشها وهو ما يعبر عنه بعسكرة إسرائيل.

سادسا" : إسرائيل استعمار توسعي أساسا" وأطماعها الإقليمية معلنة بلا مواربة وخريطة إسرائيل الكبرى محددة من قبل ومتداولة ": ومن النيل إلى الفرات أرضك يا إسرائيل "، هو شعار الإمبراطورية الصهيونية الموعودة وهدف إسرائيل الكبرى أن تستوعب كل يهود العالم فى نهاية المطاف ومثله لا يمكن أن يتم إلا بتفريغ المنطقة من أصحابها إما بالطرد وإما بالإبادة.. ونحن بهذا إزاء أخطبوط سرطاني فى آن واحد.. إزاء عدوان احتمالا سوف يقع لا محالة.

سابعا: إن إسرائيل من البداية إلى النهاية استعمار من الدرجة الأولى والثانية معا استعمار بالأصالة والوكالة فى نفس الوقت . ونقصد بذلك أن إسرائيل قامت وأقيمت بفعل ولحساب نفسها والصهيونية العالمية وكذلك قامت وأقيمت بفعل ولحساب الاستعمار العالمي فهى بالنسبة إلى الاستعمار قاعدة متكاملة آمنة عسكريا ورأس جسر ثابت استراتيجيا ووكيل عام اقتصاديا وعميل خاص احتكاريا . إن الاستعمار العالمي هو الذى خلق إسرائيل بالسياسة والحرب وهو الذى يمدها بكل وسائل الحياة من أسلحة وأموال. ثم هو الذى يضمن بقاءها ويحميها علنا.. ولذلك فإنها تكاد تكون الحالة الوحيدة فى العالم تقريبا التى تجسدت فيها آخر مراحل الاستعمار القديم وأول طلائع الاستعمار الجديد. فإذا كانت إسرائيل ملتحمة كلية فى الوقت الحالى بالولايات المتحدة فإنه ليس من الواضح تماما من الذى



يستعمر من. فإسرائيل تكاد تبدو اليوم وكأنها أمريكا فى الشرق أو الولاية الحادية والخمسون من الولايات المتحدة كما قيل أو على الأقل قاعدة أمريكية - أكبر قاعدة أمريكية - عبر البحار إلا أنها قاعدة بدرجة دولة وإلا أن كل طاقمها من اليهود.

وفى نفس الوقت تمارس الصهيونية العالمية لحساب إسرائيل نفوذا وضغطا غير متناسب .. وأيا ما كان فلا شك أن إسرائيل هى أخطر تحديات الاستعمار فى التاريخ العربي ولعلها أعلى مراحله فى الوطن العربى بمثل ما أن الصهيونية العالمية هى أعلى مراحل الإمبراطورية العالمية ..

* * *

وهنا يجب علينا أن نتساءل : أما وقد حققت مصر انتصارها العظيم فى أكتوبر ١٩٧٣ ، بعد أن دحرت إسرائيل وتلقت هزيمتها التى زلزلت كيانها مجتمعا وفكرا وقوة مسلحة ... فهل من الممكن أن تكون حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، هى آخر الحروب؟

هل من الممكن أن تعيش إسرائيل وسط المحيط العربي فى وئام وسلام فلا تفكر فى الحرب مرة ثانية؟

أقوال جازما إنه يستحيل على إسرائيل أن تعيش بدون حرب ، وحرب مع العرب أولا وأخيرا ولا يغترن أحد بمباحثات السلام بين إسرائيل والفلسطينيين فإن لذلك غاية واحده فدولة فلسطين التى ستقام لن تزيد عن كونها جيب وسط إسرائيل ، جيب سهل تدميره وإبادته ، وكل ما فى الأمر اكتساب اعتراف عربي ودولى بحدود إسرائيل بل بقوة إسرائيل الرادعة..

الأمر الثانى : أن إسرائيل ومن ورائها الولايات المتحدة الأمريكية تؤكد وجودها لا على العلاقات السليمة السوية القائمة على خلوص النية، ولكن وجودها قائم على أساس التفوق العسكرى



المطلق على الدول العربية مجتمعة . وإسرائيل لا تخفي تلك السياسة بل تجاهر بها في تفاخر و تعال ظاهر هو التهديد بعينه. وفضلا عن هذا فإن الولايات المتحدة الأمريكية تجاهر به وتنفذه فهي تقدم لإسرائيل سنويا من الأموال والأسلحة أضعاف أضعاف ما تحصل عليه الدول العربية مجتمعة .. ويتجلى ضمان أمريكا لأمن إسرائيل في البيان الذي أصدره وليم كوهين وزير الدفاع الأمريكي فقد "أكد التزام [1] بلاده بتقديم مساعدات تبلغ قيمتها ١,٦ مليار دولار لكل من إسرائيل و الفلسطينيين (١,٢ مليار لإسرائيل و ٤٠٠ مليون دولار للفلسطينيين).. وعقب اجتماعه مع رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك ، قال كوهين : انه مهما يكن الاتفاق الذي ستتوصل إليه الأطراف المعنية بعملية السلام فإن واشنطن ستبذل كل ما في وسعها لضمان أمن إسرائيل .. وأشار الوزير الأمريكي إلى أنه بحث مع باراك القضايا المتعلقة بالتهديدات التي تواجهها إسرائيل ".

ثالثا : سياسة التطبيع التى تنشدها إسرائيل مع الدول العربية والتي تهدد بها الولايات المتحدة هو نوع من تأكيد ضعف الدول العربية أمام التفوق الإسرائيلي الكاسح..

وقد يوحي قولنا هذا بأنه لن تقوم حرب بين العرب وإسرائيل ولكن الحرب سوف تقع وإن طال انتظارها ذلك لأن الوجود الإسرائيلي خطر مؤكد على الوجود العربى برمته .. لكن ألا يمكن أن تلجأ إسرائيل إلى السلاح النووى كرادع أخير .. هنا يقول المشير محمد عبد الحليم أبو غزاله " عندما[2] نتحدث عن التهديد النووي الإسرائيلي وإمكانية ردعه يجب أولا ان نعى الآتي :

(١) جريدة الاهرام فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٩٩

(٢) مجلة الشباب مايو ١٩٩٧



١- ان الدول النووية لا تلجأ للحل النووي طالما كان الحل التقليدي ناجحا ..

٢- لم تلجأ الولايات المتحدة إلى الحل النووي فى فيتنام فى وقت تعرضت فيه لاحتمالات هزيمة كاملة لأن استخدام السلاح النووي له محظوراته ومخاطره واستخدام إسرائيل للسلاح النووي فى منطقتنا لـه خطورته الشديدة على مصالح الغرب فى المنطقة كما ان إسرائيل نفسها ستتعرض للآثار الناتجة عن الانفجارات النووية (إشعاعات نووية) ولا أعتقد ان العالم سيوافق على السماح لإسرائيل باستخدام هذا السلاح بل قد يؤدى الاستخدام إلى رد فعل مضاد من دول نووية فى العالم ضد إسرائيل.

إن الحل التقليدى بالنسبة لإسرائيل ناجح حتى الآن ولذا فهى ليست فى حاجة إلى استخدام الحل النووى وأعتقد أن إسرائيل ستلجأ إلى الحل النووى فى حالة واحدة : إذا تعرضت لهزيمة ساحقة من العرب تعنى احتمال زوال إسرائيل من على الخريطة نهائيا وستتغلب على إسرائيل حينئذ عقدة "الماسادا" (على وعلى أعدائى) .

واعتقد أن هزيمة إسرائيل بهذه الطريقة يمكن أن تتحقق إذا اتفقت كل الدول العربية على مهاجمة إسرائيل تحت قيادة عسكرية واحدة وهذا الأمر لن يتحقق حاليا أو فى المستقبل المنظور وذلك لأننا نسعى للسلام وليس للحرب.. ومع ذلك فهناك من الأسلحة التقليدية ما يمكنها أن تكون وسيلة ردع لإسرائيل ومنعها من اللجوء إلى الحل النووى بل تجعلها تتراجع عن تعنتها وصلفها بالنسبة لمسألة التسوية السليمة وقيام دولة فلسطينية .. هذه الأسلحة هى تلك القادرة على الوصول إلى عمق إسرائيل وتوجيه ضربات تحدث فيها خسائر بشرية جسيمة .. هذه الأسلحة هى القوة الجوية والصواريخ أرض أرض، ولكن بالنسبة للقوات الجوية قد توجد صعوبة فى وصول الطائرات لعمق إسرائيل رغم ضحالته . ومع ذلك فزمن الطيران من أى قاعدة سورية أو أردنية صغيره جدا" (٢ ــ ٣ دقائق) يصعب معه اعتراض هذه الطائرات

قبل وصولها إلى أهدافها خصوصا إذا كانت مسلحة بصواريخ جو أرض مداها ١٠٠ - ١٥٠كيلو متر، وهى معروضة للبيع فى أنحاء كثيرة من العالم. ولكن السلاح الأكثر ضمانا فى الوصول إلى كل مكان فى إسرائيل دون اعتراض مؤثر هو الصواريخ أرض ـ أرض برؤوس تقليدية أو غير تقليدية. وعلى الرغم من وجود صواريخ مضادة للصواريخ فإنها لن تتمكن من اعتراض سوى ١٠ % فقط منها . ولو تم إطلاق هذه الصواريخ أرض - أرض بأعداد كبيرة فى وقت واحد ، فإن أى دفاع صاروخي مضاد للصواريخ لن يسقط منها سوى أعداد قليلة للغاية . والعسكريون الإسرائيليون يعرفون ذلك جيدا" ويضعونه فى حسبانهم عند وضع سيناريوهات أى حرب قادمة. وعليه لو تأكدت إسرائيل من وجود هذه الصواريخ بأعداد كبيرة لدى دول النطاق ودول عربية وكانت هذه الصواريخ ذات مدى كبير فإنى على ثقة من أن لهجة إسرائيل فى التفاوض ستتبدل تماما.

* * *

تلك خطة النصر فى المستقبل .. ولا ندرى كيف تكون الأوضاع السياسية والاجتماعية آنئذ.. وصدق شاعرنا العربى حيث يقول .

كلما أنبت الزمان قناة   ركب المرء فى القناة سنانا

(٢)

النصر العظيم

٦ أكتوبر ١٩٧٣

" هذه بلدكم وأنا أمنحكم حرية التصرف ولكـــن عليكـــم أن تنفذوا السيناريو المتفق عليه والقيام بحـــرب ناجحـــة يتذكرهـــا التاريخ ، وأنا المسئول عن النتائج وسوف أقوم بتكريمكم وبتنظيم موكب نصر من مقر القيادة العامة للقوات المسلحة إلى مجلـــس الشعب "

من حديث الرئيس السادات إلى قادة
القوات المسلحة

(١)

وكانت الهزيمة قاسية

" الاعتراف بالحق فضيلة ".. ومن فضيلة الاعتراف بالحق أن نسمى الأشياء بمسمياتها حتى وإن كانت قاسية على النفس لأن تسمية الأشياء بمسمياتها كفيل بأن يعرفنا حقيقتها وإلى أى مدى كان خطؤها أو صوابها . وأسباب ذلك الخطأ وبواعثه وكيف كانت صوره وأشكاله وكيف كان رجاله ومبلغ ما قدموه أو تخاذلوا فيه وأهملوه .. إن تسمية الأشياء بأسمائها تعين على تفسير الأحداث تفسيراً سليما صادقا .. أما أن نسميها بغير أسمائها فإن ذلك يغطى على الحقيقة ويمنعنا من كشف عناصرها ومقوماتها ويفسد علينا التصور السليم والتقدير القويم .. وهذا ما وقع، فقد أسمينا الهزيمة التى حلت بنا سنة ١٩٦٧ ، باسم النكسة ، فهل كان ذلك تهوينا وتخفيفا من وقعها أم كان الأمر تغطية وإخفاء ؟ لقد كان الأجدر أن نسمى الحادث باسمه فنقول: هزيمة سنة ١٩٦٧..

وحدث ذلك، ولكن بعد وقت.. فما هى أسباب تلك الهزيمة؟

قبل تحديد أسباب الهزيمة فإنه ينبغى أن نحدد الأسباب التى يجب اتخاذها لتأهيل الدولة للحرب إذ ظهر فى الأفق الدولى ما يهددها وتتركز الأسباب فيما يلى:" أولا[1]، أن تكون الأجهزة المختصة، وهى فى حالتنا هذه جهاز المخابرات العامة وإدارة المخابرات العسكرية على علم تام بقدرات الخصم المحتملة من حيث قدراته الشاملة وفى مقدمتها القدرات العسكرية مثل

(1) مجلة :" الشباب" العدد ٢٣٨ ، مايو ١٩٩٧، حوار مع المشير محمد عبد الحليم أبو غزاله ، أجرى الحوار : عصمت عبد الفتاح

حجمها فى المعارك ومستوى تدريبها وتسليحها وتكتيكاتها وغيرها من قدرات الخصم التى يمكن أن تستخدم فى الصراع .. كما يجب أن تقدم هذه الأجهزة أيضا تقارير منفصلة عن جوانب القوة والضعف فى هذا الخصم.. وأيضا مقترحات عن كيفية الاستفادة من جوانب الضعف والتغلب على جوانب القوة..

ثانيا : أن تكون القيادة السياسية على علم تام بقدرات واتفاقات قواتها المسلحة ومستوى استعدادها القتالى ومستوى تدريبها والروح المعنوية .

ثالثا : أن يتم إعداد الدولة للحرب لأن دخول أى دولة فى صراع مسلح يتطلب استخدام القوة الشاملة لهذه الدولة .

رابعا: أن تعمل القيادة السياسية على ألا تدخل صراعا" مسلحا" فى أكثر من جبهة فالولايات المتحدة مثلا ، وهى قوة عظمى ، تبنى استراتيجيتها على أن فى مقدورها "١,٥ حرب" فقط ، وهذا معناه تسكين كل الجهات الأخرى ليمكن تركيز كل مجهود الدولة على جبهة واحدة لضمان خلق التفوق اللازم لكسب هذا الصراع.

خامسا: توفر القيادة الدعم السياسي لهذا الصراع داخليا وخارجيا . فالولايات المتحدة فى حرب الخليج الثانية حصلت على موافقة السلطة التشريعية (الكونجرس) والشعب الأمريكي على خوض الحرب ؛ وعملت على كسب تأييد عدد كبير من دول العالم لها فى الحرب أى كسب شرعية دولية وداخلية لهذه الحرب .

فهل اتخذت القيادة السياسية المصرية من المبادئ التى ذكرناها خطتها فى الأعداد لحرب يونيو ١٩٦٧ ؟

لقد كانت سياسة القيادة السياسية بالنسبة للحرب مع إسرائيل أقرب إلى المظاهرة الإعلامية فحسب ولولا ذلك لفكرت فى حال القوات المسلحة من حيث التسليح والتدريب وإعداد الفرق وكذلك الكوادر القيادية .. ومعنى

ذلك أن تكون الدولة معدة فعلا للحرب .. والحق - كما يثبتــه الواقــع - أن القيادة السياسية لم تعد الدولة للحرب، ولم يتم إعداد القوات المسلحة تسـليحا وتدريبا للدخول فى صدام مسلح مع خصم أعد نفسه بعناية وتسـلح بـأحدث الأسلحة ودرس أخطاءه فى حرب العدوان الثلاثى على مصر عـام ١٩٥٦، وبنى خططه على تجنب هذه الأخطاء. وفضلا عن هذا فقد صدقـت القيـادة السياسية أكذوبة الحشود الإسرائيلية ضد سوريا بل إنها لم تصدق ما وصـل إليها من معلومات تفيد بعدم وجود أى حشود .. وبناء على هذه المعلومـات غير الصحيحة قررت القيادة السياسية البدء فى حشد القـوات فـى سـيناء.. وللأسـف الشديد بدأ استدعاء قوات الاحتياط وشكلت وحدات عسكرية فـى أيام قليلة وتم دفعها إلى سيناء دون تدريب يؤهلها للقتال.. فهل يعقل هذا ؟

ولتوضيح مدى فداحة هذا الخطأ وما جناه بعد ذلك :" أن التحالف [١] الذى تم تكوينه ضد العراق أنفق خمسة أشهر ونصف الشهر فى تدريب قواته وخاصة قوات الاحتياط على المعركة المقبلة بينما ارتكب صدام حسين نفـس الخطـأ الذى ارتكبناه فخسر ٣ فرق فى مسرح العمليات الكويتـي معظمـها سئ التدريب غير مستكمل فى الأفراد والمعدات ، فكانت الهزيمة النكراء التى تعـرض لها العراق، وكانت مصر قد دفعت بوحدات كاملة بـالزى المدنـى غير مدربة وغير مستكملة بالمعدات والأسلحة .. وبعدها قررت مصر تلقـى الضربة الجوية الأولى، وهذا خطأ إستراتيجي كبير أدى إلى عواقب وخيمـة فأصبحت القوات البرية بلا غطاء جوى .. ولعل القيادة السياسية والعسـكرية لم تدرك آنئذ أن الحرب الحديثة حرب أسلحة مشتركة. ومعنى ذلك أن كـل أفرع القوات: جوية وبريه وبحرية، تعمل فى إطار خطة واحدة فـى تعـاون وثيق تماما، كما كانت تفعل عناصر الفرقة الموسيقية كعزف سيمفونية واحدة.

---

(١) المرجع السابق



ومن الأخطاء العسكرية الجسيمة التى ارتكبتها القيادة السياسية ان مصر كانت متورطة فى حرب اليمن وكان هناك ٨٠ ألف جندى والمنطق الصحيح يفترض ألا تحارب دولة جبهتين وكان لابد لمصر قبل ان تفكر فى فتح الجبهة الشرقية أن تتوصل إلى نهاية لحرب اليمن وسحب قواتها من هناك وإعادة تدريبها على القتال فى مسرح عمليات مختلف تماما عن مسرح عمليات حرب اليمن . ولذلك فقد ارتكبت القيادة السياسية خطأ قاتلا حين أمرت بسحب القوات المصرية من اليمن بدون أن تقدر ما للسحب من مخاطر وما يحتاجه من استراتيجية تفوق استراتيجية الحرب والقتال .. فلقد استغرق حشد القوات فى سيناء أكثر من شهر بينما تقرر انسحابها فى أيام قليلة. وهو أمر يستحيل استراتيجيا لأن سعة الطرق وقدراتها لا يمكنها تحمل انسحاب قوات بهذا الحجم فى وقت قصير . ولذا كان الانسحاب كارثة بكل المقاييس.

ان للانسحاب أسسه وقواعده وهو أصعب العمليات العسكرية استراتيجيا وتعبويا ، ويلزم له استعدادات خاصة وخطط دقيقة وهو مالم يحدث.

* * *

لقد كان لهزيمة يونيو ١٩٦٧ ، أوخم العواقب لا على القوات المسلحة فحسب بل على المجتمع المصري والمجتمع العربى ، والمكانة الدولية .. أما القوات المسلحة فقد دمرت بنسبة كبيرة جدا ولا سيما فى المعدات وفى نفس الوقت أصابت القوات المسلحة بإحباط شديد جعلتها تتوارى عن أنظار أبناء الشعب.. ومن الناحية العسكرية فقد احتلت إسرائيل سيناء كما تسببت فى غلق قناة السويس.. وفى الوقت نفسه اضطرت القيادة السياسية إلى تهجير المواطنتين من سكان مدن القناة .. هذا فى الوقت الذى فقد فيه الشعب



المصرى ثقته فى قواته المسلحة مما جنح به إلى اليأس والقنوط .. أما الوضع الاقتصادي فقد تدهور كثيرا بسبب ما اتخذته الدولة من تدبير الميزانية التى تؤدى الى بعث القوات المسلحة من وهدتها وإحياك من جديد .. هذا فى الوقت الذى كادت فيه مصر تفقد مكانتها العربية وبكونها زعيمة العالم العربى.. يضاف إلى هذا أن ميزانية مصر قد انخفضت إلى حد بعيد لفقدها للمصادر للثلاثة لدخلها وهى : عائدات قناة السويس والبترول والسياحة.

* * *

وإذا كانت الهزيمة قد حاقت بمصر سنة ١٩٦٧ ،فإن تلك الهزيمة كانت ذات مدلولين مختلفين من جانب إسرائيل ومن جانب مصر .. أما من جانب إسرائيل فقد أصابها الغرور الجامح ، فاعتقدت بأنها القوة التى لا تقهر، وأن مصر لن تقوم لها بعد هزيمتها قائمة . ولهذا بدأت إسرائيل تحصن نفسها تحصينا لم تعرفه من قبل فأقامت خط بارليف بتصميم يعجز أى قوة تقدم على اقتحامه وكرد فعل لهذا الغرور المتطرف فإن إسرائيل رفضت أن تنفذ قرارات مجلس الأمن بالانسحاب من الأراضي العربية المحتلة.

إذن فقد فرضت الحرب التحريرية على مصر فرضا فذلك واجب عليها لا يمكنها ان تتردد فيه أو تلتف حوله بأى نوع من الالتفاف..

آنئذ قال الإسرائيليون فى عصبية من الصلف والتجبر ما يعبرون به عن مكنون نفوسهم وما يضمرونه لمصر، وذلك على لسان دافيد اليعازر رئيس الأركان الإسرائيلي الأسبق :" إن خط بارليف سيكون مقبرة الجيش المصرى".. وقال الجنرال بارليف ": إننى متأكد أن مصر إذا استأنفت القتال فإنها لن تتمكن من تحقيق أى عبور لاستحالة اجتياز خط بارليف الحصين المقام على الضفة الشرقية للقناة . كما أنه يستحيل أيضا بالنسبة لأى قوى



أخرى فى العالم أن تتمكن على الإطلاق من عبور قناة السويس بسبب ما يشكله هذا الخط الحصين من خطر على القوات القائمة بالعبور".

وقال موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلي :" إن عمليات العبور المصرية إذا حدثت فإنها لن تؤثر على قبضة إسرائيل الخارقة على خط بارليف المنيع وسيلقى المصريون الرد الحاسم إذا حاولوا ذلك .. إنه خط منيع لا يمكن اختراقه إننا أقوياء بدرجة تكفى للاحتفاظ بخط بارليف للأبد".

إذن فهى الحرب، واجب وفريضة.

* * *



الإعداد للمعركة

الأسلحة المصرية لخوض الحرب كانت كلها متكاملة في تدريبها وأدائها ، والسياسة المصرية كانت متكاملة في عناصرها للتمكّن من الحرب بما يحقق المفاجأة العسكرية التي تفقد العدو صوابه وتفقده قدرته على القتال:

فأولا كان لابد من طرد الخبراء السوفيت ، وقد اتخذ الرئيس السادات هذا القرار بعد أن وجدهم يكونون طبقة لها الامتياز على سائر قيادات القوات المسلحة ، وتمثل ذلك في السفير السوفيتي :" بدأ يأخذ لنفسه وضعا أشبه ما يكون بوضع المندوب السامي البريطاني أيام الاحتلال ، على حد تعبير السادات في كتابه (البحث عن الذات) .. ثم إنه - أي الرئيس السادات - أراد أن تكون المعركة مصرية خالصة فلا يقال إن السوفيت هم الذين حرروا أرض مصر .. هذا فضلا عن أن السوفيت ما كانوا يريدون لمصر ان تحرر أرضها . وهذا ما يقرره اللواء المجدوب - رئيس فرع التخطيط لحرب أكتوبر - فقد قال :" إن السوفيت [1] وراء فترة الركود التي أصابت سنوات الأعداد بعد مبادرة روجرز، وجود السوفيت في الجيش كان له دور سلبي .. هدف السوفيت كان ألا نحارب ولذلك سخرت كل قدرات خبرائها في منع الحرب وإحداث نوع من الإحباط واستحالة العبور. تزامن ذلك مع الدعاية الإسرائيلية التي كانت خلاصتها أنه لو اجتمع مهندسو أمريكا وروسيا لما استطاعوا التغلب على خط بارليف.. لو وضع ذلك مع النقص الشديد في الأسلحة الروسية واستخدام السلاح للضغط على مصر حتى

---

[1] مجلة "المصور" ٢ أكتوبر ١٩٩٨ ، عددوثائقي ،



لا تحارب ، كل هذا جعل قرار طرد الخبراء الروس إشارة إيجابية لامكـــان الحرب".

أما الهدف الإستراتيجي لطرد السوفيت فقد عبر عنه الرئيس السادات بقوله: إنه ما دام[1] هناك سكون على الجبهة فـــان هـذا يعــوق تحركنـــا السياسى.. إننا لن نحصل على ما نريد من سلاح لأن الاتحاد الســوفيتي لا يرغب فى أن نحارب ةهذه معركتنا نحن ولابد أن نحاربها".. ثــم قــال فـــى حسم: "إذا لم نحارب فى عام ١٩٧٣ ستتآكل القضية وتنتهى وإذا كان الاتحاد السوفيتي لن يعطينا السلاح لنحرر أرضنا فلنحارب بما لدينـــا مــن ســلاح وبالتخطيــط وكفاءة التنفيذ".. ولم يكن طرد الخبراء السوفيتي مجرد إجـــراء محلى بل إن الرئيس السادات أراد له أن يكون ذا صبغة عالمية فقد نقل الخبر إلى جميع أنحاء العالم بكل اللغات وذلك حتى يعطى لقادة العالم القناعة الكافية بأن مصر تسعى الى تحرير أرضها بأيدى أبنائها.. ولكن هذا الإجراء كـــانت له أصداء خداعية داخل إسرائيل بين قادتها ومفكريها ،كما كانت له أصــــداءً عالمية " فقد[2] كان بعض الإسرائيليين يرى أن قرار الاستغناء عن الخـــبراء السوفيت يؤكد اتجاهات مصر نحو التسوية السلمية دون حرب وإنـــها تعمــل على تشجيع الرئيس الأمريكي للقيام بدور أكبر من أجل التسوية السلمية . كما اعتبر احد المحللين أن هذا الإجراء هو نوع من الترضية للعناصر العسكرية فى مصر التى ضجت بالشكوى من السوفيت ولا تجد لوجودهم أى جـــدوى وأن هذا التيار يتزايد ويتزعمه وزير الحربية نفسه - الجنرال محمد صادق - الذى لا يخفى عداءه للسوفيت وشكك فى نواياهم ويجاهر بذلك .. وذهب أحد رؤساء تحير الصحف الإسرائيلية وجهة أخرى إذ يرى أن الاســتغناء عــن الخبراء السوفيت أصبح أمراً ضروريا لإرضاء بعض الدول العربية التى تقدم

---

[1] كتاب ": البحث عن الذات " الرئيس السادات

[2] مقالات ": الخديعة ، بقلم د/ صلاح قضايا ، جريدةالاخبار ، من ٩٩/٩/٢٧ الى ١٩٩٩/١٠/١

المساعدات والقروض لمصر وتخشى من وجود عناصر شيوعية فوق الأرض المصرية .. وقد خالف ذلك الرأى أحد قادة أحزاب اليمين الإسرائيلي وهو " ألن جولدمان" ، فهو يرى أن قرار الاستغناء عن الخبراء السوفييت مجرد قرار سياسي دعائي للاستهلاك المحدود وأنه لن ينعكس كثيرا" على مجال التعاون المصري السوفيتي وأن هذا التعاون سيستمر حتى بعد عودة الخبراء السوفييت إلى بلادهم"..

وكذلك ساعد قرار طرد السوفييت من مصر على إخفاء الاستعدادات العسكرية المصرية للحرب كما كشف فى نفس الوقت مدى الاستنامة التى أخلد إليها الإسرائيليون واستبعادهم لإمكانية قيام مصر بحرب ضدهم.

* * *

* ومن أساليب الخداع أيضا أن الرئيس السادات دأب فى أسفاره إلى هذه الدولة أو تلك - وقد كان ينتقيها بعناية - أن يصرف نظر العدو الإسرائيلي إلى توقعات ليس من بينها استعداد مصر للحرب .. فقد ذهب مرة إلى قطر وبحث مع أميرها مسألة التعاون المشترك وذلك على صورة تسمح بتسرب معلومات فحواها أن مصر تعانى ضائقة مالية شديدة وأنها عاجزة عن الحصول على السلاح وقطع الغيار التى تحتاجها قواتها وذلك بسبب نقص احتياطيات العملة الصعبة وكذلك لتوتر العلاقات المصرية السوفيتية ..

ثم ختم الرئيس السادات رحلته بأن طار إلى سوريا حيث التقى بالرئيس حافظ الأسد. وأيضا تم تسريب معلومات وتحليلات إلى صحف عربية ، خليجية ولبنانية صورت أن الرئيس السادات لم يلتق بالرئيس الأسد إلا ليوسطه فى تحسين العلاقات المصرية السوفيتية.. وهكذا يظهر السادات

فى رحلاته وهو ينشد المعونات المالية أو ينشد تحسين العلاقة بينه وبين الاتحاد السوفيتى..

فهل حينما تكون الدولة المصرية على هذا الوضع السياسي والاقتصادى، هل ينتظر منها أن تقوم بحرب أو تطمع فى حرب مع إسرائيل؟

وفضلا عن هذا فقد كانت مصر تدخل فى عقد اتفاقيات اقتصادية بغية تحسين مواردها المالية.. من ذلك أن إحدى الشركات الأمريكية تقدمت بمشروع اتفاقية بترولية مع مصر تقضى بإنشاء خط أنابيب للبترول يبدأ من داخل ميناء الأدبية على خليج السويس، ووافقت مصر ووقعت على أوراق المشروع وصادقت على العقود . وكان ذلك دليلا على أن مصر تتطلع إلى فترة سلام طويلة حتى تستطيع تحقيق بعض مشروعاتها الإنمائية.

وزيادة فى المخادعة ان موقع ذلك المشروع يدخل فى دائرة العمليات العسكرية إذا نشب قتال بين مصر وإسرائيل .. فكيف تقبل مصر ذلك المشروع ما لم تكن لديها نية فى سلام طويل الأمد؟..

وإلى جانب هذا فقد كانت هناك تمويهات وخدائع عسكرية كثيرة نذكر منها ما يلى: أن على الجبهة المصرية تحولت التحركات العسكرية إلى جزء من الإعداد للمشروع التدريبي الذى عرف باسم :"مناورات تحرير ٢٣" والذي سمح باستدعاء بعض قوات الاحتياط ليتسنى لها الاشتراك فى المشروع التدريبي وكانت الإشارات المفتوحة بين القوات تكمل الصورة الخداعية التى كان العدو ضحية لها.

أما صدى تلك التحركات العسكرية المصرية التى كانت تبدو وكأنها روتينية فى نظر إسرائيل فإنها أقنعت إسرائيل بعجز العرب عن شن أىهجوم عليها .. ومن ثم فإنه لا قيمة إطلاقا لما أسماه المصريون :" مناورات تحرير ٢٣" ومما زاد من قناعتهم انه تم تسريح ٣٠,٠٠٠ (ثلاثين ألف) مجند مصرى وإحالتهم إلى الاحتياط ، وكذلك الأمر على الجبهة السورية فإن



السوريين أغلقوا بابهم على أنفسهم بعد ان أسقطت لهم إسرائيل أثنى عشر طائرة فى معركة جوية واحدة .. ولم يجدوا وسيلة لحفظ ماء وجوههم أمام شعبهم إلا بأن يقوموا هم أيضا بتحركات عسكرية هى أقرب إلى المظاهرة لا أكثر ولا اقل .. وهذا ما جعل " زئيرا" مدير إدارة المخابرات العسكرية الإسرائيلية على يقين - ومعه رجاله - بأنه يستحيل على العرب أن يجازفوا بمستقبل أوطانهم بشن حرب على إسرائيل . وقد أدى كل ذلك إلى أن يتخبط التفكير العسكرى الإسرائيلى فى استنتاجات خاطئة دفعت الإسرائيليين إلى اليقين باستحالة هجوم العرب عليهم .. وقد رد زئيرا على العسكريين الذين طالبوه باستدعاء الاحتياط كرد على الاستدعاءات المصرية، قائلا: " إننا نرفض الرقص فى كل مرة على أنغام المصريين ".. أما موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلي فانه وصف عمليات استدعاء القيادة المصرية للاحتياط بأنه:" اللعبة المصرية المفضلة" ثم قال: "ان لعبة استدعاء الاحتياط أصبحت اللعبة المفضلة لدى المصريين لأنهم يعرفون أن القوات الإسرائيلية الضاربة تعتمد بصورة أساسية على الاحتياط وأن تعبئة قوات الاحتياط فى إسرائيل تكلف الميزانية ملايين الدولارات فى كل مرة ويؤدى الى شبة شلل كامل فى الحياة المدنية حتى تكاد الشوارع تخلو من الناس ومعهم معظم سيارات النقل العاملة فى الحياة المدنية".

وإحكاما لخديعة استدعاء الاحتياط التى تخبط الإسرائيليين فى تفسيرها فإن استدعاء الاحتياط كان يغلف بكثير من عمليات التمويه والإخفاء، فمثلا: " فتح باب[1] سفر العسكريين للخارج وتنظيم مسابقات ثقافية ودينية لأفراد القوات المسلحة ورصد جوائز مالية كبيرة لحفظ القرآن الكريم بين الجنود وإعداد رحلات متتالية لأداء العمرة للضباط والجنود ثم تحديد

---

(١) المرجع السابق.

مواعيدها طوال شهر رمضان ١٣٩٣ هـ دون أن يعرف أحد أن العد التنازلي للحرب سيبدأ قبل بداية رمضان وأن اقتحام قناة السويس سيتم قبل العاشر من رمضان ..وفى هذا المناخ تم الاستدعاء رقم ٢٣ وكان هو استدعاء حرب أكتوبر ١٩٧٣ " .. وهكذا فان الحرب خدعة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

* * *

واذا كنا قد عرفنا أسباب الهزيمة التى حاقت بنا سنة ١٩٦٧ ، واذا كنا قد خادعنا وموهنا إخفاء لتحركاتنا فإن هذا قد أوجب على الرئيس السادات أن يختار القيادة العليا للقوات المسلحة أو يختار الرجال الذين سيعهد إليهم أمر القيادات الرئيسية .. ولابد لنا من أن نسوق واقعا تاريخيا لنعرف كيف تم الاختيار، وعلى أى أساس ... ففي الساعة الثامنة ونصف مساء يوم الثلاثاء ٢٤ أكتوبر ١٩٧٢ ، والذي وافق ليلة ١٧ رمضان ١٣٩٢ ،اجتمع فى منزل الرئيس السادات أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة ورؤساء الأفرع الرئيسية .. وقد ضم الاجتماع الفريق أول محمد صادق ، وزير الحربية ، والفريق سعد الدين الشاذلي ، رئيس أركان حرب القوات المسلحة ، واللواء طيار محمد حسنى مبارك قائد القوات الجوية ، واللواء بحري محمود فهمى قائد القوات البحرية ، واللواء محمد عبد الغنى الجمسى رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة ، واللواء محمد محرز مدير إدارة المخابرات الحربية ، واللواء سعيد الماحي قائد سلاح المدفعية، واللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث الميدانى، واللواء على عبد الخبير رئيس هيئة التدريب، واللواء نوال عامر رئيس هيئة الإمداد والتموين ، واللواء سعد مأمون قائد الجيش الثاني الميدانى.. وتولى اللواء الجمسى تسجيل وقائع الإجتماع الذى انعقد فى الصالون الكبير بالطابق الأرضي من منزل الرئيس السادات . وبعد

أن عرض عليهم الموقف واستمع إلى أرائهم وتحفظاتهم وكانت دلالتها أنــه يستحيل دخول حرب واقتحام خط بارليف .. وهنا واجه الرئيس السادات الجميع بالقرار الحاسم فقال لهم :" وأنا أقول لكم بصراحة إن المتوافر لدينا الآن من سلاح ومعدات وتجهيزات هي التى سندخل بها المعركة .. وعليكم جميعا أن تضعوا خطة هجومية لا تعتمد على شئ آخر سوى ما معنا من سلاح .. وأنا طلبت الاجتماع بكم لأستمع إلى المشاكل والمعوقات ونحاول أن نذللها معا ونضع الأسلوب المناسب لمواجهتها " .

وكان الإجراء الحاسم الذى اتخذه الرئيس السادات بعد ٤٨ ساعة من ذلك الاجتماع أن أصدر قراراً بإعفاء الفريق محمد صادق، وتعيين الفريق أحمد إسماعيل على وزيراً للحربية ، وإعفاء اللواء البحري محمود على فهمي قائد القوات البحرية ، وتعيين اللواء فؤاد ذكرى قائدا للبحرية .. وكذلك أعفا من أظهر عدم اقتناع بإمكانية المعركة نذكر منها الفريق عبد القادر حسن ، واللواء على عبد الخبير ، واللواء محمد محرز مدير إدارة المخابرات الحربية وتعيين اللواء فؤاد نصار بدلا منه.. أما القيادات الوسطى فلم يمسسها تغيير لأنها هى التى أضيرت وكانت تتطلع الى الثأر لوطنها والانتقام لسمعتها وكرامتها.

* * *

* وأثناء تلك التغييرات الجذرية الضرورية لم تتوقف القوات المصرية المسلحة عن العمل ضد العدو في معارك مستمرة اتصفت بالجسارة والمخاطرة والفدائية .. وأثناء تلك الحرب التى لم تتوقف كان لابد من إقامة خط الدفاع الذى يحمى القوات المدافعة المهاجمة وفى نفس الوقت يهيئ لبناء القوات المسلحة التى سوف تنفذ المعركة.. إذن فقد كانت ضرورة استراتيجية ان تقام حائط الصواريخ.. وعهد بهذا العمل إلى المشير محمد على فهمى



قائد قوات الدفاع الجوى .. ولإعطاء تصوير كامل لهذا العمل العظيم فليس خير من أن نقدم ما جاء على لسان المشير محمد على فهمى عن حائط الصواريخ من حيث الجهود التى بذلت فى بنائه ومن حيث دوره فى معركة التحرير ...

فهو يقول :" القوة الجوية [1] المعادية : لدى إسرائيل حوالي ٥٠٠ طائرة يمكن لها أن تلقى فى طلعة واحدة ٢٠٠٠ طن متفجرات تقريبا يمكنها خلال ثلاثة أيام قتال أن تلقى على قوات الجبهة ما يعادل أول قنبلة ذرية ألقيت على هيروشيما .. كان لابد من الوضع فى الاعتبار التعامل بكفاءة تامة مع هذه القوات التى يفخر بها الإسرائيليون ويعتبرونها سلاح الردع الرئيسي وأن نوفر الحماية من ضرباتها للأهداف الحيوية للدولة والقوات البرية والجوية والبحرية. ولذلك كان على قوات الدفاع الجوى أن تكون فى أقصى درجات الإستعداد سواء فى الفترة التى أطلق علها فترة اللا سلم واللا حرب أو مع اندلاع المعارك.

ان عناصر الدفاع الجوى والتى فى مقدماتها وسائل الإنذار التى تستطلع العدو الجوى وتحدد مكانه وتنذر القوات المسلحة وأجهزة الدفاع المدني وتشمل وسائل الإنذار محطات الرادار ونظام المراقبة الجوية بالنظر لكشف الأهداف التى تطير على ارتفاع متخصص ثم باقي عنصر المقاتلات الذى يتعاون مع باقى العناصر فى تنفيذ مهمة الدفاع الجوى فى تنسيق وتعاون تام مع قواتنا الجوية حيث يتم توجيه المقاتلات من محطات الردار .

أما العنصر الرئيسي فى الدفاع الجوى فهو صواريخ أرض جو وهى الأسطورة التى حطمت الصلف والغرور الإسرائيلي وزرعت الرعب فى قلوب طياريها وهى تختلف فى نوعياتها .. ثم تأتى المدفعية المضادة

---

[1] جريدة الاهرام فى ٦ اكتوبر ١٩٩٨ ، حوا أجراة الكاتب الصحفى أحمد فؤاد



الخفيفة والمتوسطة والثقيلة التى تشتبك مع الطائرات المعادية خاصة على الارتفاعات المتخصصة ثم وسائل الحرب الإلكترونية وتشتمل على استطلاع لاسلكي ورادارات ووسائل لاسلكية ورادارية ومهمتها استطلاع وسائل الهجوم الجوى واعاقتها " ..

ثم يقول المشير فهمي :" إنه بقدر ما كانت النكسة مؤلمة بقدر ما تملكنا لقدرة لا بأس بها دفاعيا واتجهنا لتوفير قدرة هجومية وتوفير أسلحة دفاع جوى . ولم يكن الحصول على هذه المعدات سهلا ولا التدريب عليها وخاصة مسألة الوقاية من أطنان المتفجرات .. لذا قررنا تخصيص مواقع الدفاع الجوى . وصدر أمر القائد الأعلى بإنشاء الدفاع الجوى كقوة رابعة فى يونيو ٦٩ ". ثم يقول المشير فهمى عن بناء حائط الصواريخ :" كانت عقب النكسة مباشرة.. حيث كانت مهمة الدفاع الجوى توفير الوقاية للقوات المسلحة فى منطقة الجبهة ليتسنى لها إعادة البناء والتدريب. ولكن العدو كان مصراً على وضع قواتنا المسلحة تحت الميكروسكوب بصفة دائمة ليكون له دائما السيطرة الجوية على الجبهة ليطير فوق قواتنا فى أى وقت ويستطلع تحركاتها.. وقررنا حرمان العدو من هذا الحق ووجدنا استحالة ذلك إلا بإقامة شبكة صواريخ أرض جو فى منطقة الجبهة.. وشرعنا فى بناء التحصينات والمواقع.. وأدرك العدو هدفنا وبدأ صراع رهيب بيننا وبينه حيث حاولنا إنشاء التحصينات وذلك حمل رجالنا تضحيات جسيمة وكثيرا ما كان العدو ينجح فى هدم ما شيدناه .

وتبلور الفكر إلى وجهتى نظرّ الأولى ترى القفز بحائط الصواريخ دفعة واحدة للأمام واحتلال مواقع متقدمة فى الجبهة وقبول خسائر متوقعة لحين إتمام التحصينات .. والفكرة التالية أن يتم الوصول بحائط الصواريخ إلى منطقة القناة على وثبات :" بالزحف البطئ " ، بأن يتم إنشاء تحصينات كل نطاق واحتلاله تحت حماية النطاق الخلفي له وهكذا .. واستقر الرأى على



الأسلوب الثاني "الزحف البطئ" . وتم إنشاء مواقع النطاق الأول شرقى القناة وتم احتلالها دون رد فعل من العدو .. واستغلالا للنجاح قررنا إنشاء ثلاث نطاقات جديدة تمتد الى منتصف المسافة بين القناة والجبهة ووضعت لذلك خطة دقيقة .. فقط كان علينا القيام بإنشاء التحصينات الميدانية لعدد ٢٤ موقعا ومركزا للقيادة وتجهيزها بوسائل الاتصال اللازمة وتجهيز الطرق والمدقات وتحويل بطاريات الصواريخ واحتلالها لمواقعها ومعها وسائل الدفاع عنها ودفع مجموعة من مهندسي الإلكترونيات لضبط واختبار وتجهيز هذا العدد الكبير من المعدات ، وكان لزاما علينا أن يتم معظم هذه الأعمال ليلا لمفاجأة العدو .. والحمد لله تمت هذه الأعمال بنجاح تام ودقه متناهية مثل سيمفونية متآلفة النغمات .

وفى صباح يوم ٣٠ يونيو ١٩٧٠ ، فوجئت الطائرات الإسرائيلية المغيرة بالصواريخ المصرية وتكبدت خسائر فادحة .. وتكررت المحاولة بمزيد من الخسائر رغم استخدام وسائل الإعاقة الإلكترونية وخبرة الولايات المتحدة فى فيتنام.

ولا أنسى تصريح " إيبان" فى الكنيست حين قال :" لقد بدأ الطيران الإسرائيلي يتآكل ".. وكانت خسائرهم فى الفترة من ٣٠ يونيو وحتى ٨ أغسطس ١٩٧٠، طبقا للبلاغات الرسمية المصرية ١٦ طائرة، رغم أن مجلة أفيشن وبيك الأمريكية ذكرت بتاريخ ١٦ نوفمبر أن خسائر إسرائيل بسبب حائط الصواريخ بلغت: ٥١ طائرة ، منها ١٧ طائرة دمرت تدميراً كاملا و٣٤ إصابة، وأن هذه الخسائر تم استعواضها من الولايات المتحدة بعد وقف إطلاق النار."

يقول المشير فهمى:" ولقد كان لخطة الخداع التى نفذت جنبا إلى جنب مع خطة إنشاء واحتلال حائط الصواريخ أثر كبير على العدو، ولقد برز ذلك

فى قول مائير :" إن كتائب الصواريخ المصرية كعش الغراب كلما دمرنا إحداها نبتت بدلا منها أخرى ،..

هذه هى قصة بناء أكبر حائط للصواريخ المضادة للطائرات فى عالمنا المعاصر أو قصة غابه الصواريخ كما كان يحلو لمائير ان تسميها حين قالت : "إن المصريين ذرعوا كل الأرض غربي قناة السويس بالصواريخ .. والله وحده يعلم أين سيجد المصريون مكانا لزراعة أعداد أخرى بالمنطقة".

وهى شهادة أخرى تدل على مدى نجاح خطة الخداع والتمويه التى صاحبت إنشاء هذا الخط ..

ويقول المشير :"إن ديناميكية قواتنا والتي كان دستورها العمل والسرعة والإتقان جعلت العدو فى متاهة بالنسبة لماهية حائط الصواريخ فقد كان حائطا فعلا فى مدلول قوته ومنعته وأسراره.. ولم يكن بناء حائط الصواريخ هدفا فى حد ذاته بل كان خطوة فى سبيل الهدف الأسمى هدف تحرير أرض سيناء الحبيبة .. ولقد كان لعملية بناء حائط الصواريخ وغيرها من الأعمال التى تمت فى هذه المرحلة نتائج أخرى غير النتائج المباشرة : فلقد اكتسبت قيادة الدفاع الجوى خبرة فائقة فى التخطيط والتفكير وإدارة أعمال القتال وسرعة التصرف بذكاء فى المواقف الطارئة ..

واكتسبت القوات خبرة عملية فى استخدام المعدات الإلكترونية المعقدة، كما تم تطوير أساليب التدريب بطريقة مبتكرة وفعالة بعيدة عن الأساليب التقليدية.."

ويضيف المشير: "إن أى عملية هجومية يسبقها إعداد مسبق يتم فى سرية تامة يصاحبه تنفيذ خطة خداع دقيقة لإمكان إحراز المفاجأة . وكان على الدفاع الجوى خلال هذه المرحلة أن يمنع العدو من الطيران والاستطلاع فى منطقة القناة لحرمانه من إمكانيات كشف نياتنا الهجومية أثناء

حشد وإعادة تجميع القوات .. وبالفعل فرض الدفاع الجوى فى منطقة القناة سيطرته على نطاق أمن شرق القناة .. مما حد وإلى أقصى درجة ممكنة من حرية العدو .. وفرضنا على قواته الجوية الطيران بعيدا ما أمكن شرقى القناة .. ولقد قامت قوات الدفاع الجوى فى نفس الوقت وفى إطار الخطة العامة للقوات المسلحة بإنهاء جميع الأعمال التحضيرية للعملية الهجومية فى سرية مطلقة.. ويكفى أن أقول إن الكيفية السرية التى تمت بها هذه الأعمال حيرت العدو وأذهلته وكان حريصا على استجلاء هذا الغموض أثناء استجوابه للأسرى محاولا معرفة متى تم التلقين بالعملية الهجومية وكيف تم ذلك.

ولم يكن رجالنا يخدعون العدو عندما أجابوا بأنهم لم يعلموا مسبقا بالعملية . فلقد كان كل منهم يعلم فقط وفى الوقت المناسب القدر المطلوب منه أن يؤديه . وقد صاحبت عمليات التحضير للهجوم تنفيذ خطة خداع محكمة ولم نكن ونحن نضع هذه الخطة غافلين عن أن مبادئ وأسلوب الخداع معروفة لدى العدو كما هو معروف لدينا .. فلم نفترض الغفلة أو الغباء فى العدو ، ولكن المهم والعبرة فى التوقيت وكيفية التنفيذ .. ولكن أتستطيع إن أقول إن جميع أساليب الخداع التى قمنا بها حققت الهدف منها وتمت جميع عمليات التحضير بنجاح نتيجة للدراسة الجيدة المسبقة والخطة المحكمة والتنفيذ الدقيق"

ويقول المشير " وبعد أن تم الانتهاء من إنشاء حائط الصواريخ وحبس الجميع أنفاسهم فى انتظار ساعة الصفر.. جاءت هذه الساعة وأصبح حائط الصواريخ هو المنوط بذراع إسرائيل الطويلة وهو الوحيد القادر على بترها..

بدأ الرجال فى العبور فى أعقاب هجماتنا الجوية الناجحة التى نفذها باقتدار نسر مصر الأول اللواء طيار حسنى مبارك. وكان أول رد فعل جوى

للإسرائيليين بعد ٤٠ ق .لهذا الهجوم حيث دفع بطائراته على طول الجبهة باحثا عن هذه القوات التى نجحت فى العبور محاولا تدميرها هى والجسور والمعابر التى أقامتها وعندئذ كشر حائط الصواريخ عن أنيابه فتساقطت طائراتهم كأوراق الخريف حيث بلغت خسائرها أكثر من ١٨ طائرة خلال ٣ ساعات فقط وارتبك العدو ارتباكا كبيرا وفشلت أحدث ما أنتجته الترسانة الأمريكية.

ولم تفلح أعمال الخداع الإليكتروني فى إفشال صواريخنا عن الوصول لأهدافها .. وهكذا عبر أبطالنا وأقاموا جسورهم ومعابرهم ودخلوا المعارك الناجحة تحت مظلة الدفاع الجوى "..

ويقول المشير :" وفى صباح اليوم التالي من أيام القتال (٧ أكتوبر) شن العدو هجوما جويا مكثفا بـ ٧٠ طائرة وتصور أن بإمكانه تكرار ما حدث فى عام ١٩٦٧ ، غير أن قوات الدفاع الجوى تمكنت من تدمير أكثر من ١٨ طائرة أخرى ولا ذت الباقية بالفرار .. وكرر العدو محاولاته فى الأيام التالية وبعد أن استنفذ كل الأساليب والتكتيكات وتزايدت طائراته المصابة وطياروه الأسرى . وقد صرح ياريف يوم ١٠ أكتوبر بأن ": الدفاع الجوى المصرى أسقط أعدادا" كبيرة من طائراتنا وسنحاول علاج هذا الموقف".. وفى محاولة العدو لرفع معنويات طيارته بحث عن هدف منعزل عن حائط الصواريخ فى بور سعيد وركز ضرباته الجوية عليه.. إلا أن شجاعة رجال الدفاع الجوى فى هذا القطاع سطرت ملحمة بطولية ولم يحقق العدو أهدافه وكانت استعادة الموقف لأى أعطال أو خسائر فى معدات الدفاع الجوى تتم سريعا مما لم يمكنهم من تحقيق أى مهام ".

ويقول المشير ": وفى هذا القطاع " بور سعيد " نصبنا للعدو فخا حيث أمرت بإيقاف إطلاق الصواريخ لإصلاح الأعطال من جهة ولإيهامهم بأن صواريخنا قد أصابها العطب بفعل ضرباتهم وابتلع الإسرائيليون الطعم



وجاءت طائراتهم يوم ١١ أكتوبر وهى تطير فى اطمئنان فوق بـــور ســعيد حيث فوجئت بوابل من الصواريخ . وكان حصيلة قطاع بور سعيد فى هـــذا اليوم ١٣ طائرة معادية وقلل العدو من نشاطه الجوى غير أنه فجأة بدأ نشاطه يتزايد بعد وصول الدعم الأمريكى له وحاول تعويض خسائره بـــهذا الدعـــم ليرفع روحه المعنوية وليغطى أنباء هزيمته التى نشرتها جميع وكالات الأنباء وناقشتها جميع المعاهد العسكرية والاستراتيجية التى أجمعـــت علـــى أنـــها جسيمة..

وإذا كانت خسائر العدو ١٨٠ طائرة طبقـــا للتقديـــرات الأمريكيـــة أو ٢٠٠ طبقـــا لتقديرات الاتحاد السوفيتى فإن كلا الرقمين يدلان على مـــدى ما لحق بالعدو من خسائر بالإضافة إلى خسارته لأكفـــأ طياريـــه وأكـــثرهم خبرة"..

وأخيرا يقول المشير ": ورغم كفاءة صواريخ سام ، إلا أن المفاجـــأة الحقيقية فى نظرى هى مقاتل الدفاع الجوى الشجاع الذى استطاع كشف جميع أساليـــب الخداع التى لجأ إليها الطيارون الإسرائيليون وأن يوقع بـــهم فـــى مناطق قتل مؤكدة.. ووضح انزعاج العدو من هذا المقاتل فى تركـــيزه عنـــد استجوابه للأسرى على نوع الحبوب التى تصرفها الخدمات الطبية للمقـــاتلين والتى تحسن أداءهم حبوب الشجاعة ".. (١)

* * *

* إن القوات المصرية المسلحة لم تستسلم أبدا" للهزيمة ... فمن ثاني أيام الهزيمة وهى تشن حربا دفاعية هجومية على العـــدو الإســـرائيلى. فلـــم تذقـــه طعم الراحة أو الأمن فى يوم من الأيام بل لحظة من اللحظات.. تطور كل يوم فى سلاحها وتكتيكها حتى أصيب العدو بفقدان القدرة علـــى الـــوزن

والتقويم وفقدان الثقة فى قدراته العسكرية وإمكاناته التكتيكية .. فماذا كانت تلك الحرب التى فاقت حرب أكتوبر نفسها ؟ إنها " حرب الاستنزاف " ..

وقبل أن نعطى تصويرا" عاما" لطبيعة هذه الحرب فإننا تقدم لها بتسجيل آراء كبار العسكريين المصريين فى ضرورة هذه الحرب .. ثم الموقف الإسرائيلى منها .. ثم أهميتها...

ففى تقويم المشير محمد عبد الحليم أبو غزالة لحرب الاستنزاف ": أن العالم قد ظن[1] - بعد النكسة - أن القوات المسلحة المصرية قد انتهت ومن المعروف تاريخيا" أن شعوبا كثيرا تطلبت ظهور جيل جديد لكى تخرج من أزماتها وتتغلب على هزائمها . ولكن القوات المسلحة تمكنت بفضل رجالها وروح القتال والرغبة العارمة فى رد الاعتبار والثأر من الهزيمة من التغلب على النكسة فى أقل من ٦ سنوات.. وهو إعجاز بكل المقاييس وكان الأمر يتطلب سد الكثير من الثغرات وإزالة الكثير من العيوب . فلم يكن لدينا دفاع جوى قوى يقلل من تأثير السلاح الجوى الإسرائيلي الذى تعتمد عليه إسرائيل اعتمادا" كبيرا. وكانت إسرائيل تعرف أن وجود دفاع جوى فعال سيقلل من تفوقها الجوى إلى حد كبير فبدأ صراع بين رجال القوات المسلحة المصرية بالاشتراك مع العديد من المدنيين المصريين العاملين فى بناء هذا الصرح وبين القوات الجوية الإسرائيلية.

وكان لابد من أن يكون هذا النظام قادرا على تغطية منطقة القناة وحتى أكبر عمق ممكن شرق القناة فى سيناء واستشهد فى سبيل بناء جدار الصواريخ المصري الشهير كثيرون من الجنود والعمال ونجحت قواتنا المسلحة فى إنشاء جدار الصواريخ وتدريب أطقم تشغيلها لتكون على أعلى مستوى قتالى .. وعلى نفس المستوى كان تدريب القوات البرية والجوية

---

[1] مجلة ":الشباب : العدد ٢٣٨ ، مايو ١٩٩٧ ، حوار مع المشير أبو غزالة ، أجرى الحوار : عصمت عبد الفتاح



وإعادة تسليحها يسير بخطى حثيثة . وحاولت إسرائيل إحباط هذا العمل باستخدام قواتها الجوية وردت مصر على ذلك القصف بنيران المدفعية وبأعمال الاغارات وهو ما أطلق علية :" حرب الاستنزاف" وتكبدت إسرائيل خسائر جسيمة فى هذه المعارك - الأمر الذى اضطرها فى النهاية إلى السعى للحصول على وقف اطلاق النار وتدخلت القوى الدولية وقبلت مصر وقف اطلاق النار.

وكانت حرب الاستنزاف انتصارا مصريا بالمقاييس العسكرية والاستراتيجية تمثل فيما يلى:

١- نجحت مصر فى إعادة تنظيم وتدريب قواتها المسلحة خصوصا قوات الدفاع الجوى والقوات البرية.

٢- أثبتت حرب الاستنزاف أن مصر قادرة على أن تقف مرة أخرى لتقول للعالم إن الجندي المصري قادر على القتال فى أحلك الظروف وكانت بمثابة تطعيم حقيقي للمعركة ووسيلة تدريب على القتال الفعلي بجانب المحاكيات والمناورات والتدريب على مرحلة العبور المقبلة.

٣- أعادت حرب الاستنزاف الثقه فى النفس للضابط والجندي المصرى كما أنها أثبتت للقوات الإسرائيلية أن ما حققته فى يونيو ٦٧ ليس هو النهاية وأن الهزيمة لن تتكرر أبداً".

أما تقدير المشير محمد عبد الغنى الجمسى لحرب الاستنزاف:" فإنها مرحلة بطولات .. قبل العبور عبرت قواتنا مرات ومرات القناة سرايا وفصائل حتى عبرت كتيبة كاملة ٥٠٠ فرد الى الجبهة الشرقية .. تصوروا هذا.. كتيبة صاعقة بدون غطاء جوى، تعبر وتنفذ عمليات فى قلب العدو وتعود.. قواتنا الجوية بقيادة مدكور أبو العز ضربت مراكز هنا فى الجبهة الشرقية .. القوات البحرية ضربت فى رمانة.. ربما لم تكن هذه العمليات متقنة ١٠٠%، ولكنه يكفى أن نغير على العدو.. أنا دائما أقول: الحرب

تعلم الحرب ، وبالدم يتم تدريب القوات .. وعلى هذا أعتبر حرب الاستنزاف تدريبا حقيقيا على الحرب وتطعيما للمعركة.

اما عن الموقف الإسرائيلي من حرب الاستنزاف فإننا نرجع به إلى الموقف العسكرى بعد حرب ١٩٦٧ ، فبعد حرب ١٩٦٧، وبعد أن احتلت إسرائيل مناطق جديدة وجدت أنها فى موقف جغرافي وإستراتيجي آمن ، مما كفل لها الأمان فخطوط وقف إطلاق النار الجديدة والموانع الجغرافية كقناة السويس ونهر الأردن ومرتفعات الجولان كل ذلك كفل لها الحماية وأزاح من طريقها كل خطر إلى الجانب الغربي من قناة السويس . كما أن راداراتها بسطت امتدادها إلى مسافات بعيدة داخل الأراضي المصرية بذلك أصبحت إسرائيل على يقين من أن أى حرب سوف تقع بينها وبين العرب ستكون فوق أراض جديدة لا الأراضي التى احتلتها . وأمام هذا الموقف الإستراتيجي الجديد اصطنعت إسرائيل الدفاع المؤقت لترد فوريا على القوات المهاجمة لتعطيلها إلى أن تصلها قواتها الضاربة وتتوجه إلى قرب قناة السويس .. وقد قامت استراتيجية إسرائيل الدفاعية على نظامين أساسيين:

النظام* الأول : أن يقوم على الضفة الشرقية خط من التحصينات القوية عماده ثلاثون موقعا ، المسافة بين كل موقع وآخر تبلغ خمسة كيلو مترات ويحمى الخط بطوله ساتر ترابى أقيم على امتداد قناة السويس على ارتفاع بين ٢٠ و٣٠ مترا، وكان الساتر مائلا ميلا حادا" بزاوية مقدارها ٤٥ درجة، وذلك حتى لا تمكن أى مركبة أن تصعده. ووظيفة كل موقع أن يراقب التحركات التى تأتى نحوه يساعده فى هذه العملية دوريات منتظمة لكل دورية مسافتها القائمة بين كل موقعين.. وفى

* مجلة ": الدفاع " بحث :" الموقف الإسرائيلى من حرب الاستنزاف " بقلم لواء د ا على محمد رجب

نفس الوقت ولحماية الخط تكفل فصائل الدبابات أمر الحماية وهى قائمة خلف الخط مباشرة .. وعلى بعد حوالي ٥٠٠ متر من ذلك الخط أقيم خط ترابي ثاني تقف عليه دبابات النظام الثاني الدفاعي .. ثم يأتي بعده خط ترابط فيه القوة المدرعة الاحتياط الضاربة . ويقوم هذا الخط على المحاور الرئيسية فى سيناء فى الوقت الذى تربط فيه الخطوط الثلاثة شبكة من الطرق ووسائل سلكية ولاسلكية.

النظام الثانى: وعماده قوة مدرعة ضاربة متمركزة فى مكان ما بسيناء لا تطولها المدفعية المصرية .. هذا فى الوقت الذى تتحرك فيه دوريات مصطفة على امتداد قناة السويس وهم بهذا يطمعون القوات المصرية فى قدرتها على عبور تحصينات النظام الأول.. أما النظام الثانى فإنه يتفق مع المبدأ العسكرى الإسرائيلى .

ولقد كانت لإسرائيل نظرة تقويمية خاصة لحرب الاستنزاف .. ففي الفترة من ١٩٦٨ إلى ١٩٧٠، كانت إسرائيل ترى أن ما تقصده مصر من وراء حرب الاستنزاف هو إرهاق إسرائيل عسكريا لترغمها على الرحيل عما استولت عليه من أراض فى حرب ١٩٦٧ ، هذا بينما كانت غاية إسرائيل هى الإبقاء على ما تحت يدها من أراض مصرية إلى ريث أن يسلم العرب بوجودها رسميا على أساس المفاوضات المباشرة .. فى الوقت الذى أدركت فيه إسرائيل جيدا أن غاية مصر من حرب الاستنزاف هى أثبات أن الهزيمة فى ١٩٦٧ ، لن تمنعها من استعادة قوتها.. وكان ذلك مما أرغم إسرائيل على اتباع نظام الدفاع ضد الهجمات المصرية في سيناء ولم يعد فى أستطاعتها أن تهاجم مرة ثانية . وعلى هذا فقد انتهجت مصر استراتيجية دفاعية خاصة فى تعاملها مع العدو الإسرائيلى قامت على مراحل أربع:



المرحلة الأولى : (يوليو ٦٧- يوليو ١٩٦٩) ، وفيها انتهجت العسكرية المصرية استراتيجية الدفاع الوقائي بما يفقد إسرائيل الثقة فى قدرتها على الإقامة الدائمة المطمئنة على خطوطها لأن بقاءها فى تلك الخطوط سوف يكون مكلفا ومرهقا وإذ ازدادت العمليات العسكرية وتلاحقت فإن إسرائيل أيقنت أنها لم تحق ما كانت تطمع فيه من حرب ٦٧.. وبناء على ذلك فلن تتوقف الحرب طالما تشبثت إسرائيل بالأرض التى احتلتها وبناء على ذلك فإن إسرائيل ، واثناء النصف الثانى من عام ١٩٦٨، راجعت خطتها الاستراتيجية ووجدت ضرورة دعم قواتها المسلحة بالأسلحة الهجومية الحديثة ووضعها فى نظام تكتيكي جديد. وكان على رأس الأسلحة الجديدة التى زودت بها إسرائيل الطائرات الأمريكية. ولهذا فلما وجدت إسرائيل أن الأعمال العسكرية المصرية قد تضاعفت فإنها وجدت ضرورة استخدام أسلوب الردع المحدود على الأعمال العسكرية المصرية بشرط الا تتسع وتبعد إلى المدى الذى يؤدى إلى تفاقم الوضع العسكرى القائم.. ولكن عندما تزايدت الأعمال العسكرية الإسرائيلية قابلتها الأعمال لعسكرية المصرية بما هو أشد عنفا فكان أن راجعت إسرائيل خططها العسكرية وغايتها الاستراتيجية ولا سيما وقد أصبحت على يقين من أن مصر صارت فى وضع عسكري أقوى بكثير مما كانت عليه فى حرب ١٩٦٧.

المرحلة الثانية: (يوليو ١٩٦٩ - ديسمبر ١٩٦٩)، وفيها اصطنعت إسرائيل أسلوب: " الردع الجسيم"، بدلا من للردع المحدود الذى انتهجته فى المرحلة السابقة. فكان أن اتخذت القوات الجوية لردع السريع والحاسم. والقصد من ذلك هو إسكات الأسلحة المصرية وتعطيلها عن العمل وفى نفس الوقت تمزيق وحدة الشعب المصرى وتخليه عن قيادته.. وقد مهدت إسرائيل لخطتها فى الردع هذه بمحاولة تدمير الدفاع الجوى المصرى حتى تعرى الجبهة المصرية الأمامية. فإذا تمكنت إسرائيل من تحقيق هذا الهدف استطاعت أن



تنطلق إلى أعماق أبعد فى الأراضى المصرية .. وبدأت إسرائيل فى تنفيذ خطة الردع الحاسم هذه فكان أن امتدت عملياتها الجوية والبرية من منطقة القناة وكذلك على ساحل خليج السويس حتى أصبح طول الجبهة ٥٠٠ ك.م.

ثم تطورت الغارات الإسرائيلية حسب المخطط الجديد لتشمل القاهرة وبعض المناطق المدنية.. وفى نفس الوقت صارت قواتها البرية تهاجم نقط الحراسة الساحلية على امتداد شاطئ خليج السويس وتركزت أكثر فى منطقة الزعفرانه ، وبعدها جاءت عملية الجزيرة الخضراء..

وهكذا ، وبهذه الخطة شنت إسرائيل غاراتها الجوية على جبهة قناة السويس، بهدف تدمير الدفاعات الجوية ولاسيما بطاريات الصواريخ المضادة للطائرات .. وكان لزاما على القوات الجوية المصرية أن ترد على الهجمات الإسرائيلية بما هو أشد شراسة وعنفا . فقامت بغارات متصلة على الأهداف العسكرية الإسرائيلية فى شمال سيناء وفى نفس الوقت لم تتوقف عمليات عبور الفصائل المصرية .. وفى سبتمبر ١٩٦٩، اتجهت إسرائيل إلى شن غاراتها الجوية على الساحل الغربي لخليج السويس، بعد أن تمرس الشعب المصري على مواجهة الهجمات الإسرائيلية الجوية والبرية.. وفى نفس الوقت قامت قوات إسرائيلية ببعض عمليات إنزال لم تكن على قدر كبير من الأهمية العسكرية نذكر منها عملية الزعفرانة التى روجت لها إسرائيل بهالة إعلامية كبيرة لا تتفق مع الهدف الذى كان مقصودا.. وكانت إسرائيل تعمل بذلك على رفع معنويات جنودها الذين أصابهم القنوط الشديد.

وظلت القوات الجوية المصرية ومعها القوات البرية فى نشاط متصل هاجمت فيه الكثير من الأهداف الإسرائيلية فى شمال سيناء وجنوبها، كما وجهت الضفادع البشرية المصرية ضربات موجعة للسفن الإسرائيلية فى ميناء إيلات، بدأتها فى ١٦ أكتوبر سنة ١٩٦٩.. وجاءت تلك الضربات إثباتا



على أن العسكرية المصرية تستطيع أن تحقق أعمالها فى أعماق إسرائيل ودليل ذلك نجاح فرقة مصرية خاصة فى ضرب مركز القيادة العسكرية الإسرائيلية فى منطقة العريش .

ثم تطورت حرب الاستنزاف إلى مرحلة ثالثة (يناير ١٩٧٠- إبريل ١٩٧٠) فى هذه المرحلة أحست إسرائيل بقوة أكبر حين تسلمت من أمريكا طائرات الفانتوم فقد استطاعت أن تتوغل بها إلى مدى بعيد فى الأراضى المصرية بغير أن تفرق بين هدف مدني وآخر عسكري لأن هدفها السياسى كان إحباط القدرة المصرية عن التصدي لها.. وفى نفس الوقت تهديد الجبهة الداخلية التى قد تمارس فيما تتصور إسرائيل نوعا" من الضغط على القيادة السياسية.. ومن المناطق التى أغارت عليها إسرائيل: التل الكبير وإنشاص، ودهشور، وشمال الدلتا، ومصنع أبو زعبل ومدرسة بحر البقر الابتدائية .. وكان لهذه الغارات الإجرامية أصداء واسعة فى جميع أنحاء العالم أحدثت تطورات هامة وجذرية فى طبيعة الصراع العربي الإسرائيلى.. لكنما الشعب المصري لم يفقد إرادته ولم يفقد إيمانه بقواته المسلحة التى ازدادت صمودا وضاعفت من ضرباتها للأهداف الإسرائيلية هذا فى الوقت الذى أمد فيه الاتحاد السوفيتي مصر بالكثير من الأسلحة اللازمة تمكنت بها من إقامة شبكة جديدة للدفاع الجوى تتألف من أنواع حديثة من الأسلحة والمعدات الإلكترونية مما أتاح للقوات المصرية أن تحمى أعماق البلاد.. وهنا أدركت إسرائيل مبلغ ما يصيبها من خسران لو استمرت حرب الاستنزاف على هذا المنوال فإن ذلك يفسد عليها ما ترمى إليه من سياسة الردع التى تقوم على أساس التفوق الإسرائيلي فطلبت المزيد من الدعم الأمريكى..

* وزادت حرب الاستنزاف ضراوة فكان أن دخلت إسرائيل مرحلتها الرابعة (أبريل ١٩٧٠ - أغسطس ١٩٧٠).. فى هذه المرحلة بذلت إسرائيل غاية وسعها فى الانتقام من القوات المصرية فكان أن جرت على نفسها ضربات مصرية أكثر شراسة وعنفا فتكبدت خسائر بشرية جسيمة..

وهنا أدركت إسرائيل أن الاستنزاف أصبح خطراً عليها لا تستطيع احتماله إذ تساقطت طائراتها الفانتوم واسكاى هوك فوق جبهة القناة بفضل



الصواريخ المصرية كما أسر بعض طياريها .. وآنئذ أخـــد قــادة إســرائيل يطالبون بضرورة ان يتحمل المجتمع الدولى مسئولياته فيصدر قراره بوقـــف إطلاق النار..

وكذلك أحست إسرائيل بضآلة قوتها الجوية وأنه لم تعد لديها السيطرة الكاملة على سماء المعركة وكانت النتيجة أنها قبلت المشروع الأمريكى الذى يدعو إلى وقف إطلاق النار وقفا مؤقتا..

بعد هذا يمكننا أن نستخلص من حرب الاستنزاف تلـــك [1] النتـــائج الهامة:

أولا : أن حرب الاستنزاف كانت المجال الفعلي والواعي الوحيد الذى صقـــل الخبرة القتالية للقادة والجنود فضلا عن هذا فإنهم أصبحوا علـــى علـــم بخطط واتجاهات وأساليب القتال والتموية عند الإسرائيليين..

ثانيا: أدت حرب الاستنزاف إلى حدوث تطور فى السلاح المصرى فما كان يستخــدم فى بداية الحرب غير ما كان يستخدم فى احتدامها.. ومـــا من شك فىأن الحرب المستمرة على هذه الشاكلة وبأسلحة متنوعـــة أعطت المصريين خبرة قتالية مكنتهم من العبور فى حرب ١٩٧٣..

ثالثا: تمكنت القيادة المصرية من تكوين الجيش الذى يمكنـــها مـــن تحقيـــق النصر..

رابعا: سعت إسرائيل الى أن" يبقى الوضع كما هو عليه".. ولكنها لم تفلح فى ذلك.. إذ كانت المفاجأة الكبرى .. معركة النصر العظيم.

[1] جلة "الدفاع" بحث:"حرب الاستنزاف اهميتها ونتائجها" بقلم · لواء محسن محمد إبراهيم

القوات الجوية ... والضربة الجوية

سلاح الطيران بقيادة الرئيس محمد حسنى مبارك هو صاحب الضربة الأولى التى حققت بشائر النصر وأكدته منذ اللحظة الأولى فى القتـــال فـــى السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣.. والحق أن سلاح الطيران المصـــري قـــام بواجبه على أقوى ما يكون وأجدر ما يكون وبفدائية منقطعة النظير.. هكـــذا كان تاريخه من يوم أن اشترك فى معارك جوية دفاعا عن مصر. فما كـــان فى يوم من الأيام متخاذلا أو مستهينا أو مترددا. ولكن ما أصابه فـــى سـنة ١٩٦٧، كان بسبب تخاذل القيادة وتهاونها وعدم يقظتها وتقديرها للمخـــاطر التى يمكن أن تحيق بسلاح الطيران..

ومن هنا كان لابد قبل أن ندخل فى حرب مع إسرائيل أن نقدر سلاح الجو الذى نملكه ونعرف قدراته وإمكانياته .. فمن حيث نوعيـــات طائراتنـــا المصرية كانت كلها من طراز ميج أو السوخوى السوفيتية . وتلك من الأنواع التى لا تقارن بالطائرات الفرنسية والأمريكية . فالفانتوم الامريكيـــة كـــانت تحمل ثلاثة أضعاف حمولة : السوخوى ٧" السوفيتية كما أن السوخوى كانت أبطأ من الفرنسية والأمريكية .. ومع هذا الفارق الخطير فلم تتـــوان القـــوات الجـــوية المصرية وذلك بعد أن تولى قيادها الفريق مدكور أبو العـــز " لـــم تتوان عن إصلاء العدو الإسرائيلي بنيران قذائفها .. ففـــي ١٤ ، ١٥ يونيـــو ١٩٦٧، أى بعد الهزيمة بأربعين يوما أغارت قواتنا علـــى مواقـــع العـــدو شرقى القناة ففي يوم ١٤ سجلت ٣٥٨ طلعة عمليات، وفى يوم ١٥ قامت بما يقرب من ١٥٠ طلعة.

ومن العجيب أنه صدر فى اليوم الثاني أمـــر عـــاجل مـــن رئاســـة الجمهورية بوقف الهجمات الجوية المصرية على الإسرائيليين والحجة التـــى زعمتهـــا القيادة السياسية آنئذ هى أنه طالما أن قواتنا البريـــة لـــم تســـتكمل

تكوينها وإعدادها وتدريبها فإنه يجب على الفريق مدكور أبو العز أن يتوقف عن عدوانيته لأنه سوف يجر على مصر مخاطر لا تحتملها..

وقد قال الفريق أبو العز معقبا على ذلك الأمر:" إن السبب الأساسي وراء هذه العملية هو أن قائد الجبهة اللواء أحمد إسماعيل قد اتصل بي تليفونيا مستنجدا بقواتنا الجوية لتصد الهجمات الإسرائيلية المستمرة جوا وبرا والتى أصابت قواتنا بالتفكك وعدم القدرة على استمرار بناء استعداداتها ومواقعها الدفاعية الجديدة شرقى القناة".

وعلى الفور وبغير تردد ، أصدر الفريق أبو العز أوامره بأن تقلع جميع الطائرات المصرية المقاتلة لتضرب أي هدف إسرائيلي شرقي القناة وهنا تدخلت القيادة العامة لتستفسر من الفريق أبو العز عن السبب فى إصداره الأوامر لقواته الجوية لتشن الغارات على الأهداف الإسرائيلية فرد الرجل فى حسم قاطع :" أنا أنضرب فوق فى السماء.. ولن أنضرب على الأرض مرة أخرى .. وإذا كانت القوات البرية فى محنة فالقوات الجوية موجودة .. ولو كان العدو معه مدفعا وليس معى إلا سيفا فسوف أنازله وأحاربه حتى الموت .. فهذا هو عملى كما أعرفه".

ولشجاعة الرجل وجسارته ومخاطرته فقد لقبته إسرائيل "بالسفاح"

* * *

ومع هذه الفدائية من القائد والمقاتلين ، فقد كان لابد من اعداد القوات الجوية إعدادا قويا من كل جوانبه .. ولقد نهض بهذا العبء الجسيم اللواء طيار محمد حسنى مبارك قائد القوات الجوية

وأول مهامه كانت إعداد الطيار الذى سوف يقوم بالعمل ويتحمل التبعة ويخاطر بحياته..



* ففى سنة ١٩٦٧، فتحت الكلية الجوية باب الالتحاق فكان أن تقدم لها ثلاثة أضعاف العدد المطلوب.. وفى ذلك الدلالة الكافية على إحساس شباب مصر بحاجة الوطن إليهم وأن عزته وكرامته فى فدائيتهم.. فكان التدريب المتواصل للطيارين الجدد على ضرب الأهداف تدريبا عمليا فعليا اى كانت الأهداف إسرائيلية . وفضلا عن هذا فإذا كانت قواتنا الجوية لم تكن تعلم شيئا عن الطيران الإسرائيلي فى عام ١٩٦٧، من حيث نوعياته وتشكيلاته وقدراته، وقدرات طياريه فإنه بالاحتكاك القتالى بالطيران الإسرائيلى أصبحت قواتنا الجوية على علم بتكتيكاته الهجومية، واستخداماته لطائراته، وطرق اقترابه لتوجيه ضرباته، وكذلك شكل طائراته وحجمها ومن أين تنطلق، وفى أى اتجاه..

كل هذا مكن قادة القوات الجوية من أن يحموا مقاتلاتنا فى المطارات التى تمكنها من صد الهجمات بأيسر السبل.. ومن هنا رأى القادة أنه لابد من توظيف طائراتنا على نسق يكفل لها تحقيق الأهداف المطلوبة وفى نفس الوقت يقلل من الخسائر إلى أقل نسبة، وفى البداية تجنبت قواتنا أن تقع فى ضربة إجهاض مضادة كتلك التى حدثت سنة ١٩٦٧، وذلك لانعدام الإنذار المبكر آنذاك.. ولئن وجدت رادارات للإنذار المبكر إلا أن العدو كان يخدعها بالطيران المنخفض.. ومعالجة لذلك قررت القوات الجوية ان تستعين بأسلوب المراقبة بالنظر ثم ربطتها بالمطارات وقيادة سلاح الجو بدلا من ربطها بقيادة الدفاع الجوى وكان هذا الأجراء يؤدى إلى التأخير الذى يعطل المقاتلات عن الخروج فى الوقت المناسب...

ثم عملت القوات الجوية على أبطال السلاح السرى الذى كان يستخدمه العدو فى ضرب الممرات وهو قنبلة الممرات.. وجاءت حماية

* اعتمدنا على مقال اللواء صلا المناوى، رئيس عمليات سلاح الجو المصرى مجلة المصور عدد وثائقى، ٢ اكتوبر ١٩٩٨



الممرات فى مطاراتنا بإقامة أسلاك قوية ربطت بها بالونات هواء لمنع أى طائرة من الطيران فوق الممر لتدميره: " لأن تدمير الممر كان يستلزم أن تكون الطائرة عمودية على سطح الممر، ووجود الأسلاك تسقطها فورا، وحتى يتفادى الأسلاك كان يرتفع إلى أعلى فتطوله أسلحة الدفاع المصرى فامتنع العدو عن استخدام قنبلة الممرات..

واحتياطا لما قد يحدث فقد أنشئ لكل مطار أكثر من ممر، فإذا دمر ممر أو ممران يمكن استخدام الآخر فلا تتعطل الطائرات عن الإقلاع..

ولقد كان الرئيس محمد حسنى مبارك حريصا غاية الحرص فى تدريب طياريه وإعطائهم التدريبات الكافية التى تمكنهم من تنفيذ المهام التى سيكلفون بها ولهذا جاء حرصه على إجراء "بروفات" للطيارين يدربون فيها على إعطاء الضربة المركزة لأن الضربة المركزة هى المطلوبة فى ذلك الموقف وليست الضربة المتفرقة.. وفى نفس الوقت كان الطيارون يدربون على الاشتراك فى تشكيلات كبيرة ، كما يدربون على الطيران على ارتفاع منخفض . ومن المعلوم أن الطيران المنخفض كان قبل ١٩٦٧، بمثابة جريمة إذا اقترفها الطيار ينال عقابه الذى قد يصل إلى فصله من القوات الجوية .. لهذا كان تدريب طيارينا" على الارتفاع المنخفض جاء فى تشكيلات كبيرة لا يفصل بينها وبين سطح الأرض إلا مسافة متر واحد، أو متر ونصف.. واذا كانت القوات الجوية مكلفة بتوجيه ضربتها إلى العدو، فإنها كانت فى نفس الوقت مكلفة: " بإبرار قوات الصاعقة والمظلات خلف خطوط العدو لمنعه من التدخل المباشر لتعويق العبور أو تقديم المساعدة للخطوط الأمامية . وكان الهدف من هذه القوات تعويق تقدم العدو ، ومنع احتياطياته من تقديم المساعدة لقواته.. وقد أنزلت قوات الصاعقة والمظلات على نقاط الطرق المتحكمة داخل سيناء وليس فى كل سيناء .. ولقد حرصت القيادة على أن



تكفل الحماية للمقاتلات القاذفة البطيئة وذلك بأن يرافقها قاذفات عادية للدفاع عنها حتى تتفرغ هى لأداء مهمتها بنجاح.

والحق ان طائرتنا حققت بضربتها الجوية الأهداف التى كانت محددة لها فقد دمرت المطارات الثلاثة التى كانت موجودة داخل سيناء وهى :

العريش .. والمليز .. ورأس النصراني . فقد ضُرِبت بقنبلة الممرات المصرية، لتعطيلها عن العمل ، كما ضربت أيضا جميع قواعد وصواريخ الدفاع الجوى للعدو .

وكانت ست قواعد صواريخ تدافع عن المواقع الاستراتيجية للقوات الإسرائيلية ولا سيما التى كانت موجودة فى منطقة أم خشيب . وكانت هذه القواعد متحركة وليست ثابته والصواريخ الموجودة بها من طراز توما هوك. وفى نفس الوقت صوبت القوات الجوية ضرباتها:" نحو مراكز الإعاقة للعدو وكان لديه بالفعل مركز خطر للإعاقة فى منطقة القسيمة، وأم خشيب وكانت تشوش على رادارات الدفاع الجوى المصرية وتتبع جميع الموجات التى تتعامل عليها قواتنا بحيث نفقد السيطرة على قواتنا ونفشل فى التحكم فيها ونعجز عن معرفة أخبارها ".. ومن أهداف الضربة أيضا ضرب القوات المتمركزة للعدو بكميات كبيرة من العتاد والسلاح لمنع العدو من تعويق عبور قواتنا البرية للقناة وهذا ما تحقق على أكمل وجه".

لقد اشترك فى الضربة الجوية ما يقرب من ٢٢٠ طائرة. خرجت فى حوالى الساعة الثانية وخمس دقائق ظهرا ، من سبعة مطارات واجتازت قناة السويس فى وقت واحد تقريبا. أمّا عن نظام التشكيل الذى وجهت ضرباته إلى العدو :" ففى مقدمة الضربة كان يوجد تشكيل طائرات مقاتلة فقط هدفها تنظيف الميدان بمعنى أنها جاهزة للاشتباك مع العدو الجوى الموجود فى سماء سيناء بحيث إذا ما ارتفعت وجدت نفسها وسط الطائرات المعادية بناء على أوامر وتوجيهات رجال الرصد الأرضى لأن هذه المقاتلات إذا ما



عبرت القناة واتخذت وضعا بعيدا عن طائرات العدو استطاع العدو الجوى اصطيادها بالصواريخ.. خلف المقاتلات كانت القاذفات الحاملة للقنابل والصواريخ بكميات كبيرة والتي توجهت حسب نوع المهمة والهدف منها.. فى الوقت الذى وضعت فيه تشكيلات من الطائرات المقاتلة على أجناب التشكيلات القاذفة لحمايتها من أى هجوم جوى معاد من الخلف.. أو الأجناب. وأثناء العودة أيضا كان من الضروري حماية طائراتنا القاذفة من العدو إلى أن تعود إلى مطارات إقلاعها"..

ومن الواجب أن نقرر هنا حقيقة جديرة بالتنويه أن الرئيس مبارك اتسم فى تصرفاته قبل المعركة بالهدوء فلم يكن قلقا ولا متوترا وقد قام بخدعة عسكرية لصرف نظر العدو المترقب لتحركاته فقبل المعركة أمر بإعداد طائرة خاصة للسفر إلى ليبيا فى يوم الحرب يرافقه بعض القادة. وقد تم إذاعة هذا الخبر رسميا وزيادة فى التغطية فإن طائرته أقلعت من مطار ألماظه وهو مطار مدنى.



هكذا أعدت قواتنا الجوية للقيام بمهمتها الأولى التى توقفت عليها عملية العبور برمتها .. فقامت بها على خير واكفأ ما يكون فجاءت فاتحة للعبور العظيم.



العبور العظيم

*يوميات حرب أكتوبر ١٩٧٣.

*اليوم الأول : السادس من أكتوبر ١٩٧٣، الموافق العاشر من رمضان ١٣٩٣: فى هذا اليوم استطاعت القوات المسلحة المصرية أن تعبر قناة السويس. وكان ذلك فى الساعة الثانية وخمس دقائق ظهرا.. وقد نجحت فى اقتحامها للجزء الأكبر من الشاطئ الشرقي للقناة .. وفى نفس الوقت سقطت مراكزه واستحكاماته الحصينة فى أيدي القوات المصرية التى عبرت .. وفى نفس الوقت أيضا رفع جنودنا علم مصر على خط بارليف.

وقد اخفق الطيران الإسرائيلي رغم كثافته فى إعاقة تقدم قواتنا وهى تعبر .. وفى سماء المعركة اشتبكت طائراتنا مع الطائرات الإسرائيلية فى معركة عنيفة تمكنت فيها طائراتنا من إسقاط ١١ طائرة للعدو.. وفى الوقت ذاته قامت الدبابات المصرية بمعركة شرسة مع قوات العدو فى سيناء.. وفى هذا اليوم صدر الأمر من الرئيس السادات بتنفيذ خطة الردع الشامل فورا مع العدو. أما عن أسلحة قواتنا البرية على الضفة الغربية فقد كانت متنوعة وكثيرة فقد انطلق حوالى ٢٠٠٠ مدفع من أعيرة مختلفة وكذلك

* مجلة الدفاع ، عدد ١٤٧، اكتوبر ١٩٩٨، بحث بقلم : يسرى موافى نائب مدير تحرير الأهرام،

مجموعة من صواريخ أرض - أرض قامت بإطلاق كميات ضخمة من النيران لمدة ٣٥ دقيقة .. وبلغت كميات النيران ١٠٥٠٠ دانة في الدقيقة الأولى بمعدل ١٧٥ دانة في الثانية الواحدة . وتحت ستار المدفعية بدأت قوات المشاة والصاعقة تتقدمها تتحرك بـ ٧٥٠ قاربا من بور سعيد وحتى السويس (العبور للضفة الشرقية).. وتسلقوا التراب وواجهوا دبابات العدو بالأسلحة المضادة للدبابات وحاصروا النقاط الحصينة بخط بارليف.

ونذكر هنا أنه في الـ ١٥ دقيقة الأولى عبر نحو ثمانية آلاف مقاتل إلى الضفة الشرقية ، بعد الساعة ونصف الساعة أصبحوا ١٤ ألف، بعدها بخمس ساعات وصلوا ٣٣ ألف، وعندما نصبت الكباري وصلوا ٨٠ ألف مقاتل.. كانت أيضا قوات الصاعقة قد نقلت بالطائرات إلى خط المضايق وعلى محاور تقدم الاحتياطي الإسرائيلي لمنع تقدمه وقد خسرنا بعض الأفراد في هذه العملية وكشفت بعض طائرتنا . ثم جاء دور المهندسين وقد كان لهم دور كبير وخطير في هذه المعركة. فقد تمكنوا من فتح الممرات في الساتر الترابي على الضفة الشرقية. وأقاموا ٦٠ فتحة خلال ساعات، كل فتحة انهار منها ١٥٠٠ متر مكعب من الرمال بمجموعة ٩٠ الف متر مكعب.. وبعد ٨ ساعات من بدء القتال كان المهندسون قد أقاموا أيضا ٨ كبارى على القناة وكان مقررا عبور ٥ فرق وكل فرقة تحتاج إلى اثنين من الكباري لكن اثنين تعطلا وتم إصلاحهما.

وإذا كانت المعركة قد بدأت الساعة الثانية وخمس دقائق ظهرا، غير أن الرئيس السادات أراد أن يُحْدِث إرباكاً شديدا بين قادة إسرائيل فيتخبطون في تكهناتهم التخبط الذى يعطلهم عن التدبر الواضح السليم.. فعندما تلقى وهو في مركز عمليات القيادة رقم ١٠ نبأ نجاح الضربة الجوية فإنه أمر أن يذاع البيان العسكرى الأول الذى كان معدا من قبل بعناية شديدة.. ففى الساعة الثانية وعشر دقائق من بعد ظهر يوم السبت ٦ أكتوبر ١٩٧٣، صدر من

الإذاعة البيان العسكرى الأول وكان هذا نصه: " قام العدو فى الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر اليوم بمهاجمة قواتنا بمنطقة الزعفرانة والسخنة بخليج السويس بواسطة عدة تشكيلات من قواته الجوية عندما كانت بعض زوارقه البرية تقترب من الساحل الغربي للخليج وتقوم قواتنا الحالية بالتصدى للقوات المغيرة"..

.وحدث ارتباك بين قادة إسرائيل عند سماعهم لذلك البيان وأخذ يسأل بعضهم بعضا عمن أصدر أمر الهجوم . كما أن موشى ديان وزير الدفاع اتصل لاسلكيا بمدير مخابراته العسكرية يسأله عن حقيقة الأمر فى خبر الهجوم على مصر .. فى تلك الأثناء كانت عملية العبور قد تمت .. وفى الساعة الرابعة من بعد الظهر صدر البيان الأول الحقيقي وكان نصه كالآتى:" نجحت قواتنا فى اقتحام قناة السويس فى قطاعات عديدة واستولت على نقط العدو القوية بها ورفع علم مصر على الضفة الشرقية للقناة كما قامت القوات السورية باقتحام مواقع العدو فى مواجهتها وحققت نجاحا مماثلا فى قطاعات مختلفة".

أما على الجانب الإسرائيلي فإنه عندما علم ديان بعبور القوات المصرية للقناة واقتحامها لخط بارليف فإنه اعترف بالهزيمة فى سخرية ذاتية مريرة فقال:" إن خط بارليف لم يكن سوى قطعة من الجبن " الجروبير" فيه من الثقوب أكثر مما فيه من الجبن".. ثم ظهر ديان على شاشات التلفزيون الإسرائيلي معلنا:" لقد نجت القوات المصرية فى عبور القناة واستخدام الجسور عليها وأن مصر مهدت للعبور بغارات كثيفة على عدد من المواقع الإسرائيلية ".. ثم قال:" إن المعركة ستدور فى صحراء سيناء فى الأيام القادمة .. إن القوات الإسرائيلية قد تكبدت الخسائر وفقدت بعض المواقع المهمة.

*** اليوم الثاني ٧ أكتوبر.**

فى هذا اليوم تم تدمير محاولتين قام بهما العدو للتصدى لقواتنا المتقدمة شرقي القناة، وقد خسر فيها العدو ٣٠ طائرة ، و٣٢ دبابة وكثير من المدرعات .. كما استولت قواتنا على عدد من الدبابات الإسرائيلية وقد تقدمت قواتنا داخل سيناء بعد أن دعمت مواقعها على طول الشاطئ الشرقي للقناة وبعد أن تمكنت من صد محاولتين للعدو أراد بهما تعطيل قواتنا المسلحة والمشاة الميكانيكية عن التدفق عبر الجسور التى أقامتها القوات المصرية على قناة السويس .. أما فى شمال سيناء فقد تمكن المظليون المصريون مدعمين بالطائرات المقاتلة المصرية وبعض قطع الأسطول من أن تشتبك فى قتال شرس مع الإمدادات الإسرائيلية القادمة من قلب سيناء تجاه قناة السويس.

*** اليوم الثالث ٩ أكتوبر..**

دارت فى هذا اليوم معارك شرسة مع العدو، فاستطاع جنودنا تحطيم الموجات المتتابعة للهجوم المضاد الذى قام به العدو وساعد فيها مجموعة من ألويته المدرعة محاولا فى يأس أن يوقف تقدم قواتنا ففى الساعة الأولى من فجر ذلك اليوم اشتبكت قواتنا مع العدو الإسرائيلي المدرع رقم ١٩٠ ، وأشرقت الشمس لتشهد حطام كل دباباته ومدرعاته .

كما استسلم قائد ذلك اللواء ، العقيد عساف ياجورى كما أسر معه مئات من جنوده .. وإن هى إلا لحظات حتى دفع العدو بلوائين مدرعين جديدين فتصدت لهما قواتنا التى كانت موجودة فى القطاعين الأوسط والجنوبي وبعد الظهر اضطر العدو إلى الانسحاب بعد أن خسر ١٠٢ دبابة..

وإلى جانب قواتنا البرية كانت قواتنا البحرية تخوض المعارك مع القوات البحرية المعادية وكانت نتيجة المعارك إغراق ٥ زوارق للعدو ، و ٣ زوارق من مصر .. ثم قام العدو بشن غاراته الجوية على قواعدنا الجوية

الأمامية مستخدما تشكيلات كبيرة من طائرات الفانتوم وسكاى هوك، وباءت المحاولة بالخسران إذ خسر العدو ١٦ طائرة وأسر ٤ طيارين.

*** اليوم الرابع ١٠ أكتوبر.**

.... وفى مصطرع المعارك الضارية ، اضطرت القيادة الاسرائيلية إلى إحداث تغييرات فى قياداتها . فقد استدعى ٦ من القادة السابقين من الاحتياط للانخراط فى الخدمة..

فى هذا اليوم وقعت مشاهد مروعة من معارك الدبابات، إذ بدأت المعارك فى صباح ذلك اليوم فى القطاع الجنوبي للجبهة. فقد تصادمت القوات المصرية مع قوة مدرعة للعدو تخلصت فيها القوة الإسرائيلية بالفرار بعد أن تركت وراءها دبابة من طراز سنتوريون الإنجليزى، وإم ٦٠ الأمريكى وهو ما يعد أحدث ما أخرجت العسكرية الأمريكية من دبابات فى العالم. إذ يمكنها أن تعمل ليلا بالأشعة تحت الحمراء . ثم قامت المعارك فى القطاع الأوسط حيث نشب القتال بالدبابات .

وقد اضطر العدو إلى التراجع إلى ما وراء خطه الدفاعي الذى كان يتحصن وراءه على بعد ٢٠ ك.م ، إلى الشرق من قناة السويس ، ثم عاود العدو إغارته على مواقعنا الجوية غير ان نيران دفاعاتنا الجوية أرغمته على إلقاء حمولته خارج القاعدة بعد أن خسر ١٢ طائرة وفرت باقى طائرته إلى الشرق..

*** اليوم الخامس ١١ أكتوبر.**

فى هذا اليوم نشبت معارك بَرية وجوية مع العدو وهى الأعنف من نوعها منذ أن بدأ القتال .. فقد دارت أعنف معركة برية ، استغرقت طول الليل وحتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالي، اشترك فيها المئات من الدبابات والمدرعات والمدفعية الثقيلة والخفيفة وجميع ما فى حوذة الجانبين



مـــن سلاح وقد استغل العدو نشوب تلك المعركة البرية الشرسة وحـــاول أن يقوم طيرانه ليساعد قواته البرية..

غير أن دفاعاتنا الجوية تصدت لها فأسقطت منها ١٢ طائرة. وبعدها لم تعاود إسرائيل الاستعانة بالدعم الجوى لقواتها البرية .. وفى أعقاب ذلـــك أغارت طائرات العدو على بعض قواعدنا فى الدلتـــا وبـــور ســـعيد والقنـــاة فعارضتها طائرتنا وأسقطت منها أربع طـــائرات أمـــا الطـــائرات الأخـــرى فتخلصت من حمولتها ولاذت بالفرار .. ثم أعاد العدو محاولته لدخول مجالانا الجوى فى شمال الدلتا وذلك بست طائرات فانتوم فأسقطت كلها .

فى هذا اليوم وتكريما لانتصارات جنودنا وجـــه فريـــق أول أحمـــد إسمـــاعيل على القائد العام للقوات المسلحة كلمة اليهم مشيداً بهم ومذكراً لهم، قال فيها: " لقد شهد العالم كله بكفاءتكم القتالية وبطولتكم فانطلقوا أيها الأبطال لتكملوا مهمتكم لتحرير كل حبة رمل دنستها أقـــدام عدونا مهما كلفكم ذلـــك من جهود وتضحيات ومهما طالت المعركة.. يا جنودنا الأبطـــال، يـــا مـــن تقـــومون الآن بأداء أشرف المهام القتالية وتنفذون أسمى الواجبـــات حتـــى تعيدوا لمصر عزتها وكرامتها وشرفها .. وإذا كانت الإنجازات الضخمة التى حققتموها حتى الآن فى ميدان القتال تمثل خطوة كبرى على طريق النصـــر فإننا نثق فى أن تقدمكم لاستكمال تحرير أرض الوطن سيستمر بنفس القـــوة والكفاءة والشراسة وستضيفون إلى رصيد انتصاراتكم اليومية فى البر والبحر والجو ما يجعل العدو يندم بشده على أنه لم يستجب إلى المحاولات العديـــدة لحل الأزمة سلميا ".

* * *

*** اليوم السادس ١٢ أكتوبر..**

في هذا اليوم نشبت معركة رهيبة بالمدرعات في القطاع الأوسط من جبهة سيناء استمرت ثلاث ساعات فقط.. بعدها أسرع العدو بالانسحاب في اضطراب وهلع سيطر عليه، مخلفا وراءه.. حطام دباباته وعرباته المدرعة والكثيرين من القتلى والجرحى الذين دنسوا مساحات واسعة من رمال سيناء.. وكانت حصيلة هذا اليوم ٢٠ فردا بين قتيل وجريح، و٣٢ دبابة ومدرعة. وقد أدى ذلك إلى إحداث فوضى في صفوف العدو وإرباك لتفكيره التكتيكي حتى أصبح تصرفه هو الجزاف.. ولذلك فإنه عندما حاول أن يرفع من معنويات وحداته في سيناء فإنه عمد إلى استقدام تعزيزات متوالية من جنوده دفع بهم إلى ميدان القتل لا القتال.. غير أن هذه الموجات المتتالية كانت تضرب تباعا بالمدفعية الثقيلة والهجوم الجوى من مقاتلاتنا التى قصفت الخطوط الخلفية للعدو وقوافل إمداده .. هذافي الوقت الذى تمكنت فيه قواتنا الجوية ودفاعاتنا الجوية من إسقاط ١٥ طائرة للعدو منها ٧ طائرات عندما كان يحاول الإغارة على بور سعيد ، و٨ طائرات (منها ٧ هليوكوبتر) فوق ساحة القتال في سيناء.. وفي الوقت ذاته استطاعت البحرية المصرية أن تغرق ٣ زوارق صواريخ و مجموعة من قوارب الكوماندوز وذلك أثناء اشتباك جوى فوق خليج السويس.. في هذا اليوم ذرفت عين جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل بالدموع على إسرائيل المسكينة قائلة ولأول مرة: " إن إسرائيل دولة صغيرة تريد السلام وأن الحرب قد فرضت عليها".. ثم قالت :" إن إسرائيل كانت قد قررت عدم البدء في الهجوم رغم أنها كانت تعلم نيات الطرف الآخر"..

*** اليوم السابع ١٤ أكتوبر.**

.. في هذا اليوم استمر الزحف المصري في أعماق سيناء في عناد وإصرار وذلك في هجومه الشامل الذى غطى الجبهة كلها .. في صباح هذا

اليوم انطلقت القوات المصرية لتصادم العدو في قتال شرس ضد قواته المدرعة الكثيفة في محاولة منه للتمسك بالأرض التي يحتلها.. وظل القتال مستعرا طوال النهار.. وبعد ١٢ ساعة من الهجوم تمكنت قواتنا من تحرير أجزاء عديدة من الأرض على جميع خطوط المواجهة وقد خسر العدو في هذه المعركة ١٥٠ دبابة فضلا عن عدد كبير من العربات المدرعة. وقد كان لدفاعاتنا الجوية دور كبير مشهود فقد تصدت لطائرات العدو التي حاولت ضرب مدرعاتنا التي هاجمت بطول الجبهة .. وبذلك طهرت سماء المعركة من طائرات العدو وكانت الحصيلة ٢٩ طائرة منها طائرات هليوكوبتر..

وفي هذا اليوم بالذات وفي حوالي الساعة السابعة مساء أذاع راديو إسرائيل نبأ مصرع إبرا هام ماندرا القائد العام للقوات المدرعة الإسرائيلية في سيناء.

*** اليوم الثامن ١٥ أكتوبر..**

في هذا اليوم قامت قوات الكوماندوز المصرية بشن هجمات اتصفت بالجسارة والفدائية على موقع إسرائيلي منيع وراء خطوط العدو..

وقد باغتت قوات الكوماندوز الجنود الإسرائيليين وهم في موقعهم .. ونشبت بين الطرفين معركة عنيفة فقد فيها العدو أعداداً كبيرة من أفراده ومعداته .. ثم عادت القوة الفدائية إلى قاعدتها وقد أصيب بعض أفرادها إصابات محدودة ..

كما قامت القوات المصرية في القطاعين الأوسط والجنوبي من جبهة القناة بإحكام سيطرتها على المواقع التي حررتها من العدو في الهجوم الشامل في اليوم السابق.. وفي نفس الوقت هاجمت القوات المص رية في القطاع الشمالي بالمدرعات مواقع العدو الإسرائيلي وألحقت به خسائر كبيرة في الدبابات والمدرعات.

* اليوم التاسع ١٦ أكتوبر..

في هذا اليوم ومنذ الصباح الباكر كانت جبهة سيناء مسرحا لصدام رهيب رعيب بالمدرعات وصفه المراقبون بأنه: " أضخم معارك الحرب كلها ".. فقد قذف فيه كل جانب بالمئات من الدبابات والمدرعات والمدفعية



الثقيلة، كما اشتركت فيها تشكيلات من القوات الجوية ووحدات الدفاع الجوى.. وأسفر أول خيط من النهار عن اندلاع المعارك بين الجانبين وفيها استحال القطاع الأوسط إلى جحيم من النيران الكثيفة.

*** اليوم العاشر ١٧ أكتوبر..**

فى صباح هذا اليوم تطورت معارك سيناء إلى صدام بالدبابات لم يعرفه تاريخ الحروب فى العالم من قبل .. وقد اتصف هذا القتال بالشراسة والإصرار العنيد . إذ دارت المعركة بمئات الدبابات ومئات العربات المصفحة والمدرعة وبطاريات المدفعية والصواريخ المضادة للدبابات وقوات الطيران والدفاع الجوى..

ودخلت معارك الدبابات يومها الرابع وهى فى غاية العنف والضراوة ورغم فداحة الخسائر التى منى بها العدو إلا انه فى عناده كان يزج بقوات جديدة فى ساحة المعركة مثل المدرعات والمشاة الميكانيكية والمدفعية الثقيلة والمضادة للدبابات.. وأثناء المعارك ظل الطيران المصري على طول الجبهة يقصف تجمعات دبابات العدو وعرباته المجنزرة ومراكز إمداداته..

وتضاعفت حدة معارك الدبابات فى يومها الخامس حيث اقتربت من خاتمتها.

وقد شهدت الجبهة المصرية قبل وقف إطلاق النار أعنف قتال منذ بدء المعارك يوم ٦ أكتوبر فقد قذفت القوات المصرية العدو بنيران تفوق ما أطلقته خلال عدة أيام سابقة وفيها بلغت خسائره حدا جسيما لم يبلغ له مثيل..

ثم توقفت المعارك العسكرية لتبدأ المعارك السياسية لحل المشكلة سلميا وكانت النتيجة أن عادت إلينا أرضنا بأرواحنا ودمائنا بإرادتنا.. بجنودنا وقادتنا.. أجل بشعبنا.



* أزمة الثغرة .. مدلولها العسكرى والسياسى..

أزمة الثغرة وما أثير حولها ليس من حقنا ولا من عملنا أن نحللها أو نعللها فذلك عمل العسكريين وحدهم فهو حقهم وواجبهم .. وقد عرضنا في هذا آراء ثلاثة من كبار عسكريينا هم : المشير محمد عبد الغنى الجمسى

- والمشير محمد على فهمى
- والمشير محمد عبد الحليم أبو غزالة

* * *

* يقول المشير الجمسى " بداية أسقطت عملية العبور هيبة القادة العسكريين فى إسرائيل وكانوا يريدون القيام بأى فعل يحفظ لهم نجوميتهم وذكر كيسنجر فى مذكراته أنه هو كان يريد لإسرائيل أن تقوم بأى عمل على الجبهة قبل وقف إطلاق النار فأقام أكبر جسر جوى لإسرائيل من أمريكا رأسا استخدم فيه ٦٥% من قوات نقل الطيران الأمريكي إلى إسرائيل.

وقامت طائرات الاستطلاع الأمريكية بمسح الجبهة المصرية يوم ١٣ أكتوبر وكنا وقتها نستعد لتطوير الهجوم على الضفة الغربية وعبروا بقوة محددة ليلة ١٦، ١٧ أكتوبر بعد محاولة لمدة أربعة أيام وأوقف القتال يوم ٢٢ أكتوبر بقرار الأمم المتحدة ٣٨ .. وكان عدد الذين عبروا إلى الضفة الغربية قوة صغيرة لم تحقق أى تقدم ولا تعد مكسبا للعدو الإسرائيلي ، وكانت قواتنا تحاصرهم .. وزادت الثغرة حين خرقواهم وقف إطلاق النار من يوم ٢٢ وحتى يوم ٢٨ أكتوبر وتوسعوا فيها وحاولوا دخول الإسماعيلية وفشلوا .. وحاولوا دخول السويس وفشلوا .. وحاولوا قطع طريق القاهرة السويس ونجحوا .. وكانت تلك الورقة الرابحة فى يد كيسنجر فى مفاوضات فض الاشتباك الأول.

ومن الناحية العسكرية فإن الثغرة معركة ، ومع الأسف نحن أنفسنا أسأنا التعبير حين قلنا عنها "ثغرة" ثم آلمني جدا محمد حسنين هيكل حين قال عنها إنها وقعت فى مفصل الجيش الثاني والثالث وآلمني معنويا ولا يزال إلى اليوم لأنه وصف غير دقيق .. لقد كانت المعركة على الجانب الأيمن وليس على مفصل لأنه أى مفصل بين فرقتين أو كتيبتين أو جيشين لابد أن نؤمّن الأجناب وتأمين الأجناب يكون بالنيران أو القوات ونحن أمنا المفصل بين الجيشين بالقوات والنيران أما العدو فقد ضغط على الفرقة ١٦ ، والتي كان يقودها عبد رب النبي حافظ فى منطقة الدفرسوار وتمكن من اختراقها لأن العدو تقدم بفرقة مدرعة ضد الفرقة الميكانيكية .. إذن هى معركة ونجح العدو فى هذه المعركة أما تقييمها ونتيجتها فإنها لم تحقق أي هدم إستراتيجى.

لقد كان موقف الإسرائيليين فى الثغرة ضعيفا لأن القوات التى دخلت الضفة الغربية من القناة تمت محاصرتها بقواتنا من الضفة الغربية والشرقية واشتبكنا معهم بالنيران ٤٥٢، اشتباكا. فكانت خسائرهم تزداد يوما بعد يوم، وامداداتهم تقل . ولم يكن فى استطاعتهم عمل أى شئ لدرجة أنه فى محادثات فض الاشتباك عندما عرضنا عليهم عودة هذه القوات إلى خطوط مواقعها التى كانت عليها يوم ٢٢ أكتوبر ، رفضوا وطلبوا أن تعود مواقعها إلى داخل سيناء أى إلى ما كانت عليه قبل ٢٢ أكتوبر لشعورهم بضعف موقفها.

ولكنهم لم يجرؤا على التقدم بذلك رسميا .. الذى أبدى هذه الرغبة هو كيسنجر لأن المحادثات كانت تتم سواء من جانبنا أو من جانبهم عن طريقه..

ولكن فى المباحثات العسكرية فى الكيلو١٠١ شعرت بأن ما ذكره كيسنجر يعبر تماما عن رغبتهم فى سحب هذه القوات إلى داخل سيناء أفضل من سحبها إلى خطوط وقف إطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر لضعف موقفها..

أما عن النتائج الاستراتيجية لهذه المعركة الثغرة فإن الحرب بصفة عامة مجموعة من العمليات التعبوية وكل عملية من هذه العمليات تحتوى على عدة معارك عسكرية معركة جوية أو بحرية أو غيرها ولا تقاس نتيجة الحرب لأية عملية إلا بنتائجها العسكرية والسياسية ولو طبقنا ذلك على عملية الثغرة نجد أنهم لم يحققوا أى شئ من ورائها .. ولكن استغلها كيسنجر لإجراء المفاوضات بين الجانبين حتى يجد تجاوبا من الطرفين . وقيل لنا فى مرحلة من المراحل حينما استعدت قواتنا ووضعنا خطة لتدمير القوات الموجودة فى الثغرة ان الرئيس السادات أعلن أن كيسنجر طلب إليه عدم تدمير قوات الثغرة عسكريا وأنه سيحل المشكلة سياسيا .. وبالنسبة لخطة تدمير الثغرة فقد كانت موجودة وتم تعيين القائد الذى كان سيتولى تنفيذها كما تم تجهيز القوات اللازمة لها بالفعل لكن الرئيس السادات رأى بناء على طلب كيسنجر أن يتم تصفية الثغرة سياسيا بدلا من تدميرها عسكريا "..

هذا هو تصوير المشير محمد عبد الغنى الجمسى لأزمة الثغرة وكيف انتهت.

* * *

* أما المشير محمد على فهمي فإنه قال عن الثغرة :" عندما يتصرف أى إنسان بشكل طبيعي علينا ألا نندهش.. فبعد أن نجحت إسرائيل فى صد الضربات المصرية الموجهة إليها قامت بإرسال مفرزة عند منطقة الدفرسوار لأنها كانت تريد استغلال نجاحها فى صد الهجمات فحاولت تدمير حائط الصواريخ الموجود فى تلك المنطقة. وكان هذا أمرا منتظرا ومتوقعا خاصة بعد أن فشلوا فى تدميرها من الجو فأرادوا تدميرها من الأرض .. وفعلا دخلوا الدفرسوار وحطموا كتيبتى صواريخ فقط وبعض المعدات الهيكلية.

وبعدها قمنا بمناورة بالكتائب وأقمنا حزاما من كتائب الصواريخ يوفر الحمـــاية للقوات البرية وظل الحائط قائما من الشمال إلى الجنــــوب ولكنــه تقـــوس قليلا عند منطقة الجيب الإسرائيلى فدمرنا خلال المدة من ١٥ الــــى ٢٥ اكتوبر ٦٦ طائرة إسرائيلية وبعد اتفاقية فصل القوات (١٨ يناير ١٩٧٤) استطعنا تدمير ١١ طائرة أيضا.. الاسرائيليون كانوا يريدون تدمـــير حـــائط الصواريخ لكى يوفروا المعاونة لقواتهم فى الدفرسوار .. ولكن ظهرت بعـــد ذلك مشكلة قوات الثغرة فأرادوا إنهاءها سلميا بعد الخراب الذى أصابهم حتى أن كيسنجر قال للرئيس السادات فى صيغة التهديد . إذا لم تصـــــف منطقـــة الجيب سلميا وأردتم تدميرها فإن أمريكا ستحارب مع إسرائيل لأنها لن تسمح للسلاح السوفيتي بالانتصار.. ولعل هذا يكفى للرد على من كان يقول: لمـــاذا لم تنفذ الخطة "شامل" لتصفية الثغرة عسكريا"؟

أما المشير محمد عبد الحليم أبو غزالة فإنه يؤمن بأن العبرة بالخواتيم ومن ثم فإنه قال عن الثغرة: " لقد تكرر الحديث عن الثغرة وعـــن المتســـبب فيها.. ولكن أود أن أوضح شيئا هاما يجب أن يتفهمه شبابنا وهو أن المنتصر فى أى حرب أو صدام هو من يحقق أهدافه التى حارب من أجلـــها.. وهنـــا نتساءل: ألم نسترد سيناء كلها، ونسترد حدودنا الدوليـــة، ونســـترد كرامتنـــا كشعب وكقوات مسلحة.

الإجابة واضحة.. فلقد عادت سيناء إلى مصر ولنا كل السيادة عليـــها فلماذا نحاول أن نقلل من هذه الإنجازات؟

إن حرب أكتوبر انتصار بكل المقاييس لقواتنا المسلحة .. وفى كـــل حرب يكون للمنتصر والمهزوم أخطاء عليه أن يدرسها ويتعلم منها ويجـــب على القوات المسلحة أن تدرس وتحلل الحرب وتخرج بدروس منها حتـــى لا تتكرر الأخطاء".

قالوا .. عن العبور العظيم



الرئيس محمد أنور السادات

* قال الرئيس السادات فى جلسة مجلس الشعب (١٦ أكتوبر ١٩٧٣) " حاولت أن أفى بما عاهدت الله وعاهدتكم عليه قبل ٣ سنوات بالضبط من هذا اليوم.. عاهدت الله وعاهدتكم على أن قضية تحرير التراب الوطني والقومي هى التكليف الأول الذى حملته ولاء لشعبنا وللأمة.. عاهدت الله وعاهدتكم على أن نثبت للعالم أن نكسة ١٩٦٧ ، كانت استثناء فى تاريخنا وليست قاعدة.. عاهدت الله وعاهدتكم على أن جيلنا لن يسلم أعلامه إلى جيل سوف يجئ بعده منكسا أو ذليلا، وإنما سوف نسلم أعلامنا مرتفعة هاماتها عزيزة صواريها وقد تكون مخضبة بالدماء ولكننا ظللنا نحتفظ برؤسنا عالية فى السماء وقت أن كانت جباهنا تنزف الدم والألم والمرارة..

عاهدت الله وعاهدتكم وحاولت مخلصا أن أفى بالوعد متلمسا عون الله وطالبا ثقتكم وثقة الأمة..

... ...

ولست أتجاوز إذا قلت إن التاريخ العسكري سوف يتوقف طويلا بالفحص والدرس أمام عملية يوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣، حينما تمكنت القوات المسلحة من اقتحام مانع قناة السويس الصعب واجتياح خط بارليف المنيع وإقامة رؤس جسور لها على الضفة الشرقية للقناة بعد أن أفقدت العدو توازنه فى ست ساعات.

إننا حاربنا من أجل السلام الذى يستحق وصف السلام وهو السلام القائم على العدل"..

الرئيس محمد حسنى مبارك

.. لقد كان هذا الإنجاز العظيم[1] عملا بطوليا فدائيا خالصا لوجه الله والوطن.

شارك فيه كل مواطن مصري بكل ما ملكت أيمانه واستوعبت قدرته فجاءت المعركة فى اليوم الموعود معزوفة عذبة كفيلة بأن تتناقلها الأجيال القادمة من أبناء مصر بكل مشاعر الفخر والاعتزاز وبكل ولاء للوطن ووفاء للأبطال الذين حملوا رؤوسهم على أكفهم وخرجوا فى مسيرة مظفرة يذودون عن الأرض ويدافعون عن الحق ويروون بدمائهم الذكية أشجار الحرية . كما يروون للتاريخ أعظم قصص البطولة والفداء .

كان هذا العمل الرائع إذن عملا جماعيا شارك فيه كل مصرى ومصرية وتحمل مسئوليته الكبرى أحد قادة مصر العظام الرئيس الراحل محمد أنور السادات .

بطل الحرب ورجل السلام الذى قدم حياته فداء لوطنه وأمته وكرس كل قطرة من دمه لخدمة الأهداف القومية العليا. فكان عظيما فى حياته شجاعا فى مماته فلم يبال حين لقى قدره مقاتلا فى أى جنب كان فى الله مصرعه بل إنه لم يأبه للمخاطر والأهوال منذ اللحظة الأولى التى اتخذ فيها قرار الحرب. وكان كل ما يشغل فِكره ليل نهار هو مصير وطنه ومستقبل شعبه وأمته. فاستحق بهذا أن يحتل منزلة عالية فى صفوف الخالدين من أبناء مصر..

---

[1] من خطابه فى افتتاح الندوة الاستراتيجية بمناسبة مرور ٢٥ عاما على حرب أكتوبر.

كان هذا العبور العظيم إنجازا هائلا غير مسبوق فى التاريخ الحديث حققته القوات المسلحة المصرية الباسلة بالتخطيط السليم والإعداد العلمي القائم علـــى أحدث فنون العصر .. وتم هذا فى ظل ظروف قاســية بكــل معنـــى الكلمة"..

ثم يقول :" وسوف أظل اعتز - ماحييت - بالدور الذى هيـــأت لـــى المقادير أن أؤديه فى هذه المعركة الفاصلة في اللحظات الأولى التـــى بـــدأت بدك حصون العدو المنيعة وقصف مواقع القيادة والتحكم لديه وقطع خطـــوط اتصــــاله في عمق سيناء.. وتم هذا خلال ساعات معدودة مما أفقـــد العـــدو توازنه وأصابه باليأس والقنوط بعد أن كان يباهى بقوته التى لا تقهر وتفوقـــه الذى لا يجارى على الرغم من أنه كان يعتمد فى معظمــــه علـــى مصـــادر خارجية تمده بأحدث الأسلحة والمعدات بغير حساب وتقدم له الغطاء السياسي والاقتصادي والدبلوماسي حتى يبدو صاحب حق وهو يحتـــــل أرضِ الغـــير ويستمرى الإثم والعدوان"..

* * *



المشير أحمد إسماعيل على.. (القائد العام للقوات المسلحة)

قال عن حرب أكتوبر ١٩٧٣

لقد حققنا انتصاراً كبيرا بل حققنا انتصارا مضاعفا - لأنني تمكنت من الخروج بقواتي سليمة بعد التدخل الأمريكي السافر فى المعركة وكانت هذه القوات قادرة على الحرب واستمرار القتال وثابتة فى مواقعها شرق القناة.

إن شرف الانتصار فى العبور يعود إلى الجندى المصرى وشجاعته وروح الفداء المنقطعة النظير التى أبداها أثناء المعارك .



نجيـــب محفـــوظ

"الدرس الأول من ٦ أكتوبر هو الدور الـــذى لعبـــه الإيمـــان فـــى الصراع.. الأيمان عنصر جوهري في روح الأمة العربية .. إنـــها تســتيقظ وتنام، تأكل وتشرب، تجتهد وتجاهد، تتحدى وتقاتل، تخاصم وتهادن.. باســم الله ،بمناجاة الله وفى سبيل الله.

ولذلك فإن مسئوليتها حيال هذا الإيمان خطيرة باعتبارهـــا جـــزء لا يتجزأ من شخصيتها عليها أن تدعمه، أن تقيمه على أسس راســخة مضيئـــة عليها أن تنقيه من الخرافات وتصونه من الانحرافات وتسمو به إلى الدرجـــة العليا من الصفاء والنقاء"..

* * *

*** دكتور زكى نجيب محمود**

"ليت عدونا يعلم ماذا يعنى التراب المصري للمصرى.. ليته يعلم أن المصري تملكه أرضه أكثر مما يملك هو تلك الأرض ،يسافر المصري إلـــى غير بلاده أو يهاجر، لكنه أينما حل وحيثما ارتحل يشم عبير مصر، دع الدنيا بأسرها تقول عن سيناء إنها كثبان رمليه وراءها كثبان، فرمالها فـــى عيـــن المصري ليست كأية رمال .. لرمالها فى بصره ألق ، وفى أنفه شذي . قـــد يكون معنى سيناء عند العدو أن جوفها ممتلئ بالمعدن أو أنها هامش لأمـــن بلاده، ولكنها عند المصري سيناء وكفى . وسواء أكان فى جوفها معـــدن أم كـــان ذلك الجوف خاويا هى ليست عند المصري هامشا للأمـــان بـــل إنـــه يحميها بروحه كى تنعم هى بالأمان.. قد يتصور العـــدو أن تشطـــر ســـيناء شطرين، شطر له وشطر لنا ، على غرار ما تصور جده شايلوك أن يقتطع له من جسم تاجر البندقية رطلا من اللحم وفاء لدينه ولكـــن ســـيناء فـــى قلـــب المصرى كيان واحد يؤلمه أن تقتلع منه قلامة ظفر"..



* أنيس منصور

* "لم أكتب سطرا واحداً عن حرب أكتوبر ولا عظمة الاستعداد ، ولا قرار الحرب ، ولا قرار السلام ، ولا عن الرئيس السادات في مصر أوفي إسرائيل أو فى أمريكا ، ولا عن الذى سمعته منه أو الذى عرفته بعد ذلك ، ولا يعرفه الكثيرون. فالكتابة الآن عن حرب أكتوبر وشجاعة السادات، وبعد نظره لم تعد تحتاج من الكاتب إلى شجاعة أو إلى تضحية ولكنى كتبت يوم كانت الكتابة نوعا من الانتحار .. وكانت الصحف المصرية والعربية تتبارى فى الصفات التى تجئ بعد اسمى: الخيانة، والعمالة، والتصفوية، والحل المنفرد، والشعوبية، والتردى.. وكلماته كثيرة أخرى، ثم تحرم كتبي من دخول البلاد العربية سواء كتب عن الأدب والفن والرحلات والحب والفضاء وسكان الكوكب الآخر .. وأجد متعة الآن فى المرور على ما يكتبه الكثيرون الذين استنكروا حرب أكتوبر التليفزيونية التى تمت بالاتفاق مع السادات فى حق العرب لأن كبرى الخيانات هى أن يذهب إلى إسرائيل ويجلس مع اليهود وأن هذه اللقاءات مع اليهود هى التى باع فيها السادات الأمة العربية"..



واعترفوا بالعبور العظيم[1] ..

• **بن جريون .. أحد مؤسسى إسرائيل ورئيس وزرائها الأسبق:**

" وتظل إسرائيل تنتصر وتنتصر .. ثم تفقد كل شئ عند أول هزيمة ويظل العرب ينهزمون وينهزمون ثم يحصلون على كل شئ عند أو انتصار"

* * *

• زئيف شيف .. الخبير والمعلق الإسرائيلى العسكرى.

"إن حرب يوم الغفران هى الحرب الأولي التى خطط لها العرب بصورة رئيسية محاولين ألا يتركوًا أى أمر للصدف.. وهذه المره كان الاستراتيجيون العرب وراء البادرة والمباغتـه.. وقد استند تخطيطهم إلى عدة أمور: تقديرهم بأن إسرائيل وجيشها مستعدان لحرب خاطفة فقط.. وأن إسرائيل غير مؤهلة اقتصاديا للاستمرار فى التجنيد الشامل لأكثر من ٢٠ يوما،وأنها لا تستطيع أن تقاتل في أكثر من جبهة واحدة وفى محاولة من المصريين لتفهم الحالة النفسية للإسرائيليين توصلوا إلى أن الطريقة الأفضل فى جعل إسرائيل تنهار هى إيقاع خسائر كبيرة فى أرواح جنودها"..

* * *

---

[1] أخذنا هذه الاعترافات من مجلة "الدفاع"، اكتوبر ١٩٩٨، سجلها اللواء م. على حلمى علوان .

الجنرال حاييم هيرتسوج .. مدير المخابرات الإسرائيلية السابق:

لقد تمكنت المخابرات المصرية من أن تحصل على تفاصيل الخطة الإسرائيلية المضادة لأي هجوم مصري .. بل إن الخطة التي وضعتها القيادة الإسرائيلية لعبور القناة إلى الغرب بواسطة فرقة الجنرال شارون والتي تم إعدادها فى شهر مايو ٧٣ - هذه الخطة - تثبت أن المخابرات الحربية المصرية استطاعت أن تحصل عليها وتوقعت تنفيذها عند منطقة الدفرسوار.. وتم تحصين هذه المنطقة (طوال الأيام الأولى للحرب) بكثافة ضخمة من القوات المصرية وأكثر من هذا نجحت المخابرات المصرية فى الحصول على الخريطة الكودية (خريطة بالشفرة السرية) لسيناء بما فى ذلك منطقة القناة والضفة الغربية . وكانت القيادة الإسرائيلية قد طبعت تسع نسخ فقط من هذه الخريطة عام ١٩٧٣، ووضحت عليها جميع الأسماء السرية لشبكة الاتصالات الإسرائيلية. وقام المصريون بترجمة ذلك إلى اللغة العربية مما يؤكد ان خطة تأمين وسائل الاتصال والإشارة الإسرائيلية كانت فاشلة تماما خلال حرب أكتوبر الأمر الذى أدى إلى عديد من الأخطاء المأساوية. ولقد كان أحد هذه الأخطاء وراء واقعة مصرع الميجور جنرال "البرات ماندلر" قائد المدرعات الإسرائيلية فى سيناء الذى تلقى قذيفة مباشرة بمجرد أن ذكر لجونين الاسم الكودى للمكان الموجود فيه"

* * *

• **أورى بن أرى.. نائب القائد العام لجبهة سيناء:**

"إن هناك أمرا واحد اتضح فى حــــرب أكتوبــر وهــو ان الجيـــش المصري أثبت أنه جيش لا يجوز التقليل من شأنه.. ولقد برز التحســن فــى مستوى الجندي الفرد ومستوى القيادة".

* * *

عمونوئيل شيفد .. كبير ضباط المظليين وسلاح المشاة الإسرائيلى:

"لقد أثبت الجندى المصرى المشاة فى حرب الغفران أن له قدرة فائقة جــدا.. فلقد تمتع الجنود المصريون الذين وقفوا فى مواقــع بطاريــات الصواريــخ وبجانب المدافع المضادة للطائرات بالجرأة المذهلة وحاربوا وجهــا لوجــه ضد الطائرات الإسرائيلية المغــيرة عليــهم .. وكذلــك قــاتل الكومــاندوز المصريون هم والكوماندوز السوريون بضراوة وصلابة".

* * *

الجنرال الإسرائيلي ناركيس..

" ما بين غمضة عين وانتباهتها حدث ما حدث.. ليس أمامنا مفر من أن نشهد لجهاز التخطيط المصري بالبراعة.. لقد كانت خططهم دقيقة، وكان تنفيذها أكثر دقة.. لقد حاولنا بكل جهدنا إعاقة عملية العبور وردهــا بــالقوة على أعقــابها غير أننا ما كدنا نتمثل ما حدث إلا وكانت نتائجه قــد تحققــت لهم.. كأنما أغمضنا أعيننا وفتحناها فإذاهم قد انتقلوا تحت النار مــن غــرب القناة إلى شرقها ليفاجئنا يوم ٧ أكتوبر بخمس فرق كاملة أمامنا على الضفـــة الشرقية من القناة".

* * *



صحيفة :" دافار" الإسرائيلية ...

" إن الفجوة بين التوقعات و الواقع الذى نشأهذه المرة يكمن فى الحقيقة التى نسيناها وهى أن العربى لم يكن خلال الأعوام الخمسة والعشرين الماضية مقاتلا رديئا بل قاتل بشجاعة وتصميم إلا أن أصحاب الشعار: "هذه لم تكن لعبتهم" ، طمسوا هذه الحقيقة وشوهوها وكذلك تناسوا نتائج الأبحاث النفسية على الأسرى المصريين فى عام ١٩٦٧، وتلك كانت بعيدة جدا عن الاستهتار بالجندي المصر".

مجلة "الجيش" ، الأمريكية...

" إن الخطأ كل الخطأ هو أن يتصور أى إنسان أن نتائج حرب يونيو هى محصلة عطاء القوات المسلحة المصرية . فهذه القوات لديها سجل طويل حافل وغريب وتاريخ هذه الدولة العريقة يقول لنا إنها منيت مرارا بهزائم فادحة تصور الجميع بعدها أن مصر لن تقوم لها قائمة ولكن الغريب أن مصر كانت فى كل مرة تقوم قومتها لتحقق نصرا عسكريا فريدا يذهل العالم كله الذى تصور أن حضارة وادى النيل وصلت إلى منتهاها".

مـن ألبـوم البطـولات



(١)

جبـــل الفـــاتـــح

سوف تبقى أسطورة احتلال المصريين لجبل المر فى ســيناء خـــلال عمليات حرب أكتوبر حكاية تكشف عن مدى إصرار المقاتل المصرى علـــى التضحيـــة والفداء من أجل الوطن.. وجبل "المر" الذى أطلق عليه البعـــض لقب "الشيطان".. كان القلعة الحصينة التى تتمركز عليها قوات العدو لتصـــب من نيرانها على مدينة السويس خلال حرب ١٩٦٧، وحرب الاستنزاف ويبلغ طول الجبل ٨٠٥ كيلو متر، وارتفاعه ١١٧ متر وتحيط به الكثبان الرمليـــة مما يجعل صعود المركبات إليه أمرا" شبه مستحيل.. ما قصة هذا الجبـــل ؟ وكيف استطاع الأبطال المصريون احتلاله خلال معارك أكتوبر؟ .. ذلك مـــا يرويه اللواء الفاتح الكريم الذى قاد مهمة احتلال الجبل والذى أطلق اسمه فيما بعد على الجبل تكريما له..

* يقول اللواء الفاتح الكريم ": إنه بعد أن قام الجيش الثالث الميدانـــى بتنفيذ دوره فى خطة العبور العظيمة واقتحام خط بارليف الحصيـــن ،وبعـــد تطوير الهجوم لتحرير المزيد من الأراضى فى عمق سيناء كان احتلال "جبل المـــر"، إحدى المهام القتالية للجيش الثالث حيث نجحت مجموعـــة مـــن ٢٦ فردا فقط من تنفيذ المهمة بعد ٤ ساعات فقط من صدور الأوامـــر إليهـــا.. كان ذلك صباح يوم السبت ٩ أكتوبر "..

ثم يقول ": ما حدث فى قصة احتلال " جبل المر " يجعلنا نؤمن إيمانا كاملا" بأن الله تعالى كان حليفنا فى هذه الحرب المجيدة.. فلقد كانت مـــهمتى هى عبور القناة والتمركز فى منطقة الشرق.. وعند تحقيق المهمـــة الأولـــى



للفرقة أكون مستعدا للاشتراك فى صد الهجمة المضادة للعدو خلال ست ساعات.. ثم بعد وصول المركبات والدبابات أكون مستعدا لتطوير الهجوم والتقدم فى اتجاه الشرق لأستولى على "جبل المر" وكان لهذا الجبل أهمية استراتيجية خاصة حيث أنه المسيطر على مسرح العمليات..

فى صباح يوم ٩ أكتوبر ومع أول ضوء وبعد أن وصلنا ٢ كيلو متر شرق القناة ونحن واقفين على "التبة" فإذا بقائد الفرقة العميد يوسف عفيفى "آنذاك "قد وصل وحضر ضابط برتبة نقيب وأعطانى ورقة مكتوب فيها عبارة": أمر بالتحرك للاستيلاء على جبل المر".. وتحركت مجموعة من الدبابات أثارت سحابة من الغبار وعلت زمجرة الدبابات وتوقفت ومعى مساعدى المقدم على الغليض لمراجعة الموقف.. ونحن فى مركز قيادة متقدم بين الرتلين تقريبا إذا بصواريخ العدو تنهال علينا من كل جانب وعندئذ وقعت المعجزة الإلهية حيث لم تصب كل هذه الصواريخ والقذائف المنطلقة مركبة واحدة رغم أن إصابة الصواريخ تكون محققة بنسبة ٩٠ % والأكثر عجبا أن الصواريخ تنغرس فى الرمال دون انفجار.

واضطرت المجموعة إلى التوقف محتمية بإحدى التباب فأضطر إلى التوقف لأستطلع موقف قواتي وهو موقف لا نحسد عليها ويزداد مع استمرار المعركة سوءا.. فالكتيبة اليمنى محاصرة تماما من جميع الاتجاهات والكتيبة اليسرى ترجلت من مركباتها بعد تحطم هذه المركبات وتحاول مع ذلك اقتحام الجبل اللعين وبعد أن أصبح موقف اللواء بالكامل ميئوسا" منه أخذت أردد مع نفسى ": يعنى اللواء.انتهى خلاص "ويهمس آخر ": ما فيش فايده إحنا ضعنا ".. وعندئذ تحدث المعجزة صرخت فى جنودى ": لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.. يا رجال مصر.. مصر تناديكم.. يا شباب الوطن الله أكبر والعزة لله والنصر لنا .. سيروا على بركة الله ".. وتسرى فى الجنود هذه الصيحات مسرى الدم فى العروق وألمح بأعلى تبة

قريبة منا مجموعة من الجنود فأسألهم عن هويتهم فيقول أحدهم: أنا النقيب سامح يا فندم، قائد الصواريخ.. وأسأله: ولماذا لم تصعد إلى الجبل يا سامح ؟ فيجيب بحسرة: إن العربات الجيب عاجزة عن السير في الكثبان الرملية والعدو يوقع بمن يراه.. وعندئذ قلت له: أنا قائد اللواء وسأتحرك أمامك يا سامح.. وعندئذ سار معى النقيب سامح محمود ومعه الجندى الشجاع محمود محمد أبو خليفة، وهما يرددان بصوت عال: كلنا فداء لمصر.. وكانا ضمن مجموعة الصواريخ الملحقة على اللواء. وما أن وصلت إلى مسافة ٢٠٠متر فقط حتى أفاجأ بخبر سار وهو أن الكتيبة اليسرى بقيادة المقدم على الغليض تمكنت من اقتحام الجبل رغم خسائرنا الكبيرة غير أن قواهم قد أنهكت وتغوص أقدامهم فى الرمال بعد أن أوقع العدو بغالبيتهم بين قتيل وجريح.. وأخذت أحث الجنود على الصمود واستكمال المهمة..

ويلمح النقيب سامح دبابتين للعدو قادمتين من الناحية اليمنى فأصرخ: اضرب يا سامح.. وينفذ سامح.. الأمر ويطلق صاروخه وتحدث للمرة الثالثة المعجزة إذ يعتقد العدو أن المجموعة القليلة كلها مسلحة بالصواريخ فتهرب على الفور ١٣ دبابة إسرائيلية وهى تسابق الريح دون طلقة واحدة .. ويسرع الجندى محمود محمد أبو خليفة وراء دبابة منها ويأبى إلا أن يحطمها بصاروخه.. وهنا استكملت المسيرة وأعترف بفضل وشجاعة المقدم على أحمد حسن الغليض فهو السبب فى إشعال حماستى حتى شعرت كأننى أسد هصور.

ثم أشعل حماسة جنودى فأخبرهم بأن هذه المجموعة القليلة لا تقاتل وحدها.. فعلى اليسار وعلى خطوات من الجبل توجد باقى الكتائب.. فيطمئن الجميع وتزداد الحماسة فى الجنود ويواصلون زحفهم المقدس حتى وصلت المجموعة بالفعل إلى قمة الجبل - والحقيقة التى لم يكن يعلمها الجميع وربما لو عرفوها وقتها لانهارت مقاومتهم تماما.. أن القوات التى كانت على

اليسار لم تكن سوى قوات إسرائيلية تحصنت في قياداتها تحت الأرض وتتوالى الأحداث فيعتقد العدو أن قواتنا بعد أن استولت على قمة "جبل المر" واحتلته سوف تقوم بتطويقه كاملا وتدمير قواته تماما... فيسرعون منسحبين فى فوضى وانزعاج تاركين خلفهم حصونهم المنيعة..

ثم قمت بإبلاغ العميد حشمت جاد بأنه تم الاستيلاء على "جبل المر" بعد ٤ ساعات فقط من صدور الأمر باحتلاله. فقام بإبلاغ اللواء عبد المنعم واصل قائد اللواء الثالث الذى لم يكن مصدقا.. وأخذ يسأل مستوضحا عدة مرات ولكنه عندما رأى الإنجاز الرائع بنفسه ابتسم وقال: بماذا نسمى الآن جبل المر ؟ فيصيحون جميعا :" نسميه جبل الفاتح يا أفندم "..

* * *

(٢)

محمد أفندى... رفع العلم

• هو : محمد محمد عبد السلام العباسى ، من مدينة القرين محافظة الشرقية... قال محمد العباسى ": فى يوم الجمعة ٥ أكتوبر وضعوا العلم المصرى أمامنا على الأرض وصلينا عليه. وكانت خطبة الجمعة عن معركة بدر.. وتحدث الخطيب عن الاستشهاد ومنزلة الشهيد.. وبعد الصلاة كان العلم مع قائد الكتيبة المقدم ناجى عبده ابراهيم.. وجاء مندوب التوجيه المعنوى وألغيت أوامر القتال بدون تحديد موعد.. وتم توزيع وجبة إفطار ساخنة وجاءت الأوامر بالإفطار، وعرفنا أن حدثا كبيرا يستحق الإفطار.. ثم صدرت أوامر بعمل تمويه على الخطوط الأمامية بغسل الملابس الداخلية ونشرها على الشاطئ والاستحمام فى القناة.. ثم قمنا بعمليات نفخ القوارب المطاطية. وكانت الخطة أن تبدأ الحرب بغلالة نيران كثيفة ثم غارات طيرن خلف العدو، ونقوم نحن بالعبور مع عودة الطيران تحت ستائر النيران الكثيفة.. وأقسم بالله أننى شاهدت مع زملائى السماء تكتب: "الله أكبر" على السحاب واشتعل الحماس للذروة وقفزنا للقوارب وعبرنا سريعا ..

نزلت للشط وكان المفروض أن يقوم سلاح المهندسين بفتح الثغرات وتدمير الألغام والأسلاك الشائكة لكى يقتحم الجنود الدشم بعد ذلك.. وهذه لحظات خطرة والسرعة عليها عامل بالإضافة إلى إحساسنا أننا سنموت فقد كان القادة يقولون لنا قبل المعركة:

المجموعة الأولى ستعبر وتستشهد، والمجموعة الثانية ستعبر وتستشهد، وذلك تمهيدا للمجموعة الثالثة التى ستعبر وتتقدم ولذلك سيطر علينا هذا الاعتقاد وكنا على استعداد لأن نلقى بأنفسنا على الألغام لتنفجر فينا لكى

يعبر زملاؤنا إلى الدشم الحصينة.. وهذا حدث من أبطال فدائيين على طول جبهة القتال ولذلك لم أنتظر فتح الثغرات وبدأت التصرف تلقائيا دون انتظار لفتح ثغرات وقمت بنزع السونكى لتفتيش حقل الألغام المؤدى إلى الدشمة الحصينة وأضع قدمى فى المكان الذى أتاكد من خلوه من الألغام وفتحت طريقا لزملائي لأنهم تبعوا آثار أقدامى واتجهنا إلى أعلى ولكن حدث شئ جعلني أصعدُ مسرعا إلى الدشمة.. فالمفروض أثناء قيام المهندسين بفتح الثغرات أن يحميهم جنود المشاة ولكن أحد جنود المشاة أخطأ وبدلا من أن يلقى قنبلة هجومية ألقى قنبلة دفاعية.. والفرق أن القنبلة الهجومية تنفجر بمجرد ملامستها للأرض أما القنبلة الدفاعية فهى موقوته وتنفجر بعد اصطدامها بالأرض بوقت محدد.. ولذلك عندما ألقيت القنبلة الدفاعية باتجاه الدشمة لم تنفجر وإنما تدحرجت نحوها.. وهنا أدركت أنى ميت لا محالة. وكان شعورى أننى يجب ألا أموت بقنبلة مصرية..

كما أن انفجارها فى المجموعة يعنى وقوع ارتباك فى الوحدة وفرصة للعدو فى اللحظات الأولى للعبور لذلك تسلقت الساتر الترابى بأقصى سرعة وعبور السلك الشائك واقتحام حقل الألغام دون أن أهتم بأى احتياطات من التى تدربنا عليها وهى أن أتتبع أى أثر فى حقل الألغام وأستكشف الحقل بالسونكى وفوجئ بى الجنود الإسرائيليون أمامهم فأطلقت عليهم النار وقمت بالالتفاف حول الدشمة وأمر قائد الكتيبة باقى الأفراد بأن يتتبعوا آثار أقدامى إلى القمة واستولينا فعلا" على الدشمة ودمرناها.. وبفضل الله استشهد منا اثنان فقط من مجموع ١٢٠ فردا فى الهجوم الأول على القناة...

كان العلم مع المقدم ناجى عبده قائد الكتيبة ، ومعروف أن المناداة بالرتب والألقاب ممنوع أثناء المعركة ولما كنت أول من صعد إلى التبة واقتحمت الدشمة وتبعنى الجميع ورائى فقد صحت:مبروك يا ناجى.. فرد: مبروك يا عباس.. أنت صاحب العلم، فناولنى العلم وأنزلت العلم

الإسرائيـــلى ومزقته، وتخاطفه الزملاء ليحتفظ كل منهم بجزء منه على سبيل الذكرى.. وقمت برفع العلم المصرى على مدينـــة القنطـــرة شـــرق وســـط صيحات": الله أكبر" .

وكان ذلك بين الثانية والربع والثانية والثلث..

وتم إبلاغ قيادة الجيش برفع العلم على القنطـــرة ،واقتحمنــا النقطـــة الثانية فى جزيرة البلاح يوم ٧ أكتوبر صباحا وأسرنا ٢١ إسرائيليا ,, وفجرنا طائرتين فانتوم فى يوم ٨ أكتوبر وأسرنا ١٧ جنديا إسرائيليا وطيارا...

لم أعرف أننى أول من رفع العلم إلا بعد الحرب ووقف إطلاق النار لأن العلم تم رفعه على ٢٢ نقطة حصينة شرق القناة .. وهناك من رفع العلم واستشهد..

وكان الحاج حسن فهيم خطاب عضو الاتحاد الاشتراكي قد أهدى ": فيلا " بالهرم إلى القوات المسلحة ممثلة فى شخص أول من رفع العلم فأبلغت غرفة العمليات بالقيادة العامة اسمى بعد الرجوع لبيانات القتال ليتضح أننـــى أول مـــن رفع العلم .. وقد أقام لى الوزير عبد الغنى الجمسى حفـــل تكريـــم سنة ١٩٧٦ ، وحضره جميع الوزراء وكرمتنى الدولـــة والحمـــد لله بـــالحج والعمرة .. ولكن التكريم الأكبر كان من أهل بلدتى استقبلوني بعـــد الحـــرب على أول الطريق بالخيل ، بأغنية ": يا محمد أفندى رفعنا العلم "



(٣)

صائد الدبابات

• هو محمد إبراهيم عبد المنعم المصرى الشهير بمحمد المصرى من مواليد اليوم الأول من شهر يونيو عام ١٩٤٨ بمحافظة الشرقية مركز ديرب نجم يتذكر محمد المصرى يوم ٦ أكتوبر فيقول ": عبرنا الساعة الثانية والثلث بعد الظهر ضمن الموجات الأولى للعبور.. وقد عبر الجنود فى منتهى القوة والسرعة وتسلقوا الساتر الترابى فى خفة ورشاقة وكان هذا نتيجة التدريب الشاق والمستمر وفى هذه الأثناء تملكنى الخوف ليس من لقاء العدو ولا من فشل المهمة ولكنه خوف من نوع خاص وهو ألا تصيب الصواريخ المضادة للدبابات الهدف بالقدر والكم الذى تعلمته وتدربت عليه لأن التدريب كان على أشكال هيكلية وليست دبابات حقيقية بالطبع، وهو مثل خوف الطالب الذى بذل مجهودا" كبيرا فى المذاكرة عند دخول الامتحان...

لم أشتبك مع دبابات العدو يوم ٦ أكتوبر لأن طبيعة عملى هى قطع الطريق على دبابات العدو وعمل الكمائن له.. ولكن حدث لى موقف هزنى بشدة بعد تسلقنا للساتر الترابى مباشرة وهو أن قائدى المباشر المقدم شهيد صلاح حواش بمجرد وصوله أرض سيناء سجد لله شاكرا وقبل التراب فأدى ذلك لرفع روحى المعنوية وإزالة أى خوف ونجاحى فى أداء المهام التى كلفت بها بعد ذلك وقد كنا قد تمركزنا فى وادى النخيل وتبة الشجرة فى انتظار الأوامر بالتحرك ..

فى يوم ٧ أكتوبر صدرت الأوامر باحتلال إحدى التبات.. وانتظرنا دخول دبابات العدو فى المرمى المؤثر للصاروخ الذى يبلغ طوله ٨٦



سنتيمترا ، وأقصى مدى له ٣ كيلو مترات ويقطع هذه المسافة فى ٢٧ ثانية ويوجه باللاسلكى وليس بالتتشين بمعنى أننى أتحكم فى الصاروخ طوال خط سيره يمينا أو شمالا أو لأعلى أو لأسفل واستطعت إصابة أول دبابة لى مع إطلاق أول صاروخ ، وفى واحد على مائة من الثانية من لحظه اصطدام الصاروخ بالدبابة تخرج منها نافورة لهب تدخل فى الصلب لمسافة ٤٠ سنتيمترا فى حين أن سمك جدار الدبابة ٢٠ سنتيمترا، وتتولد درجة حرارة مقدارها عشرة آلاف درجة مئوية ومائة ألف ضغط جوى. فى حين أن الحديد ينصهر عند درجة حرارة ٤٠٠٠ درجة مئوية لذلك تتحول الدبابة بعد إصابتها إلى كتلة من الجحيم.

وإصابة أول دبابة أعطتنى دفعة معنوية كبيرة ، ورغبة شديدة فى تدمير دبابات العدو.. فاستطعت فى هذا اليوم وهو ٧ أكتوبر أن أدمر ٤ دبابات ، وفى يوم ٨ أكتوبر دمرت ٦ دبابات ، وهذا هو اليوم الحزين أو اليوم الأسود فى تاريخ إسرائيل.. وكان أيضا يوما غير عادى فى حياتى.. ففى أول النهار استشهد قائدى المقدم صلاح حواش أثناء اشتباكنا مع دبابات العدو. لذلك كانت روحى المعنوية منخفضة طوال هذا اليوم برغم تأديتى لواجبى على أكمل وجه.. وفى الليل حدثت لى مفاجأة لم تخطر على بال.

فى يوم ٨ أكتوبر تم أسر عساف ياجورى بعد أن تم تدمير اللواء ١٩٠ المدرع الإسرائيلى.. أما المفاجاة التى حدثت لى فإنه فى هذا اليوم الساعة الواحدة ليلا جاءنى ضابطان وأخبرانى أننى مطلوب عند اللواء حسن أبو سعده قائد الفرقة الثانية على وجه السرعة.. فذهبت إليه مرحبا وقال لى وكان لديه أحد الأسرى الإسرائيليين: إن هذا الأسير هو عساف ياجورى، وأنه قد طلب بعد الأسر كوب ماء ورؤية الجندى المصرى الذى دمر دبابته.. ففهمت على الفور أننى أنا الذى دمرت دبابة هذا القائد.. فحمدت الله على ما حققته.. وشعرت أنها رحمة من الله بى وحافزا لرفع معنوياتى بعد انخفاضها نتيجة لاستشهاد قائدى. وحتى أستطيع العمل حتى



آخر قطرة من دمى، واعتبرت أن ما قمت به فى هذا اليوم أقل واجب عزاء يمكن أن أقدمه لروح قائدى الشهيد... ثم توالت الأيام: ففى يوم ١٢ أكتوبر قمت باحتلال تبة فى وادى النخيل ودمرت ٦ دبابات، وفى يوم ١٤ أكتوبر دمرت ١٠ دبابات ، وعند هذا اليوم كنت قد دمرت ٢٦ دبابة .. ثم حدث بعد ذلك وقف إطلاق النار وذهبت إلى منطقة الجفرة بالجيش الثالث . أما تدميرى للدبابة رقم ٢٧ والأخيرة فلها قصة منفصلة: فرغم وقف إطلاق النار واحترام الجانب المصرى لذلك. إلا أن اليهود لم يحترموا هذا القرار.. وفى منطقة الجفرة كانت توجد ثلاث دبابات إسرائيلية تطلق طلقات طائشة فى أى وقت، وعلى أى شئ، وفى اتجاهنا.. وكانت قد أقيمت لها التحصينات والاستحكامات بحيث يصعب الوصول إليها فأصدر اللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش فى هذا الوقت أوامره بضرورة التعامل وإسكات هذه الدبابات الإسرائيلية.. وتم اختيارى ضمن أحسن ثلاثة موجهين لصواريخ فهد للتعامل مع هذه الدبابات.. فطلبت أن أضرب آخر واحد لأننى أحب أن أدرس الموقف بهدوء ودون تسرع والاستفادة من أخطاء الآخرين.. وتم هروب دبابتين وبقيت الثالثة مخندقة وصار من المستحيل ضربها.. وظلت لمدة ٣٦ ساعة أراقب هذه الدبابة ، وكأن هناك رباطا قويا بينى وبينها وبعد أن اطمأن أفراد دبابة العدو أن الوضع هادئ ومستقر، وأنا صابر صبر أيوب عليها.. ظهر الجزء اليسير الذى يسمح بتدميرها، وأطلقت صاروخى وأنا مصر على أن أدخله فى الماسورة.. وهذه براعة التدريب.. لأننى شعرت أننى إذا لم أفعل ذلك لا أستحق لقب ": صائد الدبابات " .. وبالفعل تم تدميرها .. وطار الخبر وفى أقل من نصف ساعة جاءنى اللواء عبد المنعم واصل ، وشد على يدى مهنئا وأعطانى عشرة جنيهات ذهبية من جيبه الخاص وقال لى ":ليس معى غيرها".. لهذه سميت هذه الدبابة ": الدبابة أم عشرة جنيه".

ولكن تدميرها كان عندى يساوى مليون جنيه لأنه ثمرة الجهد والكفاح والتدريب الشاق والمستمر ومن قبل هذا وذاك :

الإيمان بنصر الله .. وعدالة قضيتنا .. ودفاعنا المشروع عن النفس والأرض ..

(٤)

تحرير القنطرة شرق

- **الفريق فؤاد عزيز غالى:**
- **قائد الفرقة ١٨ مشاة التى قامت بتحرير القنطرة شرق ..**

* * *

قال الفريق غالى ": لتحرير مدينة القنطرة كان لا بد من تدمير لواء مدرع ، ولواء ميكانيكي وكتيبة دبابات حوالى ٢١٠ دبابة ، وكتيبة مشاة.

والعدو كان يدافع عن مدينة القنطرة ليس من مكان واحد ويتبع أسلوب دفاع مختلف عن أسلوبنا الذى ندافع به عن غرب القناة .. يدافع بما نطلق عليه عسكريا ": الدفاع خفيف الحركة"، ويستند فيه على النقاط الحصينة من خط بارليف الذى أنشأه على المياه وباستغلال قواته خفيفة الحركة من دبابات ومشاة ميكانيكى التى تعاونها قواته الجوية المتفوقة..

وهو يستند أيضا على النقاط الحصينة التى ستقوم بتدمير قواتنا فى المياه ومنعها من الوصول شرقا. والذى ينجو منا بعد العبور يحصره فى مناطق قتل ويدمره بالهجمات المضادة خفيفة الحركة.

لم أكن أريد أن أقع فى المصيدة فهاجمت النقاط الحصينة المنيعة فى القنطرة بالمواجهة بالقوات اللازمة المدربة جيدا على ذلك. هذا سهل لى أن أستولى عليها بسهولة.. وفى الوقت نفسه أجبر العدو أن يدفع احتياطاته فى اتجاه هذه الحصون.. وبذلك أتيحت الفرصة لقواتى الرئيسية التى ستقتحم من جنوب وشمال القنطرة للاندفاع شرقا لإنشاء الكوبرى وبأجنابها الداخلية وذلك بالتعاون مع باقى القوات.. ويتم إحكام حلقة حصار للعدو داخل المدينة وحلقة أخرى خارجية التى نجحت فى إنشاء رأس الكوبرى وبذلك أمكننى تحرير مدينة القنطرة والتمسك بها والدفاع عنها بما يمنع العدو تماما من استردادها.



وسارت العملية كما توقعت تماما وتمكنا فى أقل من ساعة أن نستولى على كل النقط الحصينة الموجودة فى مواجهتى وعددها ٧ نقاط، عدا النقطة القوية رقم ٣ التى استمرت لليوم التالى يوم ٧ أكتوبر.

وبعد آخر ضوء يوم ٦ أكتوبر بساعة اخترق العدو جنبى اليمين وتسللت بعض الدبابات خلف الساتر الترابى باتجاه مدينة القنطرة حيث قامت قواتى المحاصرة للمدينة بتدميرها.. وقمت بعد هذا الاختراق بإعادة تجميع كتيبتي التى استولت على النقاط الحصينة بالقنطرة وأغلقت مكان الاختراق على الجانب الأيمن ومعها جزء من دبابات اللواء الذى هاجم مدينة القنطرة ويعاونها الاحتياطى المضاد للدبابات للفرقة واللواء اليمين فى تشكيل المعركة ويعاونها نيران المدفعية والمصاطب الموجودة فى غرب القناة داخل جزيرة البلاح وفى منطقة الكيلو ٥٠ ...

كان علىّ أقوم فى أول ضوء يوم ٧ أكتوبر بالهجوم المضاد لتدمير العدو لاستعادة الجزء الذى استولى عليه .. ولكن فى أول ضوء قام العدو بهجوم قوى استغل فيه النجاح الذى حققه ليلة ٦ أكتوبر ولكن قوبل بقواتى التى احتشدت ودارت معركة من الساعة ٣٠و٦ صباحا حتى الواحدة ظهرا انتهت بتدمير الجزء الأكبر من قوات العدو واستعدنا الأوضاع التى اخترقتها قوات العدو فى اليوم السابق..

فى هذه المعركة استولينا على حوالى ٣٧ دبابة ، ثم طورت الهجوم شرقا بمسافة ٩ كيلو مترات للاستيلاء على رأس الكوبرى والتمسك به ثم تحركت إلى مدينة القنطرة ورتبت أوضاعى وحشدت القوات اللازمة لأقوم بتدميره داخل مدينة القنطرة وتحريرها والاستيلاء على النقطة الحصينة رقم ٣ ، وقبل الليل يوم ٧ أكتوبر كنا أكملنا تحرير القنطرة .

* * *

هكذا جاءت ملحمة العبور العظيم. عملاً فريداً وعظيما فى تاريخ العسكرية المصرية.

المـــراجـــع

الكتب :

١- المؤسسة العسكرية المصرية .. فــى عصــر الإمبراطوريــة ١٥٧٠ - ١٠٨٧ ق.م

تأليف : د / أحمد قدرى

ترجمة : مختار السويفى ، محمد العزب موسى

الناشر : وزارة الثقافة - هيئة الآثار

٢- كتاب تاريخ مصر : من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى

تأليف : جيمس هنرى برستد

ترجمة : د / حسن كمال

الناشر : وزارة المعارف العمومية (مصر) سنة ١٩٢٩

٣- شخصية مصر :

تأليف : د / جمال حمدان

الناشر : دار الهلال سنة ١٩٩٣

٤- استراتيجية الاستعمار والتحرير

تأليف : جمال حمدان

الناشر : دار الهلال ١٩٩٩

٥- الملف السرى لحرب أكتوبر

تأليف : محمد جبر

الناشر : كتاب الحرية ١٩٩٧

٦- يوميات حرب أكتوبر

تأليف : المشير محمد عبد الغنى الجمسى

الناشر : دار الحرية ط١ ١٩٩٢

٧- تاريخ الحضارة المصرية.. العصر اليوناني والروماني والعصر الإسلامي
تأليف : نخبة من العلماء
الناشر : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر
٨- قصة الحضارة : عصر الإيمان
تأليف : ول ديورنت
ترجمة : محمد بدران
الناشر : الإدارة الثقافية فى جامعة الدول العربية
٩- سعد زغلول :
تأليف : عباس محمود العقاد
ط١ : سنة ١٩٣٦
١٠- أبو الأنبياء : الخليل إبراهيم
تأليف : عباس محمود العقاد
الناشر : كتاب اليوم (دار الأخبار) أغسطس ١٩٥٣
١١- الصهيونية والعنصرية
إعداد : أحمد يوسف القرعى
١٢- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية
تأليف : بهاء الدين بن شداد
تحقيق : محمد محمود صبيح
١٣- سلسلة أعلام العرب : الظاهر بيبرس
تأليف : د / سعيد عبد الفتاح عاشرو
الناشر : المؤسسة المصرية العامة للترجمة والطباعة والنشر
١٤- سلسلة أعلام العرب : الناصر محمد بن قلاوون
تأليف : د / محمد عبد العزيز مرزوق
الناشر : المؤسسة المصرية العامة للترجمة والطباعة والنشر

١٥- عصر محمد على
تأليف : عبد الرحمن الرافعى
الناشر : دار المعارف
ط : ٥ سنة ١٩٧٩
١٦- البحث عن الذات : قصة حياتى
تأليف : محمد أنور السادات
الناشر : المكتب المصرى الحديث للطباعة والنشر
• المجلات :
1. مجلة المصور : عدد وثائقى ٢ أكتوبر ١٩٩٨
2. مجلة الدفاع : أكتوبر ١٩٩٨
3. مجلة أخبار الأدب : ٢٤ مايو ١٩٩٨
• الصحف :
١- لأخبار : ٢٧ / ٩ / ١٩٩٨ إلى ١/ ١٠ / ١٩٩٨ ..
مقال : الخديعة : د / صلاح قبضايا
٢- الأخبار : ٢ / ١٠ / ١٩٩٨ .. مقال اللواء فؤاد نصار ، مدير المخابرات الحربية فى حرب أكتوبر .
٣- الأهرام : ١١ يوليو ١٩٩٨ ..
مقال عزت السعدنى
٤- الأهرام : ٢٧ يونيو ١٩٩٨
مقال عزت السعدنى
٥- الأهرام : ٦ أكتوبر ١٩٩٨
٦- الأهرام : عدد خاص ٦ / ١٠ / ١٩٩٨
٧- السياسى المصرى : عدد خاص ٤ أكتوبر ١٩٩٨ .

الفهرس

ملف خرائط
حروب محمد على باشا

خريطة الحرب الوهابية



السودان المصري

في عهد محمد علي

٢٥° ٣٠° ٣٥° ٤٠°

اسوان

الشلال الاول

كروسكو

الحدود الحالية البالية

وادي حلفا

الشلال الثاني

الشلال الثالث

صحراء ليبيا

ارقو

دنقلة

الشلال الرابع

كورتي

الدبة

ابو حمد

الشلال الخامس

بربر

سواكن

صحراء بيوضة

المتمة

شندي

الشلال السادس

الحلفاية

ام درمان

الخرطوم

كسلا

مصوع

الفاشر

بارا

الابيض

دار فور

الدويم

كردفان

سنار

القلابات

الحبشة

بحيرة تسانا

الروصيرص

فازوغلي

الشلك

فاشودة

بحر الغزال

النيل الأزرق

السوباط

بحر الجبل

لادو

غندكرو

جزيرة جوانكرو (التي انتهت إليها حدود السودان المصري في عهد محمد علي)

اوغندة

يانينا
تساليا
مدللى
الأناضول
بحر
ازمير
الارخبيل
ساموس
رودس
قنديه
خانيه
كريت

جزيرة اسفاختريا

نافارين القديمة

مدخل الميناء

سفن الحلفاء

ميناء نافارين

نافارين

◄ السفن المصرية التركية

◁ سفن الحلفاء

ميناء نافارين والواقعة البحرية

(٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧)



خريطة الحرب في سورية والأناضول

ملف خرائط
حرب أكتوبر العظيم

الضربة الجوية الرئيسية للقوات الجوية يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣

البحر الأبيض المتوسط

بالوظة

رمانة

القنطرة

سيناء

الإسماعيلية

الدفرسوار

ممر الختمية

جبل أم خشيب

ممر الجدي

ممر متلا

السويس

عيون موسى

مسرح العمليات



القنطرة
الاسماعيلية
الجيش الثانى
الجيش الثالث
الدفرسوار
البحيرات المرة
السويس
بور توفيق

خريطة التسلل الإسرائيلى من ١٥/١٠/١٩٧٣ إلى ٢٢/١٠/١٩٧٣



الاختراق الامريكى للأجواء المصرية يوم ١٢/ ١٠/١٩٧٣

بالوظة
أبو دربة
بلاعيم

خريطة توضح عمليات القوات البحرية يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣



هذا الكتاب

كتاب : " العسكرية المصرية ..... من طرد الهكسوس إلى طرد اليهود "

إذ يبحث فى تاريخ العسكرية المصرية على مدار تاريخ مصر الحضارى

منذ فجر تاريخها إلى اليوم فهو إنما يقدم تاريخ أُمة وهبت نفسها

للنضال :

من أجل السلام ....

من أجل الخير ....

من أجل التعاطف الإنسانى بين الناس أجمعين فمع

العسكرية المصرية .... فى تاريخها المجيد ومس

الواعد ، بإذن الله ...

محمد عبد الواحد حجازى